مقاديرمن جفنيك

اسم الكتاب	:	مقادير من جفنيك
تأليف	:	زياد تامر
تنسيق داخلي	:	نسيمة رزين
تصميم الغلاف	:	إسلام تلي
رقم الإيداع	:	2026/8151
الترقيم الدولي	:	978-977-6955-52-3
الناشر	:	اسكرايب للنشر والتوزيع بالتعاون مع أدابيا

للتواصل معنا

scribe20199@gmail.com

+201005079256

+201099727510

دار اسكرايب للنشر والتوزيع

SCRIBE
اسكرايب
للنشر والتوزيع

جمهورية مصر العربية

حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

لدار اسكرايب للنشر والتوزيع

لا يحق لأي جهة طبع أو نسخ أو بيع هذه المادة

بأي شكل من الأشكال

ومن يفعل ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية

زياد تامر

مقادير من جفنيك

طبعة أولى 2026

ما البؤس و الشقاء إلا إرث تتوارثه الأجيال ،
أما الحب فيصطفي الله به أناسًا عن أناس.

رغبة اهداء:

إلى فايزة.

مسكينتى الغالية وفقيدتي.

التي تكبدتْ عناء الحياة والطموح.

ورحلتْ وحيدة بعد رحلة رعبٍ من الموت وحيدة.

ليتني أبكيك كما رغبتُ دائمًا أن أبكيكِ كلما تخيلتُ رحيلك.

أو به حلمتُ.

إليكِ أهدي هذا الكتاب.

فكم تقتِ أن تريني كاتبًا كبيرًا. يا غاليتى!

اهداء آخر:

- إلى البعيد النائي الذي أسـر قلبي وروحي ورحل تاركًا لي جسـدًا خاويًا، أهدي إليك هذا الكتاب على أمل اللقاء، ولكن متى اللقاء؟
- إلى أعوام عمري الضـائعة في الماضـي كانت أم في الحاضـر، أهديها هذا الكتـاب علّهـا تعطف على نفسـي التـائهـة. وترشـدني إلى طريق الهـدايـة وأحياها بعد أن عشتها دون حياة.
- إلى كل من حاول المضيّ على صراطٍ مستقيم في دنيا ملئى بسعار الجحيم.

ما قبل الاستهلال

القاهرة

عام 1928

مسرح رمسيس

لحظات تسبق فتح الستار، تجلس أم كلثوم في نشوة واعتداد فقد صارت حديث القُطر.
نظرتْ خلسة إلى القصبجي، قائد الفرقة وصاحب الفضل وهو يُلقي آخر التعليمات قبل البدء.
"المسرح مكتظ كما لم يسبق من قبل"
هكذا قالوا. أول مرة وليست أول مرة.
"سبحان من وهب!"
قال الأب، وقال المعلم بل قالوا أجمعين.
من سرادق لبيوت وقصور.
أول مرة وليست أول مرة.
عرض القصبجي عليها لحنه وعلى الفور سجلتها، توقعتْ وما توقعتْ ما توقعته بصائر.
دقات وفُتح الستار، أنّت أيدي الحضور تصفيقًا، ووقفتْ في ذهول. ياربي ما أزحم المسرح!
اعتصرتْ يديها قلقًا ورهبة وجلست على مقعدها متهاوية وقد خذلتها قدماها بعد انتهاء الأيدي من عذاب التصفيق. وبدأ العزف ويلتحم الكمان مع أقرانه.
وقفتْ، تنفستْ بعمق وبدأتْ بوجل.
إن كنت أسامح و أنسى الأسية.
تصفيقٌ حاد آخر وبدأتْ في الشدو وتفاعلت مع الجمهور.
ما أخلصش عمري.
من لوم عنيا.
دبل جفونها كتر النواح.

ودخلت دهاليز عالم عجيب ساحر لم تطأه الأقدام؛ عالم مبهم المعالم، عصيّ الإدراك، الوعي فيه مُحال، لحظاته قصار طوال واليوم فيه يقاس بالحس لا بدقات الثوان. تملكتها نشوة صافية وأعترتها فرحة الجنون. شعرتْ أنها تحب ولكن من؟ لا تدري.

فاضت شجونها.

ونومها راح.

تقول لي إنسى و أشفق عليّ.

وآجى أنسى يصعب عليّ.

لأول مرة يتأوه الحضور بطربٍ حقيقي، ما ذاقوا مثل ذلك الصوت ينساب.

جادتْ أم كلثوم كما علّمها القصبجي وحرص على إنشاء أول تخت موسيقيّ من أمهر عازفي القُطر خصيصًا لها، وجابت أركان عالمها الجديد.

جودتْ وهامتْ روحها شوقًا فهفا صوتها ورق وصدح جهورا. تجلس تحت ظلال فردوس تقطم من فاكهة الوجد، تستمع إلى الألحان والشدو وكأنها ليست صاحبة الشأن!

طوّل أنينه.

كتر العذاب.

تأوه الحضور وتزاحم صياحهم مع صوتها، تنساب أرواحهم مع وله الكلام والصوت.

أوعي تجافيني يا نور عنيا.

لاحسن بعادك يهون عليّ.

وأفاقت على أنّات الأيدي، أول مرة وليست أول مرة. وأدركتْ أنها هنا فقط قد بدأت.

استهلال

القاهرة

أواخر عام 1961

مسرح حديقة الأزبكية

اكتظ المسرح بالمستمعين ينتظرون الدقات لأنفراج الستار، متلهفين لمعرفة الوصلة التالية، يقتلون الوقت بالتسامر والتعليق على الوصلة وأداء أم كلثوم الاستثنائي تلك الليلة، يتساءل حديثو العهد بحفلات أم كلثوم عن سحر أدائها تلك الليلة عن غير ليالها وحفلاتها، بينما يبتسم الباقون برثاء، فقد كانوا رفقائها منذ بدأت الرحلة؛ منذ أواخر العشرينات إلى اللحظة الراهنة، أصبحوا أثناء المسيرة كأنهم وأم كلثوم عائلة وهم أخوة؛ يعلمون دون غيرهم بما تشعر به وهي تشدو؛ في ليال تكون هانئة فتعلو تدريجيا إلى أن تصبح والكلمات والألحان كيانًا يشدو بصوتٍ الحور العين وحدهن من يملكنه، وفي ليال تمتلكها الرهبة فتعتصر منديلها فيإن بين يديها شدوًا، وليال تكون كهذه الليلة ذات روح شجية فريدة الحزن.

تجلس أم كلثوم خلف الستار والشجن يغمرها؛ مضت أشهر فمن يصدق! تنتبه أم كلثوم من شرودها على صوت الدقات فتستعد وتلتفت إلى الفرقة تومئ لهم، وينفتح الستار وتقف أم كلثوم ردًا على تحية عشاق فنها الأصيل.

تجلس على المقعد بينما تتسارع دقات قلبها إنتظارًا للحن أن يبدأ، منذ أشهر ينتابها ذاك الشعور كلما اختارت تلك الأغنية ولكن ماله طاغ تلك الليلة! تتذكر طيفه خلف الكواليس يوم غنت لحنه لأول مرة بعد قطيعة طويلة.

بدأتْ الفرقة في العزف وصدح اللحن يملأ المسرح بكاءًا فتتنهد أم كلثوم، تنظر خلفها لتلتقي عيناها بالقصبجي يومئ لها أثناء عزفه على العود بنظرة خلف عدساته دافئة مليئة بحب لم ينضبْ رغم مرور السنين.

هدأت أم كلثوم قليلا، كم هرمتَ يا قصب! الآن لا أدري؛ أكنتُ على حق أم جنيت؟ أغفر لي، سعيي للحفاظ على ما وصلت إليه قضى على الكثير فأنظر يا قصب! كل من وصلوا

قبلي هلكوا، كلهم خبوا مع الزمن إلا أنا. خفتُ إن حافظت على وفائي لألحانك أن اخبوا معهم. أحببتني وما أحببتُ إلا نادرًا.

أفاقت حين حانت لحظة الوقوف وصفق الحاضرون بشدة لغلاوة تلك الأغنية الجديدة في قلوبهم؛ فشـــباب اليوم لا عهد لهم بألحان زكريا إلا ألحان الأربعينات التى كررت غناء بعضها في الخمسينات. أخذت أم كلثوم نفسًا ثم بدأت تشدو بتهيدة حارة.

هو صحيح الهوى غلاب؟

معرفش أنا.

قاومتْ حشـــرجة كادت تملك صـــوتها، كانت تغني بكل حواســـها، كانت الكلمات تخترق صدور الحاضرين فتئن فكلٌ له مع قلبه حكاية مريرة.

أمســـت أم كلثوم تغني كما لم تغني من قبل، دلفت أبواب عالم لا تطأه الأقدام ومضـــت تمشـي بين أوديته تتأمله؛ مضـت أشـهر على وفاة زكريا وبيرم، أهكذا فراق الأحباب؟ أما كفى كل من سبقوا؟ آه لو كنا نعلم لما لبثنا طيلة تلك الأعوام في خصام سقيم.

يا قلبى آه الحب وراه.

أشجان وألم و أندم و أتوب.

وعلى المكتوب مايفدش ندم.

لم تعِ آهات أفكارها في عالم الإبداع وهى تتلاحم مع آهات الأغنية، أطلقتْ أم كلثوم آهات لم يقدر الحاضرون فأطلقوا آهات حكاياتهم معها وبكى من بكى .

ياريت أنا أقدر أختار.

ولا كنت أعيش بين جنة ونار.

وتحتار في دنياها؛ ما من جنة عاشتها إلا وكانت نارًا لآخرين.

نهاري ليل وليلي نهار.

والتحمتْ الألحان في صراع لحظيّ ثارت معها روحها.

أهل الهوى وصفوا لي دواه.

لقيت دواه زود في أساه.

ولم تعطِ كناية عن الدواء، أبدًا كان للحب دواء فكل موصـــوفٍ يزيد الاشـــتعال نارًا. ربما كان الهجر وربما كان الإحتراق بسعيره. لا يدري أحد إلا خالق الحب وزارعه في القلوب.

يا قلبى آه.

وثار الحضور شوقًا وألمًا وقد أعادت المقطع من بدايته. ظلّت أم كلثوم تُسحر القلوب إلى أن أنهت الأغنية وأفاقت. وعلا تصفيق حاد من الحاضرين . وأسدل الستار .

هنا فقط نزلتْ دمعة حارة من أم كلثوم ولكنها على الأقل أكرمت الغائبين وستكرمهم بأداء ستظل الأجيال تحكي عنه.

القاهرة

عام 2024

مستشفى القطامية

الساعة : 10:00 مساءا

عبق المشـــفى يملأ أنفه حتى ملؤه كله، جالسٌ على الكرســي قبالة الفراش ينظر إليه والدموع متحجرة في عينيه تأبى إلا النزول ويأبى هو إلا أن تبقى متحجرة، ســكون طاغٍ على الحجرة إلا من وقع دقات قلبٍ على جهاز متصـل بأنفاس المسـجاة على الفراش، مع الوقت اتضح له أن عبق المكان ليس عبق المشفى وحده بل يسري فيه عبق الفناء، آه من الفناء كم يملأ الأركان! تنهد وأراح رأســه على يديه المرتكزة على ركبتيه يفكر ويتدبر حاله دون المسجاة، أي حال سيكون بدونها؟ أي حال سأكون بدونك؟

"يا رب" ظل يرددها منذ دخل الحجرة منذ ســاعتين، يرددها وينظر، يرددها ويفكر. رغم تلهف الممرضة والأطباء على استجوابه لكن رغمًا عنه يريد المكوث هنا أبد العمر كي يظل بجانبها يحرسها من ملائكة الموت بصمت.

ظلال شكٍ تحيطه بفنائها، لا يدري أيترك نفسه تغوص في الأعماق كي يبعد ظلال الشك؟ ولكن ألن يغيب هكذا عنها!

تتلقفه أســئلة وراء خواطر أنهت به دون وعي إلى التذكر يرى كل ما صــار أمام عينيه، ويراها!

ذاك الوجه، الذى اعتاد أن يضحك كلما رآه، الآن هو ساكن بلا خلجات، كم يتوق لرؤية عينيها المغلقتين.

يقسم لنفسه أنه لم يرَ زرقة كزرقة عينيها كأنها بحر صاف هدأ لمرآى الحبيب.

يا لصمتها! كان دائمًا يحتاج لسماع صوتها كي يهدأ كيانه والآن لا صوت فكيف له أن يهدأ في هذا الهدوء المهلك!

وقف واقترب من المسـجاة، دق قلبه كما يدق كلما شــعر بقربه منها، سـجى على ركبتيه كالعابد يقبل يدها كالإبتهالات ودموعه أبت سوى أن تسقط.

قام وجلس وتنهد، يفكر ويتدبر حاله دون المسجاة .

ليث

1

بداية ككل البدايات، بداية ككل الخلق، بداية كل فرد منا في ذلك الوجود، كانت بدايتي؛ صرخة تملأ الحجرة، صرخة تلت صرخات دامت لساعات لأمرأة تحت وطئ من الآلام.

ما أقربها من لحظة وما أبعدها! لا أدري. لو كانت لذاكرتي الحرية لتذكرتها دون جهد.

(ليث) هكذا سُميت؛ سمانى أبي بذاك الأسم على أمل أن أكون على استعداد تام لمواجهة العالم الذي جئت إليه للتو، أما أمي فكانت تلح لتغيير أول حرفٍ من إسمي ليصير غيث لأنها أرادتني أن أكون غيثا أمد يد العون لكل من محتاج يطلبه وأكون سببا لنجاة الناس من أهوالهم، لكن الأمر كان بيد أبي فهو من سجلني في مكتب الصحة.

دائمًا ما يقال أن الإبن لأمه و البنت لأبيها لكن دائما كنت أتلقى مقدار الحب ذاته من كليهما، كلٌ بطريقته؛ حب لا يشبه حُبًا عاديًا من أبوين لإبنهما.

صعبٌ الشرح وكأنهم بولادتى غمروني بكل مخزون الحب الراكد منذ سنين.

أحيانا ما كنت أميل إلى أبى أكثر حين صرت صبيًا لكونه رجلًا يفهمني دونًا عن أمي. كان يشعرني بأني أخ صغيرٌ له، كانا خير زوجين خدعا الكل بكمال زواجهما وأنا نفسي كدت أن أُخدع.

إلى أن تغير مجرى حياتى لم ينجبا غيري، ومنذ طفولتي وأنا أسمع أبي يرشي أمي بكلمة "أحبك".

كان يقولها كمن ينظر إلى لوحة لم يصدق يومًا أنه اقتناها وهى كانت دائمًا تبادله الكلمة وتضيف عليها من كلمات الحب ما يذيب وكان يسعد بقولها، ولكن وأنا في هذه السن كنت على يقين أنها تنافقه وتجامله على كلماته كأي زوجة حكيمة.

لا أدري وقتها بأي دليل أيقنت ذلك، ولكن دعنا نؤجل ذاك الحديث قليلا.

أحببت أمي بطبيعة الحال كأي رضيع، كانت تقول لي أنها بكت يوم لاحظت أن رؤيتى بدأت تضـح. قالت أني فجأة وهى تحملني ضـحكتُ ضـحكة لم تسـمع أحلى منها فعلمَتْ أني استطيع رؤيتها فبكت تأثرا.

كانوا دائما يقولون أنها تدللني ويجب بعض الحزم كي لا أُفسـد بتدليلها ولكنها دائمًا ما كانت تفترس القائلين قائلة أني دائمًا مطيع لم أطلب شـيئا كي تعطيني إياه دون جدال، تقول أن على إبنها أن ينشأ على الحب كى يصير رجلًا قادرًا على إعطائه وعلى إنشاء أسرة سوية.

كنا أصـحابًا نتكلم ونتسـامر، طالما كانت تأتي بالألعاب وتلعب معي، ورأتني يومًا أتأمل أحجية للأطفال ذات خمسـين قطعة أرنو إليها بإهتمام في محل ما وفي اليوم التالي أُفاجأ بالأحجية ذات الخمسين قطعة وأحجية أخرى ذات الفي قطعة.

قالت أركب معك أحجيتك وتركب معي أحجيتى. وقضـينا أيامًا نركبها وما إن إنتهينا حتى بروزتها وصارت تقول لكل من يشاهدها .

"ساعدني ليث، لولاه لما تمكنت من تركيبها"

فأحبها أكثر وأعشق حنانها أكثر.

وكانت دائمًا تأخذني من يدي تأبى تركها، كنت أشعر بدفء غريب من يدها.

كانت تلبس أحلى ثيابها كثياب قرنٍ فات وتأخذني لمقهى نشـرب شـيئًا، كانت تكلمني كأني راشد يسامرها. لم أسمع منها يومًا شكوى عن الحياة أو عن أبي.

كانت تستمع لأحاديثي التافهة بإهتمام وأنا أحكي لها عن شيء حدث وأنا في المدرسة.

اذكر في يوم وأنا أتناول فطيرة تفاح في المقهى أن قالت لي.

"أحبك يا غيثي"

قلت محتجًا أن إسمي ليث.

قالت لي أنها دائمًا تراني غيث وسألتُ عن الفرق في الحرف الأول.

قالت:

"ليث يعني شجاع و ذو عزيمة كالأسد بينما غيث رحيم ويساعد الناس"

قلت لها أن كلي الإسمين حلو.

أمسكت بيدي:

"لو كان بالإمكان خلق معجم جديد للغة جديدة فقط لنا؛ أدمج فيها كل الأسماء الحلوة في إسم واحد فقط لك لكرّست عمري كله لأجل ذلك"

لم أفهم ولكن شعرت بالحب في كلماتها الدافئة.

"أحبك يا أمي"

دمعت عيناها.

"وأنت أغلى الناس وأنا أيضًا أحبك فوق ما تتصور"

"وتحبين أبي؟"

"بالتأكيد"

"لما؟"

رنت كمن يتذكر شيئا.

"لأن أباك منقذي ولولاه لمتّ كمدًا، رجل بمعنى الكلمة أتمنى أن تصير مثله حينما تكبر"

تنهدتْ، كدت أسألها مما أنقذها أبي ولكن افتعلتْ المرح وسألتني.
"ما رأيك بفستاني؟"

قلت لها أنها دائمًا حلوة

"كان لأمي"

"وأين أمك؟"

رنت أمامها وقالت بصوت متهدج.

"ذهبت في رحلة طويلة، أدعو الله أن ألحقها بعد عصور فقط لأبقى بجوارك لا أفارقك"

"إلى أين تسافر؟"

"إلى الجنة حيث الله وملائكته ينتظرون الطيبين كقلبك"

"احكِي لي عن أمك"

"كانت حنونة، كانت تحتفظ بملابسها القديمة قائلة أنها تحتفظ بحبها فيها كي أنعم به لفترة طويلة ولكن لم يعد يكفي ذلك الحب الكامن في ملابسها، أرغب في ضمها وأن أقول لها كم أحبها هي وأبي"

"حين تعود قبليها وقولي لها أنك تحبينها"

ابتسمت في حنان.

"ياليت ذلك ممكنًا"

ورغم كل تلك الذكرى الجميلة أتذكر أمي ونحن وحدنا في البيت مطمئنة إلى صغر سني وأني لن أتذكر شيئًا؛

كانت تفتح صندوقا مختبئًا بين أكوام من الملابس والكتب! لا أدرى وقتها ما علاقة الملابس بالكتب! تتأمل ما فيه بعد أن تفتحه بمفتاح تعلقه في سلسلة على رقبتها وهى تكتم نهنهتها ودموعها تسيل من عينيها العسليتين وهى تسمع أغنية ذات لحن حزين لا أفهم من كلماتها شيئًا.

وفي مرة غافلتها وهي نائمة وأبي في العمل وأخذت سلسلتها الموضوعة في الكومود بجانبها كعادتها كلما تنام وذهبتُ وأخرجت الصندوق من مكنه.

توقعت أن أبكي حين أفتحه كما تفعل أمي لكن ما إن فتحته حتى وجدت صورًا؛ صورة لي وصورة لزوجين عجوزين ومعهما فتاة كانت أمي، وأخرى لرجل لا أعرفه وأخرى لأمى مع عين الرجل تحت ظل شجرة، لا أدري وقتها لما أردت تمزيقها.

كانت هناك رزمة من الأوراق لم أفهم من كلماتها شيئًا، كدت أمزق كل شيء ولكن بهدوء أعدت كل شيء إلى مكانه. لعلني لو لم أكتشف ذلك الصندوق لما أقيم جدار بيني وأمي. حاولت عمرًا أن أنكره وأهدمه.

ليث

2

بعد أعوام توقف اللحن الباكي وتوقفتْ أمي عن البكاء إن لم تكن دموعها متحجرة. كان كل شيء هادئًا ومرّت فصول الحياة متشابهة ومتناقضة ولكن الشيء الوحيد الذي لم يتغير إن استثنينا نفاق امى وحبى لها هو اشتياق الشديد لأبى، كنت دائمًا أسأل أمي حين أعود من الخارج :

"أين أبي؟"

"في العمل"

"ومتى يعود ؟"

وتربت على رأسي.

"حين يعود"

وهكذا أظل في لهفة وانتظار إلى أن يعود فأظل في أحضانه أستمد الدفء ما أمكنني، كأني أدركت بحدس ما أني سأفقد الدفء بعد حين وسأظل في برد قارس كأن الشتاء كان دائمًا داخل روحي لم يفارقها.

كان كل شيء هادئا إلى أن أحرق الشاب نفسه في تونس ذات ثورة، بدأتُ منذ تلك اللحظة أعي معنى الخوف؛ الخوف كلمة طالما سمعتها، حين بدأتُ تلك الحياة ودائمًا ما كنت أراها في أعين أمي و لكن لم أدرِ كنهه سوى تلك اللحظة، الخوف طوق النجاة للغريق ما إن يحوطك حتى يضيق ليحكم رقبتك لحد الخنق، ينقبض صدرك ويدق قلبك دقًا سريعا كأنك عدوت وجه الأرض جريًا. بدأ الخوف في تثبيت جذوره في داخلي وبدأت رحلتي معه.

كنت حينها ناهزت الثانية عشرة حين اندلعت الثورة، كان أبي فرحًا فرحة فاقت كل أفق. حين بدأ الاعتصام قرر أبي أن يأخذني معه، كان يريدني ليثًا لأكون عونًا لأمي وله. منذ أول يوم وهو في الميدان يهتف ويحمل الأعلام غير عابئ بالرصاص وكان الخوف يحتل كل شبر من جسدي.

"لا تخف نحن مع الله الحق لن يصيبنا أو من تبعه بسوء، وإن أصيب أحدهم كتبت له الشهادة وشهيد الحق حى يرزق وإن لم يُرَ"

كان يردد العبارة كلما لمح إرتجاف جسدي وأشعر بنوع من الأسى المرير؛ أيريد أن أصاب بسوء! ألا أهمه؟!

بعد أيام من الاعتصام استيقظت ليلًا وهناك بلل في ثيابي وفراشي فأيقظت أبي أخبره، امتلأ وجهه فرحة ثم أخذ يقفز فرحًا وهو يضحك في فخر ثم حملني رغم دهشتي وضمني.

بعد أن هدأت أنفاسه وسيطر على فرحته أجلسني وقال:

"اليوم اطمأننت عليك يا ليث وعلى والدتك، منذ أن جئت إلى الدنيا وأنا أتمنى أن يأتي ذلك اليوم وها قد جاء، انتظرت يوم أن تصبح رجلًا وقد أصبحت"

لم افهم.

"لقد بلغتَ يا ليث"

بدأت جذور الخوف في التحرك حتى غزتني كلي في تلك اللحظة .جاء الليل بعد أن اغتسلت في بيتنا وأعادني أبي إلى الميدان مرة أخرى، جلسنا لبرهة وكانت عيناه تشع ببريق مرعب.

"حين علمتُ اني سأصير أبًا تمنيت أن تصبح نسخة من والدتك في كل شيء إلا ضعفها، طالما حلمت بذلك. لم أخبرك قبلًا؛ حين أردت الزواج عرضتْ جدتك عليّ الكثير من البنات لكن لم تعجبني أيًا منهن حتى ذهبت إلى تلك الحديقة، كنت أتمشى يومها حتى ضللت الطريق ولم تنتشر بعد الهواتف المحمولة آنذاك فلم أستطع أن أحادث احدًا ولم أرَ أي هاتف عمومي، ظللت أسير حتى رأيت سياج الحديقة فدلفتها بفضول، رأيتها جالسة تحت تلك الشجرة مع عمها تسمع لحنها المفضل، التقت عينانا ثم دق القلب وأدركت يومها أني عثرت على شريكتي وتقدمت لزواجها ولكنها رفضت وصعقت لرفضها. كيف ولماذا؟ لم أيأس وإن خالجنى اليأس، ذهبت إلى الحديقة وكان على وجهها آثار. -ثم سكت أبي لوهلة وقد آثر عدم ذكر تلك الآثار المهمة- وقلت ببساطة (أحبك) فابتسمت ولم اصدق، ثم تزوجنا وجئت إلينا حاملا لنا بهجة الدنيا كلها"

كنت استمع اليه وأنا مأخوذ، لم يحكِ لي أحد قصة زواجهما من قبل. تابع قائلا:

"عشقتها منذ أول لقاء ونذرت عمري لحمايتها. رقيقة هشة كورقة خريف، كيف بالله ظفرت بزواجها! ولكن هي والحق يُقال طالما أخلصتْ لي بصدق ولكن لم أظفر يومًا بقلبها كأن شخص آخر قد سبقني اليه. أقصد أن روحها هي ما لم أحظ به. ولكن يكفـ.."

ثم فجأة بدأت مظاهرة من كل صوب وأخذ الكل في الهياج والصياح إلى أن سمعت صوت الرصاص وتشتت الجماعات وعمّت الفوضى ولم أدرِ إلا وأسمع صوت طلقة في صوبي.
في البدء ظننتُ أني المصاب وانتظرت السواد الذي يحتم على الميت رؤيته بعد ملك الموت ولكن لم يأتِ لا الظلام ولا ملك الموت.
اجتمعت الجموع حولي في البداية.
"حمدا لله"
"أنت بخير يا بني؟!"
أومأت في ذهول، نقطة فارقة كانت تفصلني عن الموت وكاد الساتر الرفيع بين النقيضين أن يقطع، بدت الحياة لي وهمًا ذاك اليوم وشيئًا غير مفهوم وغير حقيقي، كدت أهلك و لم أبلغ إلا اليوم. هدأت الجلبة نوعًا ما بعد أن استمتعوا بإرهابنا بالرصاص كأننا نملٌ يثير فزعنا عملاق يعتريه الملل.
لاحظت أني افترقت عن أبي، كم من الوقت غبتُ في ذهولي؟
قلت بذهول من لم يعِ بعد أنه كاد يقابل الموت.
"أريد أبي "
"ما إسم والدك؟"
أجبته، رغبتُ في العثور عليه والعودة فأنا أجبن من أن أطلب الشهادة، للحظة شككتُ أني ميت وهؤلاء أشباح ماتوا مثلي، تحسستُ قلبي ووجدته يدق إذن ماذا كان هذا السكون؟! جاء أحدهم وسألني عن أبي من جديد كأنه أراد أن يتأكد من شيء.
أجبته مؤكدا.
"لا حول ولا قوة إلا بالله"
اعترانى القلق وبدأ قلبى ينشط من نبضاته الفانية.
"لعله ليس هو، يا بني تمالك نفسك وتأمل وجه ذلك الراقد"
لم افهم، بدأت انقاد وأنا أشعر أني في عبث. ماذا يحدث؟ تجري أحداث عشوائية لا معنى لها لا استطيع فهمها.
قادوني ورأيت جسدًا مغطًى بقماش غارق في الدماء، كشف رجلٌ عن وجهه وأول ما لاحظت كان تلك الحفرة التي أحدثتها رصاصة في رأس ذلك الجسد. ياله من مسكين! هل

رأى ملك الموت أم كانت اللحظة أسـرع؟ هل شـعر بالموت أم لم يسـتطع عقله اللحاق بالأحداث.

أفقت على صـوت يسـألني إن كان هذا وجهه؟ لم أفهم مالي أنا وذاك الجسـد المسـكين الساكن!

" ليس هو"

أريد أبي كي نرحل، كدت أصيح فيهم وكلي يرتجف ولكن لا أدري ما الذى جعلني أنظر من جديد، كدتُ اسأل عن أبي ثانية بإلحاح وأنا أدعو للمسكين المرعب ولكن انعقد لساني.

وخطوت خطوتين. هكذا وبكل بساطة مات! هل سكتْ الهتاف فعلًا.

أمسكت برأسه وضممته إلى صدري ونشجت في عويل حاد. "يا أبي!"

سكت كل شيء حولى مع أن صراخ المكلومين كان يملأ الميدان فقد انسدل سواد الموت .

ليث

3

قمت بالسلام على الملكين وأنا وقوفٌ وسط جموعٍ و كلي سواد، أتأمل النعش المفتوح والجسد الراقد داخله، دموع تنحدر في صمت، خرجتُ قبل الصندوق المكفن بدوره بالعلم، يدٌ توضع على كتفي ويقول صاحبها "تذكر الله" ويدٌ أخرى "تحمّل" ويدٌ ثالثة "البقاء لله وحده". كدت أصرخ وأسأل في من، إلى أن تذكرت؛ فأسمه بعد إسمي وكان وجهه على ذلك الجسد الراقد. ظننت أنه نوع جديد من الهذيان، قلت بعد البكاء أنه لا بد وأنهم وضعوا وجه أبي على الميت أو أنه يشبهه ولكن حاولوا اقناعي أن بطاقة الفقيد تحمل نفس الإسم وأن هذا الوجه هو وجهه لا التباس فيه. كيف لبطاقة أن تحدد مصير شخص وعائلته!

سرتُ وراء النعش الذي يحمله الأقارب وبجانبي أمي متشحة بالأسود، فُتح القبر، يا رباه! كيف لهذا الذي كان يهتف بالأمس أن يُحمل دون حول ولا قوة! ظللت أرقب الجسد إلى أن واراه الظلام ثم التراب.

اثني عشرة عامًا فقط تلك كل زادي منك في الحياة، لن أراك بعد هذا اليوم، طوبى لمن شبعوا من الزاد ومن الدفء استأنسوا، طوبى لمن وجدوا السند ولم يُكسر لهم ظهر، و تسيل دموعي.

أشعر بيد على كتفي والتفت فإذا هي أمي، أصبحت رجلها الأن وما لها غيرى تستند عليه، رنوت إليها بعد أن وارى التراب أبي.

"ابتهج فقد أصبح شهيدًا"

رغم الحزن يقولون ورغم مابهم من ألم يرددون ما ليسوا هم بواعين به. كيف لإنسان فقد أباه أن يبتهج حتى ولو كان من أهل الجنة فالموت موت والحزن واجب.

ما الموت! طفقت اتساءل و لم أُحر جوابًا، مات في تلك اللحظة التي مرقت بجانبي طلقة الرصاص، أصابت رأسه فأردته شهيدًا فأصبحت إبن الشهيد. لحظة واحدة أفقدتني ما لا سأقدر على النوح عليه.

وقف أخوالي معنا لدقائق ولم ألحظ في غمرة شرودي سوى إبن خالي أديب وهو منكمش وراء والدته خائفًا من رائحة الموت المنتشرة.

في المســـاء بعد العزاء والصـــراخ والهتاف، طاولة تجمعنا نحن الاثنين، كنا في يوم ثلاثة، أغرورقت عيناي حين رأيت مقعد أبي شاغرًا.

"لا بأس يمكنك البكاء إن شئت "

"للأسف إسمى ليث لا غيث"

ليث

4

مر عامان على فراقه ولم يفارقني يومًا، مازالت ملابسي ملطخة بالأسود حدادًا، صرتُ في الرابعة عشرة، إزداد جسدي طولًا ونحولًا كما تقول أمي، وغلظ صوتي. مررت بالحيرة ذاتها والتخبطات التى يمر بها من هم في عمري ولكن الفرق الوحيد ألا أب لي ولم أملك الجرأة أن أشرك أمي فيها.

سارت الأيام على وتيرة هادئة ولكن كان هناك شيء يربكني؛ شعوري أن أمي أرتاحتْ بترملها! ما الحزن بمسيطر عليها، وحدي أنا من أحزن ووحدي من يرتدي الحداد فقد ارتدت أمي الألوان الزاهية بعد عام من رحيله وعادت مرحة بل أكثر من حالها أيام أبي.

لم أزل استذكر ما قاله لي أبي قبيل وفاته وكأنه غرز وتدة الشك المخلخلة في قلبي ليرتاح في موتته! أصبحتُ أرى بريقًا في عينيها لا أدرى كنهه، تعلل ذلك كلما أوجست مني الشك في حزنها.

"ولما الحزن فأبوك شهيد والشهيد عريسٌ يُزف في الجنة، فعلينا إذن الفرح لفرحه لا الحزن"

حينها اضطر للسكوت دائما .وأتساءل ألا تشعر بالغيرة إن غدا أبي عريساً في الجنة يُزف؟ أبي أكنتَ يومًا؟ ما أوحش الحياة من دونك! شهيد شهيد! أهذا سبب يمنع شوقي إليك ولهفتي لرؤياك! دائمًا ما يُخيل إليّ أن تلك الاثنتي عشرة عامًا ما هى إلا سراب وحلم جميل استيقظت منه بعد نوم قصير لأواجه الحياة كأنك لم تكن.

ألح على أمي الذهاب إليك لنكون ونسًا في وحشتك الأبدية.

"دعنا ننسى الحزن فذهابنا هناك يعني تأكيده"

أشعر بالوحدة رغم من حولى ولكن هناك شيء لا أدركه عن امى؛ في رائحتها، كانت رائحة أبي تختلط بعطرها ولكن أصبح عطرها له رائحة أخرى مختلفة وكأنه أصبح مزيجًا برائحة أخرى.

ليث

5

تأوهات وبكاء أبي، أصـــوات اختلطت في منامي ولم يبقَ إلا تهدج الانفاس مع أنّات ناعمة حتى اسـتوعبت أني صحوت من حلم، ظللت أسـمع تلك الأصـوات حتى تبينت صـوتًا منها كان لأمي، هي التي تتأوه. قمت فزعًا وقد ظننت أن أحدًا ما يعتدي عليها، ولكن صـوت من باطنى كالقلق جعلني أســير الهوينى حتى وصــلت إلى غرفة أمي وجعلني أفتح الباب ببطء وأرى لما تتأوه أمي.

في البدء لم أفهم ما رأيت لكن اتضـح لي ذاك المشـهد الذى لم أنسـه حتى يومنا هذا: أمي راقدة على الفراش مجردة من ملابسـها تتأوه وذاك البريق القاتل بالحياة يشـع من عينها ويعتليها رجل عار وهما متلاحمان كأنهما من جسد واحد خلقا و.

وتركت الباب.اجتاحني دوار عنيف وحاولت تمالك نفسي.

حتى الآن لا أدري كيف رجعت لغرفتي ولما لم أقتحم الغرفة وهما على تلك الحال، حاولت تفســير الـذي رأيتـه و لم أفلح في ذلـك – ولكن كان أمرا جللا، أمي في أحضـــان رجـل! اشـتعلت النيران في رأسـي لمرآى أمي عارية ذائبة في أحضـان رجل غريب. من هذا الرجل؟ لم أســتطع تبين شــكله جيدًا من فرط الذهول والدوار الذان اعترياني. نفس الصــوت جعلني أتدبر حالي لأرى كيف تصير الأمور.

ســمعتُ صــوت الباب يُفتح ثم يُغلق فأيقنت أن الرجل قد غادر، لم أســتطع النوم حتى جمعتنا المائدة على الإفطار -لاحظتُ أنها استحمت-

أنا وهي وذلك البريق، كنت واجمًا لكنها لم تلحظ من فرط ذكرى النشــوة التي اعترتها تلك الليلة، هممت بالنهوض.

"لم تأكل!"

"ليست لي شهية اليوم"

تحاشيت النظر إليها ورحلت. وأنا في المدرسة وقت الفسحة لاحظ زميلٌ لي وجومي فسألني فشرحت له المشهد دون أن أقول أنها أمي.

"رأيت المشهد في فيلم ولم أعِه"

غرق في الضحك حتى دمعت عيناه.

"هاك تودع الطفولة وأذهلك ما رأيت لحد الصمت لابد وأنك شاهدت مشهدًا من فيلم إباحي لأحدى العاهرات"

وجمدت من جراء صدمتي لوقع كلمة إباحي، هممت بضربه ولكن اعترتنى رغبة في الفهم جعلتني أسمع شرحه في إسهاب حتى أدركت كل شيء.

عاهرة! أمي أنا عاهرة! أرملة الشهيد عاهرة مشهد إباحي تتلوى كالحيوان في لحظة شهوة في أحضان رجل! أي رجل أنا أكون إذا لم اقتلهما بيديّ هاتين .

ظللت ساهمًا طوال اليوم والنيران تشتعل في رأسي حتى جمعتنا مائدة العشاء .

"ما بك؟"

وبصوت مبحوح سألت.

"لما اغتسلت هذا الصباح؟"

نظرت إليّ وقد اعتراها شك سمج.

"عادي، مثلي مثل أي شخص يغتسل"

"من هذا الرجل؟"

ليث

6

وجمتْ وأصفر وجهها وقالت بصوت مبحوح

"أي رجل تقصد؟"

وافتعلتْ ضحكة متوترة أفقدتني صوابي.

"ذلك الرجل الذي كنت بين أحضانه عارية ليلة أمس"

سـالت العبرات من عينيها وأختفى البريق أخيرًا، قامت من فورها متجهة إلى لا مكان، فقد صارت وكأنها في خطر يتهددها تجوب الشقة بهذي واضح. لحقت بها وصرخت فيها.

"لما تهربين ألم تكونى في نشوة معه؟ قولي من هو عشيقك؟"

"سأشرح لك، فقط دع لي الفرصة"

"ستشرحين ماذا أنك خنتي ذكرى أبي مع رجل وعلى فراشه؟"

بدأ نحيبها يعلو وهذيها يزداد حتى قلت وأنا في الغضب على أشده.

"تبكين! ما أنت إلا عاهرة لا تستحقين الرثاء"

ما أدري إلا وأمي تصفعني بقوة حتى اختل توازني ووقعت أرضا. كانت أول مرة أُضرب فيها. صار القدر يعبث بجنون من يمتلك تسيير الأحداث.

"إخرس! بعد كل تلك الأعوام من الحرمان والوفاء لأبيك حتى مماته وتقول لي هذا! أنت لا تعلم شـيئًا! ظننتك إبني الذي لن يظن بأمه السـوء حتى لو رآها مع الشـيطان. أبني الذي قررت أن أنسى الماضي حين رزقت برؤية عينيه، الذي سيدافع عن شرفي الذي سيخوض فيه الكثير"

يزداد نحيبها.

"يا ليتني مت! أنه زوجي الذي رأيتَه. ما اقترفت إثما أبدًا"

ساد صمت قاتل إلا من نحيبها .زوجي!

"زوجك! تتزوجين! تتركين ذكرى أبي وتتزوجين!"

ظلّت تنتحب، دمعة حارة تنحدر وأنا أقول بذهول وخيبة.

"ظننتني رجلك"

"أنت لا تعلم شيئًا"

ظللت أفكر، بات كل شيء واضحًا حول غيمٍ من الغموض، أضحت حياتي سلسلة من العبث والضلال. تتزوج من رجل وأراها بين أحضانه وببساطة تعلن أني لا أعلم شيئًا. ماذا أعلم إذن؟! وحسمت أمري.

"أنا أو هذا الرجل اختاري لو اخترته انسي أنك أنجبت إبنا"

بدا أنها هي الأخرى تكاد تفتك بالقدر لعبثه المجون. تركتني ودخلت لغرفتها.

ظللتُ راقدًا على الأرض وبدأت أدق رأسي بيدي كي أفيق، ألعن اليوم الذي جعلنا القدر فيه لعبة بين يديه، في لحظة ينهي حبًا تطلب أعوامًا من الأمومة كي تقوى جذورها وهكذا ببساطة دُمرنا أنا وأمي.

أبكي ولا أقوى على النهوض. مضت عصور وعصور وشريط الذكرى يتجسد في كل ركن من البيت لكل عصر. فتح الباب ووقفتْ أمامي.

"حسنٌ لك ما تريد"

زوجي العزيز،

لم يعد هناك من سرٍ يُخفى فقد عُرف كل شيء، دائمًا ما كنتُ أؤمن بأن سر الحب أقوى من كل شيء و أقوى من الكتمان. يبغي الجهر والإعلان .

لا تدري مدى فخري بقولي ببدء هذا الكتاب بكلمة زوجي - فخرٌ زاد فخري بلقب أرملة الشهيد- فأنت تعلم أنه طالما تمنيتُ أن تصير كذلك فأصبحتَ ولكن و أسفاه .

علم ليث بكل شيء فقد رآنا في لحظة عشق كانت بيننا.

أرجو أن ترسل لي وثيقة الطلاق في أقرب فرصة .

بلى أنا لا أستطيع فقدانك مرة أخرى لكنه إبني من رحمي خلق سأهلك إن رحل.

لا تخف سيظل حبك في قلبي وذكراك في نفسي فما نفسي إلا أنت.

إلى أبد الآبدين ستظل في القلب وإن غبت عن العين.

في كل يوم تحت ظل الشجرة سأجلس وكأنك دائمًا بجانبي ولا تنسى أنك منذ رحلت وروحي معك و أنا على يقين بأن روحك برفقتي. فكلًا منا حتم عليه أن يؤنس الآخر في وحدته بروح رفيقه.

زوجك،

منى

منى

7

مضيت في طريقي حتى جلستُ على مقعدي تحت ظل الشجرة. تلك الشجرة التي شهدتْ حكايتي منذ بدأت إلى يومنا هذا.

كان معي جهاز التسجيل القديم فشغلتُ ما حلا له الشريط من ألحان. تنزل عبراتي في هدوء فكل كلمة لها ذكرى.

لم يأتني رد من ملك. اختفى فجأة. يتلهف قلبي عليه وفي الآن ذاته وجب الفراق. تركني فجأة عائدًا لبلاده وأضحى من الصعب الحديث معه وليس معي سوى عنوانه. لا أدرى إذا مازال يقيم فيه أم صار أطلالا من القصف. هو حتى لا يملك هاتفاً محمولا. فمتى الفراق البغيض؟

أرنو أمامي وأمسك دموعًا تريد نعي حبي. سأصبح وقْفًا بعدما كنت أرملة وأتساءل أي اللقبين أرحم لي!

هبتْ نسائم الجو حاملة عبق الياسمين الذي طالما عشقته منذ الصغر حاملًا لي أجمل الذكريات وأفظعها، فالحلو منها يزيد الشقاء فظاعة.

.....

كنتُ البنت الوحيدة بين أخوين وكنت المدللة بينهما بل أكثر منهما حتى اشتعلت نار الغيرة والكراهية في أخوي منذ كنت في المهد، بلى يوجد كراهية بين الأخوة وطالما رأيت ذلك في أعينهما حين وعيت، كان أصغرهما يكبرني بعشرة أعوام.

وضحتْ كراهيتهم لي في تكسيرهم لألعابي وشدهم ضفائر شعري وضربهم غير المبرر لي منذ وعيت تحت مسمى اللعب والمزاح و لم نكن نقصد إبكائها. حتى سمعت المربية صدفة وهما على غير علم بوجودها خطتهما لتسميمي بسم الفئران داخل العصير دون علم أحد. لولا الصدفة لكنت صرت والتراب رفيقي الأبدية ولكان أخواي في السجن.

كان أمام أبوي حلين لا ثالث لهما إما إبعادي عنهما أم إبعادها عني. لم يفلح بكائهما في إدخال الشفقة إلى قلب أمي فقد خاب أملها في رجليها وما كان لأبي إلا إيداعهما في مدرسة

داخلية وفي الأعياد والأجازات يقضيانها مع أحد الأجداد ولكن سرعان ما مات الأجداد. تبرأ منهما أبواي إن لم يقولاها أمامهما أو أمام الجميع وإن كان واضحًا.

حاولتْ أمي إيداع كل حبها في تدليلي بعد أن صرتُ ذريتها الوحيدة في نظرها. لم أر إخوتي إلا حين وافت أبي المنية، وقتها حين رأيتهما كادت نيران أعينهما تحرقني فلذت بغرفتي فرارًا حتى أني لم أتمكن من توديع أبي.

دائمًا ما لاحظ أبواي. أبي تعجبي لشيخوختهما ولم أبلغ العشرينات بعد بينما كان أبى وأمي قد تجاوزا الخامسة والستين.

أفرطت أمي في تدليلي حتى لازمتها ليلا ونهارا إلى أن إصبحت حياتي فراغًا. كانت تخاف عليّ بشدة، لم تستطع تركي للذهاب إلى المدرسة وعرضة أخطار الشارع فلم ألبث سوى عامين وسجلتنى في تعليم المنازل. لا أخطو إلا وتخطو معي، يوم أنهيت الثانوية العامة أصررت على اللحاق بالجامعة ولكنها أبت فخاصمتها إحتجاجا وكادت من الحزن أن تموت من حمى أصابتها فجأة فأحجمت بأسف عن إكمال دراستي.

لم أستطع ملء حياتي، بت أنتبه إلى شرودي وأنا أتنهد، أشعر بثقلي ثقيلا رغم خوائه. إلى أن أفضيت إلى أبي.

"حبيبتى. أمك تخشى عليك. أمك مريضة بحبك. أعذريها فقد لاقت من ماضيها همومًا كادت تفتك بها وبي."

"ولكن ما الذي لاقيتم؟ لما لا تخبرونني بأي شيء؟"

"سأجد لك أفضل الحلول المتاحة فقد أعطيني يوما"

في اليوم التالي أعطاني كتابين ذوي غلافٍ خلاب فرنوت إلى أبي متسائلة.

"أظنك قد كبرتي كفاية لقرائتها"

كان كتاب **(رد قلبي ليوسف السباعي)**

ذهبتُ وقتها بالجزئين ولم أكن مقتنعة ظانة أني سأمَلّ بعد أول صفحة ولا أدري إلا وأنهيت الجزء الأول.

ما أروع القصة وما أبلغ أسلوب الكاتب! عكفت بعدها حتى أنهيت الجزء الثاني. مضى يومان وأنا في الغرفة وحين رآنى أبى ابتسمَ ابتسامة واسعة حين رآى الإرهاق باديًا على وجهي.

"لا بد وأعجبتك الرواية"

"جداً يا أبي"

ثم ابتسمتُ خجلة.

"تريدين أخرى؟"

أومأت موافقة فقد خجلت إخباره برغبتي بإقتناء رواية رومانسية أخرى، حين عاد وجدت بين يديه كتابًا فقزت فرحة فأخذت منه الكتاب.

كان كتاب **(أني راحلة ليوسف السباعي)**

صُدمت حين وجدتها رواية مأساوية، حينها لم أدرِ إلا وبؤسي يزداد، أشعر بخواء قلبي أثقالًا تؤرق راحتي. كم سهرتُ بعدها أتخيل من يظهر من العدم فقط ليحبني. أشعر به يقترب. يهمس بأسي. أشعر بأنفاسه الحانية تملأ برد الفراغ ويمد يده كي اتلقفها وأعطيه يدي. فأجدني أمد يدي للهواء.

حين أنهيت الرواية طلبت من أبي هذه المرة عدة كتب. فوجئت به يحضر لي ثلاثية القاهرة لنجيب محفوظ وخاب أملي في البداية.

"لا تحكمي أبدًا من البداية خير الحكم التوغل في البحث والحياة ليست كلها حب وإنتحار"

بعد أن أنهيتها وطلبت من أبي المزيد اشترط عليّ قبلها أن أناقشه في الكتب التي قرأتها. ومن هنا كانت بداية حبي للقراءة ومعرفتي الغرة بالحياة.

كاد يغشى عليّ من الفرح حين قرأت في الجرائد بصدور رواية جديدة لنجيب محفوظ؛ كانت رواية حديث الصباح والمساء، يومها ذهبتُ إلى الفجالة مع أمي بعد جدال وتشبثت بي بشدة وسط زحام المكتبة وأقتنيت الكتاب.

"ما رأيك بمن يخبرك خير مكان للقراءة؟"

رنوتُ إليها غير مصدقة، دائمًا ما تظل وجلة تتعجل العودة إلى البيت!

"أحفظ له هذا الجميل العمر كله"

صحبتني أمي يومها إلى تلك الحديقة وشهقت.

ما أروعها! كأنها من الجنة خُلقت، لم أصدق أن مثل هذه الحديقة موجودة في القاهرة؛ شجرٌ عملاق وثمار فاكهة وعبق الياسمين وزهور من شتى الأنواع والألوان .

"من أين لك بمعرفة مثل هذه الحديقة لم يخطر لي ببال أن بمثلها موجود على الأرض؟"

"هذا سري الخاص ورأيت أنه من الجفاء أن أضن به على جزء من روحي، لا يعرف تلك الحديقة الكثيرون لهذا احتفظت برونقها طيلة تلك الاعوام."

"لما؟"

"لأنها كالجنة يصطفي الله أناسًا وحدهم لهم الحق دون غيرهم للدخول وخاصة العشاق"

"ولكني لست بعاشقة"

ولم تجب، لم أدرك مقصدها وقتها ثم لاحظتُ إرهاق أمي وصعوبة المشي فأسندتها ومضينا لأقرب كرسي.

حبستُ أنفاسي حين رأيت تلك الشجرة، صعبٌ وصفها، أشبه بسدرة المنتهى لكن على الأرض، خيل لى أني رأيت الملائكة يطوفون حولها تبركًا منها ولنيل رضا الله.

سرتُ ببطء مع أمي إلى أن جلسنا أسفلها ونسيت أمي تماما، ظللتُ أقرأ إلى أن تعبت وتوقفت عن القراءة للحظة حسبتها عابرة ولم أدرِ أنها بمغيرة لحياتي. كيف كانت حياتي ستغدو لو كنت أكملت القراءة لدقائق قصيرة أخرى؟

رفعت رأسي عن الكتاب وشردت أتأمل إلى أن وقعت عيناي في عينيه.

لم أؤمن بالحب من النظرة الأولى إلا لحظتها حين انتابتني رجفة اعترت جسدي كله ودق قلبي بعنفٍ لذيذٍ لم أعهده. تأملته وكان جالسًا تحت شجرة مقابلة لنا يرنو اليّ، لم أعهد هذا النوع من الرجال من قبل؛ أبيض البشرة كبياض الحليب بنيّ الشعر أملسه، ذو

خضــرة في عينيه كورق الشــجر، ظننتُ يومها أنه ملكٌ من الملائكة الطوافين ظهر على هيئة البشر ليبارك لي مجيئي لهنا.
انتبهت على صـوت أمي تحثنا على الذهاب فأسـندتها، أحببتها هذا اليوم كما لم أحبها من قبل. وعدت وتركت روحي خلفي برفقته.

منى

8

ظللتُ ســـاهرة ليلتها في تفكيري عنه وفي اليوم التالي اســـتأذنت أبي وأمي للذهاب إلى الحديقة بمفردي. قالت أمي:

"لقد كبرتي. اذهبي ولكن خذي حذرك"

رنوت بصدمة وفورًا أخذت كتابي وخرجت.

أثناء سيري اعتراني قلق وخوف بالغين. أول مرة أسير في الشوارع وحدي. واعترانى خجل وندم شديدين؛ أحسست أن أبي وأمي والدنيا كلها تعلم سبب سهري وطلبى للذهاب وحدي إلى الحديقة.

ما إن دلفت الباب الحديديّ حتى نسيت كل شيء ففي الجنة تنسى كل أمور الدنيا كأنك من ماء الكوثر ارتويت.

جلســت تحت الشــجرة كيوم أمس ولكن ما جدّ أني اصــطحبت معي جهاز التســجيل الجديد المهدي إليّ من أبي في عيد ميلادي الماضي ولا أدري لما أخذته معي.

جلست وبجانبي جهاز التسجيل وعلى ساقي الكتاب وظللت أنظر حولي ثم تظاهرت بقراءة الكتاب إلى أن جاء ولم أرفع حتى رأسي كي أتأكد من مجيئه. ارتجفت وشهقت وقد ردت روحي ثانية الىّ، لاحظتُ ارتباكه.

سمعتُ نداء قلبي وأمسكت الجهاز وإلى هذه اللحظة لا أدري جدواه ثم قمت بتشغيله. ملأتْ الألحان أجواء الحديقة مع عبق الياسمين إلى أن شدى الصوت الشجي.

هو صحيح الهوى غلاب؟

معرفش أنا.

فعلًا أنا لا أدري. سرتْ رجفة ثانية حين سمعت كلمات أم كلثوم وبيرم وألحان زكريا.

جاني الهوى من غير مواعيد.

وكل مدى حلاوته تزيد.

صــدقتِ فقد هويت ذلك الملك فجأة دون ميعاد كأنه القدر الموعود وتلك ثاني مرة كأول مرة ولكن حلاوتها تختلف. و إلى الآن لا أعرفه. كيف لي أن أقع في حب شــخص لم أره إلا لدقائق؟ بأي حق قرر قلبي أن يدق له وحده وعلى أي أساس أختاره؟

ظل يرمقني مع صوت أم كلثوم فخجلت فنكست رأسي مستمعة. الآن أعترف وقتها بأني لم أكن أسمع إلا الكلمات الحلوة.

نظرة وكنت أحسبها سلام وتمر قوام.

هنا التقت عيناننا في نظرة من جديد وفاجأني وقام متجها إليّ ولم أُعر اهتماما لباقي المقطع.

أتاري فيها وعود وعهود وصدود وآلام.

وقف أمامي مادّا لي يده فأعطيته إياها دون وعي فقمت وسقط الكتاب على الأرض. أحسست وقتها أن الملائكة الطوافين يباركون لنا بإسقاط أوراق الشجر حولنا. تأملت ملامحه. لوهلة هيئ لي أني رأيت هذا الوجه من قبل، كملك حارس ظل ملازمًا لي منذ أول يوم لي في هذا الوجود. ألهذا ألفه قلبي؟

"أملك أنت؟"

"ماذا؟"

"يهيئ لي أنك ملكٌ على هيئة بشر"

"ومن حظي أني من البشر"

هكذا بدأنا الحديث.

"لماذا ترنو إليّ؟"

فضحك لتفاهة السؤال على ما يبدو.

"لا أدري. وقعت عليك عيناي وأبتا ترك وجهك."

انحنى ليمسك الكتاب ويعطنيه وكنت قد نسيت أمره.

"ما اسمك؟"

"منى"

"وأنا.."

"ملك"

"عفوًا؟"

"سأسميك ملك"

فضحك متظاهرًا بالاستنكار:

"ولكنه إسم أنثى"

"لا أرى سواه لك إسما"

وهنا أستطيع أن أقول أنه منذ تلك اللحظة بدأت قصتي.

منى

9

كانت قصـــة حبى معه الوحيدة التى خضـــتها إلا أنها كانت تقليدية، حب من أول نظرة، شـــغف وهيام وحديث لا ينتهى دام أعوامًا قلائل بدت لي من حلاوتها كأنها عمرٌ بأكمله. والأعمار دائمًا قصيرة.

كل شـيء عرفه عني وكل شـيء عرفته عنه؛ حضـر من الشـام للدراسـة وهربًا من نظام الأسد.

كانت أيامي آنذاك تفوق كل وصف، كنتُ هائمة كأني في السماوات السبع، نسمع كل يوم أغانٍ لأم كلثوم وكأننا نتحدث أغانيها تحت ظلال الشـجرة. كان حديثه ناعمًا وســاحرا. كنت أفرح حين أراه يلعب بيده على شـــعره ولا أدري لما! حركة عفوية كانت تذيبني. تفاصيل وما أحلاها إذا أعرناها إهتمامًا.

في يوم أحضر معه كاميرا وقام أحدهم بتصويرنا وطبعت الصورة في نسختين لي وله. كانت أعواما حلوة وبعيدة.

ومرض أبي ذات عام وكان واجبًا عليّ مراعاته مع أمي فإنقطعت عن جلساتنا دون إنذار. ولم يكن الواجب وحده ما منعني من اللقاء. فقد كان الخوف.

حضر إخوتي حين علموا بمرض أبي. قبل حضورهم حذرني أبي.

"أحذريهم! كل بيت قد يندس فيه خلفٌ من قابيل؛ أرادوا لك الموت بالســم منذ كنت طفلة في المهد"

فلذت بالفرار إلى غرفتي وظللت فيها عاكفة كراهبة فنى كل محبيها. فنذرت عمرها أيامًا للحزن. وأخيرًا ســمعتُ عويل أمي. نزلت عبراتي، قمت أمســكت بالكتاب، أول كتاب أحضره لي، ضممته كأني أضم أبي. اتشحت بالسواد وظللت عاكفة كأي راهبة حزينة إلى أن فُتح الباب وأطل منه وجه أخي والكره يسبقه.

"أزف الوقت للجنازة"

ســرنا ببطء وراء النعش وظللنا وقوفًا حتى وارى الثرى أبي، تمتمت بالفاتحة عليه وعلى نفسي فالحياة بعده ستكون جحيما.

من وقف أمام أخوي طوال الأربعين كانت أمي. هي وحدها من حمتني منهما إلى أن إنتهى أربعين أبي . وما انتهى أربعينه إلا وحلّ أربعين أمي.

استيقظتُ وحاولت إيقاظها فوجدتُ نفسي أهز بدنًا بلا روح، شهقت في فزع واضعة يدي على فمي. بدأتْ انفاسي تتلاحق كمن جلدها بسياط الفجيعة. بدأت اصرخ. بدأت أهذي وأشد شعري.

ماذا أفعل؟ مالي سواكِ لما تعجلتي الرحيل؟ لما نسيتِ أن لكِ إبنة ستشقى بعدك؟

أيقنت مدى هول أمري. هكذا إنتهى النعيم ومنذ تلك اللحظة يبدأ الشقاء. أخذت في النحيب. أهز بدن أمي أرجوها أن تغفر لي سخطي. أقسم لها أني سأظل حبيسة بجانبها لن أتذمر. فقط تجيب صراخي.

جاء إخواي... ودفعني واحد منهما خارج الغرفة. استعصى على رجليّ الحراك. فطفقت أزحف الأرض أبكي. لا يا أمي! لا تتركيني!

أردت تلك اللحظة أن أضم أمي أنعيها موتها. زاد عويلي. ثم أردت أن يأتي ملك كي أبكي على صدره علّ هواني يشتعل أكثر. ظللت أزحف. علّ الأرض تنشق وتأتي بشخص مجهول يضم نحيبي إلى أن أغمى عليّ.

تلاحقت الأحداث دون أن أشهدها. جاءت المغسلة مرة أخرى، تكرر المشهد جنازة ثم عزاء ثم افقت وبكيت أني لم أسر في جنازة أمي. ثم الأربعون.

في اليوم الواحد والأربعون خرجت خلسة وأخوايَ نائمين فجرًا ثم دلفت من باب الحديقة وجلست أسفل الشجرة، رغم ثوبي ذي الأكمام شعرت بالبرد من نسمات الخريف. جاء العمر و جلس بجانبي. صار يحكي لي ويندبني. يقول راحت أيام وأيام شقاء أخرى قادمة ولكني كنت على يقين بمجيء ملك كي يصرف عني هذا العمر الذى لا يمل إيلامي. ظللت أنتظر إلى أن جاء ظهرًا ووقف يتأملني في دهشة وكأنه يأس من مجيئي.

ما إن رأيته حتى جريت إليه وإرتميت في أحضانه أنتحب. ضممته بشدة كأني أضم الفقيدين.

"آه يا ملك. مات أهلي. يا ملك أنجدني من العمر يريد إهلاكي."

كنت انتحب بشدة وزاد نوحي حين شعرت بجسده يرتعش؛ كان يبكي. مسح كلانا دموع الآخر وأفهمته كل شيء وأني في حبه صادقة ولم أزهد فيه يومًا.

"مالي الآن إلاك، إن لم تأتِ لخطبتي هلكت لا محالة"

وافترقنا وما إن دلفت باب بيتي حتى تلقيت صفعة نزف لها أنفي ووقعت أرضا "أين كنت يا فاجرة"

من رهبتى صمتّ وشد شعري أخي الثاني، خفتُ فاعترفت بكل شيء.

ظللت حبيسة في غرفتي حتى سمعت جرس الباب يدق.

"يشرفني أن أطلب يد أختكم الآنسة منى"

"كان من دواعي سرورنا أن نوافق ولكنك تعلم حالة الحزن التي نعيشها وماذا سيقول الناس؟ ثم من أي عائلة أنت؟ وكما علمنا منك أنك مغترب فماذا إن تزوجتها أستترك بلادها للذهاب والعيش تحت ملك أسدكم! لن نترك إبنتنا للهلاك. وأنت حتى لا تعمل للأسف نعتذر فكل شيء نصيب."

ما إن سمعت صوت الباب يغلق نزلت دمعة حارة ترثي حالي.

ظللت شهرًا حبيسة الدار إلى أن طلبت عمي خلسة لإنقاذي فأقنع أخويّ بالذهاب للحديقة برفقته خيرًا من الحبس.

كان عمي طيبًا وعجوزا فاكتفى بذلك، حكيت له كل شيء، يوم اصطحبني إلى الحديقة أول مرة بعد الإفراج عني، أشرت له ناحية ملك.

"هذا هو؟"

أومأت بالإيجاب.

"إذهبي إليه إن شئتِ أنا منتظرك"

ذهبتُ تحت ظلال الشجرة فأتاني منكسًا رأسه لفشله، تورقت عيناى وعيناه.

"سأعود إلى الشام، أنهيت دراستي وانتظرت هنا فقط لأراكِ وأودعك، لولا الشهامة لقلت لك أهربي معي إلى بلادي"

ابتسمت في مرارة وقد أصبحت مثل بطلات الروايات البائسات.

"أترضاها لأختك؟"

"منك تعلمت أنك أخت لي حتى نظفر بالزواج فلهذا أنا لا أرضاها لك"

ابتسمت في مرارة. مد يده ومسح أدمعي فجادت عينانا بالدمع أكثر.

"صورة منكَ لي ستكون كل زادي في الحياة القادمة. وأني لأشك أنها حياة."

وكأنه كان على علم أعطاني صورة له كانت في جيب سترته.

"لتظل روحي معكِ على الدوام"

ثم قال.

"أحبك"

"ما أحببت أحدًا من قبلك ولن أحب أبدًا من بعدك"

أمسكت بيده مرة أخيرة وتمتمت.

"كنتَ حياة رائعة."

قبّل يدي وأكرمني بدموعه تباركها.

"كنتِ أنا. كنتِ نفسى بعد تيه"

همّ بالرحيل.

"ما إسمك؟"

ضحك. لتفاهة السؤال على ما يبدو.

"مجد"

"أحبك"

قالها لي بعد أن رفضته -رغم رغبتي العارمة في الفرار من سجن إخوي وضربهم لي- فقد عاهدت نفسي ألا أهبني لأحد سوى لملك أو مجد كما يسمى.

رآني في الحديقة مع عمي وأنا أسمع أغنيتنا أنا وملك ثم تقدم لخطبتي فرفضت. لم أدر كيف واتتني الشجاعة وقدرة التحمل حين قلت لا.

كانوا قد بدأوا في قراءة الفاتحة حين خرجت وقلت أن لا. مازلت في حزن فيحرم عليّ الفرح وأني راغبة في الإلتحاق بالجامعة.

ضُربت كما لم أُضرب من قبل حتى أفقت في المستشفى وقيل لى أنى أُصبت بصدمة عصبية تخشب لها جسدي. أفهم أخواي الطبيب أني كدت أتعرض للخطف وما تلك الإصابات إلا مقاومة مني وفي الأخير تركوني مرمية في الشارع. لم يقتنع الطبيب وكاد يبلغ الشرطة لكن بالمال إنمحى شك الطبيب.

بكى عمي بشدة حين رآني على تلك الحال.

ظللت أيامًا عديدة حتى أقنع عمي أخوتي من جديد بالنزول معه وهناك قابلت محمد من جديد، إصراره وذهابه إليّ في الحديقة ليعترف لي بحبه هزني من الأعماق وكأني أرى ملك. رغمًا عني ابتسمت فوافقتُ فتقدم لخطبتي ثانية بعد أن اخبرته لأن يخبر أخويّ أنه ما أتى ثانية إلا للسمعة الطيبة. ولم يُجب وكأنه أدرك ذُل أخوتي لي بل لابد وقد رأى آثار الكدمات على وجهي.

"ثقي أني سأحافظ عليك وأراعي الله فيك"

مثّلت أني وافقت مضطرة وكتب كتابي.

ليلة الزفاف الصامت وواحدة من الأقارب تربط لي الترحة.

سامحني يا ملك إغفر لي خيانتك، قد عاهدت الذات أن أحفظها إلى أن نزف إلى الجنة ولكن هلكتُ إذا قلت لا وأخشى قولي لها إنتحارا فيعذبنى الله ولا ألقاك في الجنة. إن لم أكن عذراء الجسد سأكون عذراء النفس فنفسي لن تلتقى إلا مع نفسك.

وتزوجت وتحررت ووفى زوجي بوعده.

كانت حياتي روتينية وأنا زوجة إلى أن وقعت مغشيا عليّ.

"مبارك أنت حامل"

لم استوعب، تحسستُ بطني يومها فأحسست بشيء مختلف، شعرت وكأن يدًا تلامس يدي من داخلي. ظللت أنتظر شهورًا على شوقٍ لأرى مولودي صاحب اليد، كنت على يقين أنه ولد.

حافظت على نفسي إلى أن جاء موعد اللقاء.

اعتراني ألم شديد في جسدي كأن عظام الحوض تتكسر، صرخت بأعلى صوت، دامت صرخاتي لساعات حثني زوجي فيها على الذهاب إلى المستشفى لكني رفضتُ خوفا على مولودي حتى هدأت والعرق يغطيني.

"أنجبتي ولدًا"

ابتسمت رغم الإعياء، كان صوت صراخه الأول أشدى إليّ من صوت أم كلثوم، أعطونيه بعد أن نظفوه وأحتضنته. سقطت دموعي حارة لحظتها

"غيث. ستكون زادي في الحياة أنت الروح والدنيا بأكملها"

لكن أصرّ محمد أن نسميه ليث فوافقت على مضض.

أثناء حملي كنت قد جلبت صندوقًا خبأته بين خليط من الملابس والكتب بداخله صورنا أنا وملك وأضفت فيه صورة ليث بعد أن أتم الثلاث سنوات وصورة لي مع أبوي. كنت كلما اعتراني الشوق إلى ملك وأهلي أجلب الصندوق وأفرغ محتوياته أثناء غياب زوجي وأنا اسمع أغنيتي المعهودة وأبكي وحين كبر ليث أصبحت أفعل ذلك أثناء غيابهما معًا.

كانت حياتي طبيعية إلى أن استشهد زوجي في الثورة.

مات المنقذ قبل أن أوفي دينه. تحملت ألم فراقه في صمت. وبت كل عام أتصدق على روحه. رفضت وقتها العودة إلى العيش مع إخوتي فلم يعد لهم عليّ سلطان وأصررت على العيش مع ليث وحدنا.

حين هدأت الأجواء قليلًا ذهبت للحديقة حين سمحوا للطلاب للعودة إلى مدارسهم. كنت أحضر معي كتاباً أقرأه إلى أن يحين موعد الغذاء فأعود وأحضر الطعام إلى أن يعود ليث ونأكل سويا.

في يوم كان كل شيء هادئًا في الحديقة وكنت وحدي تقريبا فالعشاق خائفون لا مكان لهم أثناء الثورة.

هو صحيح الهوى غلاب؟

لم أصدق أذني! لم أحضر معي جهاز التسجيل القديم فمن أين تأتي الأغنية؟

رفعت رأسي وكأنه أول يوم.
عدتُ بنتًا خجلة بِكرًا.
التقت عيناي بعنينه الخضــراوان والمشــهد يتكرر، رجفة تســري في جســدي ويدق قلبي بعنف. في البدء بدا لي الجنون ولكن أنّى للجنون أن يشكل وجها كوجهه وخضرة كخضرة عينيه؟
"ملك"
وقع الكتاب على الأرض وأنا أجري لأرتمي في أحضـانه، نسـيت كل شـيء لحظتها حتى ليث. سـمحت له وقتها فتسـقط شـفتاه فوق شـفاهي في قبلة تبللها دموعنا فيسـري الهدوء في جسدى وروحي بعد أن هدأت نار الشوق.
سألته بعد أن جلسنا.
"لا تدري جم سعادتي ولكن لما عدت بعد كل تلك الأعوام؟"
"وضـع البلد في سـوريا لا يسـمح بالحياة، لقد جئت هذه المرة لاجئا، لو تدرين كم كابدت من مخاطر فقط للخروج من الحدود"
ذبحت تلك الجملة قلبي.
تقابلنا بعدها لأيام إلى أن اتفقنا.
أخبرته عن زواجي واسـتشـهاد زوجي وعن إبني. كان قد مر عام ونصـف على اسـتشـهاد محمد.
أخبرت عمي العجوز فكان شـــاهدًا من الشـــهود على عقد زواجنا، أخفيت الخبر عن الجميع حتى عن ليث. لو علم الناس أني تزوجت مرة أخرى ستكون نهايتي.
وليث! كنت قد نسـيته في غمرة شـــوق وفرحتي بل نسـيت أنه ينبغي عليّ إظهار بعض الحزن.
تلك الليلة المشـئومة! وهبت لملك نفسى كما لم أفعل من قبل، ليلتها كنت على اسـتعداد للنوم فســمعت الباب يدق، تعجبتُ حين فتحته فوجدت ملك فقد كان من المفترض أن يأتيني أثناء غياب ليث لكنه فاجأني تلك الليلة، حاولتُ أن أخبره أن يعود من حيث أتى لكنه باغتني بتقبيله لي.
لا أدري كيف ومتى وجدت نفسي في غرفتي وملك يعتليني برفق وشغف فأثارني فأثرته ولم أعلم أنها آخر ليلة.

اتنهت على صوت الصمت بعد أن أنهت ام كلثوم وصلتها ودوى التصفيق ورحل الحضور ودارت دورة الحياة.

بعد تلك الليلة سافر ملك إلى الشام مرة أخرى لسببٍ لم أعلمه إلى الآن ثم بعثت له إلى عنوانه في الشام الذي أعطاني إياه بخطابي معلنة الإنفصال.

عدت إلى البيت وحضّرت الطعام وجمعتنا المائدة أنا وليث. لا أدري كيف في غمرة نشوتي أهملته!

أبتسمُ في مرارة. دعينا لا نكذب فمنذ أول يوم عاد فيه ملك إلى مصر وأنت تضعين ليث في حسبانك وتخافين أن يقتحم عليك حياتك فماذا جنيتي! فقد كان ما كان وخسرتي كل شيء، تسقط عبراتي بهدوء وأنا الوك الطعام وأنظر إلى ليث.

وجهه جامد. دعنا نعترف فقد خسرنا بعضنا يا بني؛ خسرتك حين رأيتني في لحظة نشوة وخسرتني حين نعتّني باللفظ الشائن. شيء ما بيننا قد انكسر وصعب جمع شتاته مخافة أن ينجرح أحدنا من شظايا ذاك الذى كُسر بيننا.

فجأة شعرتُ بالغثيان فأسرعت إلى الحوض لأفرغ ما بجوفي. رمقني ليث بفزع لا عليّ بل من الذى في تلك اللحظة شككتُ في أمره ، كيف وأنا في هذه السن! فهمت وقتها لما تأخرتْ دورتي. قمت بالفحص.

"مبارك أنت حبلى"

بعد تسعة أشهر قمت بوضع مولودتي، حين حملتها بين ذراعي مضت دقيقة حتى شعرت ببهجة لم أشـــعر بمثلها قرابة عام فهي أبنة ملك جاءت نتيجة لحظة الغرام الأخيرة التي لم أستعد لها وآخذ احتياطاتي.

تأملت خضرة عينيها كعيني ملك.

"كوثر، ســـنكون ســـويًا إلى أبد الآبدين ولكن يا ويحي! وكأن البؤس والشـــقاء إرث تتوارثه الأجيال. قد كتب عليك يا حبيبتي الكراهية من أخيك كتلك الكراهية التي جمعتنا أنا وأخوي."

تسقط دموعي. يدخل ليث.

"أرجوك أحملها"

ينظر إليّ وإليها شذرًا.

"ماذا أنت بفاعلة؟"

فهمت ما وراء السؤال.

"لن أخبره، ستظل جاهلة أباها إلى أن تشاء ويشاء الله رب العالمين"

ممسكة عربة كوثر أسير بمهل، عبق الياسمين يمسني كما يمس أبنتي. جلست أسفل الشجرة وحملتها ورنوت إليها والدمع يغزو عيني.
بائسة أنت. جئت للدنيا وكأنك بنت حرام و ما أنت إلا أثر لأشرف ما عشت وعشقت.
"سنرحل"
قلتها لليث بعد أن علمت بحملي وأنا أتحاشى النظر إليه.
"إن علم أخوالك فسيكون الهلاك لي وللكامن في رحمي، سننبذ كل شيء وراءنا وسنرحل"
عرضتُ بيتي للبيع وأخذت ثمنه واشتريت خطين جديدين للهاتف وانتقلنا إلى مصر الجديدة حيث لا يعرفنا أحد، لم أقل لأحد عن مكاننا أنا وأولادي بل حتى لعمي العجوز المريض. بنصف المال استطعت أن أشتري بيتًا يكفينا وجدته بمعجزة، وبباقي المال وميراثي -الذي نجح محمد في الحصول عليه من إخوتي- أودعته في البنك لنعيش منه مع نصيبي من إرث زوجي الأول ونصيب ليث الواقع تحت وصايتي.

خفتُ خفت يا كوثر من الهلاك لي و لك إن عرفوا لن يرحموا. ليتني كنت مطلقة أو مجرد أرملة ولكني أرملة لشهيد ثورة سيقولون ياللعار! تزوجت غيره كأنه محرم على الأنثى الزواج من بعد شهيدها! إن عرفوا لن يكترثوا للزواج، سيرونني عاشقة وسيرونك نتيجة لهذا العشق. سيتذكرون الزواج فقط حين يرفع أحد أخواي قضية لضم ليث إلى حضانته فقط تنكيلًا بي ولجعله يكرهني أكثر مما يفعل الآن. بلى أنت في هوان لكن هوانك هذا أرحم من كنية بنت العشق.

بكيت فما إن سقط دمعي عليها حتى بكت وكأنها تبكيني. توقفت عن البكاء وهدهتها حتى نامت. كيف كرهتك ولو لدقيقة واحدة! كيف لم أحبك منذ أول لحظة!

أنمتها في العربة وأخرجت من حقيبتي مصحف أمي كأني عن ذنبي الأعظم أتوب، فتحته حيث توقفت فيه أمي آخر مرة قرأتْ فيها قبل مماتها. ما إن رأيت الآيات البينات حتى سقطت دمعاتي حارة.

(فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا (22) فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا (23))

سورة مريم

القاهرة

عام 2024

مستشفى القطامية

الساعة : 10:45 مساءا

أنحدرت دمعة حارة على وجنتيه حين خاضت ذكراه ذكرى أمه، انتبه على صوت الهاتف وهو يرن. كوثر!

دائمًا ما يندهش حين يذكرها كأنها لم تكن!

أجاب الهاتف

"غيث كيف حالك؟"

"بخير"

"كأني لا أعرفك حين تبتأس"

دائمًا ما كانت تفهمه حتى في أيام الجفاء التي ولّت.

"هل ما زالت غائبة عن الوعي؟"

لم يستطع صوته البوح بمكنون نفسه.

"أمنا تسألني عنك مرارا منذ الصباح ولا أدري بماذا أجيبها"

"لا تخبريها شيئًا. لا نريد لقلبها أن يجهد إذا علمتْ بالأمر"

أغلق الهاتف دون أن ينتظر رد الصغيرة.

تخشــى على الراقدة أمامك من الموت. دائما ما نؤمن بالموت كحال لا محال عنه، نظل نســتعد له ونســتزيد من لحظات الدفء مع أحبتنا لكن يبقى الموت حالة مفاجئة. ما الموت؟ هو رغم التكرار يتجدد ويفاجئ. رغم تعدد موتانا، الموت يأخذ، يربك، ويقهر.

انتبه أنه أمضى الخمس وأربعين دقيقة في ذكراه، يريد أن يمضى الوقت معها حتى إن لم تكن معه. دون أن يدرك وجد نفسه يسبح في موج ذكراه مجددًا.

ليث

10

حكت لي أمي حكايتها في بيتنا الجديد بعد أن انتقلنا وظنت أن الشفقة ستنقله لي بقصتها ولكن ما نقلت لي سوى بؤسها.

مات كل شيء ليلتها فلم يعد للقلب سوى المرار. لم أستطع أن أغفر لها حتى بعد أن ارتاحت هي من حمل حكايتها عن كاهلها لتلقيه عليّ وتبكي زوجها الذي خانت ذكرى أبي معه على مرآى مني بدون حرج.

وضعت أمي كوثر، ومنذ أول لحظة لم أستطع حتى أن أنظر إليها فهي ثمرة تلك الليلة البغضاء، أختي من ذلك الرجل الذي سيظل حاضرًا معنا في ابنته تلك، نبذتهما منذ أول يوم لها في البيت وظللت أحيا في غرفتي لا أراهما إلا وأنا في طريقي إلى المدرسة أو حين عودتي وهي تناولني الغذاء أمام الباب.

ظللت أحيا أعواما على هذه الحال أكاد أخنق كوثر لصراخها الأزلي. ولا ينقطع أبي عن تفكيري ولا تزال ذكرى تلك الليلة تسهدني. ولولا أن قتل النفس خطيئة لقتلتها في اللحظة التي علمت فيها بحمل أمي فقد مرت بي أيام كان فيها الجحيم أهون عليّ من عذابي.

رغم كل ما مر بي ظللت أحقق نجاحًا تلو نجاح في المدرسة حتى نلت شهادة الثانوية العامة بمجموع يستطيع أن أدخل به كلية من كليات المستقبل. جمعت جلسة بيني وبين أمي لأول مرة منذ أعوام ولأول مرة منذ أعوام عانقتني وهي تبكي فرحة. رغم الجفاء جلسنا وكوثر تختبئ في حضنها خوفا من رهبة تلك اللحظة نادرة الحدوث.

"ما أشد فرحتي! لو تعلم كم تمنيت أن أراك ناجحًا وها أنت ذا"

"الحمد لله"

"ماذا تنوي دخوله"

"لا أدري"

"لك كل الحرية في أن تدخل ما تشاء ولكن"

"ماذا؟"

"حبيبي غيث"

سقطت دمعة حارة مني.

"كنت دائما ما أتمنى أن أحيا إلى أن أراك في رداء المحاماة، دائما ما أردت أن تكون غيثا لا ليث."

اجتاحت ذهني الحيرة

"دعيني أفكر"

مرت الليلة كلها في التفكير. لماذا أحقق لها ما تريد؟ ألا يكفي تدميرها لكل جميل في حياتي.

ولكن في الصباح وجدتني أذهب إلى أمي.

"سألتحق بكلية الحقوق"

ركضت نحوي وعانقتني وهي تبكي عناقًا ادفأ قلبي ولا أدري إلا وأنا أعانقها بدوري.

ليث

11

رغم ذلك العناق إلا أني لم أكرره ولم أرد أن أشـــعر بهذا الدفء ثانية، لا أريد أن أعود وأضم الجسد الذي انتهك حرمته غريب عابر.

التحقت بكلية الحقوق وحلمت بدنيا جديدة وأصدقاء جدد ولكن وجدت نفسي أنفر من كل الناس وينفر كل الناس مني وظل أبي يرافقني حتى بدا لي أني تعبت منه.

ماذا أنتظر في الصـــباح كي أنام الليل؟ لما الحياة ما دمت ميتًا تحت بند الأحياء؟ أبغي النهاية والخلاص. ولم أدرِ أنها كانت بداية لحياة أخرى.

مرت ثلاثة أعوام، كنت دائمًا محط اعجاب الأســاتذة، ومضــت أيام تتشــابه في الإيقاع. أهيم في لعنة صابتني وما اقترفت إثما. أيام لا اهمية لها.

أصــبحت في العام الأخير. تكبر كوثر ويكبر كرهي لها و يكبر خوفها مني و تكبر أمي ويزداد بكاءها. ويزداد أبي وتلك الليلة حضورًا في عقلي.

وفي يوم انتهت المحاضـرة وخلا المدرج من طلابه وكنت آخر من تبقى. أخط بالقلم أشـكالا تتشــابك فتبدو كقضــبان ســجن حول نقطة ذنبها الوحيد أنها لوثت بياض الورقة. ثم هممت بالرحيل، ورأيت فتاه ذات شــعر أســود فاحم تدخل المدرج حاملة كتبًا وهي تبكي. لابد وأنها تلجأ لمكمن ظانة المدرج خاليا .

ووقعت. وحدها دون أي اصطدام.

تأوهت متألمة حتى انتفض جسدي ألما وهميا من صوت ارتطامها. لا أدري كيف وقعت لم يكن هناك شيء يبعث على الوقوع. فكرت أن اترك المدرج لها لتلملم كتبها وأحزانها..

ظلت رقودا على الأرض تبكي بحرقة.

"يارب! آتني بغيثك وأرحني"

اعترتني رجفة شديدة ثم حسمت أمري، على الأقل فلأكن غيثا ولو للحظات

"هل أنت بخير؟"

جفلَتْ، كانت تظن المدرج خالٍ.

"بلى لا تشغل بالك، تعثرت ليس إلا"

بدأتْ تلملم كتبها بيد ثائرة، كلما أمسكت كتابين ارتعشت يداها بشدة فيسقطان.
"دعيني أساعدك"
"لا داعي أرجوك"
قالتها وهي تزداد بكاءا ورعشــة، وضــعت حقيبتي جانبًا وانحنيت الملم كتبها وربما أحزانها كدت أقول لها: لملمي معي أحزاننا، معًا نبعثرها في وجوه الناس علّ الحزن يســود. فلا يوجد غيث. الغيث وهم.
حاولتُ أن تعيد الكرة فلامســتْ يدي يديها دون قصــد، رفعتْ عيني نحو عينيها و.. دق قلبي بعنف لم أعهده واقشــعر بدني بشــدة خلتني ســأتفتت ذرات. ظلّت يدي على يديها وقد سكن كل شيء.
بحر أزرق يموج في عينيها خلف دموعها، زرقة لم أعهدها من قبل ولا من بعد. غرقت في البحر الهائج وكأنه هدأ لمرآى الحبيب
"أنا آسف"
بدرت مني دون أن أدرك.
"بل أنا الآسفة"
لم نتحرك لدقائق وظللنا نرنو إلى بعضــنا. أريد أن أظل هنا. أريد أن أتحول نورا يخترق عينيها. حتى لاحظت ما لم ألحظه في البدء؛ صار شعرها ذهبيّ اللون! فاقت هي من لحظة الصــمت الصــاخب التي أصــابتنا وصــارت تحمل كتبها وتضــع نظارتها مكانها في وجهها -و تحت وطء دهشــتي- تحمل باروكة شــعر ســوداء فاحمة اللون وتجري مبتعدة عني وتكاد تقع.

القاهرة

أكتوبر 2018

مصر الجديدة، روكسي

نزل من الحافلة ذاهلًا في أول الشارع الذي يقع فيه بيته. مضى يجري حتى وصل إلى مبنى بيته ومضى يثب فوق درجات السلم حتى وصل إلى باب بيته. فتح الباب.

"مساء الخير"

قالها دون أن ينتظر ردًا ومضى إلى باب غرفته وما إن أغلقه حتى شهق شهقة كبيرة كأنها أول أنفاسه في الحياة .

ماله الآن! منذ ساعات كان هو إنما الآن لم يعد! كأنه صار شخصا آخر وكأنه اليوم فقط خُلق.

مال جذعه إلى أن افترش الأرض ساندًا ظهره إلى الباب واستحضر صورتها في ذهنه، بل حضرت دون وعي.

ما تلك الدقات التي شعر بها حين رأى عينيها الزرقاوين؟ رغم دقات قلبه المتلاحقة إلى أنه لم يشعر بصفاء كذلك الذي شعر به أثناء تأمله عينيها. يا ويل ما يدركه الآن! أيكون الحب؟

الآن فقط أدرك ما عانت منه أمه ، لا يفهم العاشق إلا العاشق ولا يدرك دقات القلب إلا من أعترته. لا كدقات قلب الخوف بل أنه شعور دافئ يشعرك بالخدر في روحك قبل بدنك.

دعني اعترف أنه الحب لا غير. ولكن ماذا عنها هي وماذا ورائها؟ ومتى سأراها؟

القاهرة

مصر الجديدة، الكوربة

أكتوبر 2018

نزلت من الحافلة ذاهلة في أول الشارع الذي يقع فيه بيتها، مضت تجري حتى وصلت إلى مبنى بيتها العريق. ومضت تثب فوق درجات السلم حتى وصلت إلى باب بيتها. تذكرت أن تضع الباروكة في حقيبتها بعيدًا عن ناظري أمها.

"مساء الخير"

قالتها دون أن تنتظر ردًا بل دون أن تعانق وتقبل أمها كما اعتادت أن تفعل ومضت إلى باب غرفتها ما إن أغلقته حتى شهقت شهقة كبيرة كأنها أول أنفاسها في الحياة .

مالها الآن! منذ ساعات كانت هي انما الآن لم تعد! كأنها صارت شخصًا آخر وكأنها اليوم فقط قد خلقت.

مال جذعها إلى أن افترشت الارض ساندة ظهرها إلى الباب، استحضرت صورته في ذهنها بل حضرت دون وعي.

مسكينة عينيه، رعشة يده فوق رعشة يدي، بدني الذي اقشعر.

ابتسمتْ ولأول مرة. أنه الحب لا غيره. عشتي على انتظاره ورفضه. ها قد جاء ولا تملكين رفاهية الرفض، لا تزال غير مصدقة إلى الآن.

ولكن ماذا عنه هو وماذا وراءه؟ ومتى سأراه؟

ليث

12

لأول مرة منذ وفاته لا يوافيني في المنام، تغيب ذكراه عن بالي لتكون هي بالي، كانت شريكة أحلامي تلك الليلة حتى طلع النهار، استعددت للجامعة وخرجت وكانت أمي وأختي تأكلان الافطار.

"صباح الخير"

قلتها بابتسامة حرجة و قلبي يقفز خجلًا.

دهشتا ونظرتا إليّ كأنهما تتأكدان من سلامة عقلي أو أني حقًا ليث!

انحدرت دمعة من أمي.

"صباح النور"

في تردد كبير ذهبت في خطوات وجلة إلى أن واجهت أمي وقبلتها على جبينها، ثم جريت مسرعًا خارج البيت.

كنت لأول مرة شاردَ الذهن أثناء المحاضارات إلى أن أنهيتها وبالكاد فهمت حرفًا، ظللت أجوب الجامعة بحثًا حتى غادر الجميع ولم يبقى سواي، مازالت موجة حارة تدرب العباد على حرّ العذاب في آخرتهم، كانت الشمس تجلدني بسياطها مع تواطؤٍ مع ريح هبت ساخنة خانقة، قبل اليأس الفاصل بدقيقة وجدتها، ظللنا وقوفًا تحت سياط الشمس نرنو بوجلٍ صامت، كلانا يحلل الآخر ويختبر مدى أذيته القادمة.

ولكن غدت الريح نسائم خريف حانٍ، وباتت الشمس جدائل نور تربط بين روحينا، كانت مرتبكة وقد أحمرّ وجهها من الحر فزادها بهاءا، ولاحظت أنها أخفت شعرها الأصفر تحت باروكتها فأخفيت دهشتي وأشفقت عليها من اختناق رأسها بشعرين.

ترددت خطواتها في المجئ كأن صراعًا بين القلب والعقل يحتدم.

"مساء الخير"

بادرتُ بالتحية.

من جديد ترددت ثم ابتسمت ابتسامة مرتبكة.

"لم أركِ هنا في الجامعة من قبل"

"أنه أول عام لي"

"في أي كلية؟"

"الحقوق"

"نفس الكلية"

اتسعت ابتسامتها.

"إلى اللقاء"

ثم ركضت، دقائق كأنها العمر كله.

في الصباح التالى مررت بجانب محل لبيع الزهور، أشتري أم ستكون حماقة؟ استقرت عيناي على وردة بعينها واستقر عزمي فابتعتها، انتهت المحاضرات وذهبت إلى مكان الأمس ولم تمضِ دقائق إلا وقد جاءت. تأكدت من خلو المكان ولم أعطها فرصة حتى لالقاء التحية أعطيتها الوردة وركضت مخافة أن ترفضها.

عدت إلى البيت وألقيت السلام عليهما، ترى ماذا فعلتْ بالوردة؟ قطعتها؟ أم رمتها؟ ياربى ما أفظع الهواجس! أفقت على صوت أمي.

"عذرًا يا ليث قد استيقظت متأخرة من النوم، نصف ساعة وسيكون الغذاء جاهزًا وسأحضره لك"

وجدت كوثر تنتظر، تحاشت النظر إليّ، بخطوات بطيئة وجدتني أذهب حيث تجلس، ظهرت معالم القلق على وجهها.

مددت لها يدي وأنا أبتسم لها لأول مرة في حياتها.

ترددتْ إلى أن قلت.

"لا تخافي"

أعطتني يدها فضغطت عليها برفق، شعرت برابط بدأ في الربط بيننا، أهكذا الحب يذيب الكره!

"أظن بأنه يجب علينا أن نتعرف"

كانت هذه أول مرة أدرك فيها كم أن ابتسامتها دافئة كإبتسامة أمي، كانت هذه أول مرة أشعر فيها بعاطفة غير البغض تجاهها.

انتهنا إلى صوت أمي وهى تشهق في ذهول.

"سآكل معكم على السفرة"

القاهرة

مصر الجديدة، الكوربة

أكتوبر 2018

عادت إلى البيت بعد أن تأكدت من إخفاء الباروكة في حقيبتها، ألقت التحية على أمها وقبلتها ثم ذهبت إلى غرفتها.

يصدح صوت محمد عبدالوهاب:

"يا ورد مين يشتريك وللحبيب يهديك؟

يهدي إليه الأمل والهوى والقُبل يا وردي"

كانت تشم عبير الوردة وهى تستمع لمطربها، لم تدرِ أن العبير قد عاد للورود!

ظلت تستمع تنتظر دور لون وردتها.

"يا ورد يا أحمر قول لي مين ده إللى جرجك!

جرح شفايفك وخلّى على شفايفك دمك!"

من الذى جرحني؟ بل قل من الذي لم يأته الدور بعد. حياتي سلسلة من الجرح لا تنتهي، سلسلة من الجرائم مات على إثرها أبرياء وجناة، ويعلم الله وحده ماذا سيفعل بي "....."

يا للهول! للآن لا تدري ما هو أسمه!

ظلّت ساهمة تتذكر وما أشد الألم حين تتذكره.

ليلى

13

لم أدرِ أن لي روحًا إلا حين هفت إليه، أسمع عن تآلف الأرواح. ولكن كيف لروحٍ بين ملايين الأرواح أن تتفق مع روحي الشقية؟ كيف سأجد التي تبادلني الهيام؟

لاحظتُ دهشته حين كُشفت حقيقتي له في لحظة وجودية لن تتكرر، لاحظ ظهور شعري الذهبي بعد أن كان فاحمًا، ولاحظتها أيضًا حين وجدني في اليوم التالى بشعري الأسود الفاحم. أصبحت ذات شعرين مختلفي اللون منذ أمدٍ بعيد. كلما هممت بوضع شعري الأسود يلُمّ بي الألم المعهود وأعود من جديد أتذكر كل ضحية راحت جرّاء إثمي. وطهري.

.....

تنحدر أسرتي من المماليك. ولدت ونشأت في المنصورة، كان وقتها لي شعر واحد؛ شعري الذهبي الذي ورثته عن أجدادي المماليك.

طامة الفتاة القبح لكن طامتي كانت في شعري وعينيّ الزرقاوين. نشأت في كنف أسرة والدي عريقة بينما كانت أمي من عائلة متواضعة من نفس الأصول.

كنت ذرية أبويّ الوحيدة، كنت ثمرة حبهما وزواجهما، لُفِظَت أمي من عائلتها بعد تحدّيها لهم من أجل أبي بسبب ما أشيع عنه من شائعات وشذوذ قبل الزواج لم أُلَمّ بها، أشاع بعض الناس أن أمي تزوجت أبي رغبة في الثراء والنسب.

كل فتاة تجد الأمان في أبيها فهو رجلها الأول، ولكني طالما حسدت كل الفتيات على آبائهن حتى و لو كانوا طغاة بضربهن وترك الكدمات كختم تذكاري لأبوتهم، وعلى رغم ذلك كُنّ يحسدنني على أبي وتدليله، ولكن لو فقط يعلمن ما وراء التدليل.

منذ وعيت على الدنيا وأنا أعي جمالي؛ شعري الأشقر وعيناي الزرقاوان وبياض بشرتي وكان أبي أيضًا يعي ذلك. منذ وعيت على الدنيا وأنا اخافه، ما كان يقرب مني إلا وأصرخ كأني رأيت إبليس نفسه. حين تخطيت الخامسة من عمري صرت أخفي خوفي وارتعاشة جسدي كلما وهب لي هدية واقترب ليلثم وجنتي ويمسح على شعري، يكاد يغشى عليّ كلما دعاني للجلوس بجانبه.

صــرت أخفي هلعي لأنه من الشــذوذ أن أخاف من أبي الذي يكاد أن يُقبّل الثرى الذي أمشـي فوقه كما تقول أمي. لم تعلم أمي ولا أنا سـبب هذا الخوف. بعد سـنوات ترسّـب الخوف في عقلي الباطن فلم يعد له أثر جليّ إلا نفوري الدائم منه.

توفى جداي من أبي وأنا صـغيرة فصـارت لأبي ثروة وكذلك عمي وسـارت الحياة على وتيرة هادئة إلى أن صـرت في الثانية عشـرة وقد بدأت ألاحظ تغير تكوين جسـمي، قالت لي أمي تكبرين لتصبحين آنسة نتباهى بها أمام الخلق.

أكبر ويكبر معي جمالي ويفور ولسـت وحدي من لاحظ ذلك فأبي أيضًـا قد لاحظ، صـار كلما مررت أمامه يعانقني ولكن ليس كأي عناق، بل أشـعر به يتحسـس بيده ظهري وأنفاسه تتهدج في شعري، أرتعب ويرتجف بدني ولكني أتمالك نفسي وأكذب حدسي و لم أخبر أحدًا حتى أمي فماذا أخبرها؟ سـتتهمني بالجنون ولكن معظم الناس لا يؤمنون أن المرأة بحدسها تعلم من يحب ومن يشتهي.

.....

خرجتْ أمي ذات يوم لتعزية أحد المعارف وتركتني لأبي. كان رعبي الجديد من الأحضـان المشـبوهة قد طفى حتى تملكني، كنت في غرفتي أختبئ وأهدئ من روعي وأشـغل نفسـي بتراهات حين نـاداني أبي، سـرتُ بخطوات الخوف مع دقات قلبي إلى أن مثلت أمامه، وصوت يصرخ بهمس أن الكارثة التي انتظرتها منذ ولدت قد حانت، قال لي بصوت مبحوح فيه رنة شبق.

"لما تجلسين وحدك في غرفتك؟ تعالي اجلسي معي"

جلست على بعد مسافة منه وتمر دقائق وأجده بجانبي.

"تعالي اجلسي على سـاقيّ، لطالما رغبت باللعب معك حين كنتِ طفلة ولكنك كنت تملئين البيت صراخًا"

"ولكني كبرت يا أبي"

"أعلم، لكن لن تكبر الفتاة أبدًا في عيني أبيها، تعالي"

كان في عينيه شيء كريه، خفت ألا أجيبه فأندم عمري فيما بعد. داخلني يقين أني سأندم في أي حال في قائمة الإحتمالات. مثلت لأمره وجلة، وجدته يتأملني وفي عينيه بريق أرعبني، بدأت أنفاسي تضيق ويبدو أن خوفي زاد عيني أبي بريقًا.

"ما أجملك!"

قالها بصـوت متهدج امتلأ بالرغبة. بدأ يمسـح بيده على شـعري وبعدها صـار يقبلني على خدي.

"يكفي يا أبي، دعني أعود إلى غرفتي"

هممت بالوقوف ولكنه أحاطني بذراعيه.

"ما أجملك!"

وجدت شفتاه تقعان على شفتيّ، قمت بمعجزة قصيرة صارخة.

"ماذا تفعل! أنا أبنتك"

لكن نار الرغبة وربما الخمر قد امتلكته، جرى خلفي ليلحقني، بدأت أصـرخ من الرعب، خفت على نفسـي وشـرفي من نار شـهوته، لحق بظهر ثوبي فانقطع فوقعت أرضًـا على الأرض، اصـطدم رأسـي وشـعرت به يدوخ مما جعلني أكثر في الصـراخ وأنفض جسـدي لأحمي نفسـي من رغبته، وجدت جسـده فوقي رغم محاولاتي في ابعاده عني، صـار يقبلني وأصرخ وأبكي أرجوه وأرجو من يسمع أن ينقذني قبل أن أفقد وعيي فينال اهدار عرضي. وبدأ في إبعاد سـاقاي لأجد إناءًا فخاريًا يتحطم فوق رأس أبي. بدا لي وجه أمي المرتعب. رغبت أن أقول لها لما تركتني مع زوجك ال..

ساد ظلام حالك.

ليلى

14

فتحت عينيّ لأجدني في غرفة ذات ضـــوء باهت، رأيت المحلول داخل عرق يدى. امتلكني الذعر، مرت دقائق أحاول معرفة ما قادني إلى تلك الغرفة، ســـرعان ما تذكرتُ أبي وهو يحاول امتلاكي.

"أمي!"

ناديت بفزع رغم صـوتي المتحشـرج كأني لم أسـتعمل الحروف منذ عقود، لابد أني في تلك الغرفة بعد اصطدام رأسي بالأرض.

تحسست رأسي فلم أجد شاشًا.

"أمي!"

برزت من الباب ممرضـة تبحث في دهشـة عن مصـدر النداء. رمقتني ثم شـهقت شـهقة كبيرة وركضت خارجة وهي تنادي الطبيب. ما هذا الفصل السخيف!

بقيت مذهولة لدقائق ثم ظهر الطبيب.

"ماذا أفعل هنا؟ وأين أمي؟"

تبادل الطبيب مع الممرضة نظرات لم أفهمها، كررت السؤال.

"ما هو آخر شيء تذكرينه؟"

شعرت بالعار وأنا أخبره عن محاوله أبي لاغتصابي والإناء الفخارى المكسور ثم الظلام.

"هذا كل ما خطر لك؟"

"كان وجه أمي آخر ما رأيت"

"ما عمرك؟"

لعنته ألف مرة، بدا لي أنه سيظل يسألني أسألته تلك إلى أن أفقد أعصابي.

"اثنا عشر عامًا"

تبادل الطبيب والممرضة النظر من جديد.

"ماذا هنالك! أين أمي؟"

"سنخبرك بكل شيء ولكن من فضلك تمالكي نفسك وحاولي استيعاب ما سأقوله"

خفت من كلامه وتسارعت دقات قلبي.

"عمرك ليس اثني عشر عامًا بل خمسة عشر عامًا"

انتابني الذهول صرخت بفزع.

"ماذا تقول! أين أمي؟"

"سأخبرك بكل شيْ ولكن عليك الهدوء"

الدقهلية

المنصورة

2010

صوت جلبة لا يدري أحدٌ مصدرها تملأ الحي ولم يكترث أحد لها :

"زوجان يتشاجران" ظن البعض. وظن آخرون أن هنالك أب يعاقب أبنته وذلك ما يفسر الصراخ.

تجاهل أهالي الحي الصراخ ولكن مال الصراخ لا ينقطع كأن هناك من خسر آخرته! همّ البعض بالبحث عن مصدر الصراخ بعد تأفف إلى أن سُمِع صوت انكسار فخار، سكت الصراخ وهنا هرع الجيران بالبحث وكأن الصمت أدعى من الصراخ للتحرك.

اهتدى الجيران إلى مكان الصراخ الذى صمت، بيت الأستاذ مجدي. هرعوا داخل البيت ليجدوا زوجته تحتضن ليلى المغماة عليها والدم ينزف من رأسها وهي تصرخ وتنتحب:

"أبنتي! آه يا ليلى"

همّ البعض بالسؤال عما حدث ليجدوا الأستاذ مجدي مُلقًى على الأرض تنبعث منه الدم أغزر من دماء ليلى.

جاءت الإسعاف وعكف المسعفون على فحص جسد الرجل ولكن تبعتها الشرطة فقد مات الرجل وسيقت خيرية إلى القسم وهى تصرخ

"كنت أريد حماية أبنتي"

حُجزت ليلتها لتُعرض على النيابة في اليوم التالى، شاع خبر موت مجدي المنصورة كلها؛ قتلته أمرأته، كسرتْ عليه إناءًا من الفخار عتيقًا -ثمنه بثمن عائلة خيرية كلها- بعد شجار عنيف جعل الطفلة تصرخ، ولكن خيرية تدّعي أنها قتلته لحماية أبنتها! مما!

"كان يريد أن يغتصبها"

ظلّت تردد بين نشيجها ولم يصدقها أحد، ألم تجد مبررًا آخرا غير هذا لقتل زوجها! رغم ما عُرف عنه مجدي من شذوذ قبل زيجاته ولكن لا يصل شذوذه إلى أبنته.

احتارت المنصورة، وحدها ليلى من تحسم الأمر. ولكن أين ليلى؟

ظلّت ليلى في إغمائة ووضعت في مستشفى والمسؤول عن القضية ينتظر افاقتها للإدلاء بشهادتها، إلى أن أفاقت.

ما إن فتحتْ عينيها حتى بدأت بصـراخ حاد طويل أشـبه بالعويل وطفقت تشـد شـعرها الذهبي وأرادت فقء عينيها إلى أن أناموها بحقنة، لاشـك صـدمة عصـبية. لكن امتدت نوبات الصـراخ وشـد الشـعر لأسـابيع وكلما اقترب منها أحد تزداد صـراخًا، وأودعت في مسـتشـفى للأمراض العصبية تحت نفقة عمها، فُجع العم لمقتل أخيه وبكاه طويلًا وعزم أنه لن يهدأ له بال حتى تشـنق خيرية لفعلتها ولم يكترث لليلى كثيرًا إلا أنها تحفة يجب الحفاظ عليها، مرت شـهور حتى مر على الحادثة ثلاث أعوام ونسـى الكل مجدي وليلى، وخيرية في السجن تؤَجَل قضيتها إلى أن تفيق ليلى لتدلي بشهادتها.

وأفاقت ليلى، دهش الطبيب المختص بحالتها حينما قالت الممرضـة أنها أفاقت دون صراخ بل تسأل عن أمها وزادت الدهشة حين وجد ذاكرتها قد رجعت للوراء ثلاث أعوام، لكن سرعان ما حلل ذلك، ما العجيب في الأمر؟

بعد محاولات عديدة من الطبيب لعلاج ليلى بلا فائدة إذ تبوء كل عدة أشـهر بالفشـل أفاقت ليلى.

أصـيبت ليلى بصـدمة عصـبية عنيفة من محاولة أبيها للإعتداء عليها ثم مقتله أمامها وعانت من اضـطرابات جسـيمة بعدها لأعوام (PTSD) اسـتجابت ليلى إلى العلاج فقرر عقلها أن يعود إلى وقت الحادثة ماحيًا أعوام الإضـطراب كي يحافظ على اسـتقرارها النفسى، ومهما تعدد التأويل تبقى النفس البشرية الأكثر غموضًا.

عادت سيرة ليلى وخيرية تلوكها المنصورة منتظرين يوم تُدلي ليلى بشهادتها.

الدقهلية

محكمة جنايات المنصورة

2013

اكتظت القاعة بالحاضرين من أهالي المنصورة القادمين بدافع الفضول وحده لمعرفة ما سيئول إليه مصير أم ليلى وما ستقوله ليلى أمام القضاة، ومن الحاضرين من يجلس منتظرًا قضيته بينما يتسلى بمشاهدة قضايا الغير.

جلستْ ليلى تضم ركبتها خشية ارتجافهما، تعصر يدها بالأخرى، يعتريها القلق. فتاة في أوج صباها تقف في قاعة محمكة تشهد لأمها في قضية قتل أبيها، تظهر على جبينها قطرات عرق بارد، لاحظ الدكتور فاروق ارتجافها فقام بوضع يده على كتفها فانتفض جسدها فزعًا؛ هى مازالت متأثرة بذكرى اغتصابها، فإن نظرتَ بعين حالتها فهي تعرضت للاغتصاب فقط منذ أيام لا أعوام. هدّأ الطبيب من روعها وحاول طمئنتها.

نظرتْ إلى قفص الاتهام الخالي لتنزل دمعة من عينها الزرقاء، لم ترها منذ ثلاث أعوام، ثلاث أعوام وهي في السجن، وهي السبب. لو لم تنَهر لأنقذتها من هوان السجن، بل لو لم تحلو لأبيها لما قتلته أمها.

لا تزال تشك فيما قيل لها، ثلاث أعوام من عمرها لم تدر بهم ولم تدرك سير أيامها الرتيب كأن ما من حدث جسيم حدث كى يتوقف. قتل وسجن ومستشفى وشهادة، كل ذلك لا يصدقه عقلها، وثورة وثورة أخرى! كانت بالأمس طفلة والآن صارت شابة. بدأ الحاضرون في التهامس، وصلت عربة الترحيلات، بدأت دقات ليلى تتسارع ونفسها يضيق لكنها لم تعبأ .ظهر صف من النساء المتشحات بالأبيض، ظلت ليلى ترمقه إلى أن استوى داخل القفص ورأتها، أهكذا يشيخ المرء! خانها القدر بمعاونة الزمن فأصابوها بمقتل فبدا الذل في حنية ظهرها ووجهها المليء بالتجاعيد .

هتفت بها ليلى، انتبهت الأم من ذلها، لم تصدق عينها، إذن ما قالوه صحيح أفاقت وحيدتي! وبكت، هرعت ليلى إليها واحتضنت يد البنت بيد الأم فبكت ليلى .

"حمدا لله"

الآن فقط يمكنها اســتقبال الموت باطمئنان، لم يهمها شــيء مما حدث، لم تشــعر بهول قتلها لزوجها، لو رجع بها الزمن لقتلته ألف مرة فما قتله إلا لأبنتها يكفيها فخرًا أنها ستموت فقط لأنها حمتها ولكن كيف تموت وتترك ليلى وحدها في المستشفى؟ ولكن الآن أفاقت ليلى فبأماكنها استقبال خبر الأعدام ب نفس راضية.

رنت ليلى لأمها وتمتمت وهي تبكي.

"أنا السبب"

"لا تجعليني أشــعر أني فعلت ذلك هباءا، لم تكوني الســبب بل أنا، أنا التي لم تنتبه وكان عليّ تصحيح خطئي لو كان الموت شرطا لحمايك لقبلته ملء العين"

شدت خيرية يد ليلى، قد تكون آخر مرة.

"انتبهي لنفســك وحافظي عليها، كم اشــتقت إليك وكم ســأشــتاق! بعد أن يتم أمر الله أذهبي لجدتك وحدها من ستهتم بك"

زاد بكاء ليلى ونكست رأسها. رفعت الأم وجه ليلى برفق.

"لا تبكي من أجل خاطري"

صمتت قليلًا تتأمل جمال أبنتها، كم كبرت!

"ليلى! لأجل الله أريحيني واشــهدي بأن الحادثة كانت شــجارًا أودى الغضــب بي إلى قتل أبيك"

لم يمهل ليلى الحاجب أن تعترض أو حتى تذهل.

"محكمة!"

صــدح صــوت الحاجب، اضــطرت ليلى للرجوع إلى مكانها بينما وقف الجميع بعد أن استمتع بمشهد لم شمل الأم بأبنتها، جلس القضاة فأشار القاضي بالجلوس .

"نادي على القضية"

"القضية رقم ....، خيرية متولي عبد الجبار"

وقف وكيل النيابة وبدأ في الخطاب.

"ســيدي القاضــى، حضــرات الســادة المســتشــارين، بصــراحة لا أدرى لما تلك القضــية مستمرة إلى الآن فمن الواضح للجميع أن شجارًا عنيفًا دار بين المتهمة والقتيل وكان أمام عينيّ الطفلة إلى أن بلغ غضــب المتهمة أشــده فكســرت على رأســه الفازة فمات لحظتها وبالتأكيد في غمرة الشــجار دُفعت الطفلة وســقطت على الأرض وهذا ما يفســر ارتطام

رأســها فلم تحتمل الفتاة مقتل أبيها أمامها فأصــيبت بالإنهيار لأعوام. أنها قضــية قتل واضحة كان من المفترض أن توقعوا سيادتكم على المتهمة بأشد العقوبات لا أن تستمروا في التأجيل. مع احترامي لكم"

لم تسمع ليلى ولا كلمة، غابت في حيرتها. لما تريد أمها أن تدلي بشهادة قد تهلكها؟ و شهادة تختلف عن أقوال أمها التي أدلت بها في النيابة!

ربما لأنها لم تملك أمر نفســها في غمرة الأحداث ولكن بعد مرور أعوام تعلمت صــبر السجن وذله. أدرَكَتْ مصير ليلى المقبل إن أدلت بالحقيقة.

"الدفاع يتفضل"

وقف محامى خيرية الموكل من عائلتها -كل ما فعلته عائلتها لإعانتها- وتقدم إلى أن مَثَلَ أمام القضاة.

"سيدي القاضي أنا لن أدافع عن خيرية كما المعتاد لكن كل مرة تتجاهل النيابة أن ثوب ليلى قد قُضَ من خلف فهل يُعقل إن كانت مشــاجرة أن تترك موكلتي جم غضــبها على زوجها وتشــد قميص ابنتها ليتمزق؟ هذا إذا افترضــنا أن ليلى هرعت لطلب المســاعدة ومنعتها أمها بشد قميصها، ولكن كل ما سأفعله أن التمس إليكم طلبًا هو أن تمثل ليلى للإدلاء بشهادتها بعد أن أفاقت"

"تعالي يا ليلى"

انتبهت ليلى وقامت وتقدمت في خطًى بطيئة مترددة وقلبها يزداد دقًا إلى أن مَثَلَتْ بين يدي القاضي.

"قولي والله العظيم سأقول الحق"

ترددت ليلى. ستقسم بالله، أتشهد بما قالته لها أمها؟ وهي؟ ما مصيرها هي وأمها إن أدلت بتلك الشهادة الزور؟

ســتُعدم الأم وتهلك ورائها ليلى فتنعم الأولى بموتها وبنعيم الآخرة وتخلد ليلى في ظلام السعير.

يارب ماذا أفعل؟

"يا أبنتي إن كنت متعبة يمكن أن نؤجل الجلسة"

حســمت ليلى أمرها. رفعت ليلى يدها كأنها أمام مذبح ما وقفت أمامه إلا لأن يقبل الرب توبتها، قالت بينما تحشرج صوتها وهاج بحر عينها.

"والله العظيم سأقول الحق ولن أقول غيره"

"تقول والدتك أنها قتلت أباكِ لحمايتك من محاولة اغتصابك أهذا صحيح؟"

ساد الصمت القاعة وأطرق الحاضرون في ترقب لسماع شهادتها. مضت لحظات طالت أم قصرت.

"أجل"

شهق الحاضرون ووكيل النيابة حتى القاضي لم يستطع كتم شهقته.

بكت أم ليلى حينما حصحص الحق وظهرت برائتها.

"لما يا ليلى؟ كيف ستحيين بعد اليوم؟"

بينما صرخ العم.

"كذب والله العظيم"

اضطرب الحاضرون فطرق القاضى بمطرقته آمرا إياهم بالهدوء. التفت القاضي نحو أم ليلى.

"أهو أبوها أم زوجك وليلى أبنتك أنت فقط؟"

"أبوها"

اجابت خيرية بين نحيبها. لم تقدر ليلى فانفجرت في البكاء.

تقدم المحامى وقال :

"ها هي شهادة ليلى أبنة خيرية توضح لحضراتكم تمام الوضوح براءة موكلتي بنية القتل العمد، فما فعلته إلا لحماية أبنتها من أبيها الذي كان معروفًا عنه من شذوذ قبل زواجه من موكلتي"

"كيف كان شذوذه؟"

"كل فسق، في البدء كما تقول موكلتي يقال أنه بدأ في مضاجعة الخادم حين ناهز الحلم وبدأ الخادم بدوره، تحرش بكثير من زملائه وأنتقل من مدرسة إلى أخرى في كتمان تجنبًا للشوشرة، ثم بدأ في خطف الفتيات القاصرات وفعل بهن الفواحش والأفعال التي يعجز المرء أن يدرك أن مثلها موجود. كم اغتصب من أطفال وفتية ذكور! والأمر لا يخلو من شبهة استعمال الإنترنت المظلم وخباياه حيث راجعنا حساباته ووجدنا أموالًا طائلة تُحول لأشخاص في الخارج لا رابط بينهم والقتيل، ثم تزوج من فتاة مُعدمة وأنجب منها ولدًا وُجد قتيلًا بعدها بأعوام، وجدوا آثارًا سادية واضحة في جسمه وما لا يدريه أحد ولا

حتى خيرية أنهم قد وَجَدوا منيّ رجل داخل جسـده وتكتموا الأمر من هَوْلِه واختفت المرأة ولم يدر أحد بأمرها إلى الآن وبالتالى تم اتهامها بالقتل"

شـهق الناس من جديد ومعهم القاضـي. شـعرت ليلى أنها سـتعود إلى غيبة الصـراخ من جديد، لم تكد تصدق هول ما سمعت، أنا أبنة هذا الرجل! هل كان مصيري سيئول مثل مصير ذاك الأخ المجهول؟

صرخ العم.

"كل ذلك كذب أثاره أعداء العائلة إن أخي أشـرف رجل وما يقال إشـاعات وأبنه قتله أعـداؤه بـإتفـاق مسـبق مع المجرمـة زوجتـه الأولى وحـاولوا تزوير التقرير ولكن بـاءت محاولاتهم بالفشـل، ولو كان هذا صـحيحًا فلما تزوجته تلك المجرمة إن كانت سُـمعته كذلك"

صاحت خيرية خلف القضبان.

"أحببته. أحببته بغباء فتاة مازالت بضـفائرها. أقسـمَ لي أن كل ذلك تلفيق وجاهلة صدقته وتحديت أهلي وهجرتهم لأجله ولكن صدق قولهم. قد تزوجت رجلًا مريضًا شاذًا، صـدق قول الناس أن ثراء زوجي هو ما أنقذه من السـجن ولكن أنّى للمال أن ينقذه من براثن الموت؟"

ثم أخرجت من جلبابها ضفيرتي شعر.

"هاك يا سـيدي القاضـي، تلك الضـفائر التي أودت بصـاحبتها ظللت محتفظة بها لأعوام إكراما لتلك اللحظة، لحظة أن وثقت به وصـدقته. هاك ضـفائري قد قصـصـتها كارهة اللحظة التي قابلته فيها ورضيت لرحمي أن يأوي منه أطفالًا ذا نسب قذر"

هاج الجمع فطرق القاضي طالبًا الهدوء.

التفت القاضي إلى ليلى.

"أحكي يا ليلى ما جرى"

حكت ليلى وهى تبكي يوم الحادثة.

"كذب أنها تحاول أن تدفع عن أمها التهمة"

أسكته القاضي.

"النيابة تريد أن تقول شيئا؟"

"لا يا سيدي القاضي"

قالها الوكيل وهو يشعر بفشله.

"الحكم بعد المداولة"

جلست ليلى في إعياء بعد المجهود الذى بذلته وفظاعة ما سمعته، أمسك الطبيب بيدها ليهدئ من روعها.

"خيرًا"

كم تمنت تلك اللحظة لو نال الأب ما أراده وقتلها وما حملت هذا الهوان هي وأمها .

نظرت ليلى لأمها التي مازالت تبكي.

"محكمة!"

"حكمت المحكمة حضوريًا على المتهمة خيرية متولي عبد الجبار"

سـكت القاضـى لحظات ونظر إلى ليلى فيها كمن يختبر مدى قوة أعصـابها، قال حكمه ليحقق رقمه القياسي.

"بالسجن ثلاث أعوام مع الشغل للقتل الغير عمد، رُفعت الجلسة"

ثم قام القاضي وأسرع إلى حجرته خشية أن يسمع صراخ ليلى.

"ظلم، والله يا ليلى ستدفعين أنت وأمك الثمن غاليًا ولو على رقبتي"

وهمّ الحاضرون بالرحيل ولكن ظل بعضٌ منهم جالسًا ليشهد مشهد الختام.

ذهلت ليلى وتجمدت عيناها على أمها وهى تنقاد لسجنها بينما تصرخ.

"ليلى انتبهي لنفسـك! عليك بأمي وأبي، قولي لهما أني أسـتحق ما جرى لي، وأني كنت مخطأة و هذا جزاء سخطهم ولكن الحب أعماني، والله يا ليلى قد أقسم أنها مجرد أقاويل وما هو إلا رجل قويم. أحببته وما بيد العاشق حيلة"

لم تستطع ليلى التحمل اكثر من ذلك فتلقفها الطبيب حين وقعتْ مغشيًا عليها.

ليلى

15

ليتني مت. ياليت أبي نال ما أراد وضعتُ وقتلني كأخي بعدها. ليتني لم أكن بهذا الجمال. يارب كل جمالٍ تبدع أياديك فيه لحكمة هي تأمل الخلق في بديع خلقك، ما جرّ عليّ جمالي إلا كل خراب، فتن أبي ومات أبشع ميتة، الميتة لا تُقاس فقط بمدى ألمها بل في أي حال مات عليه المرء وقد مات أبي في غمرة شهوة تزلزل عرش السماوات. وقتلَتْ أمي نفسًا ولكن بحق وظلّت معلقة الحكم في السجن، وحكم عليها بثلاث أعوام وما حسبوا الأعوام الثلاث السابقة. وصرتُ حديث أهل البلد. رحماك ربي!

لما افقتني من غيبتي؟ يارب! ما من غائب رجع إلا وأثارت رجعته كل حي ومات كمدًا من تبعات الزمن. كل غيبة كانت سعيًا وراء رضاك؛ أهل الكهف فروا للكهف إيمانا بوحدتك، فأنمتهم قرونًا ثم بعثتهم ليثيروا استقرار أهل البلد ثم ليموتوا كمدًا، وها قد أرجعتني من غيبتي ولا أدري بعد الحكمة وراء أمري، فلما لم تمتني كمدًا كمثل السابقين فأكون من اللاحقين؟

كم وددت لو أَحَلّ الله قتل النفس، كي ألحق بأبي علّ الله يحكم بعدله، إما أن أحرق معه لإغوائي له وإما أن أنعم في الجنة فلا عدل في هذه الدنيا، فلكل ابن آدم عدلٌ خاص به ويختلف ظنون الناس بالعدل. ولكن لم تكن لي رفاهية الإختيار.

فبينما وأنا في غمرة أفكاري تلك دخل عليّ الدكتور فاروق.

"ليلى! إلى متى ستظلين على هذه الحال؟"

"بالله عليك لا تعيد عليّ حديث الكتب، ما أسهل الكلام! لا تهوّن عليّ فحالي لن يهون."

"ليكن! لن أنصحك بالصبر فما حل بك يكفى ليجن أحكم عاقل ولكن يا ليلى لم يدع الله لك رفاهية الجنون ولا مجال لك للإكتئاب. لن أجاملك يا ليلى؛ لن تصبر إدارة المشفى على استضافتك ليلة أخرى، حاولتُ بشتى الوسل ولكن ما باليد حيلة، ما عاد عمك يدفع مصاريف اقامتك وتلك المستشفى تكره عمل الخير، كل شيء لا مصلحة له لا يبقى بين جدرانها. فإن جُننتِ لن تجدي من يحتويكِ، بل ستصيرين في الشارع. ليلى! ما فعلتْ أمك كل هذا وما أنقذت عرضك ودخلت السجن ليكون مصيرك الجنون أو الهلاك، أرادت أن تظل رأسك مرفوعة فامنحها أمنيتها الوحيدة"

"نِعم الكلام حديثك يا دكتور! أعلم أنه لم يعد لي مقام هنا أو في أي مكان، سـأعمل يا دكتور، أي عمل ولكن لا تدعني أواجه أهوال قدري"

"هذا ليس حلًا يا ليلى. كطبيب لن أسمح بهذا فهذا هروب وحل مؤقت لن يدوم، سيحتم عليك يومًا الخروج، ماذا إذا قضيت عمرك كله هنا وحتم عليك الخروج سيصير عذابك أضعاف عذابك الراهن. ليلى اذهبي إلى محامي والدتك وأسألليه عنوان جَدَيك علّهم يأوونك وإن خاب سعيك سعيتُ لك بنفسي للعمل هنا"

"ما حضر منهم أحد، بعثوا مشكورين بالمحامي"

"ولو! خذوا بالأسباب، فكري بأمك ومدى قلقها عليك الحين وهي في السجن ومدى وقع الخبر لو سمعت عنك أي سوء"

حضرتْ صورة أمي عليلة على سرير السجن بعد سماع خبري، تنهدت في تسليم.

لأجلك يا أمي، لأجلك فقط سأعيش.

ليلى

16

ذهبتُ إلى العنوان الذي أعطاني إياه المحامي، ضـــغطتُ على الجرس وانتظرت، خيل إليّ أن أعوامًا مرت، شـــعرتني هرمتُ وقد أبيضّ شـــعري وراحت شـــقرته ومازلت أمام الباب واقفة ولو فُتح الباب انتهى عمري وأُحمل بعدها إلى القبر.

بعد لحظات طالت فتحت لي الباب فتاة في مثل عمري.

"صباح الخير"

رنت إليّ متسائلة عما أريد.

"منزل الأستاذ متولي عبدالجبار؟"

"أجل! من يا فندم ؟"

تعجبتُ أغبية هي! ألم تلاحظ الجمال المشـترك؟ شـقرة الشـعر، بياض البشـرة كالحليب وإن كانت عيناها سواداوين كظلام الأعمى. كالعدم.

قلت وقد جف حلقي.

"أنا ليلى. أبنة أبنتهم خيرية"

صُعقت الفتاة وتمتمَتْ بكلام مبهم وأغلقت الباب.

هكذا إذن! ها هو مصـيري واضـح الأفق، يارب هل حُتم عليّ الجنون أو الهلاك؟ وإن لم أُجن أو أهلك هل سـأعيش من عمل شـريف؟ أم سـيضـيع شـرفي في غمرة الحياة؟ كيف سآمن الناس الجوعى؟

خارت سـاقاي وافترشـت الأرض، نزلت دموعي سـاخنة ولم أعد أشـعر بسـاقي. ضـعتُ و ضـــعتِ يا أماه! لا أظن أن ذلك الطبيب ســـيجد لي عملًا، إذن ســـيكون الضـــياع مهنتي والعهر شرفي.

ثم فتح الباب وجفلت، رأيتُ ســـيدة على أعتاب الشـــيخوخة ذات جمالٍ غابر، تنظر إليّ بإشـفاق، أكاد أرى الشـبه بينها وأمي، مدّت إليّ يدها وكأنها طوق نجاة، وأنا غريقة في بحر المصير أريد قشة أتعلق بها.

"تعالي يا أبنتي"

فتلقفتُ يدها دون تردد، حاولتُ القيام ولكن خذلتني ســاقاي وظللت لا أشــعر بهما لثوان، حتى قمت ولم أكد ألحظ تلك الفتاة بجانب الجدة.

أجلستني في صالون بسيط، ظللنا برهة صامتين إلى أن جاء صوت الجدة كاسرًا الصمت.

"أحضري قهوة يا فاطمة"

قامت الفتاة، نظرت إليّ الجدة بصمت لدقيقة ثم بدأت حديثها دفعة واحدة كأنما أعدته على سبيل الإحتياط.

"ما أشــبهك بوالدتك! حين رأيتكِ رجعتُ خمس عشــرة عامًا إلى الوراء. تخيلت أني أفتح الباب لخيرية وكأن كل تلك السنون لم تمر. كأنها عادت توها من المدرسة وأتلقف يدها"

"ليتني لم أشبهها!"

"أسمك ليلى؟"

أومأت بالإيجاب

"كيف حال أمك؟"

"أما علمتم من الجرائد أو من أهل البلد ؟!"

"لم أخرج من هذا الباب منذ أعوام إلا قليلًا ولم أعد أجلب الجرائد فجدك لم يعد يحتمل أي خبر صادم. كفاه ما حل به"

حادثتها ولم اكن أحادث إلاي.

"لم أكد أعرفها حين رأيتها. وكأني غبت عن الدنيا عشــرون عامًا لا ثلاثا كما يقولون ولا أيامًا كما شعرت"

لم أتمالك نفسي فبكيت بشدة. همسَتْ الجدة بسخط.

"كم حذرناها من عشــق أبيك ولكنها كانت عنيدة لا تســمع إلا صــوت عنادها. كان أبوك حديث البلد، أحبته بجنون وأعماها حبها عن كل منطق. تحدتنا وتحدت كل من خاض في عائلتنا

((وأولادك أما فكرتِ فيهم ؟))

(أقسمَ لي أنها مجرد أقوال وأن أبنه قتله عدو لهم وليس هو)

((ألم تفكري فيكِ أنتِ ماذا سيقول الناس؛ تزوجته رغم شذوذه فقط من أجل ماله؟ لن يصدق أحد أنك أحببته)

ولكن لم تسمع فخيرناها بيننا وبينه وأختارته، أقسمنا لها إن حدث لها مكروه لن نتدخل فهي المسؤولة، توقعنا أن تحدث الفاجعة في أي يوم، أصيب جدك بالضغظ والسكر حزنًا على أبنته ولكن عوضنا الله بفاطمة وتناسينا خيرية إلى أن سمعنا بمصابكم ولم يتحمل جدك وقع الخبر فأصيب بجلطة في يده. حين أتانا الخبر هرولتُ في الشوارع علّني أجدها، ورقدتُ أيامًا لا أستطيع كلامًا أو حراكًا وبعثنا بالمحامي رغم القسم، استخرنا الله وسألناه أن يبت في أمرك إن كان يجب أن نضمك إذن فأمر الله واجب. ظل ذهني مشغول بكم إلى أن قالت لي فاطمة أن حفيدتى قد جاءت فكيف لنا أن نرد مسعاك خائبة. لا والله غالية أنت عليّ. علمت دون أن يخبرني أحد أني صرت جدة، أحببتك دون أن أعرفك"

فتحت لي ذراعها، طغى حب مبهم لها كأني أعرفها منذ جئت تلك الدنيا، ألقيت بنفسي في حضنها بعد أعوام حرمت فيها من الحب.

ليلى

17

عاد جدي، وما إن وقع نظره عليّ حتى تمتم.

"خيرية!"

"لا يا أبي أنها ليلى أبنتها"

حاولتْ فاطمة أن تهدئ من روعه كي لا يصـيبه مكروه أو تصـيبه جلطة أخرى. دمعت عيناه لما أفاق.

"ما أشـهك بأمك يا أبنتي. حين رأيتك خيل لى أن خيرية ما برحت هذا المنزل طوال الأعوام الماضية. إذن يا حاجة قد بت الله في الأمر وعلينا تنفيذه. فليعنا الله."

.....

أحاطني جداي بالرعاية ولكن أعتراني اكتئاب شـديد من تبعات ما مر بي ومررت به. حين صفا الجو حولي، بدأ عقلي في ترجمة كل ما استعصى عليه فهمه منذ البدء.

حين صُـدم رأسـي بالأرض ثم أبي الملقى بجانبي تخر منه الدماء، أفيق من اغمائتي أقول غبتُ يومًا أو بعض يوم ولكن قالوا غبتِ أعوامًا. أسأل أين أمي، قالوا في السجن بعد أن قتلت أباك، و لما؟ دافعت عني منه! قالوا ما صدق أحد. شهادة المحكمة ثم السجن.

أرى نفسي في المرآة فأجهل نفسي، لست الطفلة التي كنتها وأجد جسدي قد نضج وأصبح يبغي من يلمسه.

وتتقلص معدتي فيجيء الحيض. ولما سـألتُ أجابوا: بلغتي منذ كنتِ غائبة. لم يرحمني عقلي.

يشتد اكتئابي فيجيء الدكتور فاروق. وصل الأمر أني راقدة لا أستطيع الحراك، أوصاني ببروتوكول علاج سـخيف والإنتظام على الأدوية، ما إن مر يومان حتى رميتها من أقرب نافذة، فالإكتئاب أهون من فعل تلك الأدوية في روحي وعقلي تلك الأفاعيل، أخبرتُ الدكتور فاكتفى بأدوية من أعشاب وببروتوكول أسخف وإن طالت مدة العلاج.

وأمي، أخشى عليها من أذى السجن؛ تدمن، تُشوه بيد أحدى النساء لها الرغبة في ذلك، أن تزهق روحها بيدها. وعقلي يعذبني.

وفاطمة، حرصـــت أن تظل بجانبي تؤازرني تذكرني بموعد تناول الأعشـــاب، تحثني أن أتحرك، أن أقوم من فراشي و لكني لم أقدر.

لأول مرة أشـعر بثقل الوقت، أخشـى أن أرى السـاعة فأجد أن النوم مازال بعيد المنال، فأغمض عينيّ علّ النوم يأتي ولا يأتي.

وفي يوم عـادني الـدكتور فـاروق، حثني على الابـداع، أن أكتـب، وبـدأت أكتـب مـذكرات سـخيفة، لم أجد قدرة على البوح بيني وبين نفســي عما حدث، حثني على المجابهة، أن أحكي له بشـجاعة ما فات وماذا أشـعر حيال ذلك، ولم تثمر أمانيه نتيجة معي. وأراد أن أنضـم لجلســة جماعية أبكي مصـابي أمام أخريات كي يحمدن الله ويدركن أن مرضـهن ضــربٌ من الدلال، وفى يوم حثني على الجلوس في الصـــالون فوقعت عيناه على مكتبة جدي البسيطة.

"ليلى لما لا تقرأين؟"

"لم يســبق لي قراءة الكتب، ولا تنســى يا دكتور أني أعيش بذاكرة طفلة ليســت بهذا النضج"

"حاولي، عيشي عوالم مختلفة"

قلت ساخرة.

"أليس هذا نوعًا من الهروب ؟"

"بلى، ولكن عليك في البدء أن تملأي قلبك وعقلك. ثقي يا ليلى أنه حين يمتلئ العقل يتزن الإنسان وحين يمتلئ القلب يستقر"

رحل الطبيب وترك بذرة اقتراحه تنمو بداخلي، وشـرعتْ فاطمة تسـقي البذرة. ذهبتُ إلى المكتبة، أنحيت كتب التاريخ والفقه، إلخ، إلى أن أستقر رأيى على (ماجدولين).

هتف جدي: "اختيار رفيع بلا شك"

"ولكن اخشى ألا أفهم شيئًا"

"إن كانت روحكِ نقية فلن يتســعصــى عليكِ لغة، فكل محتوًى في كتاب إنما من وجدان الإنسان وما الوجدان إلا الهام من الله"

بدأت في القراءة وبكيت بشدة. أبكي غراما قتل تابعيه، وغباء إختيارنا وندمنا فيما بعد.

أمسكت بدفتر وكتبت أول انطباع لي عن كتاب.

"أتساءل هل الحب من يتلذذ بقتل أبنائه؟ هل الهوى شيطان يريد روحًا ضائعة فيملؤها أحلامًا ثم يأخذها بعد أن أوفى بوعده في إسعادها وحان وقت السداد؟ نادرًا ما رأيت قصصا عن حب تعيش تعطي ولا تأخذ. ماتت ماجدولين، بل مات كل أبطال الكتاب من أسى الحب فماذا يكون مصيري إن يومًا أحببت؟"

تلى الكتاب كتبًا أخرى حتى أنهيت مكتبة جدي. وكتبت. "يارب إن كانت تلك المآسي من صنع البشر فكيف بصنع يديك؟"

كنت قد نذرت نفسي للإكتئاب ولكن رغمًا عني بدأتُ أنسى، شعرتُ بخجل شديد فأنا عالة على جديّ حتى لو كنت حفيدتهم وكانت تلك الفاطمة خالتي، على الأقل قد غيرت مجرى حياتهم.

شرعتْ فاطمة تهدئ من روعي وتحتمل صراخي من كوابيس النوم، حين يصعب عليّ النوم تسهر معي تحكي وكنت أسمعها بقلبٍ شارد، يومًا بعد يوم بدأتُ أعتاد البيت وأهله، صرت أطمأن إلى فاطمة، أضحك إن ضحكَتْ وأتابع الحديث إن وجدت شيئًا مشوقًا فيه، حتى بدأت أحكي لها شيئًا فشيئًا.

أبكي بشدة وأنا أجتر الذكرى، تضمني فاطمة.

"الذنب ذنبي"

"لا يا ليلى ليس ذنبكِ أن كان أبوك شاذًا فأنتِ لم تختاري أبوته بل والدتك ولم تغويه عمدًا فلا تحملي نفسكِ ما لا طاقة لكِ به"

وكنت أقتنع، كم تحملتني! وصرنا أختين.

وكنت أزور أمي بانتظام، أبكي كلما رأيتها وهى تزداد هرمًا، ثم أحكي لها عن جداي وفاطمة. ظننت جاهلة أن القدر قد ملّ مني وذهب ليهلك غيري.

صار عليّ المواجهة، تأخرتُ أعوامًا على الذهاب إلى المدرسة في حين بدأ جدي برفع القضايا ضد عمي كي يثبت أنه انقطع عن كل عون لي ويطالب بالوصاية لجدتي، ربحت جدتي الوصاية بعد جهد مضن وشهادة أمي ورغبتها في ضمي لوصاية جدتي. وانقضى العام.

سجلني جدي للعام الدراسي الجديد، كنت في نفس مدرسة فاطمة ولكنها كانت تسبقني بأعوام، فحتم عليّ أن أكون وحيدة في الفصل أول يوم، بخرتني جدتي ثم ضمتني، رغبت أن أذوب وأتلاشى في حضنها. حملت حقيبتي وخرجت مع فاطمة.

دخلت الفصل وتجمدت مكاني، فشتان بين مدرستي القديمة والراهنة. كنتُ في مدرسة مرفهة واسعة الفصول قليلة الطلاب، أما الآن ففي مدرسة لم أعد أذكر أحكومية أم تجريبية، مُهمَلة ذات حجرات ضيقة تضم عشرات التلاميذ المكتظين، تكدس العشرات في فصل ضيق حائطه مليء بالحفر والرسومات البشعة والشتائم القذرة، وزكمت أنفي رائحة عطنة وعرق ومازلنا في أول النهار، انهال على سمعي الصراخ والضحكات والشتائم.
حين دخلتُ سكت الجميع وذهلوا، أكاد أشعر بسخونة أنفاس الفتية وبسعير نار الغيرة في نفوس الفتيات، أكاد أحترق. ثم بدأ الهمس وسمعت صفيرًا من العديد منهم. شعرت برجفة تعتريني وأن ساقي لا تكادان تحملاني. ظللت واقفة كالبلهاء إلى أن صرخ المدرس فيّ.
جلستُ في أول مكان صادفني، أشعر بساقيّ زميلي تلامس ساقيّ وبفحيح أنفاسه في شعري، لم أستمع لشرح الأستاذ المهمَل ولم أعِ حديث الطلاب وإن علمتُ موضوعه، لك أن تتخيل فتاة ذات أنوثة فاضحة، تثير شهوة الغلمان حديثي البلوغ وبهم رغبة في استكشاف الجنس الآخر ومتعة الجسد. متى ينتهي اليوم؟
ومضى أول يوم وأنا لا أدرى كيف مر، كل ما أعلمه أن عليّ تكرار ذلك اليوم لمآت الأيام القادمة.

.....

حتم عليّ الذهاب من جديد وآهٍ مما لاقيت! كانت سيرتي تتردد على لسان كل طالب وأصبحتُ حديث المدرسة. وعلم الكل من أكون وكيف فتنت أبي وماذا لاقت أمي بعدها.
وعانيت من تضاحك الزملاء وتلقيح الكلام.
"ياربي على هذا الجمال! له حق الرجل أن يُقتُل شغفًا بك"
وهكذا أجلس أنتظر فاطمة أن تظهر بينما أشعر أني في دوامة مغلقة تحكم دائرتها حولي كل لحظة وأنه لا ملاذ لي للهروب.
وفي يوم وأنا جالسة أتعذب أنتظر فيه فاطمة.
"أهلًا"
فزعتُ ونظرت إلى صاحب الصوت وكالنحلة وقعتُ في شباك العنكبوت، وجه وسيم، شعر أكرت ناعم، باهر الرجولة، صوته عميق.
لم أُجب
"أسمك ليلى؟"

"أولا تعلم؟"

قلتها ساخرة علّه يخجل ويرحل. لم يخجل.

"ما أجمل أسمك! جميلٌ كوجهك"

وشعرت بالدماء حارة في وجهي، هذه أول مرة يغازلني فيها فتى!

هممت أن أنهره ولكنه سبقني قائلًا.

"أنا اياد. سمعت عنكِ الكثير ولكن دعكِ مما سمعت فهم ثرثارون يحبون الحديث"

"ماذا تريد؟"

"أريد أن أعرف ليلى منك انتِ"

كان عليّ أن أصـرخ فيه أو أهينه وقتها ولكن رغمًا عني ابتسـمتُ خجلًا وبدأت واهمة حب ذاك الشاب دون أن أميز لحظتها ما إذا كان قد أحبّ أو أشتهى.

ليلى

18

وغرقت -لا أدري أرغم عني أم بإرادتي- في بحر الحب، أسمع قصص السابقين كي أتعظ وأعتبر وأزداد إيمانا، وأزداد إيماني لكن لا أتعظت ولا أعتبرت، أتركه يهدم كل اتزان فيّ فأبكي على أطلاله بعد أن يتركني ويرحل.

تفتّح قلبي البكر على هذا الحب. صدقتُ حمقاء كل كلمة قالها وكاد يغشى عليّ حين اعترف بحبه لى رغم أنه لم يعرفني إلا من شهر! همتُ مع كل حديث قاله لي، حين كان يغازلني كنت أبتسم خجلة، وحين يقول لي أحبك أبادله الكلمة. هكذا كنت أظن الحب.

كان يجب أن أعلم أن الحب ليس بكلمة حب أو بالغزل، تلك آخر أشياء يبحث عنها الأحباب.

طالما شعرت وهو غائب عني أني في اضطراب عظيم ولكن حين أراه، يستكين القلب، فالحب قبلة المشتاق، هكذا كنت أتخيل.

كنت أترك يدي نائمة في يده يمر بأصابعه على خطوطها، أول مرة همّ أن يضمني نهرته بقوة فظنه دلالًا ثم غاب لأيام لم أذق فيها نومًا وحين قابلته بعد غياب ضممته إليّ علّه لا يفلت مني ثانية وكنت أبكي كلما ضممته فتنزل دموعي بصمت، كنت أظنه ملاذي الذي أبكي فيه مآسي الماضى، تتهدج أنفاسي مع البكاء فيظنني راغبة فيه ولم أشعر بيده تمر على ظهري وأنفاسه تصطدم برقبتي وهو يقبلها من فرط حزني، كنت أتصرف بقلبي، بشوق كل الأيام التي غبت فيها عن كل وعي.

قد جننت به ولم أدرك ذلك، منذ متى يدرك المجنون جنته؟ اكتشفت الآن أني كنت أبحث عن أي ألم أُقبل عليه كي أستمتع بعذابه لأني أستحق ذلك.

كنت دائمًا أمسح دموعي على عجل حين أشعر أنه سيكف عن ضمّي كي لا ينفر مني، فيرى وجهي أحمر اللون فيظنه من فرط الشهوة إثر قبلاته على رقبتي فيختال فينفش صدره كالديك فتفخر رجولته وتثار.

كان يعلم أنه نقطة القوة التي بدونها أظل تائهة وسط تهامس الزملاء وتلاطم الذكرى. دام ذلك الحب ثلاثة أشهر أو يزيد، كنت سعيدة شقية فيه، أهيم فى المجهول ولا أشعر بساق زميلي تلامس ساقي، فقط ما أذكره أنى سألقى اياد في الفسحة أو بعد المدرسة.

مضى حبي يسير بسرعة مربكة وكنت أشرك فاطمة بهذا الحب، أحكي لها كل كلمة وكل دقة قلب شعرت بها وظننت أنه يبادلني إياها، وفاطمة دائمًا صامتة وضجرة.
أقول مجددًا. كنت حمقاء.

.....

اتسائل أكانت فاجعتي ورغبة دفينة في الحياة ما جرف بي في نهر الحب الواهم إلى هذا الحد؟ هل كنت أظن أن كرامتى مهدورة عند الجميع فلن يضير لو ضاعت عند اياد أيضا؟ لا شك أني كنت ضائعة أهتدي بهدى الضلال والحق أمامي وأتعامى عن رؤيته.

.....

وفي يوم ذهبنا إلى منتزه وجلسنا تحت شجرة، تحدثنا وهو يمسك بيدي أخزن هدوء النفس لصوم طويل مقبل، وخَلَتْ الحديقة من روادها لا أدري أتقدم الوقت وصرنا في حظر تجوال!
"هيا نرحل"
"دعينا قليلًا فأنا لا أشبع من رؤيتك يا ليلاي"
انفرجت ابتسامتي واسعة.
"حسنٌ"
فظنها استجابة لشيء آخر، لحظات وأقترب مني وبدأتُ أرتاب، تجمدت وقد شعرت أن أمرًا بشعًا سيقع، تلاحقت أنفاسي فظن ذلك شبقًا وأحاطني بذراعيه فارتجفت خوفًا فظنه شهوة تشتعل. صار بعد ثوان يمر يده على ظهري وشُلت حركتي ورأيت أبي فيه، شعرت بأنفاسه المخمورة في أنفاس اياد المتلاحقة وبيده في يد اياد، أرتجفت بشده وانتفضت فظنني فى نشوة فثارت رجولته فتمادى بينما حاول أن ينزع عني ثوبي، اقترب بوجهه يريد تقبيلى فأرى وجه أبى وهو يقترب يريد الفتك بي.
قفزت واقفة. اندهش اياد وأنزعج.
وقال بتأفف لاهث.
"ماذى جرى لكِ!"
صرخت فيه.
"أجننت؟ كيف تسمح لنفسك بكل ما جرى! ماذا تظننى فتاة من تلك المدرسة الحقيرة!"

"لا تهولي الأمر يا ليلى. لقد كنتِ سعيدة بذلك فلا تنكري، لا تنسي أني رجل له رغباته مع حبيبته. لن نظل في حديث سخيف وأكتفى منك فقط بضمك"

ثم صمت للحظات يلملم خيبته حين تهيأ للقاء ممتع. واصل صائحًا.

"ماذا جرى! لقد كنت راضية عن كل ذلك فلماذا التدلل؟"

أقترب مني ورغمًا عني وضع شفتاه فوق شفتاي ففض بكارتهما وأخذ في التهامهما. بلا وعي صفعته صفعة دوت أصداها في الحديقة. صرخ فيّ.

"أجننتي!"

أمسكنى من كتفيّ كأنه يهم بقتلي.

"بل أنت الذي جننت. حتى أنت يا اياد تريد الفتك بي؟ لما تفسد حبنا من أجل شهوة حيوانية؟ ما الفرق إذن بينك وبين كل حيوان في تلك المدرسة؟"

ضغطت يداه على ذراعي بشدة فتألمت.

قال بصرامة وثقة.

"لا عيب في رجل يرغب في حبيبته، تمتعه وتتمتع هي الأخرى، كلانا مستفيد"

"ومستقبلى؟ ألم تفكر ماذا سأفعل بعد ذلك! لا تعيد عليّ وعود الزواج المبتذلة"

"لن يحدث لك شيء. كل ما سيحدث أن يداعب أحدنا الآخر إلى أن نصل للذروة وهكذا يشبع كلانا. ستبقين عذراء إلى أن يحين زواجك أو إلى أن تتخلين عنها إن أردت"

"ماذا تقصد؟"

تأفف من غبائي.

"الجنس الفموي يا ليلى، Oral sex أفهمت؟"

ذُهلتُ بعد أن صعقتُ.

"والله. ألم تفكر به؟ ترغب بذلك الفعل في عزلة بينما الله مطلع عليكَ ولا تفكر به! كيف سألقى الله ولم أصن فرجي؟"

"من قال أننا مقدمون على زنا؟"

"مجرد أن يمس جسدي جسدكَ من غير زواج زنا، ألم تفكر في شرفي أمام الناس بل أمام نفسي؟"

ضحك ضحكة خفتُ منها وأرخى يديه عن ذراعيّ.

"شرفك! أجل أجل!"

لمعت عيناه كأنه تلذذ بإيذائي.

"لعلمك كل الشـــباب يعيشـــون عليها، لا يوجد فتى أو فتاة لم يزنوا كما تقولين، كلنا نمارســه. ماذا كنت تظنين؟ أن كلٌ منا يحيا على الصــوم والرياضــة؟ كل فتاة لها شــبقها الخاص وإن أخفته عن الناس وعلم به كل الناس. فماذا يميزك؟"

لم أصدق أذنيّ. أهذا اياد! دمعت عيناي بشدة.

"بالله عليك يا اياد لا تكرر ذلك من فضــلك. أنا فتاة شــريفة دخلَتْ أمها السـجن دفاعًا عن عرضها فلا تجعلني أهتكه ويضيع ما فَعَلَتْه هباءا"

"حسنٌ"

أدار لي ظهره ومضى، جريت وراءه وأنا أتعثر وأناديه، لم يعرني التفاتًا ثم مضى وكأنه ترك خرقة بالية لا بنتا أهانها لتوه.

.....

وغاب عني ولم أره لشـهرين. بدأتْ عواطفي تتقاتل داخلي وصـار الشـوق غير محتمل. كم ذهبت إليه وسط أصحابه أطلب منه خمس دقائق أحدثه فينا وحدنا.

"حسن أنتظري قليلًا"

يقولها وهو لا يكاد يلتفت إليّ ثم يعود إلى شــلته وكأنه يحدد مصــيره بالحديث مع تلك الشــلة. فأظل واقفة يعتريني الهوان يكاد يفقدني الشــعور بســاقيّ. وأعود وألح إلى أن يملّ ولم أكد أبدأ بالحديث حتى يقول أن عليه العودة إليهم وتنتهي الفســحة ونفس الأمر يحدث بعد نهاية كل يوم.

ثم بدأتْ أيأس وصــرت أجلس وحيدة في انتظار فاطمة ولا تأتي فاطمة. وبدأت أســمع ما تغاضــيتُ عن ســماعه وأنا في أوج الحب، أتضح لي أني كنت حديث المدرســة؛ كيف أن أوسم فتى وأشهرهم وقع في شباك من أغوت أباها، أو كيف أن الفتاة الساذجة وقعتْ في براثن الفتى في أول محاولة له. وكم من فتاة عرفهن ومارس معهن ما كان يريده مني.

ولم ألحظ اختلاف فاطمة إلا حين يأســتُ من حبي؛ دائمًا ســاهمة وحين تفيق تتجنب الحديث معي، عللتُ ذلك لأنها غاضــبة مني حين شُــغِلتُ عنها، حاولتُ مرارًا أن اشــاركها الحديث، ولكن كانت دائمًا ما تنهي الحديث بسرعة قبل أن يبدأ.

حتى سَـرَت في المدرسـة اشـاعة أني مارسـتُ مع اياد ما كان يريده مني، لم أعد أعرف أين أذهب، صـرتُ قِبلة الأنظار بعد أن كنت مجرد مكان مقدس يريدون تلويثه بأعينهم، ينظرون إليّ كأني الفاجرة وهم الشرفاء!

يومها بعدما شقيتُ تحت وطء الوقت انتهى اليوم.

"اياد أريدك لثوان"

"انتظري قليلًا"

فصرختُ فيه أمام الجميع.

"كن كالرجال ولا تدع فتاة واقفة في انتظارك بينما تلهو مع شلتك"

قال لهم بعد أن بهت.

"انتظروني قليلًا ريثما أتعامل مع هذا الجنون"

ثم تقدمنى واضعا يديه في جيبه.

"ماذا تريدين؟"

"ماذا يُقال في المدرسة عني؟"

"ماذا يُقال؟"

أدّعَى الجهل وقد لمعت عيناه.

"لا تتغابى، أنت تعرف جيدًا ما يقال. من الذي أشعل تلك الأقاويل؟"

"لا أدري، ولكن لا يجب أن ينكر المرء منا ما أقترفه من ذنب"

"ماذا تقصد؟ أنت تعلم جيدًا أني لم أمارس معك أيًا مما يُقال"

"حسنٌ لكِ الحق أن تُكّذبي ما يقال وللناس الخيار أن يصدقوا تكذيبكِ أو يراجعوا تاريخ غواياتك"

شعرتُ بنصل كلامه يدمي قلبي.

"ماذا فعلت لك؟ لما تنشـر عني ما ليس صـحيحًا ولم أُكنَّ نحوك حبًّا إلا وسـبقْتَني في اظهاره"

"عادي، لفتِ أنتباهي، أبديت لك أعجابي، خضنا الشهوة ثم أنتهى الأمر"

"ما أنت إلا حقير"

وتركته وأنا أسمع ضحكات شلته تصوب نحو ظهري.

.....

كنت كالمجذوبة تترنح في الأحياء لا تلوي على شيء حتى وجدت نفسي أمام البيت.

"أين كنت يا ليلى؟"

هتفت جدتي بلهفة.

"كنت أتمشى قليلًا"

"خمس ساعات تتمشين!"

نظرتُ نحو السماء فوجدتها سوداء حالكة، دخلتُ واجمة دون أن أجيب جدتي ودخلَتْ فاطمة ورائي، ما إن نظرت اليها حتى انخرطت في بكاء مرير وأنا أرتمي في حضنها.

"كان يخدعني، آه يا فاطمة، الوغد الحقير! ما كفاه خداعي بل أشاع تلك الأقاويل الحقيرة عني"

حين هدأ نشيجي لاحظتُ أن ذراعيّ فاطمة لم يتحركا، ظلاّ ملقين بإهمال دون أن تحركهما لتحنو عليّ، نظرت إلى وجهها فكان كتمثال شمع وخيل إليّ أني أشم رائحة اياد فيها.

"فاطمة ماذا حل بك!"

"لا شيء فقط تعبة"

ثم بعد صمت قصير ترددت للحظات ثم أتخذت قرارها.

"بصراحة يا ليلى أنتِ المخطأة. أنت التي أظهرت حبها عيانًا واستجبتي له منذ أول يوم فماذا كنت تنتظرين؟ أي فكرة سيأخذونها عنك وأنت سهلة هكذا! خاصة والكل يعلم بسيرتك السابقة."

يومها أنكسر فيّ شيء ولو بقي آنذاك بضع شظايا فقد فتتها فاطمة بعدها بأيام.

.....

كنتُ في الفصل أتعذب من الرائحة وتلامس ساق زميلي بساقي حتى أتت فتاة وقفت أمامي، لا أذكر أني تعرفت على شكلها تحت الأصباغ بل حتى أني نسيت كيف تبدو حين ولت لي ظهرها ومشت.

"ليلى! كيف الحال؟"

قالتها بخبث من خاض في الدنيا.

"بخير"

"غريب"

"ما الغريب!"

"هدوئك هكذا وكأنك لا تعلمين"

"لا أعلم ماذا؟"

دق قلبي وتمنيت أن تصاب صاحبة الأصباغ بالخرس.

"المدرسة كلها تتحدث عن اياد وفاطمة وانهما ارتبطا"

وقفتُ وقد طفح الكيل، صرختُ فيها دون وعي.

"أخرسي! إن كان اياد حقيرًا فإن فاطمة أشرف منه ومنكن، تلك خالتي التي تتحدثين عنها"

وبادلتني الصراخ كأفضل أمرأة تجيد الشجار.

"هدئي من روعك. بدلًا من أن تصبي عليّ جم غضبك أذهبي إلى فاطمة وأسألها. الكل يتحدث عن قصة غرامهما"

وضحكت ضحكة داعرة، لا أدري لما تضيع وقتها هنا مادام أمامها مستقبل في سلك الدعارة!

خطوت خارج الفصل فصرخ فيّ مشرف الدور ورجعت فورًا، قضيتُ الساعات الطوال في صحراء الشك أحتاج شربة الحقيقة علّني أرتوي منها، تشملني سكرات العشق من نصل الغدر، تتغير وجوه العشرات من المدرسين ولم تأتِ الفسحة بعد، فقدت الأمل وخفت أن يكون الزمن قد توقف تنكيلًا بي.

وجاءت الفسحة، عدوتُ وكان واقفًا مزهوًا يتكلم بأعمق نبرة في صوته، بلا وعي شددت ذراعه بقوة لم أعهدها فيّ من قبل وكاد يقع.

"ألن ننتهي من جنونِك!"

"أصحيحٌ ما يقال؟"

قال بمكر.

"لن أجيب على نفس السؤال"

"ماذا بينك وفاطمة؟"

أبتسم في خيلاء.

"كل خير"

دق قلبي بعنف لم أعهده. سألته سؤالًا أعلم أجابته وإن سمعته أذناى هلكتُ.

"هل أغويتها؟"

قال بصوتٍ عالٍ.
"أنا وفاطمة نحب بعضنا، أحببتها بجنون وأحبتني بلهفة بالطبع سأذهب إليها. ليست مثلك -ثم همس قائلًا- بادلنا بطبيعة الحال الغرام. كم كانت! إن نظرنا بعين العدل لم أفعل ليلتها شيئًا سوى المتعة بينما كانت هي قائد رحلتنا تلك الليلة"
كأن روحي خرجتْ من جسدي وأصبحتُ شاهدة على الأحداث لا أملك من أمرها شيئا.
وجدتني أصرخ وأشتم شتائمهم، وتجمع حولنا من كان موجودًا. ثم صفعته وبقيتْ آثار يدي على خده، فترك هو الآخر آثار يده على خدي! أفقتُ وعدتُ إلى جسدي من جديد.
صفعني! وشهق الحاضرون. تحسستُ موضع الصفعة بيدي.
"كل يوم تؤكد لي فيه أنك لست برجل بل حيوان قذر"
حثثتُ الخطى وصدى صوته يدوي خلفي.
"ماذا أنتظر من فتاة أغوت أباها وأدخلت أمها السجن ثم أغوتني! كفاكِ دور الشرف فما أنت إلا غاوية"

.....

عدت إلى البيت. كم رغبت لحظتها في البكاء و لكن لم أقدر.
أخبر المشرفون ناظرة المرحلة بالواقعة فاستدعتنا، ظلت تصرخ فينا بل فيّ، بالكاد التفتت لإياد، وإياد يدّعي دور البراءة وأنا أحاول أن أدافع عن نفسي وسمعتي المبعثرة.
"يا حضرة الناظرة. أنا."
"ولا كلمة. ماذا تظنين نفسك؟ في السينما! تنتقين من يحلو لك من الشبان ثم تتشاجرين لأهون الأسباب. ماذا أغانية أنت!"
"من فضلك أنا"
"أنت ماذا! أنت مُنحلة. المدرسة تتحدث عن حبكما الجارف وعن"
أمسكت عن الكلام واستعاذت من الشيطان ولم تكد توقف سيل الشتائم.
لما وصل أمري إليها بينما أمر فاطمة ظلّ في مأمن من سيل شتائمها؟ ثم لجم لساني حين فطنتُ لما خطط لي.
"نحن هنا في المدرسة لنتعلم فقط لا لكي نعشق"

وأكملت بالعبارة نفسها التي يرددها جميع العاملين بتلك الوزارة كقَسَمٍ يجب أداءه قبل مزاولة المهنة.

"هذة وزارة التربية والتعليم. يعني التربية قبل التعليم، سأكتفي برفدكما ولكن مشكلة كهذه مرة أخرى تسحبان ملفكما وتجدان أي مدرسة أخرى تتبادلان فيها الغرام"

صبتْ جم سخطها عليّ وحدي ولم تكد تذكر وجود اياد.

هل لأنني فتاة وهو الرجل؟ مهما أخطأ فهي نزوة يتوب عنها بينما باب التوبة مغلق لمثلي؟ أم لأن جمالي أستفزها؟

.....

وعادت فاطمة، أنتظرتها في غرفتنا إلى أن أتت. نظرتْ إليّ بتحدٍ واضح.

"أصحيح ما يُقال؟"

"كلام الناس كثير"

"إذن لماذا تكلموا من الأساس ولماذا أنت!"

"لا أدري؟!"

بح صوتي ودموعي تأبى إلا الهطول.

"لما؟ لما يافاطمة؟"

ضحكتْ بمرارة ثم نظرت بقسوة إلى الحائط المواجه لنا.

"لما! طالما كان طيف أمك حاضرًا في البيت. لم أنعم بحب أبويّ، دائمًا ما كانت تشاركني خيرية الحب ولم أرها قط، عشتُ أتمنى اهتمامًا لي وحدي ولم أجده. أتدرين كيف علمتُ أني لستُ وحيدتهم؛ حين شعرتُ أني لستُ وحدي في قلبهم. كنت أرى دهشتهم كلما ظهرت أمامهم. تدخل عليهم فتاة غريبة إلى بيتهم حتى يذكرون أني أنا الأخرى أبنتهم. سألتهم عمن سبقني إلى قلبهم وكرهت خيرية. وكأن هذا لا يكفي فجئتِ لتسرقي الحب الباقي لي. كأن ما في الكون كله سوى ليلى!"

نظرت إليّ بكراهية أرعبتني.

"في البدء أشفقت عليكِ وتحركت مشاعر الخالة نحوك فأعتنيت بك، كتمت غيرتي منك حتى سالت من جوانب قلبي كرهًا.

أختنق صوتها.

"لم أحب أبدًا. لم يلتفت إلي مخلوق رغم أني لست أقل منك جمالًا، ثم تمر بضعة أيام على دخولك المدرسة حتى تلفتين نظر اياد الذي كنت معجبة به في صمت. كرهتك وتمنيت لك الشر، فكرهتك أكثر لأني ما عهدت كل تلك المشاعر فيّ، لم أكن أعلم أني بهذا العهر،ولا فرق بيني وبين الحمقاوات في المدرسة. وبدأت أحادثه وأُلقي إليه بكلام ليقع في شباكي."

أختلت قدماي فجلست على أقرب سرير. بينما ضحكت فاطمة ساخرة.

" لم أعلم أني بمثل تلك المهارة، تجاوب معي بسهولة، وصرّح لي برفضك الغبي كل ما كان سيقدمه لك. صرنا نتحدث كثيرًا وأنا أغريه كل يوم حتى أتفقنا فيه على موعدٍ نلتقي فيه في شقة صديقه وأثرنا الإشاعات فصرتُ ساقطة أخرى في تلك الخرابة وبقيتِ وحدكِ كما رغبتِ شريفة. المدرسة كلها تعلم أنه تركك ولجأ إليّ لأني لم أفعل ما فعلته معه. فهل أفادك شرفك؟"

أمسكت برأسي كي لا أختل، كل ماعشته كان كذبة، ليتك يا أبي أخذت ما أردت وقتلتني.

"لم تضعي في حسبانك كونك خالتي. لم أفعل ما يسيؤك، فلما لم تتركيني أموت كمدًا على أن تقتليني بيديك بعد براء؟ على أن أحمل وزركم جميعًا؟ أخبريني أنك تعبثين بي وسأصدقك، والله سأصدقك"

لم يبدو عليها التأثر.

"يا أبنة أختي! القريب أولى، أراد اللعب بك والتباهي بلعبته الجميلة ولكن سرعان ما ضجر منها حينما كانت لا تسير على هواه فرماها."

شرعَتْ في خلع ملابسها ببطء كأنها تستعد لقتلي؛ رأيتُ في جسدها علامات عرفتُ فيما بعد أنها تُسمى ب .love biteرأيتُ آثار ليلتهم وأنا السبب.

ذهبتُ إلى جدتي.

"أيمكنني النوم معكم؟"

.....

وفي اليوم التالي ناداني جداي. مثلتُ أمامهما ولأول مرة أجدهما غاضبين.

"خيرًا"

"والله! لولا عدم وجود غير هذا البيت لك لطردتك فورًا."

تهدج صوتي قائلة بوجل.

"لما؟"

"ماذا بينك وبين ذاك الفتى المنحل؟"

بدأتُ أبكي.

"لا شيء بيننا أقسم لك"

"لا تلوثي قسم الله بحجتك. فما إذن يقول الناس؟"

"لا أدري، والله ما أقترفت إثمًا"

"اتصلتْ بنا الناظرة وأخبرتنا عما حدث في ساحة المدرسة وعما يقال"

"لم تدع لي الناظرة فرصة للحديث"

"حسنٌ! ماذا إذن عن كلام فاطمة؟"

"ماذا قالت؟"

سألت بصوت جاف ونادت جدتي فاطمة.

ومثلت فاطمة بين يدي جديّ.

"قولي من جديد ما قلته"

إن كان هناك مُخرِج يكتشف المواهب بيننا لأختار فاطمة من فوره.

"طالما حكت لي عن حبها، حذرتها كثيرًا إن تمادت ولكنها لم تسمعني. وسرى في المدرسة خبر ممارستها ال.."

وسكتت فاطمة متظاهرة بالحياء وذرفتْ دموعًا حارة.

"حين واجهتها استهانت بكل حديث عن الحلال والحرام بل قالت إن أخبرتُ أحدًا ستقول أني أنا من مارست ال ..... لا ليلى"

هتفتُ باكية.

"والله ما حدث شيء من هذا!"

قامت جدتي ووقفت أماي وعيناي في الأرض ملقاة.

وأتساءل الآن لما خاب أملي في جدتي! من ستصدق؟ حفيدتها أم فاطمة أبنتها التي ربتها!

رفعتْ جدتي وجهي بأصابعها وصفعتني!

حاشت خالتي بيني وجدتي حين بدأت سيلًا من اللطمات.

"لا يا أمي كلنا نخطئ. المهم أنها مازالت بنتًا"

نظرت إلى جدي أتوســل إليه أن يصــدقني وكان ناظرًا إلى الأرض، حاول عقلي حمايتي وأغمى عليّ.

.....

جاءتني حالة خرس لأيام، حاولت الحديث فلم أســتطع. لم أجد حنوًا بل تأكد لي أني صرتُ عبئًا عليهم وعدت من جديد إلى المدرسة.

شقيت بالتهامس لدرجة أني لم أعد أسمع شيئًا. صار المعلمون يعاملونني كساقطة ولكن فاق الأمر كل حد في الفسحة.

ها هي ذي فاطمة تقف مع شلة اياد تضحك وتبادلهم الشتائم وتلتصق بإياد فيحيطها بذرعه. شعرتُ أني في كابوس. صعدتُ خلسة إلى الفصل كي لا يراني المشرفون، جلست وقد خفّت الرائحة قليلًا. وتنهدتُ بحرقة، لما لا أموت؟

ســالت عبراتي. وجدت لذة في حزني ورغبت في المزيد، أن أكتب وصــيتي مثلًا لو متّ قهرًا، فتحتُ الحقيبة لأجد ورقًا مطويًا لا أذكر أني وضــعته. فتحت الورق كي أتذكر محتواه ولكن الخط ليس خطي. أيمكن أن تكون رسالة من اياد يعتذر فيها إليّ!

يا حبيبي! ضــممتُ الرســالة وقبلتها قبل أن اقرأها. ســامحته لحظتها رغم كل ما فعله بي وفتحت الكتاب الكريم بقلبٍ ملهوف.

"فاتنتي ومدمرتي،

ملاكي وشيطاني،"

تعجبت لتلك الإفتتاحية! ماذا يقصد بهذا كله!

عدت إلى القراءة.

"فاتنتي ومدمرتي،

ملاكي وشيطاني،

الهتي،

لن تعرفي شخصي فمثلي لا يشعر به أحد حتى يعرفه.

كنتِ أملي.

كانت الدنيا حالكة حتى أشرقتها بشمس شعرك الوضاء،

وملأتِ سماءها بزرقة عينيك البحراوين.

همتُ بكِ. صرتِ ملاكي الحارس لي، ملاكي الذي لا يخطئ.

ارتباكك وخوفك.

زادني شـغفًا بكِ. كم وددتُ الحديث إليك ولكن خفتُ فأنّى لإنسـان أن يحادث إلهًا إلا بالإبتهال والدعاء؟

ظللت أعيش في كنف شمسك وبحر عينيك. وأنهلّ من حليب بشرتك فأزداد عطشًا.

مضـى عهدٌ لم أعِ حيزه في غياهب الزمن وأنا في عذاب ونعيم. يقتلني الشـوق وأهنأ بوجودك. مجرد وجودك في نفس المكان يلهمني أسـرار الكون. مجرد تنفس عين الهواء الذي تتنفسينه يملؤني سعادة.

وكأن روحك أصـبحت وروحي روحًا لم يخلق الله مثلها لسـكن جسـد فانٍ بل لجسـد خالد.. فأنفاسك جزء من روحك دخلت مع أنفاسي فامتزجت بروحي.

صرتُ أعبدك. أصبحتِ إلهتي التي رزقتني جنتها ومتعة النظرإلى وجهها.

كل يوم أقول سأذهب اليها وأتكلم ثم أجبن. فمنذ متى يكلم العبد إلهه دون حجاب؟

إلى أن ملكَ الحب قلبك أخيرا ولكن لإياد السـافل، خدعك بالحب. دنسـك. فصـرتِ صنمًا أعبده باطلًا.

كلما أسمع حديث الطلبة عن علاقتكما أريد أن أنتشلك منه قبل أن يلوثك ولكن من أنا لتأخذي بنصيحتي؟

علم الكل بحبي لك وصرتُ أضحوكة المدرسةبل لقبتُ ب "مجنون ليلى" ولم تشعري حتى أني موجود في الحياة.

سَرَت الأقاويل أنك تلوثتِ!

ظللت أضيع الفرص إلى أن ضعتِ وضعتُ.

لم أعد أحتمل أن أرى جسمك الرقراق الذي مُسّ وشفاهك التى قُبلت وشعرك الذي بلا شك دفن اياد وجهه فيه فخبا الشمس وبات عدمًا.

كنتُ أظنكِ غيرهم. أنك من زمن آخر قد جئتِ.

لم أعد أحتمل ذلك الصـراع بين الفضـيلة والرذيلة. صـعب أن يرغب المرء في خوض المتع مثله مثل جميع من حوله وفى الآن ذاته يخشـى الله ويخشـى نفسـه بعد أن تنتهي المتعة. وصعب ذلك الصراع ولا يوجد حولك أي فرصة لتلك المتعة.

ليتني ما عرفت الله! وليتنى ما أحببتك!

بل ليتني ما عرفتك!

وألا ليت هذا الليت لا يقع!

ليتني ما خلقتُ!

في لحظة يأس أملتُ أن يكون حديث الطلبة كذبًا ولكن ما إن بدأ الناس في الحديث عن اياد وفاطمة حتى وجدتك أمامه تصـرخين. تأكدتُ لحظتها أنه نال منك ما أراد ثم هجرك. حين هوتْ يده عليكِ كدت أخرجُ مقصًـا كي أقتله و أقتلك، ولكن منذ متى حطم الكافر أصنامه؟

مجرد الاستمرار عبث. اهدار في الهواء هناك من هو أحق به مني.

جئتِ فصرتِ نكبة حياتي.

أنا روحٌ منهكة تبحث عن الخلاص من السجن الفاني.

أخرّتُ لقائي مع الموت حتى يسمح لكِ أهلك بالخروج وألقي بالرسالة في حقيبتك.

أدعو الله قبل أن اكْفُر به أن يفجعك في عيشك ولا تهنأين بنوم أو صحو.

لا الذنب ذنبك ولا ذنبي.

بل ذنب القلب.

اسـتغفري الله يا صـنمي فرغم كره الحب لك فإني لا أرضـى لك مقامًا معي في سـعير الأخرة. فتوبي يا نكبتي!

لِكَيْ يغفر الله لك وتنولين الجنة علّك تشـفعين لي وأُنتشـل من لظى الجحيم إلى جنة الخلد.

سيكون أسمك آخر ما سأقوله، سيكون أسمك الشهادة لي.

فشهادة التوحيد لن تُغني عني شيئًا.

وداعًا وإلى لقاء بعيد في يوم الحشر.

عابدك،

والمنتقل إلى القبر وعذابه،

مجنون ليلى"

ظللتُ لدقائق لا أكاد أعي ما قرأته. دق قلبي بعنف لم أعهده. رجفة كالموت. أرتجفت يداي بشدة وسقطت أنفاسي من هوة سحيقة فخلتُ الموت آتٍ.

سيقتل نفسه! وأنا السبب!

لم أشعر بقدميّ لفترة، ما إن بدأت الشعور بهما حتى قفزتُ من مجلسي. كالمجذوبة صرتُ أفتح كل حقيبة وأفتش في الدفاتر علّني أعثر على صاحب الخط، لم يكتب أسمه كي لا أهتدي إليه، غرقتُ في عرقي وتبلل شعري كأني أغتسلت لتوي من إثمٍ كبير.

لم أعثر على الخط، مستحيل بين الحقائب ومئات الدفاتر، يارب ماذا افعل؟

جريت بسرعة إلى مكتب الناظرة.

"ماذا تريدين؟ أنا مشغولة كما ترين"

"يا حضرة الناظرة فضلًا ساعديني"

"ماذا هنالك؟"

منظري البائس أثار أهتمامها.

"عثرت على رسالة وأسم صاحبها غير مدون و.."

"ما شاء الله! تعطلينني لأجل جوابات غرامك! ماذا تريدين مني؟ أن أعرف لك صاحبها؟ إن لم تغربي عن وجهي سيقع ما لا يحمد عقباه"

"أسمعيني"

نادت مساعدتها

"خذي هذه المجنونة من هنا"

أخرجوني بينما أصرخ.

يارب سيقتل نفسه! أزرع الخوف في قلبه!

لا تدعه يقتل نفسه بسببي!

وأنا في الفصل والمدرس يشرح بإهمال لا أعبأ بساقي زميلي وأنفاسه ولا برائحة العطن، أتلفت حولي علّني أعثر على الوجه المراد، علّني أرى جنون الموت على وجهه. عدت إلى المنزل ولم أعبأ بجدتي وهي تصرخ فيّ حين حادثتها الناظرة من جديد تخبرها بأمر الجواب.

ذهبتُ بعدها إلى جدي.

"جدي أسمح لي بالخروج"

"لما؟"

"أرجوك يا جدي أقرأ هذا الكتاب ودعني أخرج"

قرأ جدى الجواب وأمتقع وجهه

"ماذا أفعل بك؟"

"والله يا جدي أنا بريئة، صدقني أرجوك، لم يمسسني بشرٌ قط إلا.."

صرخ فيّ.

"إلا من؟"

نزلتْ دمعتا خجل.

"إلا أبي"

حوقل جدي وهدأ سائلًا لما أريد الخروج.

"أريد أن أذهب إلى قسم الشرطة علّهم يهتدون إليه أو إلى أهله قبل أن يُقدم على ما أراد"

"لا يا ليلى لن تذهبي، بذهابك إلى القسم ستجلبين لنفسك السين والجيم ولن يلبث الناس أن يذكروا واقعة أبيك ويربطونها بواقعة الرسالة. دعي الأمر لمشيئة الله فأدعِ الله أن يهدي الفتى"

"أرجوك يا جدي. أنا لا يهمني أمري، لن أعيش إذا وقع الأمر، سيقتل نفسه بسببي وسأحمل على عاتقي أوزار أبي وأمي وذاك الفتى"

بكيتُ وربت جدي على كتفي ولم يوافق ولم أذهب.

.....

في صباح اليوم التالي ذهبت إلى المدرسة وأنا أشم عبق الفناء في الأرجاء. دلفت من البوابة ووقفت في الطابور.

غزا الضباب المكان فصار من الصعب الرؤيا. صمت قاتل يعم المكان، أكاد أسمع للصمت ضوضاء.

مرّت دقائق وكان من المفترض أن تبدأ إذاعة الطابور الصباحية ولكن وقفت أمرأة بدا لي أنها مديرة المدرسة أمام مكبر الصوت وتنحنحت.

"أعزائي الطلبة، أبنائي،

أصاب المدرسة بلاء عظيم لا تسع كلمات الدنيا في وصف الحزن في قلوبنا. يؤسفني أن أنعي وأقول.

أنه أنتقل إلى رحمة الله زميلكم (طاهر أحمد ضياء).

فُجعنا بوفاته وتألمنا لفراقه. كان مثالًا للإنســـان النبيل فلندعوا له بالرحمة، تعلن المدرســـة عن حداد ســـيدوم لثلاثة أيام وإن كانت غير كافية لتداوي لنا جرحنا الأليم. رجاءًا فلنقرأ على روحه الفاتحة"

بدأ الكل في قراءة الفاتحة حتى هيئ لي أن كل أديان العالم ومعتنقيها رفعوا أيديهم قراءة لسورة الفاتحة.

" لا لا يمكن!"

صـــرختُ بأعلى صـــوتي. وجريت علّ الأزمان والأقدار تجري معي فينتهي العالم ســـريعًا. جريت وأنا أبكي وظنني الناس مجنونة بملابس مدرسية.

إلى أن وصلت لباب السجن.

"ماذا تريدين يابنت؟"

قلت له وتكاد روحي تخرج مع كل نفس لا استطيع أخذه.

"أرجوك أريد لقاء حضرة المأمور"

"لا يمكن"

ولكنه رق لحالي أو ربما فتن بجمالي وصـحبني للمأمور. مثلتُ أمامه وحاول تذكر أســـمي ومن كنت أزور.

"ماذا تريدين يا أبنتي؟"

كدت أركع تحت قدميه أرجوه أن يبقيني في ســجنه فأبقى مع أمي أو في حبس خاص بي فقد أرتكبت من الجرائم ما يكفي.

"أريد رؤية أمي"

"ولكنك بلا شك تعلمين أن للزيارة أيامًا محددة"

كادت ساقاي تخذلانني فأسرع العسكري بإسنادي.

رق لحالي المأمور أو لعله هو الآخر فُتن بجمالي.

"ما أسم أمك؟"

بعد دقائق ظهرتْ أمي من الباب، كانت ممتقعة الوجه. ما إن دخلَتْ حتى جريتُ إليها وضممتها وبكيت بشدة وأنا أتأوه حتي خيل إليّ أن أحشائي ستخرج مع كل شهقة.

"ماذا بكِ يا ليلى؟ ماذا بكِ حبيبتي؟ أحدث شيء لك؟ لجديك؟ لخالتك؟"

فأبكي أكثر. ضـمتني أمي بلهفة وهي تقرأ عليّ المعوذات وتنزل عبرات قلبها المثكول. تركنا المأمور وحدنا. أمسكت أمي بوجهي ورفعته.

"ماذا حدث؟"

"لا شيء"

"ليلى! تأتين إلى هنا ركضًا وتبكين هذا البكاء عوضًا عن الذهاب إلى المدرسة ثم لا شيء؟ ليلى حبيبتي أحكي"

بدأت أنهنه.

"لقد أحببتُ"

وضعتْ أمي يدها على فمها فهذا الخبر وحده كافٍ لإرعابها.

"وضاع شرفي وسمعتي وقتلت نفسًا بغير حق ولم تمس يداي دمًا"

"ليلى! كفاك الغازًا لا تفجعي قلبي عليك، أخبريني ما الأمر؟"

"ليتك يا أمي تركتِ أبي ينول ما أراد"

وحكيت لها كل شـيء. تنهدتْ أمي، لوعة أم راحة؟ أفسـحت لي مكانًا بجانبها، جلسـت وأحاطت كتفيّ بذراعها.

"ليلى حبيبتي! كنتُ مخطأة حين ربيتك. أدركت متأخرة أننا صرنا مجتمعا فاسدًا منذ زمن بعيد فقد تغيرت نفوس الناس. لم يرحمك الناس حتى جديك وخالتك. الذنب ذنبي منذ البدء أنا من أخترت هذا الطريق وهذا المصير لنا. ثقي يا ليلى أن هذا أختبار من الله عليك بالنجاح فيه. يا ليلى! قد اصطفانا الله من بين الناس فنُعاني في دنيانا بقلبٍ سليم ليرفعنا الله درجات عنده فيزيدنا بركات.

أيقنت منذ زمن، منذ دخلت أبواب السـجن أن البؤس والشـقاء ما هما إلا إرث تتوارثه الأجيال وأنى لا بد أورثتك عذاب الحب وسـوء السـمعة وبلاء الدنيا. لا تيأسـي، قريبًا سأخرج من هنا، ما هي إلا هنيهة من الزمن"

لم أفهم فأكملت.

"أقام جدك دعوى طعن لحكمي والمحامي يؤكد لي أني لا بد سأنال حريتي قريبًا وسيكتفى القاضي الناظر في الطعن بالمدة التي قضيتها ها هنا قبل الحكم وبحسن السير والسلوك ويعيد النظر في شهادتك"

"لم يخبرني جدي"

"أراد ألا تتعلقي بحبال ذائبة وألا تنهاري إذا رفض الطعن"
وأتى المأمور معلنًا انتهاء الزيارة، ودعت أمي.
وتعلقت بحبال الأمل ودعوت الله ألا تكون ذائبة.

ليلى

19

عدتُ مشيًا وصفعتني جدتي مجددًا. لم أدر كيف كان الحنان يُخفي تلك القسوة، ونمت على الأرض، كان صلبًا أيقظ جراحي، واعتزمت ليلتها ما سأفعله.

حين صعد الطابور ودخلت الفصل تقابلني الرائحة أنتظرت عشر دقائق ثم حملتُ حقيبتي وخرجتُ غير آبهة بصراخ المدرس ومشرف الدور.

الحق حق! فعليّ إذن اظهاره فلن أخسر أكثر مما خسرت.

"من فضلك أرغب في مقابلة المديرة"

"لما؟"

سمعتُ في صوتها نبرة حنوٍ كدتُ أنساها، غمرني أرتياح عجيب وأرتخت ساقاي، أختل توازني فجأة وسقطت على الأرض. لم أعد أشعر بساقيّ ورغم ذلك لم أهلع. بقيتُ ساكنة.

أسرعتْ السكرتيرة إليّ تسأل عما بي.

"أيمكنك القيام؟"

أجبتها بهدوء.

"كلا"

ساعدتني السكرتيرة في القيام ولكن لم أستطع، تشبثت بالمكتب وجلست على الكرسي بأعجوبة ألهثتني.

"تلك أول مرة؟"

"لا بأس دقائق وسيعود الشعور من جديد"

خرجتْ المديرة على إثر الجلبة. تأملتها، هممت أن أقوم وكدت أقع من جديد.

"ماذا بك يا أبنتي؟ ماذا حدث يا سعاد"

حكت لها سعاد.

"أتلك أول مرة؟"

"لا"

"أهدأي ستكونين على ما يرام، إن لم تشعري بساقيك ذهبنا بك إلى المشفى"

لم أكن هلعة كي أهدأ، لم أعبأ بساقيّ.

"أريد مصحفًا"

تعجبتا وأحضرتْ سعاد المصحف.

وضعت يدي عليه.

"والله ما قيل عني كله باطل، ما قيل لا يمكنني إثبات كذبه، ها أنا أقسم علّكِ تصدقينني والله شاهدٌ على صدق قولي"

تلوتُ قسمي وأنا أبكي وحاولت وهمّت المديرة بالتصفيق على قسمي المؤثر.

"قولي لي يا أبنتي ماذا قيل؟ ماذا حدث كي أرد لك حقك؟"

"جئت أشكو لك الناظرة، واياد عبد الدائم، وفاطمة متولى عبد الجبار، خالتي"

حكيت لها كل شئ؛ أبي، سجن أمي، رقودي في المستشفى لأعوام ، خداع اياد لي وافترائه عليّ وغدر فاطمة بي وعلاقتها به، وأخيراً مجنوني طاهر وجوابه.

أخرجتُ الجواب وأعطيته للمديرة. قرأته وتعقدت ملامحها.

طلبَتْ من سعاد أن تحضر من معلم ما دفترًا من دفاتر المجنون. قارنتْ المديرة بين الخطين ووجدته واحدًا.

"أولئك السفلة!"

نظرت إليّ مليًا وقد تعقد وجهها غيظًا.

"إن صدقتك يا أبنتي كيف أثبت صدق كلامك؟"

تذكرتُ شيئًا.

"يمكنك الكشف على جسد فاطمة فعليه آثار ليلتهم تلك"

لم تفهم المديرة.

"بقع بنفسجية ليست بالكدمات"

"لما لم تخبري الناظرة؟"

"لهذا أشكوها لك؛ لم تدع لي فرصة للدفاع، صبّت جم سخطها وشتائمها عليّ وبالكاد التفتت إلى اياد، سلّمَتْ بالأقاويل فدمّرَتْ سمعتي برفدها لي أنا واياد بل أني سمعت أنه لم ينفذ أمر الرفد. لا أفهم، مثلما تشملني الأقاويل فهي تشمله؟ الأنه فتى؟ وأنا مجرد فتاة إذا قيل عنها قولًا صارت ساقطة بينما يفسق الفتى ويعلم بفسقه كل من حوله ويعاملونه كرجلٍ شريفٍ له نزوات؟ ألم تشمل تلك النزوات بشرًا مثله؟ وليتني كنت نزوة، كثرت الأقاويل حتى شككتُ في نفسي وبدأتُ أصدقهم. جئتُ الناظرة ثانية حين قرأتُ

الجواب أريد أخبارها علّها تنقذ الفتى ولكنها تبلّتْ عليّ أنني أبحث عن صـــاحب جواب غرامي لأرافقه وطردتني"

اســتدعَتْ المديرة فاطمة فجاءت بوجه ممتقع، ما إن رأتني حتى أدركت هول ما هي مقبلة عليه.

"أنت فاطمة عبد الجبار؟"

"نعم!"

"تفضلي يا دكتور"

همت الطبيبة برفع ثوب فاطمة فأدركَتْ الأخيرة فتمنعتْ. نهرتها المديرة.

لم تجد فاطمة بُدًا فتركَتْ الطبيبة تفحصها. أكدَتْ للمديرة صدق ادعائي.

"حسنٌ أنتظري يا فاطمة في الخارج قليلًا"

استدعت اياداً وما إن رأى وجهي ووجه فاطمة حتى أنكمش من القلق.

"خيرًا"

"هل حضرْتَ يوم كذا وكذا هذا الشهر؟"

بلا وعي أجاب.

"بلى أنا لا أغيب إلا نادرًا"

أبقته وأستدعت الناظرة، جاءت وقد اكتسى وجهها بذلٍ وأحترام. رأتني واياد ولم تفهم.

ســألَتْ المديرة الناظرة عما حدث وبعد حجج وأعذار نادت المديرة فاطمة وبدأت في الصراخ.

صدح صوتها عاليًا حتى ترك كلٌ حصته وتجمعت المدرسة تتزاحم لكي تسمع ما يجري من صـراخ. واجهت المديرة الناظرة فلم تسـتطع الأخيرة أن تنفي عن نفسـها التهمة وتغاضـيها عن أمور تمس المدرسـة كلها. حولتها إلى التحقيق وطردتها، وأخيرًا صـبت صـراخها بالتالي على خالتي واياد.

"من ترك عليكِ تلك الآثار؟"

لم تنبس فاطمة فصرختْ فيها

"ألا تسمعين!"

بكت فاطمة وهي تشير إلى اياد فما لبث أن بدأ في الدفاع عن نفسه.

"لا يكفي أن ثبت أن لكما علاقة مقرفة بل سوءتما سمعة فتاة لم تمسكما بسوء. أتذكران زميلكما الذي مات؟ لقد مات منتحرًا و انتما السبب، سأرسل إلى الوزارة الآن لتتكفل بأمركما"

بكت فاطمة راجية أن تستر عليها ولا تدمر مستقبلها.

"فلما لم تستري على أبنة أختك؟ أنا لا أعرف أحدًا في الحق"

و صرخ اياد.

"ولما أنا؟ لما لا تعاقبين كل من فعل مثلنا، كل الطلبة بينهم علاقات ما فعلتُ إلا أن حذوت حذوهم"

"لا تقلق يا عزيزي سأقوم بالواجب لا تعذب نفسك بمعاقبة زملائك وركز في مصيبتك"

استدعت المديرة جداي. ظنا أني السبب مرة أخرى ولم يخطئ ظنهم، أتصلت المديرة بالوزارة وجاء أحد عاملها، أخبرته المديرة بالتهم الموجهة لثلاثتهم.

صاحت جدتي وهي تضم فاطمة.

"ما أدراني أنها لا تتبلى على أبنتي؟"

"عيب يا مدام، أنت جدتها"

"وأليس العيب أن تتهموا أبنتي تربية يديّ؟"

"لقد أقسمت ليلى على المصحف يا مدام"

صمتت جدتي ولم تستطع نطقًا. كان جدي صامتًا وفاطمة تبكي بجنون، وأنا مازلتُ جالسة لا أشعر بقدميّ.

قرر مسؤول الوزارة فصل فاطمة، لا أذكر إلى متى ولن تعود إلى المدرسة مرة أخرى وعليها الذهاب إلى مدرسة أخرى لا يدري فيها أحد عنها شيئًا.

وبدأ البحث في أمر اياد والناظرة بعيدًا عنا.

"الآن يا مدام ويا أستاذ متولي خذوا أبنتكم وربوها جيدًا تلك المرة"

وقف جدي وتقدم مترنحًا إلى أن وصل إلى فاطمة، رفع وجهها برقة وتأمل وجهها الباكي. وصفعها! ووقع أرضًا.

.....

نقلنا أنا وجدي إلى المستشفى. كنا نحن الأربعة في عربة الإسعاف كأسوأ ما تكون العائلة. تركز أهتمام جدتي على جدي لاعنة من كان السبب.

لا أدرى أنا أم فاطمة؟ أم أمي؟

تُركت وحدي حين دخلنا بينما ذهبت فاطمة وجدتي مع جدي لفحصـــه. يحاول الطبيب أن يطمأنني.

"لا بأس. بسيطة إن شاء الله"

لم أجب. فحصني وسألني إن كانت أول مرة.

وكان أمري هينًا بالقياس لجدي. أعلن الأطباء أنه أصـــيب مرة أخرى بجلطة كمدًا على أبنتيه، ولكن في المخ هذه المرة، أثّرت بالتالي على مراكز النطق والحركة والتركيز فأصـــبح مجرد كائن يأخذ من الهواء لا يفيد ولا يضر. هاكِ يا ليلى وزرًا آخر تحمليه.

أمرني الطبيب بالراحة وتجنب الحزن ولكن سرعان ما أرتبك وتردد في سؤالي.

"ليلى. المستشفى تريد مالًا تحت الحساب للغرفة والعناية"

طلبتُ من الطبيب استدعاء جدتي وجاءت وكأنها على وشك الفتك بي.

"المستشفى تريد مالًا تحت الحساب، عليك السحب من مالي"

"ولكن جدك حرص ألا يمس مالك إلى أن تبلغى سن الرشد"

"أنا صاحبة المال وأريد السحب منه"

قمنا بالإجراءات سريعًا وسحبنا المال اللازم.

ظللت أيامًا في المشـــفى أتلقى العلاج الطبيعي ولكن بلا فائدة بينما جدي غائب عن شـــقاء الدنيا.

أتى الطبيب وجلس، يردد ما حفظه من كتب الطب؛ أعاني الآن من أضطراب تحويلي.

رائع. أفدني أكثر!

آثار اضطراب قديم، صدمة وراء أخرى، تمرد جسدي وثار فقتل الإحساس بساقيّ. أثنيت على اجتهاده وطلبت منه تركي للراحة.

تعترك الدموع فيسقط بعضها شهيدا إثر شهيد.

جاءت جدتي وفى وجهها خوالج بغض واضحة.

"هاتفك رن مرات عديدة"

أعطتني الهاتف وهمت بالمغادرة.

"أغفري لي. رجاءًا!"

أعترى وجهها تعبيرات شتى.

"لن أقدر. يعز عليّ قول ذلك ولكن بمجيئك حل علينا الخراب. فجعت مرة في أبنة لي والآن في الأخرى، وزوجي عاجز والسبب حفيدتي، كل تلك المصائب فوق قدرة كاهلي على الحمل. أتدرين معنى أن تخيبي في بناتك وكأن كل عنائك راح هباءً!! أن تُخدعي في بناتك! لا أعلم كيف سننظر في أوجه بعضنا بعد هذا اليوم وقد أكتملت كل ألوان المصائب. لا الذنب ذنبك ولا ذنب أمك بل ذنبي. لقد أمتحنك الله يا ليلى وجعلك سبب هلاك كل من حولك أينما حللتِ. أرجو أن تصبري على أمتحانك ولكن. بعيدًا عنا"

ثم تركتني وذهبت.

ظللتُ وحيدة أرنو إلى السقف، أرفض كل طعام فعلق لي محلول، ساعات والذكريات تتشكل على شاشة السقف مشاهد دامية، أنتظر مشهد النهاية ولكن قطع شرودي أتصال من هاتفي، كان الرقم غريبًا فأجبت لاهثة، لا طاقة لي على كارثة جديدة، صاح صوتٌ مألوف بفرح.

"مرحبًا يا ليلى! هاتفتك كثيرًا"

"من يا فندم؟"

"أنا محامي والدتك"

أعتدلت جالسة وقد أثار قلقي.

"هل أمي بخير؟"

"لا تقلقي أنها بأفضل حال. رغبتُ أن أبشرك بنفسي؛ رفع جدك دعوى طعن وقد قبله القاضي. بعد يومين لا أكثر ستخرج أمك بكفالة"

وسقط الهاتف وحركت ساقيّ وأنا لا أشعر.

ليلى

20

على كرسي متحرك جلستُ والعسكري أمام السجن منتظرة خروج أمي. مضت برهة من الزمن خلتها دهرًا.

أستجابت ساقاي أخيرًا للحراك وبدأت أشعر بهما من جديد تدريجيًا، حاولت اليومان المتبقيان أن أحاول المشي وأخطو بشكل لا يقلق أمي ولكن أخبروني باستحالة ذلك قبل مضي عام على الأقل. حاولوا أن يمهدوا لي أني قد أفقد الشعور بهما من جديد إذا حمّلتُ نفسي فوق ما تقدر، قد أعتلّتْ أعصاب أطرافي وقد تصاب من جديد، حاولوا بذوق أن يخبروني باستحالة المشي بسهولة كما السابق وستظل علّتي رفيقة دربي وظاهرة للعيان إن دققوا النظر.

ظللتُ جلوسًا في هذا البرد القارس ولكن لم أشعر به فقد كانت نار اللهفة أحرّ من برد العالم أجمع.

مرت الدقائق كالأعوام والثواني كالضوء في سرعته. ووجدت أمي واقفة تنظر إليّ بوجوم، إلى كرسيي.

"أمي!"

أهتف بها ومن فرط شوقي جريتُ إليها بالكرسي وتعثرت عجلاته في حفرة ووقع بي أرضًا في بركة ماء. وصرخت أمي صرخة كبرى. حاولتُ القيام ولكن نظرت إلى بركة الماء ورأيت أنعكاس وجهي، توقف الزمن ونسيت أمي وعجزي، أسودت الدنيا ولم أعد أرى إلا أنعكاسي وتوهج شعري، وجمالي الآثم.

ذلك الجمال، الذي غوى والذي قتل.

شمس شعري يحرق رأسي وكل ناظرٍ له، وبحر عينيّ بدا لي هائجا يبتلع في غمرة نشوته كل من حلا له الغوص فيه.

كل ذلك ولم تمض ثانيتان ثم عاد صراخ أمي يوقظني، غاصت معي في بركة الماء تحتضنني في لهفة.

"ليلى! حبيبتي ما بك؟ ماذا جرى لك؟"

هيئ لى أني أبكي ولكني ظللت ساكنة في حضنها، أردتُ المكوث في هذه البركة تضمني أمي أبدا. مسحَتْ أمي دموعي كما تمسح التراب عن كل نفيس غابت عنه.

"خلاص يا ليلى أنتهى العذاب. أنا هنا الآن. أفديك بحياتي ولا أراكِ بهذا المنظر"

لففتُ ذراعاي العليلتين حولها وضممتها بشدة.

"أين جديك؟ أما زالا غاضبين مني؟ ألم يكفهما أعوام سجني للغفران؟"

"أنسيهم يا أمي. إن كان ثمة حب يومًا فقد انمحى وبات كراهية، لقد حلّت الفرقة منذ اليوم الذي هجرتهم فيه"

"ماذا تقولين يا ليلى؟ أنهم جديك مهما فعلوا"

أبتسمت في حسرة.

"لستُ أنا حاملة الكره بل جدتي"

لاحظت أمي حقيبة السفر.

"طردوكي؟"

"بل رحلتُ أنا قبل أن أسمعها ولم يعبأ أحد برحيلي ولا بخروجك"

"ماذا حدث؟ يكاد قلبي أن ينخلع من مقامه. أراك على كرسي متحرك ثم حقيبة سفرك ثم تقولين هجرتهم قبل أن يطردوك! ماذا حدث؟"

"لن يفيد الحديث شيئًا، شُلّ جدي يا أمي وأنا السبب"

"ياربي! الهذا رحلتِ؟"

نسينا أننا غارقتين في بركة ماء وشرعتُ أحكي لها وهي صامتة تبكي.

قال المحامي الذي نسينا أمره.

"مدام خيرية، لن تحتمل أعصاب ليلى البرد وهي غارقة في المياه، دعينا نعود إلى بيتكم"

.....

دلفت أمي بي البيت الذي شهد الحادثة. صارت أطياف الحادثة تعيش الحادثة من جديد؛ أسمع أصداء الصراخ واللهاث وانكسار الآنية.

جلسنا بينما ذهب المحامي ظانا منه أننا سننشد الراحة، لا يدري أن أبي سيقضّ مضجعنا إن بقينا في هذا البيت.

"فلنرحل يا أمي. كفانا ما حدث في تلك البلدة. دعينا نذهب إلى أي محافظة أخرى علّنا نخفي ماضينا فلا نعرف أحدًا ولا يعرفنا الناس"

"كيف ونحن نملك ما لا يكفي؟"

"سيفعل المحامي ما بوسعه. سيطالب بحقك في إرث أبي وإن رفضت المحكمة فعلى الأقل تحصلين على الوصاية من جدتي وهي لن تتمسك بها على أي حال"

"فليفعل الله ما يشاء"

بدأت معركة بين أمي وعمي في تولي الوصاية، وبعد عناء وشهور في قحط وعذاب حصلتْ أمي على الوصاية ونالت إرثها من أبي بعد أن صدّق القاضي قتلها دون قصد دفاعًا عن الشرف.

لم تسأل جدتي عنا، بعثت أمي مع المحامي مبلغًا يعينهم على علاج جدي وعيش حياة مقبولة. كادت جدتي كما قيل أن ترمي الشيك في وجهه لولا أن تذكرت وضعهم فتقبلته كارهة.

عرضنا البيت للبيع، حاول عمي حين بلغه الأمر أن يمنع أن نهنأ ولو للحظات، فما لبث أن بعث لكل مشترٍ ببلطجية من أتباعه كي يرهبهم فلا يشتروا البيت الذي يرى أنه وحده الأحق به.

كدنا نفقد الأمل في بيعه حتى جاء مشترٍ من رجال الأعمال ذو نفوذ ومن النواب، لا أدري إلى الآن ما هداه المقام إلى المنصورة، قال أنه سيتزوج وإن علمنا أنه متزوج بالفعل.

لم يكد عمي يعرف المشتري وما سيقابله من خسارة إذا حاول أرهابه كما السابقين حتى عاد يصرخ من جديد متوعدًا إيانا.

بعنا البيت بمبلغ مُرضٍ، طلبنا منه مهلة كي نجد بيتًا جديدًا وسألناه إذا كان يعرف أحدًا يرغب في بيع بيت بسيط.

وكنائبٍ مخضرم رشح لنا بيتا بسيطا بالنسبة إليه، شقة في بيت عريق في مصر الجديدة تساوي تقريبًا نصف المبلغ الذي حصلنا عليه من البيعة، لم نكن نريد حمل مشقة البحث عن بيت فأوكلنا للنائب أمر الإتفاق مع صاحبة البيت، وتمت البيعة.

وأنتقلنا إلى القاهرة، أودعنا باقي المبلغ مع إرثنا في البنك كي نعيش على فوائده. حين تمت البيعة لم أصدق، ظننتُ أني في عالم من صنع جنوني. ووجدت نفسي أهمّ بركوب السيارة للسفر إلى القاهرة. لم أُلقِ حتى نظرة وداع إلى تلك البلدة، ظللت مغمضة عيناي أجتر كوابيسًا وأنا مستيقظة حتى فتحتهما على بوابات القاهرة.

ووصلنا إلى القاهرة ومضت بنا السيارة في شوارع مصر الجديدة، أبهرني البيت وبهرتني تفاصيل الشقة وأثاثه الأنيق البسيط، كل تفصيلة فيه لها ذوق وجمال. خرجت إلى التراس وأسندت مرفقي على سوره أنظر إلى الكنيسة العتيقة أمامي ذات الأجراس الصامتة، فأرتحت وسألت الله أن يكون بيت سعد لنا.

نمنا الليالي الأولى في سرير واحد حتى شبعنا من بعضنا فأصبح لكل واحدة غرفة. تابعتُ العلاج الطبيعي في المشفى القريب وتابعت مع طبيب أعصاب، بدأتُ أعتاد ساقيّ من جديد برعشتهما ورعشة يديّ واضحة إن أنفعلت أو أضطربت مشاعري.

في أول ليلة لي في غرفتي قمت بصعوبة وألقيت بصري على المرآة فغبت من جديد عن العالم وتوقف الزمن.

لم أعد أرى سوى شمس شعري وبحر عينيّ الهائج، بلا وعي أمسكت مقصًا وهممت أن أقص شعري علّ الشمس تنطفئ وأفقئ عيني علّ البحر يخمد ولو ظللتُ عمياء باقي العمر.

ثم أفقت ويدي تكاد تقص أول خصلة، تراءى لي منظر أمي حين تراني بلا شعر ولا عين فأحجمتُ رأفة بها.

.....

مرتْ الشهور وأقترب موعد دخول المدارس، كنت قد نجحتُ بالكاد في عامي الدراسي في تلك الخرابة. وأصبحت في جديد سجلتني أمي فيه في مدرسة أجنبية.

صار بإمكاني المشى من جديد ولكن يمكن للناظر إن دقق النظر أن يلحظ علتي، نصحني طبيب الأعصاب أن الجأ لطبيب نفسي، ذهبُت إليه مضطرة كي أرضي أمي. أعطاني مهدئات ما إن عدت إلى المواظبة علها بضعة أيام حتى رميتها من أقرب نافذة فأعصابي المعتلة أرحم لي من آثارها على روحي.

في يوم وأنا عائدة من جلسة العلاج الطبيعي لاحظتُ وجود كوافير بالقرب من البيت، طلبتُ من أمي مالًا كي أذهب إلى الكوافير لتصفيف شعري ولم تبخل عليّ بالمال. ذهبتُ وأجلستني السيدة وهي تمر يديها على شعري بإعجاب حسود.

"تريدين قصّه؟ إن شعرك من أجمل ما رأيت من شعور"

كدت أقول لها أني أريده أسـودًا فاحمًا، أريد صـبغه وحرقه إن أمكن ولكن فجأة أنشـق قلبي رغمًا عني وتحسـسـت خصـاله، كان صـعبًا أن أقضـي على لون الذهب الخالص، شـعرت أن وجودي مقترن بذلك الشـعر المملوكي، ظللت برهة شـاردة في المرآة والسـيدة تنتظر. تنهدت بتسليم.

"أغسليه ثم أكويه"

"ولكن شـعرك مصـفوف بربانية نادرة الوجود؟ لم يمر عليّ مثله من قبل فلا يحتاج إلى كوي"

"أرجوك أن تنفذي رجائي"

رفعت كتفيها وقد فعلت ما بوسـعها. أنهت مهمتها وأعطيتها ثمن الغسـل والكوي ولم يختلف شكله، وهممت بالخروج ولكن جاءتني فكرة.

"ألديكم بواريك شعر؟"

زادت دهشة المرأة حتى ظنت أني مجنونة.

"نعم يا آنسة"

"أريد واحدة، سوداء فاحمة"

وصرت ذات شعرين؛ شعر أسود فاحم وشعر ذهبي خالص. واحد للعيان والآخر خاص بي لن أطلعه على احد.

وفي يوم آخر طلبتُ من أمي مالًا فسألتني لما أريده.

"أريد الذهاب إلى طبيب عيون، أمسيت أشكو من الرؤية"

"أذهب معك"

"لا داعي أريد أن أعتاد المشي وحدي"

أرتديت شعري الأسود قبل أن أخرج من المبنى وتأكدت أن امى لا تطمأن عليّ من النافذة، ظللت أمشي في الشـوارع لسـاعات أدخل شـارعًا فأخرج إلى آخر ثم أعود لنفس الشـارع. وأخيرًا ذهبتُ إلى محل نظارات. سألنى البائع إن كنت أريد خدمة؟

فأجبته أني بحاجة إلى نظارة وسـرعان ما ذُهل للحظة كأنه غرق في عينيّ يقيّم مدى روعتهما كأي خبيرٍ في مجاله.

"أيمكنك أن تريني إياها؟"

أفاق وأُحرج وصـار يعرض عليّ أجمل وأغلى النظارات التي تليق بيعنين مثل عينيّ، وكنت أحتار أيها أبشع شكلًا كي أختارها، ووقعت عيناي على مرادها؛ نظارة بشعة موضوعة في ركن بإهمال، لا أدري ماذا تصنع في محل غالٍ كهذا؟

"أرغب في هذه"

شُـلّ لسـانه وبالتأكيد ظنني مجنونة. رأيت خبثًا في عينيه وأراد العبث بي حين ظنني مخبولة.

"حسنٌ"

"بكم؟"

"الف ومائتان"

أكاد أقسم أنها لا تساوي أربعمائة لكني لم أجادله، أخرجت المال وتأكد من أختلال عقلي.

"يا فندم أعذريني، كنت أمازحك، تساوي ثمنمائة"

هذه المرة أراد النصب عليّ فعلًا وأيضًا لم أجادله وأعطيته ثمن النظارة.

"أين كشف النظر؟"

"لا داعي. أريدها هكذا"

وأنا على يقين أني صـرت حديث الشـارع الذي أشـتريت منه النظارة لأيام بل ربما الكربة أجمع.

.....

وجاء أول يوم دراسي، أدركت مشكلة ستواجهني كل يوم، أن أرتدي شعري الأسود دون أن تكتشف أمي. وكانت قد أشركتني بحافلة المدرسة رحمة بساقيّ من المسير.

فلم أجد إلا أن اتأكد من خلو سـلم البيت وأرتدي الباروكة وأدعو الله ألا تطل أمي من النافذة، ولم تعرفني المدرسـة منذ التحاقي بها إلى أن حصـلت على الثانوية العامة إلا بشعرى الأسود وذوق السيء في أقتناء النظارات.

القاهرة

عام 1949

مسرح حديقة الأزبكية

أستعد من جديد الحضور والمستمعون من الراديو لدقات المسرح. أُطفأت الأنوار، دقات وأنفرج الستار.

وقفت أم كلثوم مرتدية ثوبًا من المخمل أزرق اللون وأعتصرت منديلها ككل مرة حيّت بها الجمهور. أختارت لحن السنباطي الجديد لختام حفلتها الليلة، كل ألحان الليلة كانت للسنباطي فقد خلت له الساحة تقريبًا بعد الخصام الفني مع قصب والقضايا المرفوعة ضدها من زكريا.

بدأتْ الألحان في ملحمة تنبئ بصراع بين المرء وروحه. أقسم السنباطي أن يضع لحنًا يعد طفرة في مسيرة الموسيقى وثورة جديدة، وضع فيه كامل روحه وأعتصر فيه وعيه.

هل أحب السنباطي؟ تتساءل. غريب هو؟ لم يحبها، لم يذُب فيها عشقًا كما رامي وقصب، فكيف تولد تلك الألحان من بين أنامله؟ بالتأكيد يحب، فلا تنجم تلك الألحان إلا من يد عاشق أو مجنون! طالما أبهرتها ألحانه وقليلًا ما لاقت نفورًا من المستمعين.

"مش هخاطر وأغني لحن هو الأول له حتى لو كان بارع وموهوب"

قالت جاهلة في فيلمها الأول وما إن سمعته وهي تشاهد الفيلم في ليلة الإفتتاح وتفاعل الحضور معه حتى سجلتها بدورها، ومن هنا بدأت المنافسة بينه وقصب، وسلسلة من النجاحات مستمرة للآن.

كيف؟ قلّما تتشابه الألحان، كيف يتجدد الإلهام في باطن الإبداع؟ حاولت هي مرتين وفشلت.

بدأتْ الألحان في البكاء حيرة.

بعد شجارٍ كبير عادت تطلب الغفران، مسّتها الكلمات. لم ترَ أبلغ ولا أرق منها.

بعد الحفلة الأولى والتصفيق الحار من الجمهور أمام المعجزة الوليدة، أرسلتْ من يُحضر رامي.

"سامحني يا رامي في كل الآلام إللى حسيتها في خصامي وخلتك تكتب الكلمات ديه"

الوحيد الذي يملك الحق أن تهبط من علياء كبريائها كي تنول الرضـــا والصـــلح. لم يملك ذلك الحق لا قصب ولا زكريا.

وقفت وصفق الجمهور. تنهدتْ كما المعتاد كلما غنت لحبها المجهول.

غلبت أصالح في روحي.

عشان ما ترضى عليك.

بدأت الغناء بثورة واهنة، في عراك خســرتْ فيه للتو. طالما عشــقتْ مقام النهواند. عذب وناعم، تفرح فيه وتبكي.

مدت يديها أمامها كأنها ترجو شخصًا ما.

من بعد سهدي ونوحي.

ولوعتي بين إيديك.

حسنٌ، خسرتْ المعركة وهكذا أعلنتْ، وصفق الحضور للإعلان.

ليلى

21

مضت الأيام والأعوام والقلب مُغلق، أوصدته فلا يجيء عابثٌ آخر يعبث به كيفما شاء.
فُتن الكثير بجمالي. كنت أسمعهم إلى أن ينهوا عرضهم السخي في الإرتباط وحديثهم اللذيذ لنيل أعجابي حتى أصرخ في وجوههم كي يتعظ الجاهل. لُقبت بألقاب كثيرة؛ المُعقدة، التنكة، الباردة، إلخ.
لم أحادث فتيانًا ولم أصادق فتيات، لا أريد ايادًا آخرا ولا فاطمة أخرى. ما أغبى القلب! كم يستحق الذل! فما زال القلب يهواه، مازلتُ مشتاقة إليه، إلى صوته العميق، حديثه الحلو، وأشتقت إلى ضمه.
من الطبيعي أنه كلما مرت الأيام خفت الشوق، ولكن لم أنسَ ايادا، بل هو كالخمر كلما مرّت عليه الأعوام أزداد حلاوة وزادت قيمته.
كلما مرّت علي الليالي يزداد خمر اياد وكم رغبت أن أسكر بحبه! هل كان في حياتي يومًا؟ أم هي أوهام خلقتُها ولم أفق إلا اليوم؟
كل يوم يمر يبعدني عن أيام اياد، أقول مضت أشهر على اياد ثم عام وعامان ثم أعوام.
بحثتُ في قاموس السلوى فما وجدت خيرًا من المغنى، بحثتُ في قوائم المطربين والمطربات، العظماء والمغمورين، وأهتديت لأم كلثوم، طالما سمعتُ أغانيها في المقاهي وكم أردت الوقوف لتأمل صوتها! بحثتُ في تاريخها وأعجبني عنوان فبدأتُ الأغنية.
يُعلن المذيع عن الآنسة وثوب السهرة، ولحن حزينٌ هامتْ روحي معه. لم أعرف أسم الملحن ولا المؤلف ولكن بالتأكيد هم عاشقون فلا يصنع هذا الإبداع إلا العشاق أو المجانين.
وبدأ اللحن في التذكر والشكوى، صفق الجمهور ثم بدأتْ أم كلثوم.

غلبت أصالح في روحي.
عشان ما ترضى عليك.
من بعد سهدي ونوحي.
ولوعتي بين إيديك.

نزلتْ مني دمعة حارة. كيف لهذه السيدة أن تصف خوالج القلب التي أعجز عن وصفها؟ ولم تكد تبدأ!

صعبان عليّ إللي آسيته.

في الحب من طول الهجران.

نظرتُ إلى السقف وبدأت الكلمات تتشكل أحداثًا دامية.

معرفش إيه إللي جنيته.

من بعد ما رضيت بالحرمان.

ماذا جنيت غير الحرمان؟ لم يكن لي دور في تلك القصة، لا كان للرضا دور ولا الرفض.

فضلت أقول الزمان غيّر على البعد حالك.

ولا الرضا بالهوان كتّر عليّ دلالك؟

تأوهتُ بحرقة وضممت الوسادة أحاول أن ألملم شتاتي، بينما بدأت أم كلثوم مجددًا أغنيتها بهزيمة كأنها تستعطف قلبي كي يصمت.

صدح صوتها شاكية أعالي السماء، لو لي صوتٌ كصوتها لظللت أشكو للسماء طيلة عمري.

سبحتُ معها وصارت الأغنية كأنها مناجاة مني لإياد ولقلبي. ظلّت أم كلثوم تجلد سياطًا من طرب ويصيح الحضور من آثار الجلد.

صبحت أشكي منك لروحي.

وفضلت أخبي عنك جروحي.

أغمضت عينيّ بينما دموعي تتسلل منهما.

وبعدت عنك والفكر كان دايمًا وياك.

والقلب منك غضبان في دنيا الحب معاك.

ولا أدري أنا ولا الجمهور أين نمضي بحطامنا بينما أم كلثوم أمتزجت بالألحان.

لمّا الزمان إللي غدربُه.

بعدك وكنت نديم شكواه.

رماك وجه السهم في قلبه.

عطف عليه والوجد ضناه.

تتأوه آهات رقيقة كأنها يأست. وصرخ الحضور بحرارة.

ووصلت أم كلثوم إلى الذروة العظمى التي لا أظن وصل إليها مطرب من قبل.

حتى الزمان إللي كان عطفك يعيني عليه.

خلّاني أرضى الهوان وأسلّم الروح إليه.

بدأتْ مطلع ذلك الكوبليه بشجًى جميل إلى أن بدأتْ تنوح، بكيتُ مع نوحها، لم أجد خيرًا من تلك الكلمات تصف حالي مع الزمن وتلخص أيامي. ووجدتني أصرخ مع الجمهور.

وأسأل عنك والقلب كان غضبان منك.

وأحمل همك و أنا إللي طول بُعدي ما همك.

أعتصرتُ يدي بشدة، كم حملت هم اياد فكيف حاله؟

و أبات أصالح في روحي.

عشان ما ترضى عليك.

و أنسى سهادي ونوحي.

ولوعتي بين إيديك.

وأنتهت الوصلة كما بدأت وياليتها طالتْ بطول ليالي السهاد.

.....

ذات خريف خرجت مع الطابور لركوب الحافلة وسمعتُ مواءًا فألتفت إليه. فإذا قطة بيت شيرازية ذلتها الشوارع وعدمتها الأيام، شق قلبي لمرآها.

"هيا يا ليلى! لما أنت واقفة؟"

لم أسمع المشرفة، كنت فقط أسمع مواء القطة، تركت الطابور الذي صعد وذهبت إليها. بلى أنها تموء لي أنا لا غيري. نظرَتْ إلى عيني نظرة فتتت قلبي، أنحنيت ومسحت على فراءها الغزير القذر، رأيتُ دموعًا من عينها تسيل، كانت تبكي!

حملتها وضممتها بكل جوارحي.

"لا تبكي أرجوكِ لعن الله باكيكِ"

أفقت على صوت المشرفة وهى تصيح.

"ليلى! دعي تلك القطة وأركبي الحافلة فورًا"

مشيت للحافلة حاملة القطة.

"لن تصعدي بتلك القطة"

"إذن سأمشى للبيت"

مشيتُ وعيناي في عيني القطة، ظللت أسأل وأبحث إلى أن وجدت عيادة بيطرية.
"من فضلكِ أريد تنظيف تلك القطة وتطعيمها إن أحتاجت"
"هل كانت ضائعة منك؟"
"كلا، لقد وجدتها في الشارع"
"ليرحمك الله كما رحمتي تلك الروح المسكينة. هاتها!"
ذهبوا لتحميمها وماءت بحرقة وأنا أتقطع لموائها. حاولتْ الطبيبة أن تلهيني. "هل ستربيها؟"
أومأت بإيجاب.
"ماذا ستسمها؟"
فكرت في أسامٍ حتى جاءوا بها بعد أن حموها، وماءت بلهفة حين رأتني وعرفتْ انى لم أُلقها وأذهب، حملتها كأني أحمل صغيري. وسالت دموع القطة من جديد.
سألَتْ الطبيبة زميلها.
"ذكر أم أنثى"
"أنثى ولكن حين فحصناها لنتأكد إذا كانت حاملًا وجدناها معقمة"
شهقتُ وحضنتها بشدة. أي قسوة! قتلوا فيها الأمومة ثم رموها!
"هوني عليكِ فقسوة البشر تفعل الأعاجيب، وربما تكون تائهة بعد أن هربَتْ. هاه ماذا ستسميها؟"
رنوت إليها وأبتسمت.
"عين"

.....

أحبت أمي عين وملأتْ علينا البيت سعادة،كانت تأتِ وتجلس بجانبي أنا وأمي وتنام بعمق وصوت خرخرتها يسكن قلبينا. أرى في عينيها شكرًا. صارت شريكتي وشريكة أم كلثوم. في ليالٍ تنام فيها أمي وأصاب بالأرق تجلس عين في حضني وتخرخر وتسمع معي أم كلثوم وكأنها هي الأخري تناجي همومها، تتأخر بنا الساعة وأظل ساهرة وتقاوم عين سقوط جفنيها كي لا تنام كي تظل جليستي.
مضت الأعوام وأنا اكبر وأزداد فتنة وتزداد محاولاتي في اخفاء فتنتي، وأنهيت الثانوية العامة.

فاتتني أعوام كثيرة حرصــتُ بعدها بعزيمة عجيبة كأني أتحدى القدر أن أضــم عامين دراســيين في عام واحد. قضــيت ليالٍ ســهرت فيها أذاكر وأراجع، تشــاركني فيها عين وأم كلثوم، واياد. كانوا شركائي لولاهم لما أستطعت التحمل والمضي كل تلك الأعوام. يحضر طيف اياد كل ليلة، في كل ليلة امتحان، أضم عين، وأرنو إلى طيف اياد.

"خائفة يا اياد"

فلا اتلقى ردًا إلا في خيالي، يمد لي يده فأمسكها وأجدني ممسكة بالهواء.

ونجحت في الثانوية العامة ونلت مجموعًا أرضــاني، ســألتني أمي عن الكلية التي أريد الإلتحاق لها.

"الحقوق"

رأيت أمي وكل سيدة ظلّت خلف قضبان السجن أعوامًا ولاحقتها كنية المجرمة.

التحقت بالحقوق ومر أول شهران بهدوء.

كأي فتاة حديثة العهد بالجامعة، عرض عليّ الطلاب مســاعدتهم وكنت اردهم خائبين ولقبت من جديد بالألقاب المعهودة، ظنوا عزوفي عن الناس غرورًا بجمالي وما كل عزوف بغرور! لا يدرون أن عبوسي أحتل وجهي منذ زمن ولم أعتد سواه، وصمتي صار حديثي بعد أن نسيت كيف أنطق بالحروف.

تخبطتُ بشــدة. دنيا جديدة أقتحمتها بعد أن كدت أعتاد دنياي القديمة، أعوام في نفس المدرسة بين نفس الزملاء ثم فجأة أجدني في بروفة طويلة لدنيا الكبار بعد التخرج.

ولكن مضــت الأيام رتيبة على انتظار ولم أكن أدري ماذا انتظر، ولكن لابد أن امرًا خطيرًا على وشك الحدوث.

وفي يوم بعد أن أنهيت محاضرة وتمشيت حول الكلية حاملة كتبي قتلًا للوقت حتى تحين المحاضرة الأخرى رن الهاتف. رقم غريب!

"ألو"

"ليلى! كيف حالك؟"

بدا الصوت مألوفًا فاعتراني الخوف فإن كان مألوفا فلابد أنه من الماضي.

"من يا فندم؟"

"نسيتِ صوتي يا ناكرة الجميل؟ أنا فاطمة"

أسودت الدنيا وبدأت أشعر بساقي ترتعشان.

"فاطمة!"

ما الذي جعلها تذكرني بعد كل تلك الأعوام؟

"أهلًا فاطمة"

"هكذا تغيبين ولا تسألين؟"

"أنا على يقين أن كرهكم لي لم يخبو بعد كي أعود إلى السؤال"

لم تجد ما تقوله.

"كيف حال جدي؟"

صمتت لثوانٍ شعرت أن قلبي فيها قد توقف.

"أنه بخير، عاد إليه تركيزه وقدرته على الكلام منذ زمن وصار يتحرك بعكاز"

عاد قلبي للدق من جديد وتنفست في راحة قصيرة.

"كيف حال قدميك؟"

"بخير"

"أرجو ذلك، وأرجو أن يكون باستطاعتك أرتداء الكعب"

صمت متسائلة.

"خطبتي عما قريب"

"مبارك"

قلتها بصدق فقد خفت أن تكون سيرتها القديمة عائقًا أمام زواجها.

"وخطيبي يُلقي عليك السلام فأنت تعرفينه"

توقف قلبي من جديد.

"من تقصدين؟"

"اياد! لم يعد يستطيع الصبر لأعوام أخرى فقررنا أعلان الخطبة"

لم أعد أســمع باقي حديثها فأنا وهي نعلم أنه كلام فارغ تحاول أن تبدو أنه غير مفتعل، قلت منهية الحديث.

"أعلم كم يملؤك الحقد ولكن لم أعلم أن في قلبك كيدٌ تكيدين به الناس في آلامهم، عذرًا يا فاطمة عليّ الذهاب"

أغلقت الخط دون أن أسمع ردها فعلى كل الأحوال فقد نالت مرادها. حذرت رقمها بصعوبة خلف غمام الدموع، تيقنتُ الآن أنه من كان برفقتي طيلة تلك الأعوام كان مجرد طيف، فإياد كان معها طيلة تلك الأعوام.

لما يارب؟ يهفو قلبه إليها هي! أما كنتُ أولى؟

أكان يجب أن أستسلم لرغبته كي أنول محبته؟ إذن ذلك هو الحدث الخطير!

بدأت أبكي وأشعر برعشة ساقيّ تزداد. تلفتّ حولي خشية أن يراني الناس وأنا أبكي فبالفعل بدأ الناس يلتفتون إليّ بل كان هناك فتىً أخذ يتقدم نحوي علّه يبدأ بمغامرة جديدة.

جريت، ظللت أجري إلى أن دخلتُ مدرجًا خرج منه للتو طلاب السنة الأخيرة. كنت أنشد الوحدة أبكي فيها عمري. لم أعبر باب المدرج إلا وازدادت رعشتي فوقعت. ظننت تلك الوقعة نهايتي وبالفعل كانت نهاية كل قديم في حياتي.

تأوهتُ من الألم المبرح وانتظرت ستار الختام فلم ينسدل. دعوت الله بحرقة.

"يارب آتني بغيثك وأرحني"

"هل انت بخير؟"

فرعت وقد ظننت أن المدرج خالٍ.

"بلى لا تشغل بالك تعثرتُ ليس إلا"

بدأت ألملم ما أوقعت من كتب وأحزان، كلما أمسكت بكتابين ترتعش يداي فيسقطان، لا أدري لما أحمل كتبًا من الأساس! بدأ بكائي يزداد.

"دعيني أساعدك"

أنحنى وبدأ يلملم كتبي وربما أحزاني.

"لا داعي أرجوك"

مازال يلملم ومددت يدي محاولة أن ألملم معه فلامست يدي يده دون قصد. رفعتُ عينيّ إليه.

كنت أظن أني أحببت من قبل، والله ما خبرت الحب إلا لحظتها.

غمرتني رعشة حلوة طغت على رعشة أطرافي جرفتْ معها كل قديم وسرت في بدني كله. ظلت يدى تحت يده يسري الدفء فيها، دفء من فتى غريب! وأطمأننت وغرقت في عينيه العسليتين.

"أني آسف"

آســف! أنا الآســفة أن ما لامســت يدي يدك من قبل. أن دق قلبي لغيرك من قبل وكنت أظنه الحب وأنت الأحرى أن يدق لك.

كم تعذبتْ! كم قاسيتْ! كيف عرفتُ؟ من عينيك، أخبرتني بكل خوالجك.

"بل أنا الآسفة"

أنتبهت إلى أن شــعري الأســود قد وقع، فصــرتَ يا من دق القلب لك أول من يكشــف له شمس شعري.

أفقت وملمت كتبي وقد ذهبت الرعشة الحلوة وأخذت شعري الأسود ونظارتي وجريت.

ولكن هذه المرة دون قلب أو روح.

ليلى

22

"إلى الآن لا أصدق،

أزهرت الدنيا وأخضـرت بعد أن كانت سـوادًا في سـواد. كنت قد عاهدت النفس و أقسمت لروحي ويا لفرحة الحنث بالقسم!

ها هو ذا القلب يستيقظ مجبرًا بعد سبات كان عليه مجبرا.

خفق القلب وغنّت السماء معلنين نزول وحي الحب.

الحب كالأديان يتوجب فيه الكفر والإيمان، وقد كفرتُ بعد إيمان وآمنتُ به بعد كفر. وقد ظننتُ أني لن أؤمن بنبي حبٍ أبدا. إلى أن جئتَ، إلى أن هبطتَ من السـماء إليّ. يا خاتم الرسل و أنبياء الحب!

كنت قد نذرتُ نفسـي كراهبة كفرت بدين الحب ولكن غفرانك يارب لقد آمنت بدين جواردينك وإن كنتُ أؤمن بوحدتك ودين محمد -صلى الله عليه وسلم- قد مننتَ عليّ ووقعتُ ووقع قلبي. جاء هو مادًاإليّ يديه لينجدني وأؤمن بدينه، كأني ما خُلقت إلا حين وقعتْ عليه عيناي النديتان بالدموع، دموع لم تعرف بعدها طريقًا إلى عينيّ إلا ندمًا على ما فات من العمر دون لقياه. كأن الدنيا من قبله لعب ولهو ومن بعده عمل وعبادة.

دينٌ خاص بي لن أشـرك به أحدًا من الخلق، يتوجب فيه الكتمان لا الجهر، وحدي أتلقى تعاليمه التي يجود بها بالخيرات.

غفرانك يارب، أشركت بدينك ولم أكفر، سأظل على عبادتك في كلتي الديانتين فأنت الله خالق الوجود، فأنت خالق الحب ودينه وباعث الإسلام للنبي الحنيف.

فأنت رب الإسـلام ورب الحب وإن أختلف الأنبياء، أما أجتمع الأنبياء على توحيدك؟ أما الحب توحيد لك؟

.....

أقبل إليّ! أقبل يا مُنى النفس!

أقبل إليّ يا حلم العمر! فما بدأ العمر إلا برؤياك.

نفسي وروحي تهفوان إليك. فويح قلبي ما أسرع نفوذ الحب! ها أنا ذى أقدم توبتي علّك تشفع.

.....

خلق الله في المرأة الإباء والدلال.

فمالي أخالف طبيعة الخليقة وأهفو إليك والشوق أكابده! ما عرفتك إلا من أيام مضت ولا علمت بعد أسمك! أسمع عن الحب ولكن بدا لي أنه كالموت تسمع به وحين تجربه لا تعود منه أبدًا. أنه موجود، واجب الحدوث ولكن حين يأخذك على حين غرة يزلزل كيانك حتى إن أعددت نفسك إعدادا.

كسكرات الموت، أي والله، سكرات الحب. ما أعذبها و أفظعها! ما أحلى نعيم الحب بعد سكراته!

فليت شعري! أنعيم ينتظرني؟ أم عذاب لا قبل لي به؟

يا نديم الروح! أبي تفكركما بك أفكر؟

يحبيبي!

قد قُضّ مضجعي، أنّى لي النوم وقد شغل بك الذهن؟

أحسد القمر فعليه تطلع عيناك كل ليل.

أحسد الماء فوحده يلامس وجهك.

بل أغبط الله فوحده تناجيه في صلاتك.

غفرانك ياربي مالي أهذي في الحديث!

أغفرلي فما بي إلا جِنَة ألمت بي وما على المجنون حرج وما على المحبين لَوم.

تشتاق نفسي إلى حنانك فكيف يكون؟ أريد معرفة أسمك فأذوق حلاوة ترديده.

بي جِنة لا شك! ألتقيت بك من يومين فأحبك كل هذا الحب!

يا خوفي من غرامك! أخشى أن تُفتن بي والفتنة أشد من القتل، أن تبغي وراءك الرغبات وتروم مرادًا! خسرتُ نفسي مرة حين أبيت وأظلمَتْ الدنيا، وبي ظن أني سأكون طوع أمرك. لن أستطيع، ليست عندي القدرة على مواجهة الرفض من جديد. وإن منّ الله عليّ بها فالهلاك مصيري، وقدري إذن أن أُزَف في جنتك يا رب! فما هلاكي إلا ابتغاء رضاك وخوفًا من عذابك.

فيا من أحببتُ! ماذا وراءك؟ ماذا وراء وردتك؟ أيًا كان ما تريد فلا تكن مثل اياد.

لا تكن مثله وكن آخر الأنبياء وخاتم الرسل!
كن نبيي!"

القاهرة

عام 1955

مسرح حديقة الأزبكية

الليلة للسنباطي بل قل الخمس أعوام الفائتة أحتكرت تقريبًا للسنباطي.

أبتسمت أم كلثوم وقد راح قلقها المعتاد كلما قدمت لحنًا جديدًا، نجحتْ الأغنية في الوصلة السابقة والآن ستغني أغنية نجحتْ منذ خمسة أعوام.

صفق الحضور وبدأ اللحن الشرقي ينبئ بمأساة لم تزل تحدث للآن، لم تلتفت خلفها لترى بؤس القصبجي. لم تُعر أهتمامًا لوقع اللحن على نفسه وطعنه في كبرياء إبداعه.

"الظاهر يا قصب أنك محتاج أجازة طويلة"

قالتها دون تردد ولم تنظر إلى دماء كبريائه وفنه تُراق بعد طعنتها، حاول مرارًا أن يعرض عليها لحنا وكانت تجاريه وتطعنه نفس الطعنة بعد عرض الختام كل مرة.

أعلنَتْ المقدمة بدء المأساة ووقفتْ تعتصر منديلها وبدأت.

سهران لوحدي.

صفق الحضور، أمالت رأسها وأبتسمت أبتسامة راضية عذبة. عاشت أم كلثوم معاناة الكلمات بأسى الساهر وأرق المحروم.

أناجي طيفك الساري.

سابح في وَجدي.

ودمعي عالخدود جاري.

ومضت تحكي قصتها مع السهر والعهد البعيد، بعد حسرتها على ضياع عهد العُذال حتى ختمتْ القصة بنفس الفجيعة التي بدأتْ بها.

وأنهال عليها التصفيق والصياح. عذرًا يا قصب! ولكن لن آمن عين النجاح لو غنيت لحنك. أجازتك قطعًا يجب إطالتها.

ليلى

23

أنفقت من ذكريات الأمـى والماضـي ما يكفي لإيداع قبيلة في مشـفى الكآبة، ظللت بقية اليوم أكتب خواطرى أو قل هذيي سارحة أناجي صاحب الوردة.

ظللت ساهرة بين آهات المستمعين أمسك بوردته أشم عبيره فيها.

بدأت الألحان تبكي في انحاء المسـرح، كل آلة تُبرز مهارتها في أداء اللحن، ثم أخذت الآلات في الإلتحام حتى عبّرت عن ملحمة من النواح. وأخيرًا بدأت الألحان في الإسـتعداد لتحية منشدتها. صفق الحضور وبدأت الكوكب في الإعلان عن كربها.

سهران لوحدي.

ويقشعربدني، لا أدري سرولعي بالسهرفي التهام جفنيّ.

أناجي طيفك الساري.

سابح في وجدي.

ودمعي عالخدود جاري.

كم من ليال ودموع ذرفتها مالئة بصخبها الصامت هدوء الليل وضواضئه!

نام الوجود من حواليا.

و أنا سهرت في دنيايا.

أشوف خيالك في عينيا.

وأسمع كلامك ويايا.

أتصورحالي أيام وليالي.

مرّت على بالي.

إلى متى سأظل ساهرة وحدي؟ ناجيتُ أطيافًا كاذبة والآن أناجي طيفكَ فهل كل نصيبي منك لحظات، ثم ساعات من السهد؟ أما كفاني أرقا؟

لما كل حبيب أهواه أظل ساهرة بعدها بينما الكرى يغرق في جفونه؟

ظلت أم كلثوم في حيرتها بين فرحتها بقربه ورضاه وغمها في هجره وابتعاده.

ياللي رضاك أوهام!

والسهد فيك أحلام.

حتى الجفا محروم منه.

ياريتها دامت أيامه.

سـبحت مع الكلمات، هائمة وراء أوهام الرضـا.أتسـاءل عن الليلة التي أنام فيها سـعيدة بلقاء قريب.

اندمجت الكوكب بكل حواسـها وصـارت الآلات تلهث في اللحاق بغنائها. تجمعتْ الكلمات والألحان والصوت، و معها وجدان كل من العازفين، والحواس الهائمة، تجمعت وصنعت حالة من أرتفاع الروح، حالة يصـعب وصـفها إلا أنك ترغب في الطيران، ترغب في البكاء، الضحك، الغناء إن أستطعت، أن تسافر إلى زمن الحفلة وتصرخ مع الصارخين.

صرتُ أجوب الغرفة ذهابًا وإيابا، لا أدري أين اذهب. ثم جلست على الأرض بجانب عين.

كان عهد جميل حاسد وعذول والبال مشغول.

تأوهت مع الجمهور. رغبتُ في القفز، أن أصـير والألحان كيانًا في خدمة صـوتها. ولكن لم تشـأ أم كلثوم أن ترحم وبدأت في إلقاء تفاريدها. وكأني أتلقى وحيًا من السـماء وأسـتطيع هداية كل كفار الأرض.

راحت عواذلي و حسادي و طفيت النار.

ياللي صبرت على بعادي و أنا عقلى أحتار!

لا يوم وصالك هناني ولا هجر منك بكاني.

يا من لا أعرف أسمك! لم أظفر بوصال منك يهنئني، فما كانت إلا لحظات، وبكيتُ هجرًا لأنه لم يكن بعد.

لا يوم وصالك هناني.

ولا هجر منك بكاني

يا طول عذابي وحرماني!

وعضضت شفتيّ حتى كادتا تسيلان أدمعا.

سهران لوحدي.

أناجي طيفك الساري

سابح في وجدي.

ودمعي عالخدود جاري

وأنتهت الوصلة وصفق الحاضرون، إلخ.

وهنا أتساءل؛ لما العاشق ساهر؟ كنت أسهر من وحشة القفر والآن سكن القلب فلما لا يسكن البال فيرتاح العاشق فينام قريرالعين؟

تظل تلك الأفكار مؤرقة نومي فلا أهنأ بسِنَة نومٍ علّها ترحمني من عذاب الفكر.

لا أدري ما جرى لي في ليلة وضحاها.

يا أنت! يا أنا! وحدك من رأيت حقيقتي التى أخفيتها. هل تريد قضـــاء وقت لطيف معي؟ حتى تنتهي من دراستك فتلهيك الدنيا عن ذلك الوقت اللطيف فأتعذب من جديد؟

ولكن عيناك قالتا لي ما لم تقله لي عين من قبل. كان فيهما نداء فلبيتُ النداء. وكأن (عين) أدركت حيرتي، أقتربت أكثر وصوت خرخرتها تهون من بأسي. ماذا أفعل يا عين؟

هل أترك نفسي له؟ أخشي أن اتهاون فتتكرر القصة. فأنا عاشقة والعشاق أغبياء لا يتعظون بمآسيهم. أخشى أن يظنني مثل تلك الفتيات، أخاف أن يحسب لو أراد ما أراد ألا يكون لدي مانع فيه. أن يشرط فعل ما يريد ليبقى الحب وأخشى أن أطيعه وأترك له جسدي يفعل به ما يشاء فلا يدوم ذلك الحب.

في زماننا لم يعد هناك الحب المعهود منذ الأزل؛ فالحب في نظر الناس أجســـاد تلتقي. و ياليت ذلك الحب صادقًا، فهاتِ لي اثنين أحبا بعضًا ذلك الحب وظلاّ فيه صامدين، ما تلبث أن تظهر زوبعة من الشجار حتى يُنهيا كل شيء كان بينهما والإسم كان حبا!

لا لن ألوث هذا الحب الكامن في قلبي حتى لو أراد هو تلويثه، أظل في عذاب على أن أنخرط في إثم ثم اتعذب.

وقررت ألا ألقاه وأن أتجاهل نداء القلب، لم أذهب إلى الجامعة ليومين ثم أنقضت أجازة نهاية الأسبوع، ووجدتني في خامس يوم أذهب إلى الجامعة، لم أستمع إلى أي محاضرة ووجدتني أذهب إلى مكان لقائنا!

ولم أجده، ظللت تحت وهج الشمس أنتظره ولم يأتِ!

أعترتني خيبة جارفة. إذن كنتُ على حق، أراد اللعب بي ليس إلا! ماذا كنت أظن!

والوردة الحمراء؟ كانت خدعة؟

ليتكَ صبرتَ أيامًا أُخرى كنت سأظل مخدوعة بك.

وكأي ضـالة أدركت بعد فوات الأوان حين لا ينفع ندم أنها ضـلت الطريق وآمنت بأوهام، بكيتُ طالبة الغفران من الله علّني أعود لطريق الحق.

ليث

24

ليلتها حام الصـــمت حولنا وأرتبك ثلاثتنا ولم ندرِ ما نقول، فهذه أول مرة منذ أعوام من تلك الليلة أتناول فيها طعام الغذاء مع أمي وأول مرة لي ولكوثر تجمعنا معًا سفرة واحدة.

على حين غرة دق الباب، ففتحت الباب لأجده ســـاعٍ من هيئة البريد. من يُرســـل بالبريد هذه الأيام!

"بيت السيدة منى عبد المطلب العوضي؟"

"أجل"

"بحوزتي رسالة لها. هل السيدة موجودة؟"

ناديت أمي.

"من فضلك يا مدام وقعي هنا وأريني بطاقتك من فضلك"

"ممن الرسالة؟"

سألته أمي بدهشة.

"من السيد (..) من سوريا"

أسرعتْ أمي بإحضار البطاقة والتوقيع وتلقت منه الرسالة بلهفة وَجِلة. وُجمتُ وتذكرتُ أمي عارية تحت ذلك الرجل. أنتهتْ ونظرت إليّ في صمت.

"مهما حاولتُ فلن أنسى"

قلتها وذهبتُ من فوري إلى غرفتي، حاولتْ أمي اللحاق بي ولكني أوصدت الباب بالمفتاح.

"ليث أرجوك أغفر لي. أنسى أرجوك. إلى متى سأظل أتحمل وزر ما حدث؟ أخشى أن أموت قبل أن أرى الحب في عينيك"

تنتحب أمي خلف البـاب ويتقطع قلبي ولكنى لم أجـب، تجمـد جســـدي خلف البـاب، ووقفتُ أمامه شطرًا من الليل وسرعان ما برحتْ الباب لقراءة الرسالة.

ما كفاه الخراب الذي جلبه على هذا البيت! إذن أعطته عنوانها وها هو يبعث برســـالته!

يارب أرحمني وأعنّي كي أنسى تلك الليلة! ما الحل وذاكرتي تكاد تهلكني؟

مضى يوم وليلة وأنا في غرفتي، لا آكل ولا أشرب ولم يحاول أحد دق الباب حتى، أتخبط بين ذكرى أبي وليلة أمي وذات الشعرين التي أيقظت الحياة فيّ. الغريب أن أمي لم تأت لي بالطعام، و لم اسمع صوتا لأم كلثوم ولا بكاء أمي المعتاد فشعرت بإنقباض مبهم.

سمعتُ من جديد تأوهات أمي النشوى وتهدج أنفاس الغريب ولهاثهما، إذن عاد الرجل! جريت إلى المطبخ لأحمل سكينًا و اذبحهما كي أُعدم وأُنهي هذا الجحيم، حاولتُ دخول غرفة أمي ولكن الباب كان موصدًا هذه المرة ولم أستطع فتحه، صرت أضرب الباب بطرقات عالية طغت على لهاثهما وتأوهاتهما.

"أفتحى الباب يا ....."

وفتحتُ عينيّ على الطرقات فإذا بها تصدر من باب غرفتي! ظللت برهة أعي الكون من حولي. تذكرت أن ذكراي سأمت من ثرثرتها وتركتني كي أنام، قمت من فوري وفتحت الباب.

كوثر! تلك أول مرة تطرق فيها باب غرفتي!

"بالله عليك أنجدني يا أخي! أمى لا ترد عليّ! أهز بدنها فإذا به ساكن لا حراك فيه"

كانت تبكي بخوف دبّ في قلبي، جريت إلى غرفة أمي وصدى بكائها يرن في أذني.

"أخشى أن أموت قبل أن أرى الحب في عينيك"

يارب أرأف بي! لا تجعلني أعيش بدنها طيلة العمر! لا تأخذها مني! لم أقدر نعمة وجودها وكأنها لن تفارقني أبدًا! لا أدري لما تذكرت ما قالته لي وأنا طفل.

"أدعو الله أن ألحقها بعد عصورٍ فقط لأبقى بجوارك لا أفارقك"

دخلتُ غرفتها وكنت أظن الفناء قد سكنها ولكن لا فمازالت في الغرفة حرارة الأنفاس. ذهبتُ إليها وهي راقدة على السرير.

"أمي!"

ولا مجيب، أسمعها تئن بأسى وهدأتُ قليلا، على الأقل مازالت حية، تحسستُ جبينها وكادت حرارته تلسعني.

"أعطيني مقياس الحرارة"

وجدت حراراتها قد وصلت للأربعين.

"منذ متى وهي محمومة؟"

"لا أدري"

صرخت فيها.

"ماذا يعني لا تدرين؟ أين كنتِ طوال اليوم؟"

أجابتني وقد أزداد بكاؤها رعبًا.

"بعد أن تلقت الرسالة وقرأتها كادت تقع من هول ما قرأت. قالت لي يا كوثر من أجل خاطري لا تدخلي بعدي الغرفة إلا حين أخرج منها، كان صوتها مرعبًا وظللت ليلتها وطوال اليوم أخاف أن ادخل عليها ولكن حلّ الليل وقد طال مقامها لذلك غالبتُ خوفي ووجدتها كما تراها"

لم أدرِ ماذا أفعل، لا خبرة لي في تمريض المحموم ولا أعرف طبيبا يمكن أن يأتي لفحصها في تلك الساعة، أمسكت بهاتف أمي وقابلتني خلفية صورة لي وأنا طفل، قاومتُ وخزًا شعرت به وطلبت الإسعاف.

.....

ظللنا واقفين في ردهة المستشفى نتحرق من جمر القلق والإنتظار. خرج الطبيب وجاءت ممرضات أخذن في جر أمي على نقالة.

"يا دكتور ماذا بأمي؟"

"منذ متى وهي محمومة؟ لما تركتماها حتى تصل لتلك الحالة؟"

"دخلتْ غرفتها أول أمس وطلبت ألا يدخل عليها أحد حتى طال غيابها فقلقنا فوجدناها محمومة"

سكت الطبيب كما يفعل الأطباء.

"ماذا بها يا دكتور؟ لا تقلقنا"

"لن أكتمك سرًا؛ حالتها خطيرة لقد ظلّت فيما يبدو محمومة لوقت طويل ولم تتعاط أية أدوية لتخفيض الحرارة. لقد وصلت الحرارة لإحدى وأربعين درجة، حالتها لا تريح، للأسف قد يتأثر القلب بنسبة كبيرة فحالته ودقاته لا تبشران بخير، ولو ظلت الحمى على تلك الحال قد يؤثر على عقلها إن لم تم..."

ولم يكمل الطبيب. أغشي على كوثر فأجلستها وسرعان ما أدخلناها غرفة أخرى لتهدأ من الصدمة التي تلقتها. كيف لم أنتبه أن أبعد كوثر كي لا تسمع ما لا يسر ولم تزل بعد طفلة!

مضى اليوم بجانب كوثر إلى أن تستقر أعصابها حتى طمأنني الطبيب عليها. أدركت أنه لا فائدة ترجو من وجودنا الآن.

"هيا يا كوثر فلنعد إلى البيت كي ترتاحي"

صاحتْ باكية

"لن أترك أمي"

"لا فائدة من وجودنا الآن فلنعد"

"لا إن هانتْ عليك فلا تهون عليّ. لو أصابها مكروه فستكون أنت السبب"

تلقيت أتهامها في صمت، قاومتْ حتى حملتها رغمًا عنها وهي تضربني بيديها الصغيرتين. في الطريق أوقفنا طبيب.

"عذرًا يا سيدي ولكن عليكم وضع مالٍ تحت الحساب"

صعقتُ فكيف لم أذكر موضوع المال! أنزلت كوثر وسألتها رغم غضبها ولكنها لم تكن تعلم أين تضع أمي المال.

"دعنا نرحل وسآتي بالمال غدًا"

"لا يمكن، لقد أخذتم غرفتين ثم العناية، لن ندع أيًا من ساكنيها يرحل إلا إذا دفعتم ما عليكم"

"لا مال معنا الآن"

"آسف ولكن هذه القواعد"

كان أسلوبه فظًا فأغتظت ولكني تمالكت أعصابي للحظة.

"كوثر أتركينا وعودي إلى غرفتك لبعض الوقت"

ما إن رحلتْ حتى صرخت فيه.

"ألا رحمة عندكم! لا تدعون طفلة تعود إلى منزلها لأنكم ملهوفون على المال؟ وحدها أمي من تعلم مكانه وتديره وهي الآن محمومة كما ترى فكيف لها أن تخبرني عن مكانه؟ دعنا نرحل لنبحث عنه ونعود اليك"

صدح صوتي في الردهة ولابد أن كوثر قد سمعته واندهشتُ في باطني؛ كيف أن دفاعي عن أخت حديث العهد بها سيكون بهذه القوة! لم يبدو أن الطبيب قد تأثر وكأنه اعتاد مثل تلك المواقف.

"ما عمرك؟"

"سأبلغ الأحدى وعشرين بعد شهرين"

"إذن مازلتَ قاصرًا لا تملك الحق في أخذ مال من حسابكم لو كان لديكم في البنك"

كدت أُمسك به وأهيل عليه اللكمات.

"آه! ليث؟"

التفت في دهشــة ووجدت فتًى يماثلني في العمر ينظر إليّ بخجل. هل كان واقفا وأســتمع للحديث برمته؟

"نعم!"

ثم قال الطبيب قبل أن يرحل.

"لديكم فرصة حتى آخر اليوم"

وفلتت مني شتيمة بصوت عالٍ.

قال الفتى.

"عذرًا لإزعاجك ولكني جئت إليك حين علمت بمرض والدتك"

"أشكرك ولكن من يا فندم؟"

"أنا أديب أشرف العوضي"

بدا الإسم مألوفًا لي فرنوت إليه متسائلًا.

"أنا أبن خالك أشرف"

انعقد لساني. كيف عرفوا مكاننا وبما حدث؟ تاه الكلام مني لبرهة.

"عذرًا لم أعرفك، مضى عمرٌ لم نتقابل فيه"

"لا بأس، كيف حال عمتي؟"

"نأمل خيرًا"

لم أستطع أن أمنع فضولي.

"كيف عرفتم بمكاننا وكيف عرفتم بأمر أمي؟"

"هذه قصة يطول شرحها"

صمت وقد أزداد حرجه فسألته أول سؤالٍ خطر لي.

"كيف حال أخوالي؟"

أعترت وجهه كآبة حالكة.

"فليرحمهم الله"

أنعقد لساني من جديد، لم أجد ما أقول وتاه مني الكلام من جديد.
"منذ متى وكيف؟"
"منذ أعوام، مات أبواي في حادث سيارة وأكتأب عمي وبكى أخاه، أسرف في التدخين والخمر حتى أصيب بجلطات عديدة وسرطان الرئة وما لبث أن أسلم الروح"
"ياربي! آسف فكما تعلم أنقطعت الصلات بيننا منذ أعوام، البقاء لله"
"لله الدوام، جئت أطمأن على عمتي وكنت أظنها تحسنت فأعطها هذه الرسالة"
أخرج من حقيبته جوابًا قديمًا أصفرت أوراقه من أثر الزمن.
"ممن هذه الرسالة؟"
"جواب من جدتنا رحمها الله لعمتي، وجداه أبي وعمي منذ أعوام وآثروا الإحتفاظ به وعدم إخبارها ولكني رأيتُ الآن إن قرأت جوابًا من أمها علّها تبرأ سريعًا. فهاك الرسالة"
أخذته منه وشكرته بصدق. ظللنا صامتين برهة إلى أن كسر الصمت.
"هاك رقمي مكتوب على تلك الورقة، إن أحتجتم شيئًا لا تتردد في مكالمتي وحادثني فور أن تتحسن صحة عمتي. عليّ الذهاب"
أنتبهت حين أعطاني الورقة إلى رعشة يده، أدرك ذلك فأخفى يديه خجلًا، ودعته ثم رحل.
مضت ساعات وأنا مع كوثر لا ندري ما العمل حتى جاء ذاك الطبيب الكريه مرة أخرى.
"المهلة لم تنتهِ بعد"
"لا بأس، جئت لإخبارك أنه يمكنكم الرحيل فقد دفع أحدهم الحساب"
"من؟"
"أسأل الحسابات"
لعنته من الأعماق. نزلنا للحسابات وسألتُ العاملة.
"من دفع حساب الغرف والعناية لكوثر مجد ومنى عبد المطلب العوضي؟"
ظلّت دقائق تطّلع على البيانات.
"سيدة تقول أنها حرم المرحوم عادل عبد المطلب العوضي أخو السيدة منى"

ليث

25

لم ينم أحدنا ليلتها، ظللنا ساهرين كلٌ في غرفته.

حاولت أن أتجاوز ذلك الحاجز وأعبره وأذهب إلى كوثر أضمها علّها تطمأن، صعبٌ على طفلة أن تحمل كل هذا الرعب فأنا نفسي أكاد أُجن، ولكني لم أستطع، مجرد أنها أبنة تلك الليلة يبني ذلك الحاجز يومًا بعد يوم.

أستسلمت لأفكاري ودون أن أدري جرت دموعي حين أجتاحت ذكرى أيامي مع أمي قبل ظهور مجد هذا.

كم أحببتها وما فطنت إلا اليوم، حبي لها مازال حيًا في قلبي ويبدو أني لم أكرهها يومًا واحدًا بل يبدو أن كل تلك القطيعة كانت نابعة من حبي العميق لها. كم قسوتُ عليها ولم تقترف إثما!عذبْتُها بجفائي فقط لأنها أحبت وتزوجت رغمًا عنها أبي ثم تزوجت بعده من أحبّت، وجاءت كوثر فتبرأت منهما، عذبتها ولم أهتم لتجاعيد وجهها التي أضيفها كل يوم.

بكيت في صمت إلى أن طلع الصباح، دق الباب من جديد ففتحت لكوثر.

"أريد الذهاب إلى أمي"

"حسنٌ أمهليني دقائق كي أغير ملابسي"

ثم أدركت أني بقيت بملابس أمس.

"لا يهم هيا بنا"

.....

قابلنا الدكتور فسألته عن حالة أمي بعد أن أبعدت كوثر، سكت الطبيب وكأنه طقس تعلمه الأطباء.

"أعطيناها المخفضات، نزلت حرارتها درجة وما لبثت أن أرتفعت من جديد وكأنها لا تريد أن تحيا، بدأت تهذي وتخرف من شدة الحمى. الأمر بيد الله فليلطف بحالها"

تمتمت بذهول.

"ماذا إن ظلت ولم تنخفض"

"قد تُجن وقد تتعطل أعضائها الحيوية وسيكون الموت رحمة لها في تلك الحال. آسف جدًا"

ثم أسرع وذهب، أقتربت مني كوثر وسألتني بلهفة.

"ما مصير أمي؟"

"ستكون بخير"

صاحت بي.

"كاذب! ألا ترى وجهك كم يكسوه شحوب الموت! أريد رؤيتها"

هل هذه طفلة ذات سبع سنوات!

أَذِن لنا الطبيب بزيارتها وأعطانا كمامات كشرط أساسي كي لا نُصاب بعدوى، دخلنا العناية وكاد يغشى على كوثر.

"أمي"

هتفت كوثر بصوت باكٍ ولم تكترث بالعدوى وخلعت الكمامة، جرت إليها وضمت رأسها لصدرها الغر.

تأوهتْ أمي بحرقة، وظلت تهتف بوهن وبصوت آخذٍ في البكاء.

"أمي.... أريد الذهاب إلى الحديقة.... أمي.... يا حبيبي! تراني. ترى أمك.... ذهبتِ فجأة.... أخواي سيقتلانني.... لم ينصفني أحد"

لم ترحم الحمى أمي ولم ترحمنا، صارت تُلقي جملة وراء جملة في دقيقة واحدة، كل جملة تختلف وترتبط بسابقتها.

"أمي أنظري إلى غيث.... حتى أبني من كبدي.... أمي مات أبي. أريد توديعه"

تهاويت على أقرب مقعد.

تهذي باكية.

"أمي يا أمي. يخبرني ملك أنك متِ أين أنت؟"

بكت كوثر فوق صدر أمي.

"أمي إن رحلَت أمك فأنا هنا، أنا أمك وأبنتك وأختك، لو ظلمك الكل لن أظلمك"

طفلة في السابعة!

"أرجوك يا كوثر. دعيني مع أمي"

نظرت إليّ كوثر، تهدج صوتي وأنا أرجوها من جديد، تركتْ صدر أمي وخرجت راضخة وصرت وحدي مع أمي.

بكت أمي في حمى الحمى.

"أمي لما أنتما عجوزان.... آه يا أمي.... أبي إن أمي تريد تدميري لما لا أذهب إلى الجامعة؟.... ملك لا أرى سواه لك إسما.... لا تبكِ يا عمي هي كدمات بسيطة.... تزوجني سيقتلني أخواي مالي الآن إلاك.... كوثر يا ملك عيناها خضر كعينيك! غيث.... لما تبكي أمي يا ابى؟.... ستساعدني في تركيبها"

كل جملة تعتصر قلبي وتجلدني بسياط الندم.

"أغفري لي ما أنت أبنة حرام.... البكاء آتٍ أتٍ"

فإذا بها تنادى أبي، ثم أمها ثم أباها ثم ملكًا، أهؤلاء كل من تعرف؟

"قلت لك يا محمد أبقى معنا لا تنزل التحرير.... ستموت ويموت غيث أنتما دنياي.... غيث يا محمد لا ليث.... أمي لقد تزوجت.... موافقة.... لا لا ترحل.... رحلت.... لم يمت محمد لا لست أرملة لا.... لا.... لا تنسى جئتَ لأجل السمعة الطيبة"

أقشعر بدني بشدة، ظننتها تكره أبي، ما إن وجدت الفرصة لفراقه حتى تزوجت ولكنها تحفظ الجميل للآن!

"أبي أرغب في كتاب جديد.... يا أبي لم تعطني كتابًا بعد الآن أريد كتابًا"

وبكيت، كل تلك المعاناة في صدر أمي، كل تلك الأعوام كانت تكتمها!

"غيث .... أبني"

لم أستطع التحمل، هرعت إلى أمي وبكيت فوق صدرها غير عابئ إذا أصابتني حمى أو لا، ظللت أبكي بينما تهذي بعشوائية.

"أحملها يا غيث أرجوك.... أخشى أن أموت.... سأموت.... لن أخبر أباها.... أمي في رحلة.... لن تعرف أباها صدقني لأجلك.... غيث يا غيث ساعدني أرجوك"

بكيت بشدة وجسمي يرتجف، تأوهتُ بحرقة

"آه يا أمي أغفري لي"

"آه يا غيث.... أحبك.... كرهتني"

"ما كرهتك قط، ما أحببت أحدًا مثلك لعلك فقتِ أبي محبة، لا ترحلي. أحبك يا أمي والله أحبك، أدعو الله أن تنتقل الحمى إليّ وأهلك فدائًا لحياتك التي ما أدركت قيمتها إلا الآن. أنا أستحق. آه يا أمي"

بكيتُ بشدة ثم شعرتُ بيد تشد يدي، رفعت وجهي ونظرتْ إليّ كوثر بعين باكية.

"أحملها يا ليث أرجوك"

لحظتها شـعرتُ بحب جارف نحوها، رنوت إلى عينيها الخضـراوين، لحظتها لم أعبر فقط الحاجز بل حطمته.

أنحنيت إلى أن أصبح وجهها قبالة وجهي ثم ضممتها، ربتت على ظهري وهي تقبل وجنتي، نظرت من جديد إلى وجهها، ما أشبهها بأمي، أمسكتْ بيديها الصغيرتين وجهي ومسحت الدموع من عينيّ. طفلة في السابعة!

دق الباب قمت واقفا ودخل الطبيب يعلن أنتهاء الزيارة.

.....

جلسنا في الكافيتيريا وطلبت قهوة لي وعصيرًا لكوثر. ظللنا صامتين برهة، رشفتُ القهوة وتقلصت ملامحي لمرّ البُن الرديء ثم عدت أشربها، عليّ من الآن أن أعتاد المرّ. بدأت الحديث.

"أنا آسف"

"لا تأسف أرجوك"

بعد صمت.

"أنا أعرفك بحق يا أخي، لا تعجب، رغم عزلتك حكت أمي عنك، عن طيبتك وعن أيامكم، عن أبيك والميدان، عن حزنك لإستشهاده، أحببتك دون أن تشعر، لم تحلكِ أمي سبب جفائك ولكني أدركت منذ زمن إلى أختلاف أسميْ أبي وأبيك، كوثر مجد مراش وليث محمد الباجوري، علمتُ أننا لسنا أشقاء، لم أسألها ولكن شعرتُ أن أبي السبب في ذلك الجفاء. كانت تقول لي أنه مهما طال الجفاء سيرق قلبُك لها ولي يومًا حين تجرب الحب"

دمعت عيناي.

"بالفعل، غفرتُ لأمي لو كنت أصلًا غضبتُ منها، كنت أقنع نفسي كل يوم بأني أبغضها حتى صدقت ذلك، لو رحلَتْ سأندم ما بقى لي من عمر"

قالت وقد تهدج صوتها.

"فلندعو الله أن يلطف بها وبنا، ولو كان رحيلها قضاءه إذن فليخفف ألمها قدر رحمته"

طفلة!

تعرفتُ إلى كوثر في تلك الساعات، تحادثنا كأي أخوة أفترقوا وعادوا للقاء.

"هيا فلنسأل الطبيب عن حالها ثم نعود إلى البيت"

وجـدنـا الـطـبـيـب فـي مـكـتـبـه وقـال لـنـا بـحـمـاس.
"كنت أبحث عنكما. حمدا لله أسـتجابت مدام منى للمخفضـات وأنخفضـت حرارتها بشكل يطمئن. نرجو أن يظل ذلك التحسن، بعد ساعات أكيد ستستقر حالتها"
تعلقنا بالأمل وإن أعتراني الضـيق، أخبرني الطبيب بصـراحة أن قلبها لن يعود كما كان، فقد تأثر من شـدة الحمى وصـار عليلًا. لا ندري للآن سـبب الحمى فلم تخطو أمي خارج البيت ولا أظن أننا نقلنا إليها عدوى.
الرسـالة! بلى لابد أنها السـبب فلم تحتمل أمي وقعها فأصـابتها الحمى، ثم تذكرت رسـالة جدتي، أخرجتها من جيبي كما تركتها فتحتها وبدأت في قراءتها. بعد عشـر دقائق أنهيت قراءة رسالة جدتي.
"ماذا يبكيك؟ ما المكتوب في تلك الرسالة؟"
كنت أبكي وأنا لا أدري. يارب! كما نرث مالًا وجاهًا، نرث شقاءًا وابتلاءا.
"المكتوب يا كوثر"
.....
بعد ساعات أستقرتْ حالة أمي وأطمأننا، عدنا إلى البيت ونمنا ليلتها بعد أرق دام يومين.
ذهبنا في اليوم التالي وقابَلَنا الطبيب بابتسامة.
"لقد أفاقت السيدة منى وسألت عنكما ما إن فتحت عينيها"
لم نصدق.
"أصدقنا القول يا دكتور"
"والله! زالت عنها الحمى وأفاقت منذ بضع ساعات ولكن لم نشأ إخباركما كي ترتاحا ، هي الآن في غرفة قد نقلناها إليها، هي في فترة نقاهة ولكن لا نريدها أن تنفعل كي لا نتعب القلب، يجب من الآن مراعاة حالته، هيا أذهبوا إليها"
جرت كوثر بعد أن أخبرنا بمكان الغرفة، سبقتني وفتحت الباب.
"أمي!"
بكت كوثر بحرقة فقد كان الطبيب صادقًا، ها هي أمي راقدة على السرير تنظر إلينا بعين باكية حانية، هرعت إليها كوثر وضمتها أمي بأقصى قوة تستطيعها وقبّلتها في كل شبر من وجهها.
بكت أمي بدورها.

"رفقًا بك يا كوثري ها أنا معك لم أرحل"

دمعتْ عيناي وتمتمت.

"رفقًا بك أنت يا أمي فمازلتِ متعبة"

ونظرت أمي إليّ ولم تصدق الدموع في عينيّ، رفعت ذراعها الأخرى ورحت من فوري أسكن في حضـــنهـــا وأنـــا أنشـــج في صـــمـــت. رفـــعـــت أمـــي وجـــهـــي بـــيـــدهـــا. "منذ حملتك رضـــيعًا وأنا أبكي بكائك. لم أحتمل يومًا بكائك ولو أســـتطعت فداء بكائك بعمري كله والله أفديه"

مسحت أمي دموعي وهمست.

"أكان يجب أن اشـــارف الموت كي أعلم غلاوتي عندك؟ ظننتك كرهتني، ياليت الحمى أصابتني منذ أمد"

"أغفري لي"

"بل أغفر لي يا ليث"

"غيث، أسمي غيث يا أمي"

بكت أمي متأثرة حتى هدّأنا من حالها.

"وأخيرًا أضمكما أنتما الإثنين معًا يا فرحتي!"

.....

أخبرتُ الطبيب بعدها عن أمر الرسالة وموت أخوالي.

"الحزن والفرح سواءٌ في الخطر على قلبها. حاول أن تمهد لها"

ظللت أيامًا أمهد لأمي كي أعطيها الرسالة وأنعيها أخويها.

في البدء سألتها عن جدتي ومضت أمي تستعيد ماضيها، ثم أخبرتها في يوم آخر عن زيارة أديب لنا.

شحب وجهها.

"كيف علموا بمكاننا بل كيف علموا بمرضي؟"

قلت لها ألا تخشى شيئًا فقد زال الشر، وبعد يومين نعيت لها أخويها.

دمعت عيناها.

"كانوا سبب كل جحيم منذ وعيت. فليرحمهم الله وليغفر لهم. لقد سامحتهما"

قلت لها أن ترأف بحالها.

"لا تقلق بشأني، سأصبح على خير حال"
فأرتأيت أن أعلمها برسالة أمها.
"سأخبرك بشيء ولكن لا تنفعلي، علّه يهون عليكِ"
رنت إليّ متسائلة.
"أعطاني أديب شيئًا عثر عليه أخوالى منذ أعوام قبل ولادتي حتى وآثروا ألا يخبروكِ بأمره. هاكِ الشيء"
أخرجت الرسالة وناولتها إياها.
"من كتبها؟"
سألتني بلهفة.
"جدتي رحمها الله"
تهدج صوتها.
"لا تعبث بي أرجوك"
"أنها رسالتها"
أمسكت أمي الرسالة، دمعت عيناها وهي تضم الظرف إلى صدرها كأنها تضم جدتي.
"آه يا أمي، أحمد الله أني لم أمت يا غيث. لا أبالغ لو أخبرتك أني ظللت في الحمى حاملة همكما، لم أرد لكما أن تشعرا بما شعرتُ به لحظتها حين هممتُ بإيقاظها ووجدتنى أهز بدنًا بلا روح"
"هوني عليكِ أرجوك"
"أرجوك يا غيث. دعني لوحدي مع أمي. مضى عمر لم أسمع منها حديثا"
تركتها وخرجت إلى كوثر كي تقرأ الرسالة.

القاهرة نوفمبر 2018

مستشفى كليوباترا

دق قلب منى الواهن وهى تفتح كتاب أمها.

شــد ما أشــتقت اليكِ يا أمي. يارب! كتابٌ كاد يهلكني ويبتم أولادي وكتاب صــار ليحييني.

هل سيحتمل قلبي؟

فضتْ طرف الجواب المفتوح سلفًا وفردت الأوراق، هو خطها لا أتيه عنه!

وشرعَتْ في القراءة وعبراتها تسيل.

"

منى، أبنتي الغالية،

يا أغلى من أحببت وكان لى خير عوضٍ، أكرمني المولى بك ولولاك لما عشت ليومنا هذا وقد شعرت بدنو الأجل، فكنت واحة عمري بعد قفر وقحل، فأهنأي يا حبيبتي فالجنة لك حقٌ في الآخرة؛ فقد أنقذتي نفسًا من زهق روحها.

قد حلمتُ بالغالية؛ أصبحَتْ عروسًا من حور الجنة.

أمسكَتْ بيدي وقادتني لسدرة المنتهى.

ما أعظمها من شجرة!

قالت الغالية لي

"مازلتِ من أهل الدنيا، الملائكة طوافون حولنا فلن تستطيعي لهم بصرًا، أيام قليلة ويحين اللقاء الذي طال بنا أنتظاره"

" ومنى لمن أتركها؟"

"ألم تشتاقي إليّ؟"

"بلى ورب هذه الشــجرة المباركة! ولكنها بائســة ذاقت مرارة اليتم ولن تلبث أن تذوقه برحيلي"

"لله المشــيئة، فهو يفضّــل عبادًا عن عباد؛ فيختار الصــالح منهم والتقيّ فيبقيهم إلى جواره إلى قيام الســاعة فيرحمهم من الدنيا بنعيم برزخه بينما يصــطفى الله قومًا خيرٌ من كل صــالح تقيّ، يبقيهم في جحيم الدنيا ويزيدهم بركات ويهبهم ما ليس لكل عابد،

فيصـيّرهم الله كأوليائه، أصـطفاهم الله لحكمة وحده يعلمها حتى تحين زفرة الفناء فيؤثرهم الله مع الصديقين والشهداء"

تعانقت يدي بيديها وغشـيني نورها، أفقت على آذان الفجر فأيقنت أن أمر الله قد حان.

خفتُ عليكِ وقع رؤيتي -والرؤيا يختص الله بها عبده وحده- ولمّا يمضـي أربعون أبيك فيحين أربعيني.

.....

كم تعجبتِ لكبر عمري و أبيك ولم تبلغي العشرين بعد!

ولدتُ و أبوك بعد الثورة حين نُفي سعد زغلول وقبل أستقلال وأعلان الملكية.

حين بلغتُ الثامنة عشـرة صـارت مفاتني جلية و أقبل عليّ الخطاب طلبًا ليدي والأمر كله كان بيد والدي فلم أعبأ به.

فتاة يافعة نالتْ حظًا من التعليم، فتاة ككل فتيات زمانها ولكن لم تنقد لمجرى الزمن.

أبصرني الكثير مع أمي ويشمكٌ تركيّ شفاف مغطٍ كل حسنٍ عن أنظار الخلق، في زمن كان اليشـمك فقط لأميرات الأسـرة المالكة وفقط لمناسـبات معدودة، وقد أنتشـرت أيامها موضة الحرية والإختلاط وثارت النساء بكل قصة شعر وقبعة وفستان جاءت مصر قبل باريس.

وذات ليلة حضـرتُ وأبواي حفلًا لأم كلثوم في الجامعة الأمريكية، كانا من أوائل الناس الذين دعموا فنها، منذ أول أسطوانة و أبواي يحضران كل حفل لها.

ليلتها رآني أبوكِ وقد لفَتَ اليشـمك نظره، أذكر ليلتها كأن أم كلثوم غنتها ليلة أمس، ماتزال الألحان تصدح في أذنيّ بهدوء وتتسرب رويدًا في النفس.

(مقاديرمن جفنيك حولن حاليا.)

شـــعرتُ بأنظاره مصـــوبةً نحوي، فأرتبكتُ ولم أنعم بشـــجى أم كلثوم وصـــوتها يعلو طبقات سماوية، تلك المرة أستمعت للشدوبقلب مضطرب بينما من حولي يتأوهون من فرط طربهم، ولكني أذكر بعضًـــا من كلمات القصـــيدة، كانت عيناه تقولها مع شدوها.

[وما هو إلا العين بالعين تلتقي.

وإن نوعوا أسبابه والدواعيا.]

وعلى حين جملة نطقها صوتها.

[إذا سألونى ما الهوى؟

قلتُ ما بيّ.]

صـــاح الجلوس وترتقرت عيناه ولا أدرى لما تهدجت روحي وأنا أذرف العبرات، بدأت أم كلثوم تنوح وأجد شفتيه ترددان نوحها إليّ.

[نفذن عليّ اللب بالسهم مُرسلا.

وبالسحر مقضيا وبالسيف قاضيا.]

أتساءل بسخط لما تظل ترمقني عيناه بالدموع ومتى يكف كي يكف بكائي.

[وألبسني ثوب الضنى فلبسته.

فأحبب به ثوبًا وإن ضم باليا!]

كتمت شـــهقاتي كي لا يفيق أبواي من غيبتهما فقد فاقت أم كلثوم ليلتها كل وصـــف وفاق الحضـــور كل جنون! يصـــعب على المرء وصـــف الحالة التي عشـــناها ليلتها. كاد البعض أن يفقد عقله، كان صوتها يعجز العاقل عن وصفه ولو أدرك أسراره جذب.

[أمانًا لقلبي من جفونك.

بدأت أم كلثوم مجذوبة في إرتجال أبياتها، تلهث أنفاسي ورائها.

أمانًا لقلبي.]

بلغ صوتها عنان السماء، كادت روحي تفارق مستقرها، كدت من فرط لوعتي أن أركع تحت قدميها طالبة الرحمة. ولم ترحم.

(أمانًا لقلبي من جفونك في الهوى.

كفى بالهوى كأسًا و راحًا وساقيا.)

تأوهتُ بأعلى صوتي ولم يفق أبواي ولا أحد من الحضور، ما هذا الذي عشناه؟ هيئ لي أننا في الجنة وأنها الحور من تغني!

ثم أخذ اللحن مسارًا عاطفيا حزينًا انسابت معه روحي. ضمت يديها و أنشد صوتها بعذوبة وبرجاء باكٍ.

(ولا تجعليه بين خديك والنوى.

مسحتُ دموعي بمنديلي.

من الظلم أن يغدو بنارين صاليا.)

أقسم أن أم كلثوم ليلتها نظرت إليّ وأمالت رأسها بإبتسامة، أشرقت أنا الأخرى أبتسامة وسط دموعي.

حاولت بعدها بأعوام كثيرة أن أهتدي للأغنية لكنها ضاعت مع ما فُقِد من أعمال بسبب الإهمال.

وبعد تلك الحفلة بأيام جاء أبوك خاطبًا وو افق أبي.

منذ أول ليلة وهو يغمرني بطيبته وحنانه العجيبين، كنت أخشى من الزواج بسبب شذوذ الرجال آنذاك.

كانت موضة الإلحاد تنتشر بين الشباب ثوب التفتح يُخفي سيادة. خفتُ أن يكون مثل أبي فرغم طيبته وتعليمه لي إلا أنه كان يحمل بين جنبيه الشيء ونقيضه، يجبرني على إختيار أبهى الفساتين والحليّ ولكن حرم عليّ أن أكشف على الرجال في المجالس. يعاقب من لا يصلي ويصرخ فيّ كلما رآني بيشمك.

ظللت أرقبه بشك، أنتظر حقيقته وما خلف قناع الطيبة وكانت حقيقته هي طيبته.

في يوم فتحتُ عينيّ وإذا زوجي ممتقع الوجه وبجانبه رجل علمتُ أنه الطبيب، و صرتُ حبلى. بعد خمس اعوام من الإنتظار صـــار في أحشـــائي طفل. روح من الله في داخلي مستقرة. قطعة مني تتكون، أريد مرور الأيام فيحين اللقاء وأخشى دوران الكون فأريد أبقاءه داخلي ما حييت.

ثم يومًا ســـمعت صـــوتًا ينبعث من داخلي فيخرج مع كل نفس ويعود ويغمرني كلي، وعلمتُ أنها أنثى.

وجاءتْ، خفق قلبي بعنف حين حملتها وأدركتُ أني قد صـــابتني ســـهام الحب فها هو حبيبي بين يدي يناجي سماءه بلغة السماء.

كانت هدى تبعث الســـلام في نفس كل من يرنو إلى وجهها وعينيها العســـليتين اللاتي تذكرني بلون الذهب.

مضـــت الأيام هانئة عزفتُ عن كل شـــيء إلا هدى، صـــارت كل طمع أطمعه وكل لذة أنشدها.

وفي يوم و أنا حاملةٌ هدى وقد ســـبقني أبوك ليجهز الســـيارة، إذا بطيف أســـود يحوم حولي فعزوت ذلك لقلة النوم.

تهمهم هدى وتناجي بلغتها أطياف الســـماء وبينما أهبط الســـلم إذا بقطة لا أدري من أين أتت تقفز في طريقي فأفزع.

فأقع فتقع هدى.

صـــار كل بكاء طفل وصـــرخة رضـــيع ترعبني وأدخل في نوبة بكاء من شـــدتها أغيب عن الوعي.

وقعت مني هدى وتدحرجت على الدرج إلى أن ارتطم رأسها اللدن ببلاط الأرض الصلب كعناد القدر.

صرخات أختك للآن تقضّ مضجعي وتطاردني في نومي.

ندمٌ وخشـــيةٌ من عذاب الله أعتروني لإهمالي في روح أودعها الله في باطني و أبصـــرت الدنيا فزهقت ولم تمضِ أشهر.

هكذا في ثوان أنتهى كل شيء.

ظللت جامدة على السلم أرنو إلى بركة الدم تحت رأس فقيدتي. كل قطرة دم خرجت هي منّي، بين دمي ودمها رباط فكيف أنفك وأندفع في سيل ولا يندفع دمي معها؟ رأيت الطيف الأسود مع طيفٍ أبيض، أخترقني الطيف الأبيض وما لبث أن صعد هو ورفيقه الأسود إلى المجهول.

وصرخت كل قطرة دم تريد الخروج لتصير مع الدم المسفوك دمًا يعجز العلماء عن تحديده، كل فجيعة حلّت على الأرض منذ صرخة حواء على ولدها إلى صرختي تلك.

نزلتُ وتعثرتُ ما بقي من السلم، شعرتُ أن السلم لا نهاية له.

أخذتُ أحتضن رأس أبنتي المهشم و أقبل دماء ووجهها المشوه وعينها الساهمتين إلى الأبدية. فأصرخ وقلبي يتمزق.

"لا يمكن، بالله عليكِ لا تذهبي. أبكي! أصرخي! يارب أنا راضية بوجهها هكذا أبد العمر وقريرة العين إن ظلت عاجزة ولكن لا تأخذها مني! أبكي يا هدى! لما لا تبكين؟ لطالما هدأتُ كلما سمعتُ بكاءك فلماذا تضنين به على أمك لما لا تريدين لي أن أهدأ؟ آه!"

أصرخ وأضمها بشده علّ دقات قلبي تنتقل إلى قلبها الساكن فيصرخ ألمها ولوخمد قلبي بعدها. علّها تدخل في أحشائي وتظل فيه في أمان.

تجمع كل من سمع صراخي وأولهم ابوك، أخذوا مني أختك وسط حوقلة الجميع، ظل أبوك ذاهلًا وبدلًا من أن يضربني ويذبحني لفعلتي وقع أرضًا يضمني ويبكي.

كل ذلك بينما القطة ترنو لنا بلامبالاة.

لما يارب لا نقتص من الحيوان كما البشر؟

صرتُ خارج الوعي شاهدة على الأحداث، الطبيب والمحقق يحققان ببرود وعجلة كأن المشهد مكرر كل يوم. المغسّلة تغسّل أبنتي وتكفنها، أتشِحُ بالسواد، ننتظر نحن النسوة إلى حين ينتهي الرجال من الصلاة عليها.

نسير في الجنازة وقد رأف الرجال بي والمشايخ فسمحوا لي بالسير وراءهم وسط تكبير وحوقلة وصراخ بعض الأهل مجاملة.

يُهال علي أبنتي الثرى. و أنظر إلى شاهد قبرها.

{وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}

{كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ}

إلى رحمة الله انتقلت ربيعة العمر عروس الجنة.

هدى عبد المطلب العوضي.

20 فبراير 1943

5 مايو 1943

فصرختُ صرخة كادت من قوتها أن توقظ الراقدين في القبور.

.....

مضت أشهر وأنا راقدة في المشفى زاهدة عن الدنيا وعن الكلام، عازفة عن كل مأكل ومشرب حتى عُلق لي محلول.

ساهرة أرقني السهاد، جامدة جفاني البكاء.

فكيف يطيب لي نوم وأبنتي في القبر نائمة.

ظن الجميع أنى سألحق بأختك، ظللتُ قرابة العام لا آكل ولا أشرب.

هزلتُ وضعفتُ حتى صار الموت رحمة لي.

أسمع صراخ هدى ولون بركة دمها الأحمر كلون الجحيم هو كل ما أرى.

فقد الجميع أملهم فيّ وأعدوا اللازم لإستقبال فقيدٍ جديد.

وأنا لا أدري غرقتُ في سِنَةٍ مفاجأة ورأيتها.

بكيتُ وما أعذب بكاء الحلم! ورحتُ أضمها، ظننتي متُّ أخيرًا ولحقتُ بها.

عشنا حياة بأسرها في تلك الغفوة حتى صارت هدى طفلة من أجمل من رأيت، حتى تركت حضني وفطنت أخيرًا أني في حلم لا لقاء موت.

"بالله عليكِ خذي بيديّ وأصحبيني برفقتك"

"أما رضيتِ بما قضيناه من عمرٍ سويا؟"

"والله إن وضعوا فوق العمر عمرًا ما أكتفيت ولا شبعت"

"أرضي يا أمي فالرضا بقضاء الله جزاءه جنات النعيم وأنا أريد أن أقضي ما بقى لي من الخلود معك ومع منى. فأرضِ يا أمي"

ضممتها بشدة وأنا أبكي، بدأت أشعر بسطوة الحلم تتبدد وبوجودى يتلاشى. قبّلتها محاولة استبقاء الحلم قدر المستطاع.

"أحبك"

ثم وقفت الست وأنّت من جديد أيدي الحاضرين.

(الأولة في الغرام والحب شبكوني.)

وعلا تصفيق حار.

(والتانية بالإمتثال والصبر أمروني.

والتالتة من غير ميعاد راحوا وفاتوني.)

أعترتني رعشة شديدة هزّت جسدي، لأول مرة منذ أعوام يصفو ذهني وأجمع تركيزي صوب شأن أو أمر.

(الأولة في الغرام والحب شبكوني بنظرة عين.)

نظرة عينيكِ الذهبيتين يا هدى القلب كانت أول عهدي بك في حياتك القصيرة.

(والتانية بالإمتثال والصبر أمروني وأجيبه منين؟)

آهة صدرت مني عميقة فألتفَتَ أبوكِ نحوي يسأل ما بي ولكنى لم أشعر به.

وكأني لم أفجع في هدى إلا الليلة، مضى الألم يسري في صدري. وطفقت روحي تئن وكأننا دفنا هدى منذ ساعات ورحنا للحفل سلوى على تعبنا.

(والثالثة من غير ميعاد راحوا وفاتوني قولوا لي فين.

سافر حبيبي؟)

آه أين أنت الآن؟ تحت الثرى راقدة أم في أحشائي قد عُدتي؟

ظللت أناجي هدى مع كل كلمة من كلمات أم كلثوم.

(سافر في يوم ما واعدني.

على الوصال وعاهدني.

وكان وصاله وداع.

من بعد طول امتناع.)

لم أتمالك نفسي فأطلقتُ آهة طغت على آهات الحاضرين حتى أن أم كلثوم التفتت إلى بنواري، وبكيتُ بحرقة كما لم أبكِ من قبل. ظن الحضور أني عاشقة هجرها حبيبها حتى أن أبيك قد أحرج ولم يدر كيف يوقف نوبة البكاء التي تملكتني وقد ندم على أصطحابي معه.

غابت أم كلثوم من جديد وهي تضم بيديها منديلًا تشدو وتنتحب. لم يتح لي الموقف أن أتساءل متى بدأت تمسك بمنديل في حفلاتها!

(حطيت على القلب إيدي.
و أنا بودع وحيدي.
و أقول يا عين أسعفيني.
و أبكي وبالدمع جودي يا عين!)
طغى صراخ هدى وبركة دمها على خيالي وصرت أصرخ.
آه يا هدى!
بكت أم كلثوم وأرتجلت وهامت.
(حطيت على القلب إيدي و أنا بودع وحيدي.
و أقول يا عين أسعفيني يا عين!)
أغفري لأمك! يا وحيدتى آه!
بكيتُ بجنون كأني أتمسك بالبكاء حتى لا يفلت مني. ظللتُ أبكي حتى أسودت الدنيا. وجدت نفسي راقدة في حجرة وأبوك وأمرأة بجانبي بينما الأخرى واقفة والماء يُبلل وجهي وثيابي. تتضّح الغشاوة من عيني وأتذكر ما جرى. وإذا أجد أن المرأة بجانبي هي أم كلثوم.

"إنتِ بخير يا بنتي؟"

"أنا كويسة"

"واضح إن جوزك بيحبك جدًا"

وأحمر وجه زوجي خجلًا.

"أول مرة صوت واحد من الجمهور يغطي على صوتي وباقي الناس لا وكمان واحدة ست"

قالتها أم كلثوم وهي تضحك.

"متأسفة أوي يا هانم إني بوظت لك الحفلة! تأكدي إنه غصب عني وإني مكنتش في وعيي"

"مفيش داعي للإعتذار، في شـــوية ناس من الجمهور ببديهم على غيرهم، لعلمك أنا عارفاكِ. دايمًا كنت بشـــوفك بتيجي من ســـاعة ما أبتديت أحيي حفلات. من ساعة ما كنتِ صغيرة يعني أنت تعتبري رفيقة عمر ودرب"

مسّتني كلماتها، ثم ضحكت.

"طب أدي لك أمارة؟ كل مرة خلاص أقول هروح في دنيا تانية و أنا بغني أفوق عليكي و أنت بتبكي"

ودمعت عيناي.

"ياريت البُكا كان نفعني! دلوقتي كل دموع الأرض متكفيش ذرة حزن واحدة من اللي فيا"

وضعت أم كلثوم يدى بين يديها.

"فاهمة شعورك يا بنتي، ناس كتير عزيزة عليا راحوا وفاتوني، أولهم أبويا اللي وقف جمبي ومقالش ديه بنت أزاى تغني و أنا عايش حتى لو لفّني بُعقال (ضـحكتْ بمرارة) و أبو العلا إللي لولاه مكانش زماني بقيت الســت، والإنســان إللى حبيته وســابني أتعذب مع كل كلمة جديدة بغنيها وناس كتير ولكن للأســف الدنيا بتمشـي مبتقفش على حد، ديه حتى أغنية الليلة كتبها بيرم لما أبن زكريا نفســه مات، (ضـحكتْ وقد لاحظت نظرتي الفضـولية للمنديل) ومايغركيش المنديل! ياما أتحدفتْ حوالينا الكراسـي واسـتخبيت لغاية ما الدنيا ما تهدى وأرجع أغني تاني! أنسـي يا بنتي عشـان تعيشي، لو سبتي نفسك للموت هتحرمي كام روح حقها أنها تعيش"

"قصدك مين يا هانم؟"

"ولادك إللى لســة ماجوش، لو مكنتش بقيت كوكب الشــرق كان زماني خلفت أورطة عيال"

فطنتُ إلى أي حد من الأنانية وصـلت، ألا يكفي أني حرمتُ هدى من الحياة التي وهبها رب الروح؟ ها أنا ذي أحرم أرواحًا أخرى أن تُهَب.

"أشـكرك بجد مش عارفة أقول إيه؟ ومتأسـفة مرة تانية إني بوظت لك الحفلة"

"عادى حصل ظرف قطعت الحفلة وهرجع أعوضها للناس تاني، مجاتش على تسـجيل هيتمسـح ومجاتش على سـاعتين زيادة هقفهم وأنا و اقفة بغني لغاية الفجر"

فطنت إلى فكاهة أم كلثوم التي قد توصـل إلى حد الإرباك التي تحدث عنها الكثير. ارتبكتُ.

"أنا آسفة جدًا مرة تانية"

.....

ظن الجميع أن حالة الزهد ستعود من جديد ولكنى فاجأت أباكِ ذات ليلة أني أرغب في وصـاله الذي أنقطع لأعوام، لن أخجل حين أخبرك أنه كان يبكي ونحن نلتحم. بعدها بأيام أقترح أبوكِ أن نهجر منزل الأحزان وذهبنا إلى البيت الذي ترعرعتِ فيه. ظللنا أعوامًا بلا أطفال وعزوتُ ذلك لغضـب الله عليّ. وتغيرت البلاد مع تقلبات وحوادث جسام.

مات أبي مختنقًا في حريق القاهرة، وآسـفة حين أقول أني لم أحزن عليه، مازالت كلماته تجف دموعي قبل أن تكون، ثم حدث الإنقلاب وأعتلى ملك رضيع عرش البلاد ثم في لحظة تهوروثقة جبارة، وفي لحظة غدروربما طمع أعلنت الجمهورية.

إلى أن حملتُ، فرحة شـابتها حيرة وشـك، ماذا إذا أهملتُ دون قصـد في القادم؟ هل سيغفرلي الله؟ هل سأحتمل مقتل طفل آخر؟

ظللت أنتظر سـماع ذاك الصـوت الذي غمرني ولم يأت صـداه في صـدري ووضـعتُ ذكرًا، أشرف، خاب أملي بعض الشيء ولكن عليّ بالرضا تلك وصية هدى.

وحملتُ ثانية بعدها بثلاثة أعوام أو أربع وأنجبت عادل وقد ملأني الرعب منذ مولد أخيك الأكبروأخاف عليه مِنّي ومن فواجع الأقدارفلم أعد أخطو عتبة الباب ورضيت أن أسمع أم كلثوم فقط في الراديو.

وبعثت إليها:

سيدتي كوكب الشرق،

مبارك لك الزواج، أدعولكما بحياة هانئة، ستبدولك رسالة تهنئة من أي معجبة كانت ولكن لا ، فهي من رفيقة دربك وشريكة رحلتك، علّكِ تذكرتني، أثّرَت فيّ كلماتك آخرلقاء وعزمتُ على المضيّ في الحياة لأهب الحياة لمن أعدهم الله لها، ما أنقطعت عن حضور حفلاتك إلا لأن الله قد أودع روحين فيّ فوجب عليّ مراعاتهما فنذرتُ نفسي لهما كي لا آت بفاجعة أخرى، كلما سمعتُ صوتك في الراديو أذكر كلامك، فأدعو لك،لفقد رميت بطوق الحياة لروحين، وفقكِ الله وأدام نجاحك المتوالي وسأظل أشكر فضلك،

رفيقة الدرب

لم أتوقع ردًا منها وفوجئت فيما بعد ببطاقة شكر رقيقة ومعها صورة لها بتوقيعها.

دعوتُ حينها أمي كي تظل معي تربي الطفل ثم جاء أخوك الثاني حتى لم تعد أمي قادرة على مراعاة طفلين وقد أهلكتها رواسب العمر، فأضطررت أن أحضر مربية لتعاونني، أحلفتها على المصحف أن تراعي أولادي كأولادها وظللت أخشى عواقبها.

ظللت أبحث عن الرضا وعن مُنى تلك وقد تهتُ في متاهة الضيق وغرقتُ في وساوس الشيطان، رويدًا رويدًا سارت الأيام والأمور على وتيرة هادئة ولكن أين الرضا ومن منى؟

وفي يوم صحوت وأبناي يبكيان ووجدتني ملقاة على الأرض على حجر المربية.

تكرر الأمر فذهبتُ مع أبيك إلى الطبيب.

"إني في حيرة"

"ماذا هنالك؟"

"متى أنقطع عنك الحيض؟"

"كانت تأتي متقطعة ولم تأت منذ شهرين أو ثلاث"

"غريب"

"ما الغريب؟ لقد ناهزت الخامسة والأربعين وما يزيد فعلى حد علمي أنه سن اليأس"

"أرى أن تذهبي لمتخصص"

تملكنا الرعب وذهبنا إليه فإذا أصعق من الخبر.

"مبارك يا مدام أنت حامل في الشهر الثالث وذلك من النادر حدوثه"

لم أصدق! طار زوجي من فرحته فسيصبح أبًا على كبر.

بدأتُ مع الطبيب في متابعة حملي المزعوم وتجنب أخطاره بسبب عمري.

كيف حدث هذا؟ قلّت ليالي الوصـــال بيننا فكيف في ليلة وفي لحظة التحام نادرة نجحتْ بذرة في ثانية في أخصاب بويضة كان مفترضًا ألا تكون!

و أنتظر في أي لحظة أن يقول الطبيب.

"للأسف يا مدام كان حملًا كاذبًا"

ولكن ذات صـــباح وجدت حجم بطني يزداد. ألا يكفي ما بي من رعب حتى أجيء بطفل آخر! أخاف أن أموت قبل أن أراه راشدًا بل أخاف عليه من نفسي. شعرتُ بحركته في داخلي وسكنت.

وفي يوم ســمعتُ ذاك الصـوت. قد مر من جديد من قلبي وخرج مع أنفاسـي وجاء من جديد يغمر صدري ويغمرني كلي. وعلمتُ أنكِ أنتِ منى.

.....

لم أرتح لنظرة الفتيين لي حين علما بحملي و أنتابني خوف مبهم.

وجئتِ يا منى حاملة كل ســعادة لي ولأبيك وكأني ما حملتُ وما أصـــبحتُ أُمًا إلا حين حملتُ بكِ بعد هدى وحملتكِ بين ذراعيّ، وأخيرًا بعد أعوام رضـــيت ووجدت معنًى جديدًا للحياة. عدت من جديد أهدأ إذا ســمعتُ صـراخك، وســمعتُ من جديد لغة السماء مع أطيافكِ، وظننتُ الحياة ستغدو هانئة هكذا أبد العمر.

سمعتُ عن جحود الأخوة، أؤمن بأن نسل قابيل مندس في كل بيت وما خطر لي أن من رحمي سيخلق أثنين من نسله.

في يوم رغبتْ المربية في الحديث عن الفتيين.

"ماذا صنعا هذه المرة؟"

"يا سيدتى فاق الأمر شدّ الشعر وتكسير ألعاب منى"

دق قلبي برعب.

"ماذا حدث؟"

"يريدون قتلها"

أسودت الدنيا.

"ماذا قلتي؟"

"سمعتهما يخططان للذهاب إلى صيدلية خارج الحي كي يبتاعا سُمًّا للفئران يدسانه في عصيرٍ لمنى"

كدت أسقط قبل أن تتلقفني المربية، بكت المربية بحرقة بينما ظللتُ ساهمة، وفتْ بقسمها وها هي مثكولة بخيبة أولادي. أخبرتها ألا تشعرهما بأي شيء.

هرعتُ إليكِ، أحتضنتكِ بقوة.

"هل شربتي أي شيء؟"

"لا"

"هل أكلتي؟"

"لا"

حمدتُ الله أن أعلمني فتمكنت أن أحمي تلك المرة أبنتي من الموت، سمعتُ أصداء صراخ هدى وطفت بركة دمها وتخيلتكِ مكانها.

ضممتك بقوة.

"لا يا منى، ورحمة أختكِ لن يصيبكِ ما أصابها، ستعيشين وتكبرين وتحبين، ستموتين بعدي لا قبلي"

نزلتْ مني دمعتان فيها كل محبة شعرتُ بها للفتيين.

أخبرتُ أباك وبعد بحثٍ بالفعل وجدنا السم. كاد يجن، حينها صرخ ونادى الفتيين ، جاءا ممتقعي الوجه.

"ماذا خططتما لأختكما؟"

أنخرطا في بكاء عنيف على الفور، ظل أبوك يضـــربهما حتى ســـال الدم منهما وكانت المربية من حاشته وليست أنا، ظللت أشاهد كل ضربة ولم أجفل حتى لصراخهما.

"آسفان"

زاد بكاء الأولاد فصرخ فيهم أبوكِ.

"تبكيان وتأســـفان! تزهقان روحًا وأي روح! أختكما. بالله أنتم أولادي، بالله أنتم أطفال! أنتم مجرمون سـفلة لولا أنكم أبنائي لأبلغتُ عنكم، سـتنالون أقصى عذاب جراء ما فعلتموه ولكن صبرًا"

"لن يظلا في البيت"

شهقتْ المربية و أندهش أبوك.

"أذهبا الآن"

.....

اقسمتُ على المصحف.

"والله الذي ما أنزل هذا الكتاب عبثًا لا هم أولادي ولا مكان لهم هنا"

حاول أبوك أن يثنيني عن قراري ولأول مرة قلت له.

"إن ظلا هنا لن يكون هناك حياة لي، فليظلا هنا ولكن سآخذ أبنتي وأرحل"

طلبتُ منه الطلاق فرضخ لرغبتي، رغمًا عني تحجر قلبي نحوهما، كان كل همي آنذاك أن أحميكِ حتى وإن قتلتُ بنوة الفتيين، أبعدهم عنكِ كي تظلي حية فلن آمن لكِ مقامًا بين أخويك، سيظل أحتمال قتلك قائمًا. صرتُ كقطة وضعت أطفالها فتركتهم طعامًا للكلاب.

ما أفظع هذا المثل لي! طالما كرهتُ القطط فصرتُ منهم.

أودعناهما مدرســـة داخلية وفي الأجازات يقضـــيانها مع الأجداد ولكن مات الأجداد تباعًا في شهورفلم يذق الولدان طعمًا للعائلة.

لا أدري أكنا على حق؟ أم ترانا كي نحييكِ جنينا عليكِ فدمرنا حياتك بأكملها وربينا كراهية للفتيين أضعاف الكراهية القديمة؟

كُتب عليّ أن أفجع في أولادي فيارب رحمتك.

كبرتِ وصرتِ سببًا في الحياة مرة أخرى بعد كل ما مررتُ به.

لم أحتمل أن تكوني يوميًا في الشارع، في المدرسة أو الجامعة، أخشى عليك من الناس، من أذى حاقدة من رفيقاتك، من فتًى يعبث بك. لهذا يا منى حرمتك من المدرسة والجامعة. من أن تعرفي مخلوقًا.

وحين رغبتِ في شراء رواية جديدة واصطحبتك سمعتُ الصوت من جديد فأتبعته بلا تردد.

"ما رأيكِ بمن يخبركِ خير مكان للقراءة؟"

بعد أن تعجبتي لجرأتي النادرة ذهبتُ على هدى الصوت حتى وصلنا للحديقة .حاولتُ أن أخفي أنهاري؛ شذى الياسمين والأزهار، تلك الشجرة كسدرة المنتهى. أين كانت تلك الحديقة العمر كله؟

"من أين لكِ بمعرفة مثل تلك الحديقة؟"

رددتُ ما قاله لي الصوت.

"هذا سري الخاص ورأيتُ أنه من الجفاء أن أضن به على جزء من روحي، لا يعرف تلك الحديقة الكثيرون لهذا احتفظتُ برونقها طيلة تلك الأعوام"

"لما؟"

"لأنها كالجنة يصطفي الله اناسًا محدودين وحدهم لهم الحق دون غيرهم للدخول وخاصة العشاق"

وجلسنا ورنوتُ إليكِ وعلمتُ أن أمر الله والقلب قد نفذ، ها أنتِ ذي تجربين الحب، رنوتُ إلى حيث تختلسين النظر فرأيته.

جميل الوجه، مغتربٌ في بلادنا بلا ريب فهيئته تختلف.

لا أدري ولكني شعرت بالسكينة وشعرت أنه سيكون خير رجل لكِ.

ها أنتِ ذي تحبين كما أحببتُ، أحببتِ ذاك الفتى اليافع الجميل وأحببتُ أنا هدى.

صاب الحب سهامه فبليتُ وضنيت، فيارب هون عذاب الحب على أغلى من أحب. ثم تقبلت لأول مرة أن أعرضك لأخطار الشارع و أتركك كي تخطّين قصتك بنفسك، ولكن جاء الطيف الأسود من جديد وحام حول أبيك أثناء المرض.

لم أدرِ إلا لحظتها أني قد أحببته بصدق و أني لن أعيش من غيره.

كان رفيق العمر وشـــريك المحنة. لم أدرِ أن مثلما قتلني موت هدى قتله هو الآخر، لم يصرخ فيّ حتى يخبرني أنه يعاني مثلي نحن شريكا الألم. لم أوفه حقه.

جاء أخواك ولم نتبادل الحديث كثيرًا، لم يحضرا إلا للمظهر العام.

حين خلت الحجرة نظر إليّ.

"أحبكَ، لا تتركني، ليس بعد هذا العمر ترحل"

لمعت عيناه دمعًا.

"أخيرًا قلتِها. كم أنتظرتُ أن أســمعها منك. ما أحببت أحدًا مثلما أحببتكِ. أحببتُ يشــمكِ ثم عينيك، أمومتكِ وألمكِ وكل شــيء فيكِ أحببته، خفتُ أن أموت قبل سماعها منك"

تناثر دموعي و أنا أقبّل يده.

"لم أوفكَ حقك. لولاكَ لهلكتُ منذ البدء، أشــكر الله أن أختار لي زوجًا مثلك ولا كل الرجال"

"أحبك، في أنتظارِكِ هناك فلا تتأخري"

ثم أسلم الروح وطاف طيفه مع الطيف الأسود إلى المجهول، وبكيت بحرقة.

.....

عسى هذا الكتاب يعزيكِ عن فقدنا، سأظل حولكِ ما عشتِ من عمر.

ها ذا الطيف الأسود يحوم حولي يقصدني هذه المرة.

عرفتُ يا أبنتي أن الإبتلاء والبلاء يورثان.

وما البؤس والشقاء إلا إرثٌ تتوارثه الأجيال.

أدعو الله أن يهون عليكِ ما أورثته لكِ من بلاء وبؤس ويعينكِ من بعدي على أخويكِ، وأن يربط بينك وبين من أحببتِه برباط لا ينحل.

وتذكري دائمًا.
أن الله قد اصطفانا وأنه لا يدخلها إلا المصطفون.

أمك،
ألفت
"1988

كفكفتْ منى دموعها بعد أن أنهت قراءة الكتاب، طبقت الأوراق وضمتها.
فليرحمكِ الله يا أمي. صدقتِ. كما نرث من سلفنا المرض والجاه وكل شيمة، نرث الشقاء والبلاء.
كم تعذبتِ وكم تعذبتُ. ثكلتِ في خلفك وثكلتُ في خلفي.
إذن كانت لها أخت! لعلها إن ظلت حية لصارت الآن عجوزًا ترعى منى شيخوختها بل لو عاشت لما عاشتْ هي، لما أنتظرتْ ألفت منى المنشودة. لك يا رب حكمة وإن استعصى فهمها.
تساءلَتْ كيف لم تلحظ قبر أختها حين دلفت مع الحشد باب قرافتهم لتودع تحت ثراه أباها منذ عمر بعيد؟
في غمرة الحزن تعمى قلوبنا عن حقائق جلية للعين والقلب. كيف طوال حياة أبويها لم ترَ صورة واحدة لأختها؟ كيف لم يحادثوها عن أول فرحتهم وأول فجيعة؟
رفقًا يا منى، ما جدوى السؤال إذا دفن الجواب مع ذويه؟
ليرحمك الله يا من رغبتِ عن أبنيك فدًا لحياتي، بنيت يا أمي كراهية صادقة بيني وأخوي وأورثتها بدوري لغيث وكوثر، حتى لو رأيته يضاحكها ويمسك يدها فلن أنسى نظرة الكره حين رجوته أن يحملها.
أمسكت برأسها كي لا يقودها لطريق لن تتمكن من العودة منه.
رب هب لي عمرًا كي أرى العداوة تفنى وأرى الحب ينشأ في صدريهما، وأرى الحب وقد صاب سهامه في قلبيهما، أرأف ببلائهما في الحب الذي بلا شك أورثته لهما.

ليث

26

عدنا للبيت ثلاثتنا، أتأمل أركانه وكأني أكتشفه ولم أسكن فيه إلا الآن.
أنظر إلى كوثر، لا أصدق أنها موجودة في حيز العالم الذي انتمى إليه.
رقدت أمي على سريرها وصرنا نتحدث لساعات وكأننا نعوض ما فاتتنا من سمر إلى أن غلب النوم كوثر. تأملتها أمي بإشفاق وصارت تمسح شعرها السوري بحنو. دمعت عينا أمي.
"أغفري لي يا كوثر حياتي، إن أتى يوم وسألتني فلا تنقمي عليّ ولا تحنقي فوالله ما أخفيت عليكِ إلا لأنكم جئتم من رحمي"
"هل أشتقتِ إليه؟"
سألتها بمرارة لم أستطع إخفاءها، بدأت أمي تنهنه في صمت.
"رفقًا بي وبكِ، عاودي الإتصال به وأخبريه عن كوثر وأخبريها عن أبيها، لا أرضى لكوثر يُتم الأب فمصابها سيفوق مصابي؛ يتمتُ وأبى شهيد ويتمتْ وأبوها حي يُرزق"
"قد كان ما كان وتلك إرادة الله -سكتت للحظات تحاول كتم نشيجها- خلاص لم يعد لي أحد غيركم، صرتما وحدكما أحبائي"
"أمي لقد أجرمتُ ولكني كنت مراهقًا غرًا ثملًا بالأنانية"
رنت أمي من جديد إلى كوثر.
"فيها عينيه الخضر وفيها نعومة شعره وبياض بشرته. يخيل إليّ أنها ورثت لهجته أيضًا. لمّا كنتُ أصّر على سماع لهجته كنت أتخيل أن عسلًا يسقط مع كلماته، ورثَتْ أجمل ما فيه؛ طباعه، هدوءه، نضجه وطيبته"
"كم أحببته؟"
"ملء القلب والروح. طالما ساءلتُ نفسي كيف حاله؟ كيف يعيش؟ هل ما زالت روحه برفقتي كما روحي برفقته؟ لم أجسر أن أحادثه وأنكئ جرحًا داريناه. ما ذنب المسكينة أن تصير يتيمة وما عرفت أباها؟"
"مازالت كوثر صغيرة، إن عرفَتْ أباها سرعان ما ستألفه وتحبه"
"خلاص يا ليث، أنتهى الأمر برمته"

"امى لن نظلم طفلة لمجرد عناد مراهق. ألم يبعث لك برسالة؟"

بكت بهدوء صامت.

"بلى"

"ماذا كان فيها؟"

"كان فيها نعيه"

وجمت وأنعقد لساني. رأف الله بي في أمي كي أعيش ما بقى لي من عمر أحمل وزر كوثر في رقبتي. الهذا السبب أصيبت بالحمى؟

واصلَتْ في نشيج هادئ.

"قتله رجال بشار، ظل لأعوام يجاهد في سبيل بلاده حتى صار هدفًا رئيسيًا لنظامه أن يقضوا عليه، لو كان يعلم بأمر أبنته لما أسلم روحه لقضيته بل لو لم أطالبه بالطلاق لما عرّض نفسه للهلاك"

تمتمتُ بذهول.

"مات الرجل! يُتِمَتْ كوثر! أنا السبب"

"غيث، كنت طفلًا، لم تكن تفكر بنضج كما الآن"

صمتتْ قليلًا وعادت تقول.

" كنتُ أرملة لشهيد وصرتُ من جديد أرملة شهيد"

"ألم تطلبي الطلاق؟"

"بلى ولكنه لم يبعث لي بأى ورقة وعزفت عن اخبارك. لكن طالما عدوت نفسي زوجته في الروح والحب. غيث رجاءًا."

لم أسمع بقية حديثها. غيث! قد أحقْتُ بمجد الفناء ويتّمْتُ طفلة لعناد مراهق أبت أمه أن تُكرهه على شيء. أحرى بي أن أسمى هلاك لا غيث.

"غيث أتسمعني؟"

أفقت.

"بلى"

"رجاءًا، لقد مات ملك فلن يغير الندم شيئًا. فلننسى ودعنا نعيش، كفانا هموما، بالله عليك فلننسى."

منيتي،

يا منية النفس! منيتُ بحبك فنعمتُ وشقيتُ فلست أدري ما أتمناه الآن؛ لولم القلكِ قبلًا؟ أم أتمنى لوأحببتك ألف مرة وأن أعيش معك ألف حياة؟ ما أحببتُ أحدًا مثلك ولا أظن أني سأتمكن من أن أحب أي شخصٍ آخر.

لضيق الوقت سأختصر؛ عشتُ في قحط أيام حافظ الأسد فهرعتُ إلى مصر أنشد دراستي الجامعية علّني أنعم في البلد المحروسة. كان القلب خاويًا ولم يستجب لإغراء الحسناوات ولم أعبث يومًا بجسدي. وحشة طغت روحي، كنت ككروان أراد الشدو مع قرينته. كنت أمشي الشوارع أرنو إلى البشر علّني أجد من يحبني وأحبه، ثم رأيت يومًا عاشقين يتمشيان واليد تضم قرينتها، بلا وعي تبعتهما و أنا أحسدهما من الأعماق وهيئ لي أن القلب لن يدق أبدًا، دخلتُ وراءهما وتسمرتُ مكاني رهبةً. ما تلك الحديقة! ما أجملها! وتلك الشجرة! سرتُ في أنحائها ونسيت العاشقين وهمت في شذى الياسمين وزهر البرتقال. صار مجلسي قبالة الشجرة أنتظر علني أحب، يومها جلست قبالة الشجرة وبكيت وحدتي وغربتي وقد أججت الأشجار أحزاني الكامنة. أنقضت أيام كي أدرك أي غباء أضيع به وقتًا هو من عمري. وجاء يوم ودق القلب فيه، أتيت وأمك وجلستما أسفل الشجرة وفتحتِ كتابًا وغرقتِ فيه، فتنتُ بك وأدركت أنكِ ضالتي، أنت من كنت أبحث عنها في أتون الخلق. رفعتِ عينيك ووقعتِ بهما عليّ، لم أشعر برعشة أحلى من تلك التي سرتْ في يوم التقت عينانا ثم رحلتِ ورحل معكِ قلبي وروحي.

في اليوم اتالي وجدتك جالسة وحدك، خفتُ أن أقترب منك وأكتفيت بتأمل شخصك الفتان، وكنت أتساءل كم من قصص لم تخلق بسبب الإحجام؟ ولكنها السلوكيات الإجتماعية التي دمرت فطرتنا. شغلتِ جهاز التسجيل وشرعتْ الألحان تملأ الحديقة، أكاد أقسم أني شممت عبير الألحان مع الياسمين. بدأتِ في القراءة وكنا نحن الإثنين نعلم أنكِ ما قرأتِ حرفًا وبدأت أم كلثوم في الشدو وحين بدأ حديث الأعين لم أستطع إحجام رغبة ضمك وأن أفنيك داخل صدري. تقدمت نحوك والقلب يزداد دقًا، أمسكت بيدك وقمتي، وسقط الكتاب.

و الباقي عشناه.

عندما تمسّك بشار بحكمه وقُتل الشعب فداءًا لسلطته ولرؤيته بأنه الأحق من غيره في إدارة الشعب، رأى أن يقتل هو سوريا أفضل من أن يقتلها غيره.

وعدت لمصر، لم أشعر بأني أغادر وطنًا، أن أعود للبلد الذي ضمت حبنا والذي أنجبتكِ، إذن أنا مصريّ الحب ووطني الذي له أنتمي هو الذي أنتمى له الحب والحب الذي عشته هو عمرى كله. والتقيتك وسقطت شفتاي على شفتيك تبكي قبلاتنا غربتنا التي فرقتنا، بعد الزواج علمتُ أن أخي قد قبض عليه النظام ولم يسمع عنه بعد ذلك أحد إلى الآن، أنقطعت أخباره فلا ندري هل هو في السجن أم في ملكوت الرحمن؟

وأتيت لأودعك ولا أدري إلا وقد التحمنا في لقاء رائع لم ولن أدرك حلاوته ما حييت، كان لقاء روحينا قبل جسدينا، نسيت ليلتها كل حزن وقلق. رجعت إلى الشام على أن أعود اليك، عدت كي أجوب سورية بحثًا عن أخي وأهدئ من روع أمي التى سرعان ما ماتت كمدًا ونَسَت أني أيضا ابنها وأني مازلت أحيا، شعرت بالخيانة لموتها وأني لا أستحق أن تحيا من أجلي، وتأتي المصائب تلو المصائب؛ ما كدت أنتهي من العزاء في أمي وأخي حتى جائني كتابك طالبة الطلاق فوجدت أنه لم يبقَ هنالك شيء أحيا عليه وله فقررت بدلًا من تصفية روحي بيدي أن يكون من واجبي أن أجاهد حتى ينتهي الفساد. خلصنا القدر من حافظ كي يمسك أبنه ويصير سليل العائلة السافك لدم الشعب وعادت وحشة القفر تملؤني ولكن خطرت لي فكرة جارفة؛ أني زرعت في أحشائك ليلتها بذور طفل علّه الآن في السابعة من عمره، ألهذا لم أطلقك؟ علّك يومًا تبعثين إليّ كي أعود لأنعم بطفلي وتلتقي روحينا من جديد. كم أرغب تلك اللحظة أن أضمكم. جاهدتُ ما بوسعي وروحك مرافقة لي وذكرى لقاءنا الختامي لقصة لاجئ أحب وطنًا، وحتم عليه الوطن أن يجاهد النفس. لم أجسر على مراسلتك أحترامًا لرغبتك ولكن منذ أشهر ورغبة ملحة أن أكتب إليك تشغل بالي حتى تملكتني.

أحبك يا منى، ملكك يشتاق إلى حراستك وتلقى عبير حبك وأنا....

.....

سيدتى الفاضلة منى عبد المطلب،

يصعب عليّ ويؤلمني أن أنقل إليكِ خبر استشهاد زميلنا وأخينا مجد مراش ليلة أمس بعد معركة ضارية بيننا وجيش النظام. استطعنا بعون الله أن نحمي جسده من

التمثيل به فأواه لو تعلمين أفاعيل النظام القذرة في جثث الرجال. دفناه في قبر وهو مدرج بدمه بعد أن صلينا عليه.

وجدنا بين أغراضـــه خطابًا لكِ لم يمهله القدر أن ينهيه كما وجدنا صـــورة لابد أنها تخصك وعنوان أكيد هو عنوانك.

وأرتأينا أنه لابد أن نبعث إليك بخطابه وصـورتك وأن ننعيك أخانا ونرجو منك الصـبر والتجلد والله الموفق والمستعان أن نثأر لأخينا الشهيد.

خادمك،

عبد الله حسام

ليث

27

مات الرجل وسأظل أعيش بعار أنانيتي حاملًا وزر كوثر على كاهلي ما حييت.
حثتني أمي أمس أن اذهب إلى الجامعة كي لا أضيع أعوام التعب لأظل برفقتها وهي مريضة، فتذكرت فجأة ذات الشعرين. كيف نسيتها في غمرة الأحداث! ماذا ظنّت حين أتت لرؤيتي ولم تجدني في انتظارها؟ لعل شعلة الإعجاب انطفأت وزال شغفها في لقائي، لعلها ظنت الوردة الحمراء مجرد وهم أردت زرعه فيها. لعلها، ربما.
ظللت الليل أفكر في لعبة الاحتمالات حتى أشرق الصباح، لم أسمع حرفا من محاضرات اليوم وذهبت إلى مكان لقائنا.
لبثتُ ساعة حتى كاد اليأس يتملكني ويعودني أدراجي. إلى أن جاءت، ظلّت برهة ترمقني بدهشة ومقت شديدين ثم همت بالذهاب، لحقت بها وأمسكتها من ذراعها ودق قلبي لملمسها. قالت في صوت سفكَ دماءٍ أرقتها بغيابي ولم تعر شأنًا بذراعها بين يدي.
"ماذا تريد؟"
"بالله عليكِ أرأفي بي"
هاج بحر عينيها وتحشرج صوتها.
"ولما أرأف بك ولم ترأف أنت بي؟"
"ما غبت إلا لمصاب شديد"
أجابت بصوت متهدج.
"ماذا يهمني بمصابك؟ لستَ مجبرًا أن تبرر لي أي شيء"
بكَتْ بعمق ورغمًا عني تهدج صوتي بدوره.
"بل يهمني أن ابرر لأنك تهميني. أريد أن يهمك لأنك جل همي وتفكيري"
رنت إليّ بدموعها غير مصدقة، تركتُ ذراعها وأمسكتُ يدها وقبلتها بلهفة. بكَت أكثر بحرقة، كدت أضمها ولكن أحجمتُ.
"تعالي فلنجلس"
وجلسنا. قالت وهي تحاول كتم دموعها.

"أعلم أني مجنونة منذ زمن بعيد ولكن لا يصل جنوني إلى أن أتعلق بشخص غريب وأترك له يدي يقبلها وأجلس معه بعد أن أشفق على بكائي لغيابه"

"هل تعلمين كم من قصة انتهت قبل أن تبدأ لعين السبب، بلى نحن غرباء ولكن مصير الغرباء أن يتعارفوا، تآلفت روحينا وهذا خارج كل منطق فلما نتشبث به؟"

تنهدت كمن باءت بحمل أفكارها.

"لا ادري ما الذي جعلني أجيء إلى هذا المكان بعد إعراضك عنه؟ وما الذي يجبرني على البقاء معك الآن؟ أمرٌ خارجٌ عن كل إرادة لي"

أمسكت بيدها المرتعشة وضغطت عليها. كاد قلبي ينخلع من ملمس بشرتها الناعمة.

"كادت أمي تموت، أصابتها حمى شديدة كادت تفتك بها، صار قلبها عليلا وحتم عليّ البقاء بجوارها"

ظلّتْ تنظر إليّ مترددة أتصدق أم لا.

"ظننتُك أعرضتَ عني حين أحجمتُ عن الذهاب لأيام، ظننتُك سُحِرْتَ وأنتهى سحري بغيابي"

"إن كان سحرًا فما أحلاه سحرًا! ليت ذلك السحر يدوم فلا يبطل"

مضت تقول.

"عشت أيامًا في الجحيم"

"لما أحجمت عن المجيء إلى هنا؟"

"لأني خائفة، خائفة مني قبل أن أخاف منك"

ضممتُ يدها كأبلغ رد.

قالت بتردد.

"أرجوك أن تعدني"

"بماذا؟"

"عدني ألا أندم على استجابتي لذاك النداء المبهم.عدني أن تكون وتظل نبيّا"

"لا أفهم"

"فقط عدني"

دون تردد أجبتُ.

"أعدك"

أبتسمتْ وهمتُ في فرح سماوي.
"ما أعذب ابتسامتك"
أحمرّت خجلًا وهمّت في القيام. سألتها عن إسمها. بدا أنها تفكر في قضية ما.
"أشـــعر أن الأســـماء لا قيمة لها الآن، لقد تعرفنا على بعضـــنا ونحن غرباء وكأننا خلقنا الآن، إذن فلنخلق لنا شخوصًا أخرى، أختر لي إسمًا كي يتم الخلق"

كم الدنيا صغيرة! ها هي المأساة تتكرر ورغم ذلك حلَت لي العبة.
"حسنٌ، مريم"
وجمت قليلًا.
"لما مريم؟"
"لأنك مثلها بالطهر وعفيفة مثلها"
ازداد وجومها وتمتمت.
"جد لي إسمًا آخر فأنت بعد لا تعرفني حتى تجد فيّ شبهًا بها"
"لا أرى سواه لكِ إسماً"
تنهدتْ في تسليم.
"حسنٌ سأسميك"
ثم تابعت.
"سأسميك ضوء"
"ولما ضوء؟"
"لأنك كالضوء أنرت عتمة نفسي وأخترقت في سرعته قلبي"
"حسنٌ. ضوء ومريم، أريد منكِ طلبا"
"ما هو؟"
ترددتُ للحظة
"أريد لقائك، ما تكفيني تلك اللحظات القصار"
همّت بالإعتراض ولكني تابعت.
"يمكنك أحضار أخ أو أخت لك"
فكّرت ثم أشرقت خوالج وجهها.

"حسنٌ وأين نلتقي؟"

دون وعي أجبتها.

"في حديقة أعرفها، غدًا مناسب؟"

"مناسب"

"إذن إلى لقاء قريب"

القاهرة

عام 1944

سرادق حديقة نادي الأهلي

الليلة اســتثناء فإنها ليلة العيد، جلس الحضــور في الحديقة وكأنه بســاط ممتد من فســاتين وطرابيش حمر، وبدأت الفرقة في عزف مقطوعة ذكرياتي كمقدمة للأغنية كما أتفقت أم كلثوم مع القصــبجي، بينما يعلن المذيع على المســتمعين اســم المونولوج ومبدعيه، تنســاب الموســيقى براحة وعذوبة وكانت روح أم كلثوم ترقص. تجلس في ثوب أبيض وقد أنساب شعرها تؤرجحه الرياح.

"رائع يا قصب! أنت وصلت لقمة إبداعك من غير شك"

منذ ثلاثة أعوام لاقت الأغنية نجاحًا باهرًا فاق كل نجاح وكانت علبة السجائر شريكًا في الأمر برمته. حين هاتفتْ رامي لتصــالحه بعد أن عرفت ما يلاقيه من قهر ووجد، وجدته أمامها يعطيها علبة السجائر. ضحكتْ تمازحه.

"إيه يا رامي هتصالحني بسجاير؟"

طلب منها أن تقرأ ما عليها.

"ولما قرب ميعاد حبيبي ورحت أقابله. هنيت فؤادي على نصــيبي من قرب وصله"

نظرت إليه بدهشة وسارعت في الصلح وحثته على إكمال المونولوج.

التفتت أم كلثوم للقصــبجي وهو هائم في فرحه، ابتســمت له وعادت ترنو إلى الحضــور وعادت الموسيقى تنساب بعذوبة تحكي شجنًا حانيًا. سيحدث حدث جلل، هي واثقة من ذلك.

وأنتهت المقطوعة وصــفق الحضــور وبدأ عزف المقدمة الأصــلية، انســاب مقام النهاوند يطبطب على كل محروم لم ينل رضى الحبيب قائلا ألّا بأس سيرق يومًا ما، وقفت كهالة من جلال وصفق الحضور، أخذت نفسًا وبدأت في رقة وفرحة هادئة.

رق الحبيب.

وواعدني يوم.

وكان له مدة غايب عني.

بدأ شريط حياتها يمر، تغني لعروستها، يطير بها أبوها فرحًا بصوتها صائحًا (سبحان من وهب)، طفلة ذات عقال تتشحطط في كل سرادق حتى الفجر، أول إكرامية أحتفظت بها أعطتها لأمها وهي في سطوة النوم.

حرمت عيني الليل من النوم.

لأجل النهار ما يطمني.

واستعدت روحها لتعلو شيئًا فشيئا.

صُعُب عليّ أنام.

أحسن أشوف في المنام.

غير إللي يتمناه قلبي.

لا تدري هل الشهرة ما رامتها أم في العطاء رغبت؟ واقفة أمام الأعيان والنساء في الحرملك تسمعها خلف حجاب، روز اليوسف وإهاناتها المستمرة في جريدتها، أول فستان أرتدته، حين تجاسرتْ وقصت ضفيرتها.

سهرت أستناه وأسمع كلامي معاه.

وأشوف خياله قاعد جمبي.

أول أسطوانة، القصبجي سيلحن لي! والقاعة مكتظة بالجمهور.

سهرت أستناه وأسمع كلامي معاه.

يا إلهي أبو العلا مازال حيًا! مدحك كرم لي. القاهرة! سبحان من وهب هكذا قالوا.

وأشوف خياله قاعد جمبي.

رحلات الشام والعراق وفلسطين، والتصفيق وليالٍ من السحر الحلال.

سهرت أستناه وأسمع كلامي معاه.

وفي غمار سطوع فنها، لبت طلب الملكة الأم في إحياء زفاف أبنتها، وقفتْ أمام الملوك والأمراء لا يملكون إلا الإبتهال خلف جمود البروتوكول.

أعتصرت منديلها.

وأشوف خياله قاعد جمبي.

صفق الحضور وأبتسمت بارتياح قلّما شعرت به.

مريم ... ليلى

28

قفزتُ فرحة حين أختليت في غرفتي، لم يكن يخدعني، كان صـــادقًا في حبه، يا حبيبًا سميته ضوء! قد وعدتني ويا ليت وعدك يصدق.

ظللت اليوم كله ساهمة أتخيل لقائي معه، أخشى أن اتكلم مع نفسي فأُحسد وأعتزمت من سأحضر معي غدًا.

حين أتى الليل وقد أرقني السهاد حماسًا للقاء بدأت ألحان القصبجى تغمر نادي الأهلى وتملأ في زمن موازٍ الغرفة، دائما ما كانت ألحانه ذات طبع خاص، مقدمة لم تتكرر في الحفلات الخمسينية، لم يبقَ للعوام إلا هذه الأغنية وأخرى لا يعرفها أحد تقريبًا. تشدو أم كلثوم بفرح سماوي علّها تؤنس وحدتي أرقي.

رق الحبيب.

وواعدنى يوم.

وكان له مدة غايب عني.

حرمت عيني الليل من النوم.

لأجل النهارما يطمني.

وها أنا ساهرة الليل أرجو النهار أن يرأف بي ويتعجل اللقاء.

صعب عليّ أنام.

أحسن أشوف في المنام.

غير إللي يتمناه قلبي.

حضر طيفه وناجيته من القلب. يا ضوء! أنر دربي وأشرق أفقي.

سهرت أستناه وأسمع كلامي معاه.

وأشوف خياله قاعد جمبي.

بدأت الألحان تفرح وتمرح بحماس.

كم استعجل غدًا! كم أروم لقائه! يهون العمر وإن جرى إذا كان بعد ضياعه لقاءه.

من كترشوقي سبقت عمري

وشفت بكرة والوقت بدري

و إيه يفيد الزمن؟

مع إللي عاش في الخيال.

دمعت عيناه حزناً بي، إذن صدقتْ عيناه. الدنيا فرح، الدنيا لقاء.

وإللى في قلبه سكن.

أنعم عليه بالوصال.

همتُ في السماء التي وصلت إليها آهاتها. بدأت أتساءل مع أم كلثوم؛ ماذا أنا بفاعلة غدًا؟ ماذا أرتدي؟ ما أروع الحب يا عين! لم أذق نعيمًا كالذي أذوقه الآن.

وفضلت أفكر في ميعادي.

وأحسب لقربه ألف حساب.

وكان كلامي مع صحابي.

عن المحبة والأحباب.

أروم الحديث، أن أحكي عن مدى سعادتي وأن ضوءا عاد يبغي لقائي. من أحدث؟ فاطمة؟ اياد؟ الآن لا يهمني كره أو خصام، ولكن الشر والحقد ما سألاقيه إن تحدثت.

من فرحتي بدي أتكلم.

و أقول حبيبي مواعدني

لكن أخاف لايكون بينهم.

مظلوم في حبه يحسدني.

من المظلوم؟ كدت أضحك فما من مظلوم سواي.

ولما قرب ميعاد حبيبي.

ورحت أقابله.

هنيت فؤادي على نصيبي.

من قرب وصله.

ساعات قلائل بقيت على ميعاده.

و لقيتني طايل من الدنيا كل إللي أهواه.

بس إللي كان فاضل ليّ أسعد بلقاه.

من فرط سعادتي وهنَ قلبي من تلاحق دقاته قلقًا وفرحة.

لما خطرده على فكري حيّر أمري.

والقرب سبّب تعذيبي.

تمكنت أم كلثوم ببحتها وطربها من الحضور الوقور فصاحوا بحرقة صافية. ضممتُ عين و أنا أتنهد حماسي.

ولقيتني خايف على عمري لا يروح منّي.

ده القرب سبب تعذيبي.

ماذا حقًا إذا ضاع العمر؟ إذا صار يمضى ولم ألقَ ضوءا؟ أسيجدي البكاء وأنا على فراش الموت؟ هل سأزف حينئذ عروسًا في الجنة؟

ولقيتني خايف على عمري لا يروح منّي.

من غير ما اشوف حُسن حبيبي..

وختمت أم كلثوم غنائها وتلا ذلك غنائها لليلة العيد وحضور الملك المفاجئ وإنعامه عليها بوسام الكمال.

تبقت ساعات وبحين اللقاء.

رنوت إلى عين بعد ضوء.

"نامي يا عين فغدًا يوم شاق"

القاهرة

عام 1938

الجامعة الأمريكية

قاعة ايوارت التذكارية

بدأ اللحن ينســـاب في القاعة، لتلك القاعة معزة في قلبها وقد عاشـــت فيها أغانٍ بديعة. تنظر أمامها تكاد تضحك مع الحضـور، يصـفقون ويلوحون بطرابيشـهم، سـتغني الليلة أغنية من فيلمها الثانى، نجح ونجحت أغانيه، شاهد أكثرهم الأفلام وفرحوا حين سمعوا تسـجيلات الأغـاني حيـة على المســرح ترتجـل فيهـا كيفمـا شـــاءت. والآن أتى دور تلك الطقطوقة، كما أتى دور نشـيد الجامعة، وقفتْ وصـفق الحضـور صـياحًا، يبعث ذاك اللحن على الأمل كما اسم الفيلم.

وعاشت أم كلثوم فرحة الأغنية وبدأت تعلن فرحتها.

أفرح يا قلبي!

لك نصيب تبلغ مُناك ويا الحبيب.

أفرح يا قلبي!

وثار الحضور وكادت أم كلثوم تضحك.

ضوء ... ليث

29

تأهبت للقاء اليوم وذهبت إلى أمي وقبلتها.

"أني ذاهب"

"حفظك الله وراعاك"

"عندي سؤال"

رنت إليّ متسائلة وقلت في أرتباك.

"أين تلك الحديقة؟"

أشرق وجهها بإشفاق وأخبرتني عن مكانها ودعت لي براحة البال، وراحة الحب.

أنتهت محاضراتي وذهبت إلى مكان لقائنا، أقبلت عليّ فرحة.

"هيا بنا؟"

"ليس الآن، رجاءًا أخبرني عن مكان الحديقة وسأحضر معي أختي"

.....

دخلتُ الحديقة وتسمرت دهشًا، كانت أمي على حق، ما تلك الحديقة!

رأيتُ أطياف العاشقين في كل مكان، سرتُ في أنحائها حتى التقيت بشجرة السدرى التى شهدتْ أحداثًا غابرة في طي التاريخ. أمن ماء كالذي نشربه وبذرة صماء تخرج تلك الشجرة؟

جلستُ أسفلها وأنا أنتظر وصدحت أم كلثوم من صوت أحد العاشقين وهو ممسك بالعود يعزف على أوتاره.

أفرح يا قلبي.

لك نصيب تبلغ مناك ويا الحبيب.

أفرح يا قلبي.

فرحت فرحة طاغية طغت على أهوال العالم، همتُ في السماوات السبع أتلقى وحي الحب والملائكة تبارك مجلسي بإسقاط أوراق الشجر، مع كل وقع من وتر العود أشعر بكل حاسة تفنى في ذرات الكون.

يا فرحة القلب الحزين!

لو صادف الخل الأمين.

يتأوه الواقفون نشوة ويصفقون بحرارة العشاق.

بعد التمني والحنين.

يبلغ مناه ويا الحبيب.

أفرح يا قلبي.

"أتحب تلك الأغنية؟"

أفقت على صوتها العذب وهي مقبلة في ثوب ذكرني بنجمات السينما الفضية.

"لم أسمعها من قبل، كأنها تصف خوالج روحي"

"سر أم كلثوم ورامي ومعهم السنباطي أنهم استطاعوا أن يصفوا نفس الإنسان، كانوا عشاقًا فوحدهم من بإمكانهم وصف الإنسان"

أعجبتُ بفلسفة مريم الكلثومية، تلفتُّ حولها علّ أخ أو أخت لها يتقدم ولكن لا احد.

"ألم تجلبي أحد أخوتك؟"

أشرق وجهها.

"بلى"

اتنبهت إلى أنها تحمل قفص حيوان، جلستْ أسفل الشجرة ولم تنتبه لها بعد ولا بالحديقة، فتحتْ القفص وأخرجت قطة! قبلَتها بحنو وما إن رأتني القطة حتى ماءت مواءا أذاب قلبي.

"أيمكنني حملها؟"

"بالتأكيد"

حملتُها وظلت تخرخر وقد استكانت بين ذراعيّ.

"أسمها عين، يبدو أنك نجحت في الأختبار"

رنوت إلى عينها وأدركت لما سمتها هذا الإسم.

"أين أختك؟"

ابتسمت في صفاء.

"ها أنت حاملها"

التقت عيناي ببحر عينها، اقتربت منها، حملت عين على ذراع والأخرى أمسكت بيد مريم أقبلها.

"والله! سيكون الفناء هو العائق الوحيد لكي أثبت لك حبي وأظل على ثقتك التي أكرمتني بها"

ابتسمت وأعترفت لي.

"صدقتُ عينيك، دموعك أمس أخبرتني كم أنت رقيق وكم تألمتَ، وكم هو صادق الحب الكامن في قلبك، عاهدت نفسي إن أحببت بعد ما فات ألّا أُظهر من حبي ما يثير شهة في شخصي وأخلاقي ولكنك جئتَ وهدّمت كل بناء شيدته في نفسي منذ أعوام"

"أعدك أن أظل على حسن ثقتك"

ولم أمنع أن سألت.

"هل أحببتِ من قبل؟"

سكتتْ قليلًا وقد رنت إلى الأفق أمامنا وسرعان ما أنتبهت وانهرتْ أنفاسها لمرآى الحديقة.

"أنّى لك بمعرفة حديقة كتلك؟ هل مثلها موجودة هنا؟ كيف لم تهمل مع الزمن؟"

واعترى وجهها أسًى عميق، همستْ ورأسها ملقً على أرض الخيبة والألم.

"كم أتمنى لو كنتَ أول حب لي فلا خفق القلب لسواك، بل أنك أول من أحببتُ وما السابق إلا محاولة لذبيح أن يتعلق بطوق الحياة فصار يعبث في ذاته ويظلم أسم الحب معه"

اكفهر وجهي وجف صوتي سائلًا.

"هل ذهبت علاقتكما إلى مدى بعيد؟"

ابتسمتْ في حسرة.

"بلى إلى حد الافتراء وتدمير من حولك، إلى حد قتل النفس والخذلان، وصلنا وذهبنا إلى كل حد يمكنك تخيله عدا حد الشهوة، اقترفتُ كل الآثام إلا آثام البدن، أجرمتُ ولم أنل جزائي سجنًا بل أعوامًا تجلدني بالذكرى"

لا أدري هل أزفر راحة أم أكتم أنفاسي رعبًا.

"لا أفهم! ماذا فعلت بكِ الأيام؟"

"سجنتني بين قضبانها كي تجلدني بالذكرى ندمًا على ما لم أقترفه، أرجوك لا أريد الحديث في ذلك الشأن الآن. لك أن تعرف أني عذراء الجسد والروح"

"أيًا كان ما حدث فنحن اليوم لا أمس، ما حدث قد حدث"

"كلكم تقولون هذا ولكن حين تتعترى الحقيقة ترون حينها عكس ذلك"

لكني تابعت حديثي.

"للأســف الزمن لا يتوقف كي نعي ما مررنا به من الآلام، نحن ما خُلقنا إلا حين خلقنا الحب"

بعد صمت بادرتْ بسؤال.

"أحكِ لي عنكَ"

"مات أبي شهيدًا للثورة"

قاطعتني.

"أكرم الله مثوى أبيك، ترك لك ســيرة ترفع بها رأســك فخرًا فلم يعطكَ أبًا ورثتْ ســيرته القذرة كعارٍ أُلصق بك"

فهمت أنه ألم من آلامها، تابعتُ حديثي.

"تزوجتْ أمي بعده سوريًا وحدث الإنفصال لظرفٍ ما ألمّ به واكتشفنا حمل أمي وجاءت كوثر -أحجمت أن أخبرها أني ســبب الإنفصــال وأني يتمت كوثر بعنادي- نلتُ الثانوية العامة والتحقت بالحقوق وها أنا معكِ وقد التقينا"

شاب حديثي بعض المرارة. أمسكتْ بيدي.

"لا تحزن. ها أنا بدوري أهوّن عليك. لقد التقينا، وربي الذي خلق قلبي وقلبك وجمع بينهما! وعدٌ مني تحت تلك الشجرة ألا أهجرك وإن هجرتني"

تأثرتُ ودمعت عيناي.

"ووعدٌ مني، وحق سكناك في قلبي الذي ما خلا عمري إلا للكِ، أن أظل بجوارك. لي سؤال"

"سَل ما شئت"

"ما بال شعرك؟"

أسود وجهها.

"دع هذا الحديث حين أجسر أنا على مواجهته"

حلّ ســكون بيننا، حملت مريم عين من جديد ورنت إليّ وكان الصــمت أبلغ ما قلناه بينما يصدح صوت الرجل بختام الأغنية وتعجبتُ لحظتها كيف تطول أغاني أم كلثوم حتى لو غناها غيرها.

أقطف معاه زهر الحياة.

مدام هواك و افق هواه.

أخلِص إليه وأطلب رضاه.
و أبلغ مناك ويا الحبيب.
أفرح يا قلبي.

القاهرة

عام 1960

مسرح حديقة الأزبكية

أنهت الوصلة وأرتأّت أن تغني أغنيتها الجديدة لهذا العام.

بدأت حقبة بعد أن أنهت الأخرى، صرتِ في العقد السادس ومازلتِ في مجدكِ! لم يسبق لأي مطرب أن ظل على مجده قرابة أربعين عامًا متواصلة. ولكن رغم تلك المسيرة الحافلة تخشى النهاية وكم تدعو الله أن تنتهي وهي مازالت كوكب الشرق. تخشى لو يتمرد صوتها ويرغب في التقاعد، لو تبدأ حفلة وترى القاعة فارغة فلا جمهور يصرّ على سماع عمرها الغابر، أن ترقد في بيتها ينساها الناس فمهما طالت السيرة يظل النسيان حاكم ذاكرة الشعوب.

بدأتْ الألحان وسرعان ما وقفت.

لسة فاكر قلبي يدي لك أمان؟

ولا فاكر كلمة هتعيد إللي كان؟

ولا نظرة توصل الشوق والحنان؟

لسة فاكر؟ كان زمان!

ظلّت تغني وتطرب إلى أن وصل المقطع الذي ما إن سمعته على العود أثناء العرض حتى كادت تطير نشوة وكادت تغيب طربًا حين سمعته يعزف على الآلات يقودها صوتها، أغمضت عينها وأعتصرت منديلها بين أناملها. لحن يسمو بك يحرك الأرواح لا الأجساد. سبحتْ روحها مع أمواج اللحن وبدأت تطلق آهاتها، مع كل آهة يصيح الجمهور طربًا، توقف اللحن عن المضيّ ليفسح لآهات أم كلثوم المجال ثم تمازجت آهاتها مع الألحان، وأخيرًا شرعت تغني.

والليالي كنت بتسمي الليالي.

لعبة الخالي وهي عمر غالي.

ثم عادت مع الألحان تطلق آهاتها.

مريم ... ليلى

30

في غمرة الأحداث نسيتُ ذاك الغريب، أربكتني نظراته، علمتُ أنه زميلي في السنة الأولى من الحقوق، وإما أنه عاشق يتقفى أثري وإن أضاع سنة من عمره في حضور محاضرات لا تخصه. أنتبهت إلى أنه يرنو إليّ خاصة في أيام الهجر حينما كنت أجلس وحيدة أبكي بهدوء، كان يرمقني بالساعات، بل أكاد أقسم أنه مازال يرنو إليّ وأنا وحيدة في الغرفة، أخاف كلما أمسكت به يرنو إليّ تلك النظرات التي من الصعب فهمها. ما تلك بعيون يريد العبث وكشف ما تحت الثياب، ولا أظنها نظرات الحب فلقد عرفتُ الحب ونظراته بعدما خبرته مع ضوء. كل تلك النظرات مررت بها في حياتي فما بال نظرات الغريب تختلف؟ في تلك النظرات شيء يشبه الفناء، فيها ندرة له وحده دون أعين البشر. فماذا وراءها؟

ظلّ لأيام يرمقني بنظراته النادرة تلك حتى عاد ضوء وتوطد الحب بيننا وبدأنا نتعارف فنسيت أمره.

في يوم كنت أنتظر ضوء ولم يأتِ، عادت زوابع الشك تربك كياني وبدأت أطرافي في الإرتعاش وبحثت عنه كالمجنونة، تأكدت يومها أنني حينما أحب، لا أحب بقلبي فقط بل كلي، حتى وجدته مع هذا الغريب! فتذكرته وتذكرت نظراته النادرة، نظر إليّ ضوء وفي عينيه اعتذار عن تخلفه، هدأت وأرتخت أطرافي.

لما يتحدث ضوء مع هذا الغريب؟ هل هي صدفة؟ أم أنه فعل الأفاعيل كي يحادث ضوءا كي تصير بيننا أواصر المعرفة فيحق له الحديث معي؟ وكيف علم بحبنا؟ هل أدرك بعيونه النادرة تلك ما وراء طيف الحديث وما حاولنا إخفاءه عن الكل؟

.....

ليلتها وصلتني رسالة وتعجبت؛ لا أعرف أحدًا كي يبعث لي برسالة. حتى ضوء أتفقت معه أننا ما خلقنا إلا لحظة الخلق الحاسمة لحبنا، لا نعرف إلا شخوصنا ولا يملك أحدنا حساب الآخر على مواقع التواصل، حاول ضوء مرة المراوغة والحصول على رقمي ولكني أرجأت ذلك، كي ننتظر الرضيع أن ينشأ برعاية الوفاء، يتلقى منه المبادئ والأحكام، حين يصير الرضيع كيانًا بالغًا ذا مبادئ ومسئولية وضمير، حينها يمكننا تبادل أرقامنا والتوغل في حياة الآخر.

أفقت من خواطري على صوت رسالة أخرى، أجد أن الرسالتين بعثتا من حساب غريب على الفيسبوك، قرأت الإسم وأسودت الدنيا للحظات وأفقت على رسالة ثالثة.

اياد! بعد هذا العمر! ماذا يريد؟

بلا إرادة مني فتحت الرسائل.

"ليلى مرحبًا

كيف حالك؟

لن تصدقيني ولكني أشتقت إليك"

كانت هذه رسائله الثلاث، أراد أن يبعثها كي يزلزل إيماني ويحاول قتله من جديد. رغمًا عني بعثت إليه.

"مرحبًا، بخير، ماذا تريد؟"

"ما هذا الجفاء؟ هل مازلتِ غاضبة مني بعد كل تلك الأعوام؟ أعرف ذلك ولن تصدقيني ولكن ما أحببت أحدًا غيرك، كنت صغيرًا يا ليلاي لا أعقل ما أفعل"

لحظتها كرهتُ أسمي من الأعماق فقط لأن ذلك الحقير لفظه، أعتبرت يومها أن أسمي مريم، هذا هو الإسم الذي به سأعيش وبه سأنادى يوم الحشر.

لم أحجم غضبي.

"أرجل أنت إذن؟"

"ماذا تقصدين؟"

"معنى البلوغ أنه قد أكتمل عقل الإنسان إذن حُتم عليه أن يناهز الحلم ويصير محاسبًا على أفعاله، إذا كنت لم تعقل أفعالك الحقيرة المريضة فأنك يومها لم تبلغ كغيرك من الفتية. وما أدراني أنك بلغت الآن؟"

أرسلت الرسالة وقبل أن يجيبني بشتائم تتهمني بالعهر والقحة أضفت رسالة أخرى.

"مبارك خطبتك لفاطمة"

"ليلى لا تدعي الغيرة تعميك عن الأدب وحدود اللياقة، زواجي من فاطمة كان لازمًا فقد صارت حديث البلد والناس قبل رحيلك وأقسم جدك حين استعاد نطقه على رميها في الشارع فحتم عليّ صون سمعتها بالخطبة والزواج بعد أن فضحتنا"

ضحكتُ من الأعماق على ذكره الأدب واللياقة.

"حسن وماذا تريد؟ لم تجبني بعد"

"أريد مصالحتك وأن تعرفي أني أحبك أنت، ما راسلتك طيلة الأعوام السابقة إلا لأني خفت غضبك من الماضي، أنتظرت أعوامًا كي تهدأي، لا أريد لي زوجة إلاكي، سأتزوج فاطمة لأشهر ثم أطلقها ونتزوج. لا تجيبي الآن، أعلم أنك تحبينني. فلتغفري لي، رجاءًا يا ليلاي!"

أبتسمتُ بدفئ عجيب وضحكت بفرحة طاغية حتى دمعَتْ عيناي في غبطة، أدركت أنه حبي الأول والأخير، هو بالفعل خاتم الأنبياء والرسل، أما هذا الدجال فيريد نكء الماضي وزرع الفتنة فيّ حين أحسني تحررت من لعنته ويريد الآن أن يضلني عن طريق ضوء.

"لا داعي للإنتظار سأجيبك الآن"

بدأت في الاستماع لأم كلثوم وبعثت إليه برابط الأغنية.

"استمع لتلك الأغنية ففيها ردي المناسب لك"

"يبدو أنها أغنية حب كحبنا"

أعتراني إشمئزاز مقرف نحوه، لا أدرى كيف نظرتُ يومًا إليه؟

"أتمنى لك استماعا طيبًا، أبلغ سلامي إلى فاطمة"

حظرتُ حسابه واحتفظت بصور للمحادثة كنوعٍ من الإحتياط، مسحت محادثة فتنته هذه وتنهدتُ بإرتياح.

بدأت أم كلثوم بعد أن صفق جمهورها المحب.

لسة فاكر قلبي يدي لك أمان؟

ولا فاكر كلمة هتعيد إللي كان؟

ولا نظرة توصل الشوق والحنان؟

لسة فاكر؟ كان زمان!

أبتسمت في فخر. يا ضوء! بدأ رضيع حبنا في النضج والثبات عند اليقين. ما أهتزت مني شعرة حين بعث الدجال يحثني على الإيمان به ولكن بعين المؤمن رأيت أنه (كذاب). أنت يا ضوء كعيسى حين رآك الدجال أذبته.

حبك سيظل كامنًا في قلبي يحميني من شر الفتن، لو تدري جم سعادتي يا ضوء! رفعتُ رأسك فتابعتك المخلصة؛ آمنت وأهتدت، ثبت إيمانها فضلّتْ عنها الفتن.

لو جاءت تلك الرسالة منذ أشهر لربما ضلّتني فتنته ولكنك جئتَ حاملًا معك طريق الفلاح.

هذا الحشرة كان صنمًا حاولت إقناع نفسي بعبادته ولكن عقلي أبى أن يسلم آخرته لتلك العبادة الوثنية فأراد الهدف الأسمى.

أفقتُ على صــوت أم كلثوم وهي تعلن انتصــارها وقد أحرجت هي الأخرى دجالها ودفعت عنها فتنته.

قول لي إيه قصدك معايا؟

بعد ما عرفنا النهاية.

أنت جيت مشتاق لحبي؟

ولا لدموعي وأسايا؟

وهنا لعبتْ لعبتها المفضلة وتصرفَتْ في الكلمات.

النهارده بعد ما فات الأوان.

مهما تحلف لي أقولك كان زمان.

لسة فاكر؟ كان زمان!

وهاج الجمهور تصفيقًا.

ضوء ... ليث

31

في يوم وأنا ذاهب للقاء مريم ناداني شخص والتفتُ إليه فإذا به أديب!

"مرحبًا ليث"

أنعقد لساني دهشة، مدّ لي يده المرتعشة، سلمتُ عليه بود صادق.

"أهلًا أديب. هل أنت طالب هنا؟ كيف لم ألقك من قبل في الأعوام السابقة؟"

أجاب في خجل.

"ذلك أول عامٍ لي في الحقوق، حصلتُ على الثانوية العامة العام الفائت"

لم أشأ أن اسأله لما وهو يصغرني بشهرين على ما أذكر.

ظللنا نتحدث وحين ودّعني راحلًا دعوته ليلتها لقضاء الليل معنا في البيت، جاء أديب وما إن فتحت أمي الباب حتى أحتضنته بلهفة.

"حمدًا لله على سلامتك"

صاحت به وهي تتأمل قده الطويل والنحيف.

"يا إلهي كم كبرت وأزداد طولك!"

قضينا الليلة ورحل بعد أن دعته أمي هو وأمرأة خالي وأولادها إلى الغذاء بعد يومين.

.....

أعدت أمي غذاءًا رائعًا إكرامًا لأديب القادم ومعه أمرأة عمه. كانت كوثر تقفز حماسًا فتلك أول مرة ترى وليمة وضيوفًا قادمين إلى بيتنا الذي ما وطئته أقدامٌ غيرنا.

أحبّت كوثر أديب منذ زيارته الأولى، كأي طفلة أعتراها خفر الأطفال حين يلقون غريبًا جديدًا، حين علمَتْ أنه أبن خالها لمعت عيناها ببريق فرح، عاشت لا أقارب لها من الأب أو من أمي وها هو الغريب المنقذ يظهر في حياتها القصيرة، بدأ الخفر يزول سريعًا ثم صارت كوثر تثرثر وتسأل ولم يستطع أحد إسكاتها.

ونحن نحضر الوليمة تسألُ كوثر أمي عما سترتديه وما الطعام الذي يحبه. هل يحب الرقاق مثلها؟ لأنهم أقرباء، أم أنه يكره البوفتيك الذي تكرهه من أعماق قلبها. صرنا أنا وأمي نضحك فتعبس وتسأل عما يضحك.

أنهينا كل اللازم وجلسنا ننتظر أديبا وأمرأة خالي.

رن هاتف أمي فأجابت.

"مدام منى أنا داليا أمرأة عادل أخيك"

"مرحبا داليا متى تأتون نحن بالإنتظار"

"للأســف يا منى أصــبت أمس ببرد قاتل، فقدت القدرة على التذوق والشــم، لا أريد أن أنقل إليكم العدوى بمجيئي خاصــة أنكِ أصــبت بحمى خطيرة من قبل وكوثر مازالت صغيرة. صدقيني حين أعود للشفاء سأدعوك وليث وكوثر للعشاء"

قالت أمي في خيبة.

"إذن لن تأتوا؟"

"أنا وأولادي لا ولكن أديب في طريقه إليكم. أظنه دقائق وســيدق الباب. أرجو يا منى ألا تغضبي مني"

"لا بأس! مجرد سماع صوتك أفرحني"

لبثنا دقائق ثم دق الباب، أقبل أديب حاملًا علبة حلوى، ضــمته أمي وســلمت عليه مصافحًا ثم أقبل على كوثر يقبلها من وجنتها فأحمرتْ خجلًا.

أثناء الغذاء طلبتْ أمي من أديب أن اغرف لنفسك فلستَ غريبًا. أرتبك أديب ثم مد يده مُكْرَها فلاحظت أمي رعشة يديه الشديدة.

"مالك يا أديب؟ هل أنت بخير؟ ما بال يديك ترتعشان؟"

تمتم أديب في خجل.

"لا بأس يا عمتي، منذ سنوات وهي ملازمة لي"

ثم حول مجرى الحديث. سألته أمي.

"أديب كيف عرفتم طريقنا؟"

تنهد أديب وحكى أنه حين مات أبي ظل أخوالي يراقبون أمي إلى أن فوجئوا بنا نرحل وعلموا أننا بعناه، تتبع أخوالي طريق أمي فاهتدوا إلى مســكننا وعرفوا بحملها. أقســم أخوالي أن يقتلوها ولكن حالت الظروف دون ذلك ومات خالي أشــرف وزوجته وأولاده في حادث ومات خالي الآخر كمدًا على أخيه.

ترحمت أمي عليهم.

"لم يتبقى لك أحد؟"

أمسك رعشة صوته كي لا ينهار باكيا.

"فقط أمرأة خالي و"
عض شفتيه بشدة.
"وسارة"
هتفتْ فرحة.
"وأين هى؟ لما لم تأتِ معك؟"
تهدج صوته وعبثًا حاول منع بكائه.
"هي في المصحة"
أسود وجه أمي.
"شُلت بعد الحادثة، في حالة النبات"
"ياربي!"
صمتنا طويلًا إلى أن تمالك أديب نفسه وحولَ مجرى الحديث مرة اخرى. لم تملك أمي أن سألته كيف عرف بمرضها.
"كان هناك بواب في بناية أمام بنايتكم أتفق أبي وعمي معه على نقل أخباركم، ولما مات أبي ظل يراقبكم كنوع من الشهامة وحين رأى سيارة الإسعاف تحملكِ حاول ان يحادث عمي وهو يظن أنه ما زال حيًا وأنه يؤدي خدمة كريمة فعلمنا بالأمر"
قضينا يومًا نحاول أن يبقى لطيفًا ثم رحل أديب. في اليوم التالى لم أرَه فعزوت ذلك أنه قد غرق في النوم. قابلت مريم، تحادثنا، حكينا ثم رحلنا.
ليلتها صحوت وحلقي جاف وسعلة جافة تعتريني بين فينة وأخرى، سرعان ما صاحبتها رعدة شديدة تسري في بدني، صهد يخرج من جسمي وألم حاد في حلقي. ظللت ساعة أقاوم ذلك الإحساس حتى دق الباب، بوهن دق قلبي فزعًا. أمي! هل أصابتها الحمى من جديد؟ تحاملت على نفسي وفتحت الباب لأجد كوثر ترتعش بشدة.
"غيث"
كاد يغشى عليها وتلقفتها قبل أن تقع، تحسست رأسها وكادت حرارته تترك ندوبًا في يدي. أنمتها وغطيتها بالبطانية.
"ماذا بك يا كوثر؟"

"تعبة، أرتعش وحلقي يؤلمني. خفت على أمي أن تلتقت العدوى مني فجئت إليك فقلبها لن يحتمل"

هل أصـــابتها هي الأخرى العدوى؟ لا بد أديب نقل إلينا العدوى. أســـرعتُ إلى هاتفي وأنا أقاوم إغماءة.

"أمي!"

"ماذا يا غيث؟ هل أنت بخير؟"

"هل أنتِ بخير؟"

"بلى ماذا هنالك؟"

"احضري الطبيب ومهما حدث لا تدخلي عليّ وكوثر الباب"

وسقطت في إغماءة.

مريم ... ليلى

32

ظلام دامس، رعب يتملكني. أين انا؟

يارب أهو القبر ووحشته؟ أين الملكين كي أُسأل فأعرف مصيري؟ لا أحد، أهذا عقاب لم تخبره بأحد يارب ولم يَخْبَرْه مخلوق؟ العدم؟ لا أُثاب ولا أُعاقب؟

فقط عدم في عدم؟

ما أبشع هذا العذاب! العدم واللاشيء ووجود وعي يدرك العدم وحيزه من اللاشيء.

عذاب وإن أنعدم الشعور ومعنى الكون. و معنى العذاب والنعيم. يارب أين انا؟

ثم اشرق نور وضاء.

ضوء! يا حبيبي! جئت تنتشلني من العدم!

ثم ما لبث أن أنشق من العدم أبي.

"ضوء بالله أحمني منه. يريد الفتك بي"

أنتبه إلى أنني لم أُنر بنور ضوء! مازلتُ في عتمة العدم.

كان ضوء يرنو إليّ كما يرنو أهل الجنة إلى أهل النار فلا يَدعون بالرأفة لهم ولا يُلقون عليهم اللوم.

"ضوء أحمني ما بالك لا تجيبني؟"

ضحك أبي ضحكة شيطان أوقع بفريسته معه في عذاب العدم. ضحكة شيطان أضل ملاكًا عن إنقاذ بشر.

"لا تحمها، ما هي إلا عاهرة أرتدت ثوب العفاف. هي كافرة. هي غاوية. هي قاتلة. هي فاتنة. هي. هي. ليست بمريم. ما هي إلا ليلى"

خلتُ أن عمرًا أنقضى وأبي يصف له من أنا ولكنّا كنا في العدم فأنعدم الزمن.

"والله يا ضوء ما قصدت كل ذلك! والله أنا طاهرة! بكارتي كي أحميها أهلكَتْ غيري من البشر. لم أختر أن أخلق فتنة. بالله صدقني. صدّق مريم. إن صدّقْتَ ابي ورحلتَ من ينتشلني من هذا العدم؟ من سيهديني للحق؟ من سأتزوج في الجنة وأنا في العدم لا أدرك وجودي"

كنت أبكي بحرقة وأنا أترجاه. قال بصوت كصليل الحديد.

"لستِ مريم، أنتِ ليلى. كفاكِ خداعًا"

ركعتُ تحت قدميه أقبّلها علّه يرأف بي، أضم ساقيه النيرتين ونكزني كي لا يوحَل بعاري تاركًا إياي.

"رفقًا يا ليلى. رفقًا يا أبنتي"

هذا صوت أمي!

"أمي!"

أصرخ وأنا أبكي وأحثّها أن تقنع ضوءًا أن يغمرني بنوره، فأدرك أول معنى للوعي والوجود. الضوء.

"أفيقي يا ليلى"

ثم رحل ضوء وأنا أُجّر ضامّة ساقيه النيرتين وخبا نوره وطغت العتمة تاركًا وعيي في العدم.

.....

شهقت شهقة كأول أنفاس الوجود.

"حمدا لله! ليلى بالله أجيبيني. أتسمعينني؟"

ظللت لدقيقة لا أفهم شيئا، مناظر أمامي لا أكاد أتبين منها شيئًا، ألوان لا أدري لونها. ظللت أتمتم.

"أنا. أنا. لا أفهم"

الفهم هو ما أردته. من أنا؟ أفي الوجود أم في اللا وجود. هل أنا خلقٌ خلقه الله؟ أم أنا حلم شخص استيقظ؟ ام أن حياتي كانت حلما وصحوت لاستأنف ما بقي لي من حياة؟ أم أنا خلقٌ مات وفنى؟

ثم تبينت غرفتي ورجل ممسكٌ بشيء لم أتبينه، كانت حقنة.

ووجه أمرأة هي أمي، أمسكت بيدها أتشبث بها كي أتمسك بالمعنى.

"أمي!"

أتمتم في وهن.

"أبي خدع ضوء وأراد أن أظل في العتمة"

كنتُ مازلت أهذي.

"أهدأي يا ليلى، حمدًا لله على سلامتك ليلاي"

صرختُ باكية.

"لا لست ليلى أنا مريم. والله أنا مريم"

هدّأت أمي من روعي وقال الرجل الذي أتضح أنه الطبيب.

"حمدًا لله على سلامتك، أقلقتنا معك"

"ماذا حدث؟ أغبتُ عن الوعي من جديد؟"

بدأت أنوح

"آه كم عامًا غبت؟"

ويزداد نحيبي

"يارب إلى متى سأظل غائبة؟"

"لا يا ليلى. والله كانت أيامًا ثلاث"

أزداد بكائي عويلًا.

"أنت تكذبين. أنت كاذبة"

"والله أبدا! أتذكرين في أي عام نحن؟"

"2019"

أمسكت أمي بهاتفها وأرتني التاريخ، هدأ بكائي وحمدتُ الله كثيرًا.

"أريد ان أصلى"

"لن ينفع يا ليلى، قد أشتدت عليك الحمى"

بكيت من جديد؟

"أريد أن أصلي. يارب!"

ضمتني وقبلت رأسي.

"حسنٌ تيممي وصلّي بعينيك"

صليتُ وأطلتُ في الصلاة.

يارب! أنت خالقي ومنجيني من العدم، اللهم إن حتم عليّ مصيرٌ في الآخرة فلا يكون العدم، أدركتُ العدم لدقائق ظننتها أبدية. حمدا لك يا الله. أغفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر. يارب.

.....

أُصبت بحمى شديدة كادت تهلكني، لم تصب أعضائي الحيوية بسوء. قال الطبيب أن كثيرًا من الناس مؤخرًا بدأوا بالإصابة بالحمى وقد أحتار الأطباء في السبب.
ظللت أياما تحت وطء المرض حتى تقيأت يومًا، بعدها بساعة شعرتُ أني برأتُ من مرضي.

ضوء ... ليث

33

أفقت وأنا على سـريري وكوثر بجانبي نائمة أو مغشـي عليها، وأمامي رجل أدركت أنه الطبيب.

"هل تسمعني يا بني؟"

أومأت وتمتمت بوهن.

"أمي!"

"لا تقلق أمك بخير أبعدتها بعد مشـقة حتى لا تُصـاب بالحمى، أُصـبتما بحمى قوية، عليكما بالراحة، لا أرى داعيًا للمسـتشـفى ولكن سـأبعث بممرضـة تشـرف عليكما حتى تتماثلا للشفاء"

.....

ظللنا أيامًا والممرضـة ترعانا، صـرنا بعد يوم قادرين على الحديث ولكن نغص علينا وجع الحلق، ما كان يبكينا أحيانًا هو بكاء أمي وهي تصيح بالممرضة.

"كيف لا أدخل؟ أنا أمهما كيف لا أرعاهما؟ أدخليني!"

"يا مدام قلبك لن يحتمل إذا أُصبتي بالحمى"

"أنا أدرى بقلبي ولو الموت ثمن لحياة أبنائي أرضاه قريرة"

وتبوء محاولات أمي بالفشـل، مرّت أيام وصـرّح الطبيب لأمي بالدخول بعد أن تماثلنا بالشفاء وصرنا في فترة النقاهة. لم تدخل إلا بعد أن فتحنا النوافذ وتركنا الشمس تدخل وقد غيرنا ملاءة السرير والبطانية وملابسنا.

جرت أمي علينا وضمتنا بشدة تقبلنا وهي تبكي.

"حمدالله! أغفرا لي لم أخف من الموت فدًا لشـفائكما يا أحبائي. هل أنتما بخير؟ خفت ضياعكما وأنا حتى لا أراكما"

.....

بعد أن شفيتُ ذهبتُ إلى الجامعة وقدمت طلبًا لكل محاضر بالسماح بإعادة الأمتحانات التي فاتتني.

ما إن فرغتُ حتى ذهبت من فوري إلى مكان لقائنا راجيًا الله أن تكون هناك، ووجدتها تجلس وتنتظر.

"مريم!"

التفتت إليّ وفي شفتيها أبتسامة حب ولوعة، هتفتْ بدورها في شوق.

"ضوء!"

جرت إليّ وضمتني وهي تبكي بحرقة في الحرم الجامعي.

"آه يا ضوء"

أعتراني دفء عجيب في ذاك البرد وقشعريرة حلوة جرفتني إلى عالم لا تطأه إلا أقدام من أحبوا من صميم قلوبهم. ضممتها بدوري وأنا أشعر أني أنتميت أخيرًا إلى وطني بعد طول غربة غير آبه للعواقب.

"شعرتُ أني سأراك! أنتظرتُ علّ طيفك يأتي! آه يا ضوء أشتقت إليك. الحياة من دونك ممات أي والله ممات"

بدأت تتأوه وبكيت أنا الآخر.

"بل أنا الذي إليك أشتقت"

"مهما حدث أرجوك ألا تتركني أبدًا"

"ماذا تقولين؟ هذا مستحيل!"

"أغفر لي"

"بل أنت أغفري لي، غبتُ عنكِ شهرًا. أغفري لي"

رنت إليّ في دهشة.

"ألم تأت طيلة الشهر الفائت؟ ألم تؤد أمتحاناتك؟"

"بلى، أصبت بحمى قاتلة ولكن حمدًا لله لم تصب أمي"

وضعتْ يدها على وجهي.

"فداكَ روحي! وأنا لم آت بدوري لأجل عين الحمى التي صابتك"

تمتمتُ ندمًا.

"سامحيني لابد أني نقلت إليكِ العدوى"

أسكتتني بيدها.

"والله لو جئتَ لي بالموت لتقبلته شـــاكرة، أي شـــر آت منك هو الملاذ لي. هل أنت بخير الآن؟"

أمسكتُ بيدها وقبلتها.

"بلى. ما كنت بخير إلا حين ضمتني ذراعاك"

همستُ لها خجلًا.

"أحبك"

أبتسمتْ بخفر.

"وحق سكناكَ في قلبي"

جلسنا بعد الأشواق.

"الحمد لله أني برأتُ حين برأتَ فلم أكن لأحتمل يومًا دون لقياك. لا بد أني أصـــبتُ بعين الحمى كي يكون كل بأس أصابك قد أصابني"

"إذن ألا يأخذ كل منا رقم الآخر كي لا يغيب أحدنا عن الآخر"

نظرت إليّ في إشفاق.

"ليس الآن. عندي فكرة أفضـــل. كل منتصـــف الليل نتفق قبلها على أغنية لأم كلثوم نسمعها في عين الساعة. كل منا يناجي الآخر في بحر الألحان. ما رأيك؟"

أومأتُ في تسليم موافقًا.

"ليلة أختار وليلة تختار، وليلة نستمع للراديو. سأبدأ أنا"

القاهرة

عام 1947

مسرح حديقة الأزبكية

بدأتْ مقدمة اللحن القصيرة -في التسجيل المتاح- صفق الحضور بشدة حين وقفت استعدادا.

تذكر توجسها المعهود قبل أي لحن، رغم أن هذا اللحن من أجمل الألحان التي غنتها للسنباطي للآن، رائع إلهامه؛ كان مدخل كوبليه من كلماته يرقص في خيلاء مرح رغم شقاء الكلمات.

"أيه ده يا رياض، اللحن مش ماشي مع الكلمات!"

ولكنها سلّمت صوتها لقائد اللحن وكان هذا الكوبليه من أروع مقاطع الأغنية.

عشر أعوام تغني للسنباطي وقد صار ملحنًا مرموقًا.

جاوزتْ الأربعين! متى ستتزوج، ولا تجيب. من حبيبك، لو أعرف لقلت لك.

كيف تتزوج؟ كيف تهبط من علياء القداسة إلى وحل الزواج والإنجاب؟ أم كلثوم تعذر عليها الغناء الليلة لإرضاع أبنها أو لوعكة ألمت بأبنتها! ومن يجدر به الزواج من كوكب الشرق؟ وبدأت.

يا طول عذابي وأشتياقي!

ما بين بعادك والتلاقي.

القاهرة

مصر الجديدة

فبراير 2019

تبقت دقيقتن على منتصف الليل.

أنتصف الليل وبدأ من فوره الاستماع إلى الأغنية، يصفق الجمهور بحرارة ثم تسبح الألحان في بحر القاعة آنذاك وبحر الغرفة الآن. عجيب هذا الأمر! زمنان يتساويان في محيط الوجود؛ أنت في الغرفة تسمع عين اللحن الذي يملأ أجواء القاعة وأنت والحضور جالسون تستمعون!

يسرح ليث أو ضوء مع الألحان وينسى تأمل الأزمان والأماكن ويسرح. أسرح فيكِ يا مريم! يا ليتني أرى شمس شعرك دون أن تغطيه تلك الباروكة ولو أحترقت بعدها. كلما استعيدك في ثنايا الذاكرة أراكِ بشعرك الأسود، كم أتمنى لو تألفك عيناي بذهب شعرك!

بدأت أم كلثوم تشكو وكأنها تهم بالبكاء.

يا طول عذابي واشتياقي!

ما بين بعادك والتلاقي.

أنهت المقطع كأن غديرًا من خمر الجنة سرى في ثناياه. تأوه ليث رغما عنه، كم يشتاق إليها وكأنه لم يرها صباحًا! كم يود لو تُلقي برأسها على كتفه فيغمره شمس شعرها ويتنفس عبير ذهبه.

.....

تجلس ليلى أو مريم أسفل النافذة، تمسح يدها على شعر عين وهى تنظر إلى الأمام وكأنها ترى ضوء أمامها.

كم يهون العذاب؛ عذاب الليل الطويل والسهر وأنتظار الشمس أن تشرق فيبدأ يوم جديد أراك فيه، وعذاب أشفاقي حين يتعجل القمر الشمس كي يطردها فيجلس على عرشها شامخًا ضوءه الفضي. كم يهون حين أراك! حينها فقط أنسى كم عانيت.

ياما غالبت الشوق وشكيت.

من طول غيابك عن عيني.

يا ليتتك وهمٌ يظل ملازمًا لي فلا تفارقني. يا ليت العيون تحفظ ما ترى فلا نكتفي بالذاكرة إذا أردنا رؤية من نشـتاق في غيابه بل تحضـره العين وكأنه حاضـرٌ أمامنا. يا ليتك مطبوع بين جفني فلا تبارح بصري.

.....

أراد ليث مريم بشدة في تلك اللحظة، يريد أن يرحم وجودها عذاب غيابها.

أقول لقلبي وليه الشوق؟

مادام هيعطف ويجيني.

أمجرد يقينٍ أني بملاقيكِ يزيل الشـــوق ويخفت العذاب؟ لا وألف لا. جل ما اخشـــاه أن آمن وجودك فأخسرك. وما جدوى الحب لو غاب الشوق؟ فماذا إذن سأكابد؟ يؤمن ليث أن للعشق سادية؛ يجد العاشق لذة في ولعه وسعادة في شقائه، كلما تعذب كلما زاد حبه قوة وأزداد رغبة في مكابدة لهفته.

.....

مضت ربع ساعة وليلى مستلقية أسفل النافذة وعين نائمة بجانب رأسها تخرخر بهدوء.

ما أهنأني! ففي عين السـاعة وفى عين اللحظة تسـمع المقطع نفسـه وتتناجى. كم أود تلك اللحظة أن أضمه فقط أضمه، غريب أن يقتصر كل هذا العشق في ضمه؟

تتســاءل ليلى؛ هل بالقبلات والأحضـــان نشـــعر بمدى قوة الحب وصـــدقه؟ من الذي أكتشـف الضـم والقبل؟ أهو أصـلا أكتشـاف أم أنه وُجد يوم اسـتيقظ آدم من غفوته فرآى حواء ترنو إليه في شـغف فقام وضمها فرحًا بها؟ دائما ما يرتبك ذهنها، أتضم ضوء وهي موقنة أنه الحب أم تخشى أن تدخل الرغبة والشهوة في ثنايا الضم؟

طال السكوت بينه وبيني

بدّى أقول له على إللي ضناني

والعين تدله عن طول هو اني.

كم ترغب كلما لقته أن تشـــكو له هواها ولكن دائمًا ما تحجم! لا تريده أن يســـأم حبها بطول الشكوى بل كم تتوق لتشكو له مرّ الماضى، أن تخبره عن شخصها وجرائمها وأنها ليست مريم التي يظنها، فمريمه قد أغوت وأهلكت.

.....

أمضى ليث ما يقارب النصف ساعة. كان قد أنسجم مع مناجاة أم كلثوم وذاب فؤاده إلى ذرات أختلطت بذرات الألحان.

سكت عن شكوى الهجران.

وحيرة القلب الولهان.

تصـعد روحه لآفاق خيالية وقد فاقت أم كلثوم كل معجزة، يريد أن يصـرخ من روعة ما يكابد.

وقلت أصورله هنايا.

ساعة ما أشوفه ويايا.

تنهدت أم كلثوم فأشتاق الحضور وقد أريقت أرواحهم فصفقوا بشدة.

خُدع ليث ببهجة أم كلثوم ولا يدري أن البهجة مع أم كلثوم قصـيرة العمر سـرعان ما تندم على بهجتها لتعود وتعذب النفوس بوجدان هواها المعذب.

جيت أتكلم قلبي أتألم.

بدأت أم كلثوم تنوح بخفة وبدأت في التصـرف بألحان الكوبليه، يعجب ليث في جودة صوتها! تُظلم إن قيل فقط أن صوتها عذب! أن صوتها يصعب وصفه ويصعب أن يأتي مثله.

لا قدرت أقول بُعده ضناني.

ولا قلت قربه هناني.

صارت أم كلثوم تبكي برقة ورغمًا عنه تأوه، فكم يريد أن يكلمها عن خيبات الماضي ولكن يؤلمه قلبه. فما ذنب تلك الملاك أن تعرف انانيته وحرمانه لكوثر من أبيها؟

.....

مضت أم كلثوم تشدو معلنه قرب نهاية الوصلة، سبح ليث وليلى وأندمجا. زمنان تقابلا بثلاثة وجود متواز. أم كلثوم على المسرح تشدو أغنية رائعة لحنها السنباطي يستمع إليها الجمهور في عبادة وغرفة ليث وغرفة ليلى وهما يستمعان لتراث قلّما يجود الزمن به.

بُعد الحبيب ولو أنه يطول

و أنت يا قلبي كلك أماني.

ولا لقاه والصبر قليل.

والعمر يجري.

ساعة التداني.

شهق ليث وليلى من المعجزة الخالدة بينما أنهت أم كلثوم الغناء وصفق الحضور، خفت الصوت ثم انتهى التسجيل.

ضوء ... ليث

34

جاءنا اتصال من أديب.

"أديب كيف حالك؟ سامحنا يا حبيبي أصيب ليث وكوثر بحمى شديدة وأنشغلنا عنكم. كيف حا.. مهلًا. ما بال صوتك؟"

أسود وجه أمي وحوقلت بأسى.

"ياربي!"

ظلّت ساهمة حتى أفاقت.

"نحن قادمون"

أغلقت الخط. وسألتها ما الأمر.

"المسكين لم يعد له غيرنا، داليا أمرأة خالك لحقت بسابقها"

قلت بقلب واجف.

"ماذا تقصدين؟"

"ماتت يا غيث!"

.....

ذهبنا إلى المستشفى ورأينا أديب واقفا فهتفت به أمي، نظر إلينا و كأنه رأى آية الحياة، ضمته أمي مهونة عليه.

"تحمل يا بني. وحّد الله"

لم يجب أديب، رنوت إليه بأسف وضممته بدوري.

"أين هي الآن"

"في المغسلة يكفنونها"

"وأين أولاد عمك؟"

"برفقة أخوالهم"

.....

تمت مراسم الدفن ومر شريط ممات أبي أمام عينيّ وكوثر منكمشة فيّ تارة وفي امي تارة أخرى. بعد الأيام الثلاث للعزاء جلسنا وأخوة داليا. كان نقاشًا في البدء ثم تحول إلى مشاجرة. تهتف أمي.

"ماذا تعني تأخذون الشقة وأن يجد أديب مطرحًا آخر؟ في أية حال كان سيعيش معنا، مع عمته ولكن أن تقولوها يا سيد بصراحة فجة ألا شأن لكم بأمره؟"

صدح صوت أخي داليا.

"تحملنا أصرارها على رعايته ولا هو أبنها ولا يقرب لها، أين كنتِ حين لم يجد غير داليا يرمي عبئه عليها لتتحدثي الآن عن جفائنا؟ أنه قدم شؤم ما يحل في مكان حتى يهلك أصحابه، هلكت داليا بعد زوجها فلما نتحمل أمره؟ ألا يكفي أننا رضخنا لإصرارها رغم أنه ربيب الإصلاحية؟"

أُخذَت أمي وهتفت به.

"ألزم حدك يا أستاذ. أترمي بلاءك على الفتى؟"

"أسألية أين كان قبل أن تكتنفه داليا؟ وتدّعين أنك عمته وأنت لا تدرين أنه دخل الإصلاحية حين كاد يقتل صديقة"

وجمت أمي.

"ماذا يقول هذا الرجل يا أديب؟"

كان أديب غارقًا في خجلٍ عظيم ثم تمتم.

"كان الأمر خارج يدي."

حين أحسّت أمي الخجل في نبراته توحشت وهتفت بأخي داليا.

"لستُ مجبرة أن أحكي لك بأمر رغبة أخويّ القديمة بتسميمي ولا بضربهم لي وخوفي على أولادي من بطشهم ولِمَا أنقطعت الصلات بهم. لا تأخذ على الصبي بشيء صار من الماضي. أليس بإنسان قويم، حسن الخلق؟ حتى لو ما تقوله فيه حقيقي فلم تؤثر فيه بيئة الإصلاحية ولو كان سيء الخلق فلما إذن رعته داليا؟"

قال أخو داليا مأخوذًا.

"دعينا لا نشطح عن الأمر برمته. قد صار راشدًا ويمكن أن يكفل نفسه والشقة من حق الأولاد"

كادت أمي أن تفتك به لو أتيح لها ذلك. حاولت أن أهدأها حتى لا ترهق قلبها.

قال أديب بعد صمت.
"كفى جدالًا. أكرمتني أمرأة عمي برعايتها لي وسأظل أذكر ذلك، فليكرمها الله في مستقرها. سأكفل نفسى فلديّ ما يكفي من إرث أبي وأمي ولديّ بيته"
أخذت أمي بيد أديب وحثتنا على الذهاب دون إلقاء السلام. أعترضتْ على رغبة أديب وحثته على المجيء فأجاب طلبها مُكرهًا.

.....

مضتْ أيام وأديب لا يقرب الطعام، تحاول أمي أن تهوّن عليه وأن تحثه على الحديث أو البكاء. تؤكد له أن بيت عمته هو بيته. لم يكن يفيق من وحشة الفناء إلا حين تضمه كوثر باكية.
"رفقًا بك يا أبن الخال كلنا إلى ممات، لست وحدك؛ كلنا معك"
شاركتْ أديب غرفتى وظللت معه، حتى جاء يوم وكان يشرب كوب ماء، أزدادت رعشة يده بشدة حتى أسقط كوب الماء على ثيابه وبكى بحرقة.
"أبكِ يا أديب! أدري هوان الموت ولكن مصابي غير مصابك"
بدأ ينوح.
"في البدء أبواي وأخوتي لم استطع حتى رؤية جثمانهم، وعَجْز سارة ثم عمي والتي أكرمتني في حياتها. الفناء يحوم حولي ومن معي، أنا أخشى عليكم منه"
بدأ يلتفت حوله كأنه يرى أطيافًا مرعبة، لاحظتُ أنه على أعتاب إنهيار عصبيّ فحاولت قدر المستطاع تهدئته.
بدأ في الإعتياد، في أخذ زمام الحياة يتناوب مع الموت الأدوار. بدأ في الحديث قليلًا وقد أعتاد الأطياف التي أكتشفها فجأة، وأخيرًا بدأ في التجاوب مع الحديث الموجه إليه مجاملة ثم في متابعة الحديث والرد على ذاك الموقف أو ذاك.
ووجدت نفسي ذات ليلة تحت تأثير لحظة نادرة السحر، أحكي له ما مرّ لي منذ هلك أبي إلى أن قابلتُ مريم. أحجمت أن أحكي له عن حبي لها وما برئ من حزنه بعد.
في يوم قال وكأنه يحادث طيفًا أمامه يراه بوضوح.
"طالما حملتُ عبق الفناء حولي، منذ بدأت أعي وأنا أشعر به يحوم حولي، كنت أظنني المراد، كنت وأنا طفل أنتظر اليوم الذي يفتك بي فيه، كل يوم جديد أقول هذا اليوم

الأخير. ومات أهلي ونجت سـارة وليتها هلكتْ معهم، ومات عمي حينما حللت بداره ثم جاء دور أمرأته"

لم استطع منع نفسي من أن أسأله.

"ماذا جرى لأمرأة خالي؟"

"أشتدت علىها الحمى وما يدري الأطباء إلا وقد تأثرت رئتيها بإلتهاب شـديد وأزدادت حالتها سـوءًا خاصـة بسـبب مرض السـكر، لم يفلح معها أي علاج. قالوا أن فيروس مجهولًا أصابها، سرت أقاويل أنه أصاب بعضًا من الناس ولكن لا يوجد تقرير رسمي صدر بشأنه بعد. أسلمت الروح ورحمها الله من عذابها"

القاهرة

عام 1958

مسرح حديقة الأزبكية

لحن جديدٌ وراء لحن ونجاح إثر نجاح. بدأ لحن السنباطي يصدح في الأركان والناس يصفقون، أحيانا لا تدري أتنجح أغانيها لأنها كوكب الشرق؟ يأبى الجمهور أن يصدق أنها أختارت لحنًا فاشلًا فيجاريها؟ أم أنها مع الزمن باتت أذناها كلما سمعت لحنًا تعرف إذا كان سينجح أم تجد مُلحِنًا آخر؟

ظلّت لأعوام تتتوق لتغنيها ورأت أن تطلقها للآذان حين يعطيها السنباطي إشارة الميلاد، فعلتْ ذلك مع قصيدة الغيرة ونجحتْ رغم عمق كلماتها وصعوبة اللحن، حينها أكدتْ حدسها وأطلقتها مع السنباطي تمرح مع الجماهير.

وقفتْ وصفّق المستمعون في القاعة وفي المنازل والمقاهي.

عودت عيني على رؤياك.

وقلبي سلّم لك أمري.

أشوف هَنَا عنيا في نظرتك ليا.

وألقى نعيم قلبي يوم ما التقيك جمبي

رنت إلى زوجها جلوسًا بجانب رامي، عاشق وغريمه يجلسان كالأحباب! وصدح صاعدًا صوتها بحديث العاشق وربما لغريمه.

وإن مرّيوم من غير لقياك.

ما ينحسبش من عمري.

صفق الناس في المنازل وفي القاعة وصدق ظنها في أذنيها.

مريم ... ليلى

35

لم نفلح أنا وضـــوء أن تُعاد لنا الإمتحانات؛ رأى الأســـاتذة أن حجتنا غير كافية وقطعًا رأيهم أصـــوب! وأضـــطررنا أن نعيد الســـنة، لم نعر لذلك أســـفًا، يكفي أن لنا عامًا آخر نلتقي فيه. صـارتْ الحديقة مكان لقائنا المسـتمر، كان العام قد شـارف على النهاية وتبدأ حقبة العشـــرينات. كنا نلتقي يوميًا ونتفق على أغنية نتاجى في كلماتها أو ما يصـــادف وتذيعه الإذاعة في الليل..

.....

قاربنا منتصـــف الليل وأعددت كل شـــيء، الدفتر، القلم، وقهوة تؤنس ســـهرتي وعين جالسة على المكتب تخرخر في راحة.

أنتصـــف الليل وبدأ الجمهور في الهتاف والصـــياح. بدأ مقام الكُرد في إظهار ســـلطته وتنساب الألحان لا تدري أفرحة أم ملئ بالشجن!

عودت عيني على رؤياك.

وقلبي سلّم لك أمري.

أشوف هَنَا عنيا في نظرتك ليا.

وألقى نعيم قلبي يوم ما التقيك جمبي.

بدأت من فوري في الكتابة، تُحدِثُ أغاني أم كلثوم شـيئًا مهمًا في النفس؛ حينما تسـمعها ترغب أن تحب كما لم تحب من قبل، وأن تتعلم كل فنون الأرض، تزداد روحك شـــفافية فتملك قدرة على الإبداع لا وصف لها.

صاحتْ روحي مع الراحل من السامعين.

وإن مريوم من غير لقياك.

ما ينحسبش من عمري.

"

ضوئى الحبيب،

نستمع الآن سويًا إلى رائعة من روائع أم كلثوم، صدقًا لا أجد خيرًا من كلماتها أناجيك بها.

منذ رأيتك أعتدت مرآك ولقاءك وأخاف أن أعتاد فأشقى وأخسر، منذ أول يوم وقعتْ فيها عيناي عليك صرتَ شيئًا لازما في حياتى ولم أعرف إن كنت سأراك ثانية أم لا. شيء في قلبي أسرّ لي أن تلك ليست إلا البداية.
لا أدري كيف كنت أعيش سلفًا دون أن تراك عيناي؟ لم أكن أحيا بل كنت أعدّ نفسي للحظة الخلق الحاسمة للحب.
"

أمسكتُ عن الكتابة قليلًا لأعيش مع أجواء المقطع الأروع بالنسبة لي.

قُربك نعيم الروح والعين.
ونظرتك سحر وإلهام.
وبسمتك فرحة قلبين.
عايشين على الأمل البسّام.

"

عيناك ما أجملهما! حين سقطتُ شعرتُ أن جسمي سينفك إلى أجزاء؛ كل جزء يحكي لمن يحمله أساه ولكن حين رأيتُ عينيك الذهبيتين رغبتُ أن أتلاشى كي أصير عبقًا تشمه أنفك فأصير منك. وآه لو أمسك يدك ونمضي في طريق إلى أفق العمر
"

لو كنت خدت على بعادك.
كنت أقدر أصبر وأستنى.
وأسهر على ضيّ ميعادك.
لما الزمان يجمع بينا.

بدأت أم كلثوم في تفاريدها وأشعر بها كنور مصباح تضيء عتمة سهرتي.

"

لا أدري هل لقاؤك سعادة أم هو إيذان بالغياب؟ كلما لقيتك أخشى ساعة الفراق، أخشى محيط غرفتي حيث أجتر حديثك بأسًى فقد صرتَ ذكرى استحضرها فمتى تصير من جديد حاضرًا جديدا؟

ككل نساء العرب أخشى ساعة الفرح، بلا شك تتبعها لحظة كدروألم. كل ذلك الهناء ماذا بعده؟ هل سيستمر إلى أن أصير عجوزًا هرمة؟ أشك في ذلك. فلا مما سبق من سلو الأقدار؛ الأقدار تحلولها اللعب بعرائسها من الخلق ثم ككل طاغٍ تحيق بها الفجائع وكم يحلو اللعب بإضافة بعض الدراما للأحداث. أعذرني على تشاؤمي فمرة هنأتُ وأديتُ ثمن الهناء أعوامًا، كم أريد إيقاف الزمن لحظة لقائك فيصير وجودك معي أبديًا.

"

أخذ اللحن مأخذًا عاطفيًا يفوق قدرتي على الإحتمال، اقشعر لحظتها جسدي وأبتسمت وقد دمعت عيناي بوجدٍ طاغٍ.

زرعتْ في ظل ودادي.

غُصن الأمل و أنت رويته.

وجدت نفسي أغني معها وأنا أهدهد روحي.

وكل شيء في الدنيا ديه.

و افق هواك أنا حبيته.

أحتضنت نفسي وأنا أبكي في هيام وشرعتُ في الكتابة ودموعي تتسابق لضم صفحة رسالته.

"

أحبك وأحب ما تحب حتى ولوكان أبغض ما أكره،

لو أحببتَ ذاك دجالي القديم سأحبه معك وسأتبعك بلا تردد فالحب ما يدلك. إن قلتّ لي سأذبحكِ عشقًا سأسلمك عنقي تمرر عليه سكين غرامك و أنا قريرة العين. إن قلت دعينا نشوي أرواحنا في سعير الجحيم، أقترفت الآثام كي ألحق بك في النار.

"

أتنهتُ إلى فظاعة ما كتبت وأردت شطبه ولكنه خرج من نفسي فآثرتُ أن يقرأه.

ومهما شفت جمال.

وزار خيالي خيال.

أنت إللي شاغل البال.

و أنت إللي قلبي وروحي معاه.

هِمتُ في أعالي السماء وختمت رسالتي قبل ختام الأغنية.

وختامًا يا ضوء دربي! أدعوالله أن يرأف بنا في قصتنا تلك وأن يصرف عنا أنظار القدر كي نختم قصة حبنا بالزواج ونبدأ قصة جديدة؛ قصة يسطرها الحب ونخلق فيها أبطالًا صغارًا، يكبرون ليبدأوا قصصهم بدورهم.

أحبك وسأظل.

مع محبتي،

مريمك

"

أنهيت رسالتي وقبلتها من أعماقي. يا لفرحتي ورعبي! أخشى أن تكيد لنا الحياة فأدمرك كما دمرت رجالي العابرين.

أنتبه أن أم كلثوم تغني بسعادة معلنة للجميع وهي تكيد الحياة والأقدار.

ويوم ما تسعدني بقربك.

ألاقي كل الناس أحباب.

ويفيض عليّ نور حبك.

أقول مفيش في الحب عذاب.

ما أهنأك يا أم كلثوم! ها أنت ترتجلين من جديد من صفائك مع الحب!

إلى الآن أتساءل هل أنا سعيدة أم شقية؟ لما ألقي النظر على المخفي من الغيب؟ لما العاشق شقي رغم هنائه؟ لما الشجن؟ هل هو رفيق الحب الازم؟ ضريبة عليك دفعها إذا أردت رضاه؟

الحب كله نعيم.

لا فيه عذول بيلوم.

ولا فيه حبيب محروم.

لا أدري هل أصدقك يا ست أم أشك في حديثك الكامل عن الحب؟

وتأبى أم كلثوم أن تتركني وشكي فتزيد من إرتجالها وتزداد إصرارا حين ختمت إرتجالها بمقام النهواند ربما تؤكد ألا مجال للمناقشة، ثم تضع حدًا من الشك بدعاء من الأمل.

ياريت يدوم للقلب صفاه.

و أقضى طول العمر معاه.
ده إن مرّيوم من غيررؤياك.
ما ينحسبش من عمري.
حسنٌ إذن فلا مجال للشك.

القاهرة

عام 1939

أستوديو

كانت أم كلثوم تضع مع زكريا آخر اللمسات قبل المرة الخامسة للتسجيل، كانت أم كلثوم أول من حضرت في الصباح الباكر مع زكريا أحمد والآن تكاد الشمس أن تُنهي يومًا آخر من مهام الدهر.

فيلم جديد قيد التحضير تتحدث عنه الصحف بإنتظام، يدور كما تدور أفلامها للآن عن فتاة ذات صوت باهر سحبتها الأضواء للمجد وخسرتْ بعدها الكثير. رامي كاتبٌ عتيق يعشق الأصالة والعصور الخلافية، كتب قصة الفيلم وأتفقت مع بدرخان كي يخرجه بعد تجربتها معه في فيلم نشيد الأمل الذي ظلّت أصداؤه حديث الشباب للآن.

حضرت الفرقة وتمت بروفة سريعة ثم أغلق عليهم الباب وبدأتْ محاولات الخلود للوصول إلى الكمال.

بدأ اللحن المرح ينساب، أحبت ذلك اللحن، إن أردتَ سماع أم كلثوم أسمعها حين تغني لزكريا هكذا قال النقاد قلّما غنت لرامي حديثًا لحنه زكريا فمتى يحدث ذلك؟

لم تنتظر أن يشير إليها زكريا كي تبدأ فقد حفظت اللحظة التي تبدأ فيها.

بكرة السفر.

بكرة السفر بكرة.

تتخيل هتافًا من حضورٍ طاقت للغناء إليهم. أبتسمتْ برقة وأمالت رأسها ضامة يديها.

يميل مهندس الصوت رأسه خلف الزجاج وهو في قمة سعادته بالفرصة التي يرى فيها أم كلثوم أمامه تغني ووحده من يستمع إليها ويحفظ لها خلود تلك المقطوعة.

بكرة السفر ويروق بالنا.

و أفرح لقربك و أتهنى.

وإن كنا نهجر أوطانا.

هنا غنت بكل فرحة وقوة حاول المهندس أن يحتملها مكبر الصوت وجدران الغرفة المغلقة وكأنها بالفعل بعد الختام ستسافر إلى حيث حبيبها المجهول.

الحب يبني لنا أوطان.

بكرة السفر بكرة.

وخيالها يصور الحضور وقد وقفوا صياحًا من جديد.

همس المهندس إلى زميله.

"لن تحتاج إلى الإعادة مرة أخرى لا يوجد أداء أكمل من ذلك"

ونسى المهندس أنه ما زال هناك مقطوعة أخرى من ألحان زكريا سُتقام لها بعد لحظات بروفة ثم مرات من التسجيل.

مريم ... ليلى

36

في يوم وأنا أنتظر ضـــوء كي نذهب إلى الحديقة أفاجأ به يعرفني على صـــديقٍ له وكان الصديق هو الغريب!

لم أرَ أبأس منه حتى أظنه فاقني بؤسًـــا، ولو كنتُ رأيت مجنوني الفقيد لربما فاقه هو الآخر!

"هذا أديب صديق لي. التحق العام الماضي بالحقوق ولكنه لظروف صحية أعاد السنة، هو معك في دفعتك"

مددتُ له يدي ولاحظت رعشة يده محاولًا إخفاءها. يارِبي حتى رعشة الأطراف ألمّت به!

"سررتُ بمعرفتك يا أديب. هل لك من أسمك نصيب؟"

أبتسم بحمرة الخجل وأنقبض قلبي، حين رأيتُ نظراته النادرة عن قرب رأيت فيهما شيئًا مبهمًا فاق الفناء، كأني رأيت سرًا عظيمًا يُحيل من يعلمه إلى مجذوب لم يحتمل السر.

.....

تعدد اللقاء بين ثلاثتنا لا نفترق لأن كل يوم دراســي يجب أن نلتقي ولو لدقائق ثم نعود أدراجنا. لم تبدر من ضوء بادرة دعوة أديب لمرافقتنا إلى الحديقة.

كان أديب مثقفًا، مرهف الحس ولكن كلما مرّت بنا الأيام أزداد أنقباضًـــا كلما رنوت إلى عينيه ذات النظرات.

صـرنا شـلة تضـن على البشـر مَلَكَة الإنضـمام إليها ولو للحديث فلا نحادث أحدًا خارج مثلثنا. أنهينا أمتحانات نصف العام وبدأنا حقبة العشرينات، أتى أديب بعد آخر امتحان وعرض عرضًا كان شاذًا لنا.

"فلنسافر"

"نسافر!"

قلناها أنا وضوء بتعجب.

"لما لا؟ هناك مدينة قرب شرم الشيخ، آية في الروعة خاصة في الشتاء"

قلت له محتجة.

"كيف يا أديب لفتاة أن تسافر وحدها رفقة شابين؟ أترضاها لأختك؟"

أسود وجهه ودمعت عيناه. نظرت إلى ضوء متسائلة بقلق مخافة أن أكون قد أسأت إليه.

"لي أختين، أحداهما رحمها الله"

أقشعر جسدي.

"أنا آسفة"

"لا بأس! سنمكث أنا وضوء في غرفة وأنت في غرفة لك وحدك"

"ماذا سيقول الناس؟"

"كيف للناس أن يعلموا؟ للناس مشاكلهم تشغلهم عن التقصي وراء أصدقاء أرادوا السفر"

هممت بالمعارضة ولكنه استرسل.

"فلنسافر، تلك فرصتنا الوحيدة فقريبًا يتخرج ضوء ويعمل ولن يتاح له بسهولة فرصة اللقاء، فلنصنع ذكرى قبل أن تمر بنا السنون أعواما"

"دعني أفكر وأسأل أمي"

.....

جلسنا وعين أمام المدفأة وقد قشّرت لي أمى برتقال.

"أمي"

"اجل ليلاي!"

قلت وأنا أتظاهر باللا مبالاة وأنا آكل قطعة برتقال.

"عرض عليّ بعض الأصدقاء السفر لأيام في مدينة في سيناء، لو أنت معترضة فلا بأس"

أبتسمت أمي.

"لا بأس يا ليلى فلتسافري"

وأُسقط في يدي فقد أعددت نفسي على رفضها، فأنا صاحبة الشأن رافضة وكنت فقط أُرضي ضميري.

"ألا تخافين عليّ من السفر؟"

"أبدًا"

"طريق السفر يأخذ ما لا يقل عن العشر ساعات!"

"ولو"

أُسقط في يدي من جديد، فطنَتْ أمى إلى ما في سريرتي.

"ليلى، أنت أبنتي وأعرفك أكثر من أي أم تعرف أبنتها، أعرفك أكثر من نفسك أشعر قبل أن تدركي ما تشعرين به. أنا أثق بك حتى لو ستسافرين بين العشرات من الفتية"

ضممتُ أمي وقد أراحتني كلماتها، أمسكت بيدها وقبلتها بإمتنان.

"ثقي أني لن يغيرني شيء كائن في تلك الدنيا إلا الموت"

"لا قدّر الله"

"ثقي أني لن أصير ولو حتم عليّ أن أصير إلا مريم العذراء"

.....

ليلة السفر صدح صوت أم كلثوم شاديًا في فرحة.

بكرة السفر ويروق بالنا.

و أفرح لقربك و أتهنى.

وإن كنا نهجر أوطانا.

الحب يدي لنا أوطان.

بكرة السفر بكرة.

بلى حبه وطني أينما حللت، أشـــعر وكأنى ذاهبة إلى الوطن الذي له أنتمي، حين تركت المنصورة كنتُ بلا وطن ولا أدري أني ذاهبة إليه وأصير حاملة لواءه بعد أعوام.

أكاد أرقص مع الكلمات وأنا أحضّر الحقيبة.

ياللي ملكت الروح بإيديك.

طال إنشغال الفِكر عليك.

أمتى عينيّ تناجي عينيك؟

لوحدنا والدنيا أمان.

بكرة السفر بكرة.

وطنك يا ضوء ملجأي، لا حرب فيه ولا فساد في حاكميه؛ فالحب سلطانه والهيام رئيسه والوفاء مَلِكُه.

تقف أمي على عتبة غرفتي تتأملني بفرحة يشوبها أسًى ثم بكت في صمت، تركت ما بيدي وهرعت إليها أضمها وعين تتمسح في قدميّ أمي.

"ما بالك يا أمي؟ أُلغي السفر إن خاف قلبك"

ترددت ثم قالت.

"أول مرة تغيبين عني منذ كنت في السجن"
"هو أسبوع واحد وسأعود، أصدقيني القول أهذا كل ما هنالك؟"
"أجل لا تشغلي بالك يجب أن أعتاد غيابك فغدًا تتزوجين ويخلو البيت"
أبتسمت في خفر وأنا أتخيل ضوءًا وهو يرفع طرحتي في بيتنا، في وطنه.
أفقت على صوتها.
"تمتعي ولا تقلقي قلبك"
قبّلتها وتابعت حزم حقيبتي، تابعتْ أم كلثوم غير آبهة بحزن أمي.
وأسقي هواك من كاس حبي.
وأسمّعك ألحان قلبي.
وأشوف حبيب الروح جمبي.
والقلب متهني وفرحان.
بكرة السفر بكرة.
.....
أنهيت مع أم كلثوم ونامت أمي كي تستطيع إيقاظي فجرا. ودق الباب!
منذا يأتينا الآن؟ لم نطلب شيئًا! بل نحن لا نعرف أحدًا!
فتحتُ الباب وشكرت لله أني أنا من فتحت الباب. تسمرتْ للحظات.
"أديب!"
أسقط رأسه في خزي وقلق عظام، بلا وعي أخذت مفاتيح الباب وجذبته وخرجت. أغلقت الباب ورائي ونزلت السلالم ووقفنا في الشارع وصحت فيه.
"أمجنون أنت؟ ماذا تقول أمي إن رأتك؟"
نظر إليّ بدهشة فأنتبهت؛ فشمس شعري يغمر وجهه ويبهر عينيه، تحسستُ شعري وكبلهاء حاولتُ إخفائه بيدي.
"هل صبغتِ شعرك؟"
صحتُ فيه وقد زادَ أرتباكي من حدة صوتي.
"دعنا من شعري الآن، كيف عرفتَ طريق بيتي؟"
تمتم في ندم.
"تبعتك، آسف والله كان الأمر خارجًا عن أرادتي"

هدأتُ حين رأيتُ الدموع في عينيه.
"حسنٌ بيتي وعرفته لن نستطيع لذلك تغييرًا. ماذا جاء بك؟"
"أردت رؤيتك"
أنقبض قلبي بشـــدة لحظتها حتى خلتني قاربت الموت وكأني عدوتُ إليه عدوا. نظرات عينيه.
"أما رأيتني اليوم؟ وألن نلتقي غدا؟"
"أردت رؤيتك على انفراد"
ضاقت انفاسى.
"لما؟"
دعوت الله أن يأخذني قبل أن أسمع رده.
"مريم، أحبك بكل جوارحي. أحجمت عن أخبارك. أجرمت بل آثمت بمجيئي ولكن ما للعاشق إرادة. أحببتك منذ أول يوم رأتك عيناي. أحبك يا ليلى. أحب."
قاطعته صارخة.
"كيف عرفت أسمي!"
قال في ارتباك جلل.
"أنت معي في الدفعة فليس من الصعب معرفة أسمك"
قاطعته.
"لا تنادني به ثانية، أسمي مريم لا كنية لي سواه"
"لم أقصد اغضابك.. أحبك يا مريم"
أسكته.
"كفى بالله عليك لا تكمل"
أمسكت برأسي ودقات الصداع تعلو بصدى في عقلي.
"إذن كانت صداقتك مع ضوء سبيلًا إلى لحديث معي"
"أبدا والله"
"كيف لي أن أصدقك؟"
"غيث أبن عمتي"
"من غيث؟"

أرتبك وقد فطن إلى زلة لسانه.
"أقصد ضوء"
تأملت أسمه.
"أسمه غيث؟"
كم جميل أسمه!
"قلت أبن عمتك؟ أصدقني القول"
"والله أقول الصدق"
"لا أدري ما أقول. ما أبأسك وما أبأسني! لكوني سببًا في بأسك. غفرانك اللهم"
بدأت أنشج في هدوء.
"يا ربي إلى متى سأغوي الناس الطيبين؟ لا تهلك يا أديب فمثلك يجب أن تعمر الدنيا بهم.
أقسم لي أنك لن تهلك"
سقطت مني دموع الإثم. وأقسم لي في عدم فهم.
"أقسم لك، وحبك الكامن في قلبي!"
"فضلًا أقسم بالله"
وأقسم.
"أديب أنت إنسان نادر ورائع. واءسفاه فمثلك يا أديب كُتب عليه الشقاء من أمثالي.
اغفر لي ولكنك أخي وصديقي لا غير"
خاب أمله، الأخير فيما يبدو.
"لما؟"
"القلب مسكون، مؤمنة أنا بدين نبي فلا استطيع الكفر به كي أؤمن بدين جديد، حتم على الخليقة أختلاف الأديان ووحده الله يعلم أي ديانة هي الحق، كل إنسان يصدق في دينه الخلاص ويرى الضلال في الأديان الأخرى، ربما يكون دينك الخلاص وربما كان دينه.
لا الكل نعم بنعيم الآخرة ولا الكل أُحرق في سعير النار"
"من هو؟"
"لا يهم، من الابتذال ذكر شخصه. أغفر لي رجاءًا"
رأيت الفناء طاغٍ في عينيه حتى غزاني الخوف. قال لي بعد صمت مرير.
"فقط أنسي كل شيء، أني جئت من الأساس فقد تذكري أني صديقك. فقط لي رجاء"

"أخبرني به"

"أن تكرميني بنعيم رؤياك وبشهد سماع أسمي من فمك، بكوني في الحيز الذي له تنتمين. أن."

صحتُ فيه صارخة.

"كفى أرجوك أن تكف"

أسود وجهه.

"إذن حتم عليّ الهلاك"

همّ بالرحيل ولكن أمسكت بيده استوقفه.

"لا. ليس هذا قصدي، ستظل أخي. فقط."

"فقط ماذا؟"

قلت في ألم.

"كان هناك شخص قال عين كلامك، قتل نفسه يأسًا مني، أرجوك يا أديب لا تهلك. فأنا حقا لا استحق"

"بل أنت أحق بالدنيا من جميع الخلق، لن اهلكَ إن بقيتِ، أرجوك لا ترحلي"

دون تفكير في عواقب ما سأقول شددت على يده.

"وعد عليّ حق لن أرحل. سأظل لك صديقة وأختًا تحبك بحق"

"رجاء أخير"

"قطعًا"

"دعيني أقبل يدك"

تركتها له وقد رفعها إلى شفتيه وقبّلها بعبادة ودموعه تسقط من عينيه المغلقتين على صفحتها.

ورحل ودعوت الله ألا تكون آخر مرة، لم أذق طعمًا للنوم أو الراحة إلاّ حين رأيته في الصباح. ونمت الطريق كله.

القاهرة

يناير 2020

الساعة 6:30 صباحا

التقى ثلاثتهم فجرًا وأرتاحت ليلى أو مريم حين وجدت أن أديب ما زال حيًا ولم تكترث لدهشته حين رآى شعرها الأسود.

سرت بهم الحافلة ولم تمضِ دقائق حتى غفت ليلى ولم يرغبا في إيقاظها.

كان أديب واجمًا وحين استرق ليث أو ضوء النظر إلى وجهه خشى أن تنقلب بهم الحافلة بسبب الفناء المرافق لأديب وأعتراه ندم خفي. كم يحب أديب! وكم هو ممتن لوجوده! لم يعلم إلى الآن أين كان أمس ولم يشأ أن يسأله.

"أديب"

"نعم"

كم هو بائس! وجاءته من جديد وساوس الإنقلاب.

"أشكرك"

"على ماذا؟"

تساءل في عجب.

"على كل شيء. وجدت فيك اخًا قلّما أجد مثله، هل تعلم لم يكن لي ولا صديق طيلة حياتي"

لان عبوس وجهه قليلًا

"أنا الذي يجب أن أشكرك. وجدت فيكم الأهل بعد ما مات الأهل ولولاكم لظللت في شقتي وحيدًا حتى أعلق حبلًا وأربطه حول عنقي. كل ليلة أقرر أن أعود إلى بيتي القديم"

"لما؟"

"مخافة أن أحيق بكم ما أحقت بمن رحلوا"

أعترى ليث خزي كأن أديب قرأ أفكاره وفى آن الوقت خاف على أديب؛ فمثله في ندرته لا يقوى على إكمال الحياة.

"أديب دعك من هذا الحديث. الآن نحن نسافر كي نصنع ذكرى أبد العمر"

"يا غيث"

أخلف أديب وعده ألا يناديه إلا بضوء خارج المنزل إدعاءًا من ليث أنه لا يحب أسمه ولا يدري أن أديب أفسد عهدهما وأعلم ليلى في الليلة السابقة عن أسمه.

أكمل أديب.

"حُتم على ابن آدم البلاء منذ ابتلى بالخروج من نعيم الجنة، كَتَبَ علينا أبونا آدم الشقاء بعصيانه، بطموحه إلى ما لا حق له وإلى اليوم يتكرر العصيان ولا نعتبر"

صمتا قليلا ووجد ليث إلحاحًا رهيبًا من الفضول فلم يحجم أن يسأله.

"خبرني يا أديب"

"عن ماذا؟"

"ما بال يديك؟"

في البدء أحجم عن الإجابة ثم تردد وندهت عنه تنهيدة حارة. في حركة درامية مؤثرة رفع يده الثائرة ورنا إليها بضياع.

"مضى على تلك الرعشة عمرٌ بأكمله لا يعلم بأمرها إلا من سبقونا إلى الموت وظننتُ السر دفن معهم ولكن لا يخفى عليك سر يا غيث"

صمتَ قليلا وبسبب طبع فيه منذ الصغر بدأ بلا وعي يتقمس دور تراجيديا العمر على مسرح الحياة وبدأ في إلقاء المونولوج.

"الخذلان يا صديقي، الخذلان يهلك، يدمر، يُفني. فهل جاءت على رعشة اليدين ألا تكون ضمن مهامه؟ كما أعتبرتني اخًا لك أعتبرك بالمثل. قلتَ لم يكن لك أصحاب، أنا كان لي وليت لم يكن"

ومضى أديب في الحكي بأداء يكاد ليث يصفق له بينما ليلى نائمة لا توقظها رجرجة الحافلة ولا إلقاء أديب.

أديب

37

ماذا أخبرك يا صـديقي؟ ما أعتدت شـكوًا ولا نَوْحا، أعتزلت مسـرح الحياة منذ حلمٍ راح، حلم ذاك الغلام الـذي يبـدع في أدائـه الأليم ويسـتجلـب دموع النـاس لحظتهـا فقط، وسـرعان ما تجف العيون وتصـفق الأيدي ويتسـاءل جمهور الحياة أي بطل هو، أنحني وأعود إلى الأداء المسرحي القادم والذي يليه حتى المشهد الأخير لكل أبطال الحياة.

حلقة مفرغة لن تنتهي فكسـرتُها، حينما كنت أشـكو لأمي وأبكي لها، عندما أنتهي من ترنو إليّ بإعجاب وتهمّ بالتصـفيق الحار. طالما عشـقتُ التمثيل والغناء، أتمتع بصـوت لا بأس به ورثته من عائلة أمي التى لم يبق فيها إلاها، يمكنني دندنة أي أغنية.

طالما خليتُ بنفسـي فقط لأكتب أغانٍ لأم كلثوم وعبد الوهاب وأسـمهان. ثم أحفظها وأغنيها بصـوت خافت خشـية أن يسـمعني أحدهم، كنت أخجل عندما أُمسـك متلبسًـا بالغناء.

كم رنَت إليّ أمي للحظات أرى بطرف عيني دموعًا تأبى النزول أمامي فكانت تدري أن أكثر ألم لدى طفل أن تبكي أمه أمامه، مهما رأيتَ بكاء الناس وحده بكاء الأم يشق قلب طفلها. تضع قبلة دافئة من القلب على رأسي وتظل تمسح على شعري وهي تضمني.

"يا أمي كبرتُ على هذا"

"أسكت يا ولد. ما أحوجك إلى هذا الحضن كما أحوجني إليه"

ثم ترفع وجهي بأصابعها وتقول.

"أحبك أتدري ذلك؟"

وأبتسم وأضمها بدوري.

"أنتِ أغلى الناس يا أمي"

أصحو الليل وأمي تمشـي بهدوء وتجلس بجانبي وأنا أدّعي النوم كي أهنأ بهمسـات دعائها وقراءة القرأن عليّ حفظًا لسلامتي ويالياتها قرأتها حفظًا لسلامتهم هم.

"ما أبأسـك! كيف سـتواجه الكون؟ ما البشـر براحمي القلوب فلا يملكون قلبا كقلبك ولا روحًا كروحك"

أتعجب وأســألها لما لا تحنو على أخوتي كما تفعل معي؟ ولا تدري هي لذلك جوابًا. علّها فطنت أنهم رفقاء أبديتها.

"لا أدري كيف خُلقت هكذا وأبوك ذو طبع صعب؟"

بالفعل كان أبي ذا طبع عصبي يعميه حينما يغضب ولكن لم يحب أحدا مثلما أحبني بل ربما أنا الوحيد الذي أحبَه في حياته، كان واضحًا كرهه وعمي لعمتي، لم يقل يومًا لما. ربما لأنها وحدها من تمتعتْ برعاية جديّ.

.....

أدركتُ أني في تلك الحياة قد متّ منذ أمد بعيد وما تلك الحوادث إلا مراسم دفن لا تليق بي؛ ما أهون الحياة حين تموت النفس! تضج الدنيا أمامه وتصبح الآخرة داره الحق، ويحي لو كان الجحيم مأواي بعد جحيم الدنيا!

كارثتي أني مخلص في الأداء؛ حينما أحب أحب بصدق وحينما أكره أكره من كل بغضٍ خزنته منذ بدأت أفهم معنى الشعور.

أؤدي دوري ببراعة. كم أحببت! وكأي أبن آدم لا أتعظ؛ صار ذلك شيمة أورثها آدم لبنيه فلا أتعظ قابيل بنكبة أبيه فقتل أخاه ولا أعتبر من خلفهم.

لم أُحبب من أحد؛ نجا من تجنب معاشرتي وهلك من رضا بمقاسمتي الأداء على مسرح الحياة.

في كل مرة أقسم أني لن أصدّق في البشر فما طبعهم إلا الغدر، كل مرة أحنث بقسمي لألقى جزاء حنث القسم. طالما خفتُ من حنث القسم فأسرفت فيه، كلما أزداد خوفي كلما أزددت ولعًا في الحنث. أقسم كي أكف عمن عانيتُ منهم وعانوا مني وهلكوا تباعًا.

.....

بعد هذا المونولوج دعنا ندخل في صوب الرواية، حين بدأتُ أعي معنى الكون؛ طفلٌ أخذه الفضول إلى الأصل، بدأت أتعلق بأمي والحرية الممتدة إلى الأفق البعيد.

دخلتُ المدرسة فجأة، دخلت سجنها وحتم عليّ أرتداء زي السجن وترك أمي.

وجدت نفسي خلف أسوار ذات قضبان وسط أغراب وبكيت فراق أمي، ظللت أبكي ولم تفلح محاولات المعلمات في تهدئتي حتى جاء طفل يهوّن عليّ وجاء آخر وآخر. ولعبنا يومها وبكيتُ حين حان أوان العودة.

منذ أول يوم ونحن لا نفترق إلا للنوم، كنا شلة ولم نعِ بعد معنى الشلل والصداقة، نشأنا معا على الحب والمبادئ التي لقنونا إياها في المدرسة وفي بيت كل منا. كنا لا نفترق وكان القدر يبتسم لنا حين يضمنا إلى عين الفصل كل عام.

كنا خالي النفوس، طاهري الروح. وأنهت المرحلة الإبتدائية بمسراتها وجاء دور الإعدادية لتصير فصلًا آخر من الرواية.

فوجئت أن وجدت نفسي في فصل آخر، حاولنا أن أحول إليهم ولكن كانت الإدارة صارمة فلا مجال للتحويل. كنا نلتقي في الفسحة نتسامر ونأسف لأزف الفسحة.

ثم بدأ طور المراهقة في إضافة فصل مشترك في زمن الفصول، ناهز واحد منا الحلم وكان فخورًا منفوش الصدر كالديك ثم لحق به آخر حتى ناهزوا كلهم الحلم. ما عاداي، ظللت طفلًا كما يقولون ساخرين، كنت آخرهم.

من هنا بدأتْ أدوارهم في أخذ منحنًى آخر؛ بدأتْ أرواحهم تفسد من قذارة المراهقة ومن عفن الشهوة والبيئة. صاروا يضحكون كيف أني لم أبلغ ولم أجرب متعة الإحتلام، لست رجلًا مثلهم.

أخبرتهم أن مزاحهم مؤلم ولكن كانوا يزيدون فيه، وناهزت الحلم في الرابعة عشرة، كانت فرحتي طاغية لا لأني صرت رجلًا ولكن لأني صرت مثلهم بالغًا، يومها جريت إليهم وأخبرتهم فرحًا ببلوغي و لكنهم هزوا أكتافهم وقال أحدهم ببرود.

"حسنٌ لم تأتِ بشيء جديد"

كل فتى يولد طاهرًا ولكن حين يبلغ تتعكر روحه شيئًا فشيئًا من قذارة المراهقة والرغبة في أكتشاف الجنس الآخر وأهم عامل؛ تأثرًا بالبيئة حوله.

ظللتُ كما أنا، طاهرًا ونقيًا. كان ذلك جليًا لهم فصاروا يتجنبونني. كم حاولت مجاراتهم! صاروا يتضاحكون أني أحجم عن أمتاع النفس وكم غبي أنا أن مثل تلك المتعة موجودة ولا أنعم بها.

ليلتها مارستها وأعتراني ندم عميق، تمتزج دموعي مع الماء الهاطل لإغتسالي، صليتُ إلى أن نشر الفجر ضياءه ولم أعد لها مرة أخرى. أدعيتُ أني أمارسها كلما سنحت الفرصة فقط لأجاريهم ولكن لم تقف شهواتهم عند العادة والأفلام.

بدأ كل منهم يحكي كيف أوقع فلانة ويحكي ذاك عن لذة أول قبلة أختلسها في دروة عن البشر.

وقلت له

"ألم تحط بأن الله معكم مطلع، فكيف تخشى عيون الناس ولا تخشى عين الله؟"

سأموا يومها من حديث الدين وأنصرفوا عني.

أسودت الدنيا حين علمتُ أن أحدهم أختلى بحبيبته وداعبا بعضهما إلى الذروة، ظللت لأيام أستغفر له. كم نصحته وكم تحدثت معه. علمتُ بعد حين أنه كررها مرارًا وفي مرة وشريكته في أوج شبقها تركته يفض بكارتها بعين قريرة ثم لم يلبثا أن انفصلا بعد شجار تافه. ومصير الفتاة ألم تفكر فيما جنيته في شرفها؟

قال أن أقرب صيدلية ستفي بالغرض لزواج سعيد.

وسار البقية سيره، صاحبوا رفقة السوء فأنخرطوا في التدخين والحشيش ولو استطاعوا أن يتعاطوا المخدرات دون إدمان لأقبلوا عليها. عزفوا عن الصلاة ولا يبعد أن يكونوا قد عزفوا عن الصوم كذلك.

صاروا أشخاصًا لا أعرفهم، من أعرفهم ماتوا وبات محلهم اناس منكرون. لكن لم استطع أن أهجرهم فهم عشرة عمرٍ بأكمله. كيف اسلاهم؟

تغاضيت عن سفاقتهم ووقاحتهم وشتائمهم القذرة.

ذات يوم جاء الحدث الذي يقلب أحداث الرواية ويصل الصراع إلى ذروته، حين تلتهب الأحداث فيمسك الحضور أنفاسهم إثارة.

دعانى أحدهم لقضاء اليوم في بيته وقد سافر الأهل.

بالطبع غبيًا ذهبت. بدأوا في تدخين الحشيش وأنا أزكم أنفاسي كي لا أشم رائحته كطين ترب والدوار يصيبني.

ثم فجأة بدأوا يتغامزون ولم أفهم ما وراءهم. مدّ لي أحدهم بلفافته.

"أخبرتكم مرارًا اني لن أذوق هذا الشيء"

"صدقني خير لك أن تقبل"

"إن كانت النجاة في تلك اللفافة فأنا راضٍ بالهلاك"

هز كتفيه ونظر إلى البقية نظرة ذات معنى.

"حسن لقد نصحتك"

مرّت دقائق ثم قفز أحدهم مترنحًا.

"أعددنا لك مفاجأة"

تهللتْ أســاريري رغمًا عني. قفزوا جميعًا وقادوني إلى غرفة ثم فجأة دفعني أحدهم وأغلق الباب ورائي.
صــاروا يضـحكون، ظننت أنهم أحضــروا فتاة كي أقضــي معها وقتًا لطيفا لأتخلص من عذريتي.
صرت أصيح فيهم كي يفتحوا الباب ولكنهم ذهبوا وخفتت أصواتهم. لم أنتبه في البدء إلى الأنفاس الحارقة تلفح عنقي من الخلف، أنتبهت على يد تتحســسـني ولم أكن قد التفت. التفت ناهرًا إياها ولكن ضاع صوتي وقد أقشعر بدني تقززًا ورعبًا. كان هنا طيلة الوقت؟ لم أجد أية فتاة. وجدت شهاب.
كان شهاب معروفًا في المدرسة جمعاء بشذوذه الجنسي الصريح وثبت أنه أقام مع العديد من الشبان علاقات. وجدته خلفي وعلى وجهه أبتسامة ظفر.
إلى الآن لا أدرى أكان مقلبًا أم أنهم وعدوه بغنيمة جديدة تنكيلًا بي؟
صرتُ أصرخ وأدق الباب بجنون ولم أسمع إلا ضحكات بعيدة.
صاح أحدهم بعربدة.
"نرى أن الفتيات محرمة عليك فرأينا أن ندعو شهاب فأكيد هواك مع الفتية"
لم أصدق ما سمعت، كان شامتًا برعبي يذلني بسخرية! هل انا في كابوس؟
أحاطني شهاب ذاك وهم أن يبدأ ولكن بقوة لم أدرِ أني أملكها دفعته فوقع ارضًا.
قال بفحيح أفعى.
"لا تخف لن أقسو عليك، دعك من المقاومة وأنسى ربك قليلا"
المقاومة عبث فجسده ممشوق من الرياضة لن أقوى على إيلامه حتى!
تلفت حولي فوقع بصري على إناء وتساءلت رغم مأزقي لما هي في غرفة مراهق؟
أمسكتها غير عابئ بإقترابه وبرعشة مجنونة كسرتها على الحائط وأنبعثت شظاياها على الأرض وصارت معظمها كيانًا فريدًا مع يدي والدم المنبعث فيه. لا أدري لما ألتفت إلى قطع الحشــيش وبعض من الواقي الذكري وقد شــاركَتْ شــظايا الفازة الرقود لتشــاهد مع الجمهور مشهد العراك الفاصل.
بدأ الألم في نشر نفوذه في يدي. لست في كابوس.
"لا تقترب فوالله لن أحجم عن طعنك إن أقتربت"
ضحك بثقة من يملك جسدًا لن يخترق حتى ولو بساطور.

"دعك من تلك اللعبة. أنت جبان. ألا تخشى الله؟"
معلومة إثرائية؛ إن شـــرع أحدهم في قتلك وكنت واثقًا أنه لن يكمل ذاك الشـــروع فلا تنعته بالجبان.
جرى كل شيء في لحظات. أقترب وبيد مرتعشة بجنون طعنته دون تردد.
صـرخ في ألم ووقع أرضًـا غير مصـدق أن جسـده الصـلب تم أختراقه وأن الجبان قد نفذ تهديده.
صار يتألم من الطعنة وأنبعثت من بطنه الدماء متبرأة من صاحبها. بصقتُ عليه وتمنيتُ لو يموت ألف مرة. هممتُ أن أطعنه من جديد ولكن أمسكني أحدهم وحاشوني عنه.
لحظات لم تسعفهم أن يلحقوا الكارثة.
صاروا يصرخون ويبكون.
"يا مجنون ماذا فعلت؟ لقد قتلته!"
ظلوا لربع ساعة يشتمونني وطفقوا يدعون عليّ.
"يارب هلكنا!"
الآن تذكروا أن لهم رب!
صرخ أحدهم فيهم.
"فلتأتوا بالإسعاف قبل أن يموت ونشنق وراءه!"
وبالتأكيد حرصوا أن يتخلصوا من الحشيش والواقي معه.
.....
جاءت الإسعاف وأنقضنا إلى قسم الشرطة وأتصلوا بأهالينا ليروا خيبة أبنائهم. أكاد وأنا ملقًى في الحجز أسمع الآباء يقذفون أهلي بالشتائم وأني تربية شوارع وأن مثلي يساق مع البلطجية لا برفقة أولاد الناس. تســاءلتُ هل ســيبقون على رأيهم حين يرون أحمرار أعينهم؟ ربما عزوا ذلك لكثرة البكاء المرير!
مضى عمرٌ وأنا في الحجز وصراخ الأهالي يصدح في القسم بينما أصداء صراخي تصم أذنيّ حتى لم أعد أشــعر بيدي التي بالتأكيد ســتبتر إن بقيت هكذا. أفقتُ على يد تحنو عليّ وأنتفضت بذعر وقد صارت أي يد تمسني كالشوك يغرز في جلدي.
وجدت وجهًا مليئا بالندوب يرنو إلي بشـفقة. تسـاءلتُ هل رأى في شـبح الماضـي؟ هل أنا أمام مرآة تصور لي حالي لاحقًا؟

آثار الدم متجلطة على ثيابي ويدي والجرح غائر تركض منه الدماء تريد الفرار من مصيرها. لم يهتم أحد أن يغطي الجرح، أرتجفُ وكأني بين أناس من ثلج رغم النار المشتعلة في عيونهم.

صرخ أحدهم في صاحب الندوب.

"دعك منه فإنه مجرد فتى حلت له تأدية دور رابعة الخضراء. ما هو إلا قاتل"

أسمع عن الجحود ولكن أن أشهده ومن أعز الناس!

دُعيت للمثول أمام ظابط ذا رتبة لم أهتم بمعرفتها، دخلتُ -بمعجزة بعد أن حاشوا الأهالي عن الفتك بي- مكتب ذي الرتبة وجرَتْ أمي تضمني باكية، أنتفض بشدة من شوك ضمها فتزداد بكاءًا بينما على أبي سيماء القهر والذل.

"بني أأنت بخير؟ هل فعل بك أحدهم شيئًا؟ ما أعمق جرحك!"

ثم صرخَتْ.

"كيف تتركونه وجرحه غائر هكذا؟"

لم أكن أشعر بألم، فقط ما شعرت به تلك الرعشة الثائرة الممسكة بيدي كدبيب النمل تجري في عروقها.

قال ذو الرتبة بزهق.

"نبدأ التحقيق ثم نرى أمر الجرح"

همّت أمي بالصراخ من جديد ولكن نظرة من أبي ألجمتها، كان واجمًا في وقت نحن أحوج فيه إلى الغضب وبعض السياسة. بدأ التحقيق وقد حضر المحامي.

"س: أسمك؟"

"أديب أشرف عبد المطلب العوضي"

"س: عمرك؟"

"15"

"أكتب عندك. س: لما شرعتَ في قتل صديقك؟"

أجبت في إعياء وقد نزفتُ الكثير من الدم.

"ليس صديقي، حاول الإعتداء عليّ"

"كيف حاول؟ وما الدافع؟"

اجبت كفتاة وقعتْ ضحية للإغتصاب.

"أنه شاذ جنسيا. حاول معي."
ولم استطع الإكمال، شهقتْ امي بعنف وهنا فقط استشاط أبي غضبا ربما لأن من تعرض لمحاولة أغتصاب أبن له لا أبنة! غضب كما لم أره من قبل حتى أني خفت أن تقع جريمة أخرى.
"أين أهل ذلك ال... (لا داعي لذكر تلك السبة) كي أريهم كيف يدعون ذلك ال.. (ولا داعي أيضًا لذكرها) يمرح في الشوارع وهو سعران قذر"
"أهدأ يا أستاذ دعنا نكمل التحقيق. س: وأين كان أصدقاؤك؟"
أجبت بحسن نية.
"حبسوني في الغرفة معه لمقلب ظنوا أنه مضحك ولكن كان ذلك الشاذ جادًا في رغباته، حين أوصدوا الباب خلفي لم اجد بدًا من تهديده ولكن لم يحجم فطعنته دفاعًا عن نفسي"
"أكتب عندك. ألا تجد أن كلامك غريب بعض الشيء؟ لما يحبسك أصدقاؤك إذا كانوا يعلمون أنه شاذ حتى لو كان مقلبا؟"
قال المحامي.
"عذرًا يا حضرة ال -لم أهتم بمعرفة رتبته- ما يقول موكلي إلا الصدق"
نادى على الشاويش.
"أحضر فلانًا وضع المتهم في الحجز"
صرختْ أمي.
"لن يوضع أبني في الحجز مع المجرمين . بالله عليكَ ارأف بأم ترى أبنها يضيع"
قال ذو الرتبة بقرف.
"للأسف يا مدام لدينا مناورة تفتيش فلن نقدر على إيوائه في غرفة لوحده و"
ثم رن جرس الهاتف وأجاب ذو الرتبة وأجتاح وجهه أحترام هائل ورغبة صادقة في أداء واجبه على أكمل وجه.
"طبعًا يا فندم! أحضر فلانًا إلى هنا فورًا وضع المتهم في الحجز"
ونسى أمر الجرح.
.....

التقت نظراتي مع فلان ذاك، كان أقربهم إليّ. نظر إليّ في وعيد صـــادق وبغض مخلص. تذكرت أنه يملك قريبًا لواءًا أظن. أنقبض قلبي وأعترتني الوساوس، صوت همساتها يضج في أذني، كل همسة تؤكد أني ضعت ووحدي من سيهلك.

اسـتدعى ذو الرتبة كلًّا على حدى بينما أنا ملقًى في الحجز وذو الواسـطة في غرفة لوحده كي لا يظل مع المجرمين في الحجز. أنقضت الثواني قرونًا والدقائق دهورًا.

اســتدعاني مجهول الرتبة من جديد وتركني مع المحامي وأبوي. تبكي أمي بجنون وأبي يتمالك دموعه. قال المحامى.

"أديب يا بني هل الصدق ما تقول أم أنك تحاول أن تخفف التهمة عنك؟"

صحتُ وقد زادَ دبيب النمل في يدي من حدة صوتي.

"والله أقول الصدق. منذ متى صار القتل عندي حلًا؟"

"أديب لقد ادلى كلٌ بشهادته بالإجماع أنك تشاجرت مع شهاب وأعماك الغضب وكسرت الإناء وطعنته وقد حاولوا إزاحتك عنه ولكنك كنت في حالة جنون ودليلهم قوي. آثار دمائه ودمائك على يدك وملابسهم، لقد قالوا أنهم حاشوك حتى لا تطعنه ثانية"

تمتمتْ بذهول.

"أشهدوا بذلك؟"

"للأسف يا أديب لقد شهدوا كلهم بذلك"

وهنا أجتاحتني الشكوك. أحقا تشاجرتُ معه وطعنته؟ هل أنا مجنون؟ من العاقل إذن؟ أختلط عليّ الواقع بالقيل والحق بالخيال.

.....

لم يصدق ذو الرتبة المجهولة ايًا مما قلت وقطعًا صدّق اللواء وقريبه. حين أفاق شهاب كان أول ما قاله أني طعنته بعد شجار.

كيف أجتمع معهم على كذبة واحدة؟ يبدو أني طعنته دون حق!

ظلّت يدي ترتعش ونحن في النيابة ثم ونحن في أنتظار حكم القضاء.

حين خُذِلت صمتُّ. حين طُعِنت صمتُّ. وحين مثلتُ للحكم صمتُّ. مضت أسابيع وأنا صامت.

"ألدَيْكَ ما تقوله يا أديب؟"

أفقتُ ووجدتني في المحكمة خلف القضبان. كدت أهمّ بالسؤال عما أفعله هنا ثم سرعان ما تذكرت وتمسكت بالصمت. ولكن أكمل القاضي مصرًّا على خيبتي.

"شهد الجميع ضدك وقد أقسموا الا يقولوا إلا الحق"

لكنهم لا يعرفون الله فبالتأكيد لن يجدوا بأسًا في القسم به كذبًا. وزاد اصرار القاضي.

"أديب ألن تقول شيئًا قبل الحكم؟"

تفوهتُ لأول مرة منذ دهر.

"بِت في الأمر كما يحلو لك. منذ متى كانت كلمة خلف القضبان ذات أثر على حكمكم المقرر مسبقًا"

وعدتُ إلى الصمت وذهب القضاة للمداولة وبقيتُ واقفًا أمسك بقضبان الحديد وأنا أتسلى بعدّ كل قضيب. عاد القضاة.

"حكمتْ المحكمة حضوريًا على اديب أشرف عبد المطلب العوضي با....."

ولم أعر لباقي الحكم أُذنًا. فقط ما اثار أنتباهي هو أن يدي ما تزال ترتعش!

ثم سددت أذني لما سمعت صراخ أمي المثكول.

أديب

38

أنقدت إلى الإصلاحية. حين دلفَتْ بي سيارة حمل المساجين دخلتُ عالمًا آخر غير عالمنا وغير عوالم السجون المعترف به. كان للإصلاحية طعم آخر؛ أجواء صفراء مقتمة وكأن ستارًا أصفر أُسدل على جفوني، في السجون تشعر بطبيعة الحال بالألفة وأنك ضمن تيّار يمشي في اتجاهه الطبيعي ولكن هنا في الإصلاحية تجد كل شيء شاذ، تجد أن التيار قد تمرد وغيّر من اتجاهه إلى اتجاهات عشوائية. هنا تجد أطفالًا مجرمين، قتلة، ذوي ندوب بشعة. مغتصبي أطفال آخرين إن بلغوا. وأنتَ؟ لم تنشأ ذو طباع إجرامية فماذا تفعل وسط ذاك الحيز من جنون الطبيعة؟

أدركت أني أعبر أبواب الجحيم فإذا انقاد طفل هنا أعلم أنه مادة خام للشر الخالص. قادني العسكري إلى العنبر الذي سأمكث فيه لأعوام لم أدرِ عددها. أغلق خلفي الباب حتى حلّ صمت كالصمت قبل أو بعد جريمة بشعة. أردت أن أدق بكل قوة تمتلكها يدي المرتعشة وأصرخ أن أخرجوني من هنا.

ظللتُ كالصنم ورنَت إليّ باقي الأصنام تتساءل من الذي صنع هذا الصنم وأحضره ليشاركهم القرابين؟

بدأت الضحكات العربيدة ولا خمر هنا أو مخدر إن كنت صائبًا. تقدم فجأة عملاق ضخم مشوه قرر فرد سلطته عليّ ويعلمني من السيد هنا.

دعنا من الديباجة المعتادة عن استقبال السجناء الجدد فقط سأقول أني كنت أبكي بصمت أغاظه فأخرج -لا أدري كيف؟- شفرة من فمه ووضع حدّها على رقبتي. ظللنا لدقائق على هذا الوضع شعرتُ أن الزمن توقف رغبة في ترك كل أشغاله ليشاهد هذا المشهد المثير بينما صاحب الشفرة قد أشعل سيجارة ودخن في تلذذ. ثم قال ختامًا لذلك المشهد.

"لا تغضبني إذن إذا رغبتَ ألا تعبر الشفرة على رقبتك طريقها"

ولم اجد سريرًا إلا بجوار ستارة أدركت أنها ساتر لقضاء الحاجة من رائحتها التي كدت اتقيأ من شمها. أرتبكَت معدتي وشعرتُ برغبة قاتلة إلى قضاء حاجتي، حاولتُ فتح الستارة ولكن لمحة قصيرة لذلك المنظر جعلتني أرجع الستارة في هدوء مع دمعة.

ثم سمعت صياحًا أن استرجل هل أنت فتاة لا تستطيع قضاء حاجتك أمام الرجال؟ - قالها طفل صغير-

هذه المرة خبطت بيدى المرتعشة على الباب بجنون وفتح لي العسكري وهو يسأني عما أريد، أجبته. همّ أن يصفق الباب في وجهي ولكن استجديته بذل وسرعان ما جرني إلى الحمام. ولم أقضِ حاجتي ليومين فبالطبع ستدرك هول حمامات الإصلاحية، لم آكل إلا خبزًا جافا وشربت كوب ماء عكر فقط كي لا يوجد هناك ما أقضي حاجته، وفي يوم لم يعد أمامي إلا حلين إما أن اقضي حاجتي في الحمام أو تفلت من يدى الأمور أمام السجناء.

لم أعِ للآن كيف فعلتها وكم مرة فعلتها بعدها، كانت ذاكرتي تتلاشى قبل وبعد الذهاب إلى الحمام فلا أذكر قرف الأمر وبشاعته.

جاء موعد الزيارة. ضمتني أمي بشدة رغم رائحتي البشعة. تسألني إن كنت بخير وماذا فعل بي السجناء -كان من المسلم أن يُفعل بي شيء لذلك سألت ماذا فعل لا إن فعل- كان أبي صامتًا يرنو إلي بإنكسار لم أره فيه من قبل.

صارت تهوّن عليّ وتقول انه عمّا قريب سيقدمون دعوى استئناف ولم أجب. وحان وقت الإنصراف لا أدري ولكن دق قلبي بأسى. رنَتْ إليّ أمي طويلًا. ضمتني بحنو لم أشعر بمثله من قبل ورغمًا عني بكيت بحرقة وتمالكَتْ هي دموعها وإن نزلت بغزارة.

"آه يا أمي! لا استطيع! أرغب في الموت"

وأنتفضت أمي وظللت في حضنها أرغب أن يطول ولكن دائمًا الضم الفريد يأتي مرة واحدة ويغادر مسرعًا فقد تأخر الوقت وهناك ضيفٌ آخر يحتاج إلى الضم. قرأَتْ عليّ المعوذات وصارت تدعو في صوت متهدج.

رفعَت وجهي وأمسكته بيديها وقالت عيناها كلامًا كثيرا وقال فمها كلامًا قليلا.

"أحبكَ أتدري هذا؟"

أومأت وأنا أنشج.

"لا تبكي أرجوك لا أريد أن اغادر وأنت باكٍ"

تبدو عادية تلك الجملة.

"ستخرج قريبًا أعدك بذلك ولو كلف ذلك عمري"

ضمتني من جديد وجاء دور أبي، بكى لأول مرة في حياتي ولم يقل شيئًا. ذهبا وتركاني.

.....

مضـى أسـبوعان وخلتها عامين وحان اليوم موعد الزيارة وكنت مسـتيقظا منذ الفجر، ظللت رقودًا على السـرير والرائحة تقتلني. جاء الظهر وصـرت أتخبط بين عالم الصحو والمنام. تدري ذلك الهذيان اللذيذ، سمعت صوتا خفيًا لا صوت له.

"أحبك أتدري هذا؟"

قلت في خمول.

"بلى. أحبك من كل قلبي يا أمي"

وأبتسـمتُ ورفعت يدي للطيف اللا مرئي وشـعرت به كسـحاب يمسـك يدي. وصحوت.

يارب! أكان حلمًا هذا؟

ظللت أحاول تبين ما إذا كان حلمًا أم لا. وكان كلٌ أنخرط مع أهله وظللت لوحدي لا زائر أتى ولا عابر سبيل.

أنتهت الزيارة منذ أمد وأنا في حيرة؛ لما تخلفوا عن المجيء؟

في الليل اسـتدعيت، لا بد أنهم ترجوا المسـئول أن ألقاهم، الآن أعترف لقد سـاورتني الشكوك؛ صوت بداخلي يصيح بصمت.

"هلكوا يا غبي!"

دخلتُ مكتب المسؤول، رمقني بإشفاق واضح لا أدري سببه- أدري؟

"أجلس يا أديب"

رغبتُ بدلًا من الجلوس أن أمشي في أركان الإصلاحية كلها.

"انا بخير هكذا؟"

"حسنٌ"

ثم صمت، اعلم تلك الأجواء حين يستدعي المأمور السجين ويقول له أن شد حيلك. قلت قبل أن يقول؛ انت رجل مؤمن.

"من مات؟"

رنا إليّ بنظرة من يقول؛ بل قل من عاش؟

"بالله عليك خبرني"

ترجيته وقد بدأت الدموع تهبط ولم أعرف الفقيد بعد.

"شد حيلك يا أديب. اهلك في ذمة الله"

لوهلة لم أفهم، لحظة الموت تستقبل بإنفعالات شتى ولكني كدت أضحك من هول ما سمعته. أهلي! يا لها من نكتة سمجة!

"ماذا تقصد؟"

أردت أن أقول بماذا تخرف؟ ولكن رغم موقفي آثرتُ السلامة.

"مات أهلك؛ ابوك، أمك، أخوك، أختاك من بقيتا ولكن في حالة خطرة في المستشفى بعد حادث سيارة، للأسف لن تستطيع الخروج بإذن فقط دُفنوا. أنا آسف جدًا" بطبيعة الحال ساد الظلام.

أديب

39

رأيت أمي. يا ربي يا له من كابوس!

أسرعت إلى أمي وقد جفلتُ من محياها الوضّاء.

"أمي!"

أبتسمت لي وقالت بصوت حالم من أرتاح وشرب الكوثر.

"أجل يا بني"

"كان كابوسًا مرعبا الذي حلمتُ به"

"لا تحكه فالأحلام طالما كانت حِكرًا خاصًا لصاحبه. هي في وقت هدية من الخالق وفي وقتٍ آخر عبثٌ من الشيطان. في الحالتين أجعلها دنياك التي لا يدخلها مخلوق."

تنهدتُ براحة وصرنا نتحدث. كان سَمَرًا كخمر الجنة ثم فجأة لا أدري كيف ولكني أدركت أني في حلم لا واقع!

بدأتُ أبكي بكل جوارحي وكأن روحي ستخرج مع كل شهقة وتخرج مع آهاتي ولكن رغم ذلك ما أعذب بكاء الحلم!

نظرتْ إليّ بإشفاق بلا حزن فلقد تخلصَتْ من حمل الآلام وصارت خفيفة. رفعت وجهي بأصابعها ومسحتْ دموعي.

"أحبك أتدري هذا؟"

قلت بين نشيجي.

"والله أدري. ما سأمتك حتى أدرك كم الخسارة التي خلفها رحيلك. آه يا أمي!"

"لا تبكي يا حبيبي. كلنا إلى زوال"

"خذيني معك. لا أريد المكوث هنا، مكوثي حيث مكوثك حتى لو كان في الجحيم"

أمسكَتْ بوجهي وقد بدأ نفوذ الحلم في الضعف وكثافة وجودي فيه تتلاشى.

"أديب. لله المشيئة؛ يختار الله عبادًا عن عباد فيختارهم ليبقوا بجواره إلى قيام الساعة، يرحمهم من أقدار الدنيا بينما يصطفى الله أناسًا يبقيهم في جحيم الدنيا وسعير نارها فيزيدهم الله بركات ويهبهم ما ليس لكل عابد. اصطفاهم الله لحكمة وحده يعلمها حتى تحين لحظة الموت"

"لا أريد أن أكون مصطفًى. أريد أن أكون معك"
"تدرى أن الأمر ليس بيد الإنسان المخلوق"
أبتسمَتْ في حنو.
"سأشتاق إليك. ربما يكون لنا لقاء آخر"
أردتُ أن اتأمل ملامحها ولكن شرع الوعي في الإستيقاظ والإنسحاب فضممتُها وأنا أبكي كما لن أبكي بعدها. آخر ما سمعته.
"لا تنسى أنك من المصطفين"

.....

فتحتُ عيني ونزلت دمعة حارة كأنها كانت تنتظر فتح جفنيّ لا أكثر.
بكيتُ بوهن وأنا لا أذكر سبب حزني، أحسستُ بيد تلمس جبيني. أعتراني أملٌ كاذب، رنوتُ إلى صاحبته وخاب أملي. كانت داليا امرأة عمي.
"حمدًا لله على سلامتك. أقلقتنا"
لم أفهم، نظرتُ حولي فإذا أنا في غرفة ذات عبق مطهر!
"لما أنا في المستشفى؟"
"حين سمعتَ بالخبر-هنا تهدج صوتها- أصابتك الحمى. كانت شديدة لدرجة ان الإصلاحية لم تدرِ ماذا تفعل فوافق المسؤول على نقلك إلى المستشفى. البقاء لله يا أديب. تحمل أرجوك"
وتذكرتُ لما أنا حزين، إذن الخبر صحيح، لما الكل مُصرّ على تذكيري بفاجعتي؟
"أنا السبب؛ لو لم أكن في الإصلاحية لما راحوا ضحية حادث وهم إليّ قادمون"
تحشرج صوتي وتألم جسدي.
"لا يا أديب لا تقل ذلك. هذا هو المكتوب لا نملك له تأثيرًا. رحمهم الله"
أنشق قلبي وذاب آخر ونس لرابط الدم.
"حتى ريم وسارة؟"
بكتْ امرأة خالي وقال صوت أجش.
"فقط سارة من عاشت. ماتت ريم أول أمس ودفناها بجوارهم"
كان عمي! لم ألحظ وجوده. كيف شاخ في أيام؟
"ماذا عن سارة؟"

صمتوا. هتفتُ باكيًا.

"ماذا حدث لها؟"

أزدادُ عويلًا. لم تجد امرأة عمي إلا مصارحتي.

"كانت أصاباتها بالغة إلى حد صعب. شُلّت تمامًا. صارت في حالة النبات"

رنوتُ أمامي ونذرت نفسي لصوم جديد.

.....

مضــى بي الحارس إلى غرفة وظل أمام الباب. ظلّت يدي على مقبض الباب لا اســتطيع الدخول ثم فتح الباب. كانت ممرضة.

"تعالَ"

رضختُ لعرضها السخي ودلفتُ الحجرة. كانت راقدة، وجهها فيه كدمات ولكن لم تُخفي آثار جمالها. خطت بي الممرضة إليها.

"قد تبدو غائبة ولكنها واعية. ستسمعك"

خرجتْ وتركتنا في لحظة أخوية أليمة. يا ليتها كانت غائبة!

مع كل خطوة أرى لها ذكرى.

خطوة، أمي حامل.

خطوة، صراخ أمي على السرير الذاهب إلى حجرة الولادة.

خطوة، صراخ سارة.

خطوة، أحملها وتمسك بإصبعي.

خطوة، وصرت بجانب سريرها.

تخليت عن نذري للصوم ونادبتها وصوتي يختنق بحشرجة البكاء.

"سارة!"

نقلتْ مقلتيها لي ودمعت بصمت، لا صراخ ولا أنين. قبّلتُ كل دمعة ومسحت على شعرها.

"لا بأس أنا هنا"

بكيتُ وضممتُ يدها المرخاة ثم ضممتُ جسدها المرتخي. كانت جثة بأنفاس.

"صرنا وحدنا يا سارة لم يبقَ أحد"

رنت إليّ برجاء، رجاء أن أقتلها! هتفت بها.

"لا يا سارة. لم يعد لي غيرك"

"وما فائدة (غيري)؟ أقتلني وأرحني"

قالت عيناها.

"لا تيأسي. سنسافر ونجد علاجًا"

قبلتْ يدها وبكت راجية. هدأتُ من بكائي.

"أحبك أتدرين هذا؟"

ولم تجب سوى الدموع.

.....

لم يخبرني عمي أن الاستئناف الذى رفعه الراحلون قد رُفض وحتم عليّ المكوث في الإصلاحية من جديد.

رأيت أهوالًا في تلك الخرابة، حاولت أن أظل ذا سير وسلوك حسن علّي أخرجني من ذلك الكابوس المتجدد، حاولت مجاراة أحداث الفصول المتعاقبة، لعبت كل الأدوار، نفذتُ كل ما يخطر ببال كل من حلا له العبث بي الحلال منه والحرام، المعقول واللا معقول. أفعال أخجل من ذكرها كي أظل إنسانًا في مجتمع يتظاهر بالفضيلة. كل ما لا يخطر ببال فعلته.

أنقضى عامان ولو كنت يومًا ذا روح نقية لم تشوبها شائبة فقد تعفنت وصارت تحمل تبعات الأفعال التي مارستها تجنبًا للمشاكل.

استعداني المسؤول.

"أديب أنت أول نموذج حسن أقابله! لم تبدر منك مشكلة واحدة!"

نظرتُ إليه في خواء ولم أفهم ما جدوى تذكيري بخيبتي؟

"كتبتُ عنك تقريرًا رائعًا وقوبل بصفح كريم. مبارك يا أديب ستفارقنا خلال أيام"

كاد توازني يختل، لم أصدق. رغبتُ بشدة في كبريت أطفئه في ذراعي علّي أفيق من ذاك الحلم العبثي.

"أديب أتسمعني؟"

"بلى"

"حسنٌ أحرص أن تظل على ذلك السلوك فلا تعد إلى هنا"

كدت أقول له.

"ثق أني لن أحرص"

ولكن آثرت الصمت.

.....

أيام مرت وخرجتُ. بعد أفعال مقرفة أضطررت لها كي لا أقع في مصيبة تلغي قرار خروجي. حاول السجناء فعل كل الأشياء كي أؤتي فعلًا يثير مشكلة ولكني خيبت ظنونهم بخضوعي وحيادي. قال أحدهم يحاول استفزازي.

"أتدري أن أمك رائعة في (لا داعي لذكر ما يظنها رائعة فيه)؟ فقد أنخرطنا في (و قال شيئًا صعب فاق كل ما عُرف في تاريخ الخطايا)"

قلتُ بألم مرير.

"معك حق فأمي (كذا وكذا بل وأضفتُ) وأبي راض بذلك"

أنشــق قلبي ولم أعد أدري كيف ســأواجههم يوم الحشــر. رجوت الله ألا أبعث فلا ألقى خيبة نظراتهم.

"يالك من (لا داعي لذكر الوصف)"

"معك حق"

هكذا لم أترك عهرًا وديـاثة إلا وأقترفتها. قـالوا لي حين أدرت لهم ظهري والبـاب يفتح كي أغادر العنبر بغير رجعة.

"أنت (لا داعي لذكر الوصف) فلا تظن نفسك مختلفًا عنا"

"على الأقل صرتَ مثلنا بل أبشع. أنعم بالحرية كما تريد"

"أشــك أنك ســتســتطيع البقاء بالخارج لأســبوعين. لن تلبث أن تأتي بكارثة تعيدك هنا فأنت بالفطرة تنتمي إلى هنا"

نزلتْ دموعي دمًا حين عبرت باب العنبر.

.....

استقبلتنى زوجة عمي وهمّت بضمي ولكني منعتها، لم تفهم ما هنالك.

ركبت الســيارة وصــرت اتأمل العالم الذي خلفته نقيًا وعدت إليه وأنا ذا آثام يســتحي البشر من التفكير فيها.

أنا قذر. هذا ما شــعرتُ به طوال الطريق. كيف ســأواجه الله؟ كيف ســأصــلي له وقد رضيتُ أن أفعل ما فعلته؟ خجلت حتى أن استغفر الله.

دمعتُ حين رأيت أطفالًا يلعبون الكرة؛ هم مشـروع قتلة فلا نقاء هنا. أنا الذي عشـت عمري كله أخشى الله وأحافظ على طهارة روحي صرتُ ذا أفعال يأبى إتيانها أعتى السفلة وأكثرهم خطيئة خشـية من الله. ليتني لم احيَ يومًا. بل يا ليتني لم أُخلق فالعدم أرحم لي من ذاك الوجود المقرف.

امرأة عمي تتحدث حديثًا متفرقًا ثم لجأتْ إلى لصمت حين أدركتْ عبث محاولاتها. دلفتُ باب البيت ولم أكن عارضـتُ رغبتها في المكوث معهم. لم آخذ أنفاسـي بل حثثتُ الخطو نحو الحمام، مزقت ملابسـي ثم وقفت أسـفل الدش وأخذ الماء في الهطول، كان حارقًا ولكن لم آبه بل لم أشـعر بلسـعة الماء الكاوية. أغمضـتُ عيني وأنا أدعك جسـدي بالصـابون، ظللتُ حتى برد الماء من تلقاء نفسـه ثم شـعرتُ بتعب العامين يحلّ. وجدتُ زوجة عمي تدق الباب، ناولتني ملابس أرتديتها ثم رنوت إلى نفسي في المرآة. رأيت وجهًا بذل صاحبه جهدًا كي يحافظ عليه من التشريح لكن رغم ذلك ما رأيت أبشع منه.

أمي! ترى كيف هي الآن في القبر؟ تراها لو عاشـت لماتت كمدًا على ما أقترفتُه وما قلته عنها.

قادتني زوجة عمي إلى غرفة لم أهتم بسـاكنها أو من تركها. رقدتُ على السـرير مسـتجديًا النوم أن يأتي ولكنه أبى أن يأتي إلى قذرٍ مثلي. قدمتْ لي زوجة عمي طعامًا لم أقربه وهكذا في الأيام التالية.

في خلسة أتجهت إلى المطبخ واختلست علبة كبريت، أشعلت إحدى الثقاب ثم أغمدته في ذراعي وشـعرتُ بألم تلذذت به. كيف سـيكون إذن لظى الجحيم؟ صرتُ أطفئ واحدًا إثر الآخر في أماكن متفرقة.

أيام ثم استدعوا الطبيب وعُلق لي محلول. حاولوا أن أنطق ولو بحرف ولكن كنت نسيتُ معنى الكلام. كيف يتحدث البشر؟ أنتهت أني لم أتحدث لشهور إلا للمسؤول.

وفي يوم حضـر رجلٌ جلس على كرسـي بجواري عرفتُ أنه أخصـائي نفسـي. أيام حاول خلالها جرّ الحديث معي ولم يفلح ثم أتى آخر وقد سأم الأول مني ثم آخر.

ظنت زوجة عمي أني أريد اللحاق بأهلي.

"أنسيتَ سارة؟"

كيف نسيتها؟ من غمرة البؤس ظننتها هلكتْ مع من هلكوا!

"هكذا ستموت كافرًا؟"

لا تعلم أني أخشى لحظة الموت حين يُكشف الحجاب عن عيني وأرى ما لا يسر. لست بتائب يريد التكفير عن ذنوبه ولست يائسًا أنخرط في الذنوب ليقينه أنه في النار سيخلد على كل حال.

في يوم هزّتْ زوجة عمي بدني وأنا أحاول النوم. رنوت إليها وقالت بصوت باكٍ.

"أديب مات عمك"

لم أفهم ثم قلت لأول مرة.

"حسنٌ"

ثم عدت لوضع النوم من جديد، حسنٌ صفحة أخرى من كتاب الأحزان. لم أتساءل حتى أين كان عمي وكيف مات؟

مضت أيام فقدتْ أرملة عمي الأمل فيّ واستعدتْ لإستقبال فقيد جديد. وغرقت في سِنة قلّما سنحتْ لي ورأيت أمي.

كانت تبحث عني تناديني وأنا مختبئ خلف جدار العار كي لا تراني، كنتُ خجلًا أن ألقاها ولكنها وجدتني. رنت إليّ بحزن، ظننتُ أنها تخففت من الهموم!

"مالك يا أديب!"

لم أجب.

"نسيتَ أنك من المصطفين. أرحني في مرقدي. فعلتَ ما فعلت اضطرارا والله لا يحاسب من أجتر جرًا لفعل معصية"

قلت وأنا أبكي وضلوعي تعتصر.

"ولكنّي لم أعد طاهرا"

حاولَتْ ضمي فجفلتُ.

"رائحتي كريهة"

ولكنها أصرّتْ.

"يا حبيبي رائحتك كالريحان"

شعرتُ اني في حضن من ريش، كأن سحابة حملتني وتهدهدني.

سمعتُ صوتًا عذبا لم أسمع له مثيلًا يتلو آية من القرآن.

((وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ . إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ))

قالت لي وهي تمسح على شعري بينما الصوت مازال يتلو.

"أحبك أتدرى هذا؟"

أومأت وقلت في راحة.

"أدري"

ثم أفقتُ وشـــعرت وكأني أتنفس أخيرًا. الهواء مألوف. لأول مرة خرجتُ من غرفتي أجرَ المحلول معي. بكتْ زوجة عمي حين رأتني أمامها. رضختُ لإصراراها أن آكل ثم أغتسلت.

جاء طبيب جديد، لاحظ رعشة يدي الثائرة.

"ما بال يديك؟"

قلت بصوت ضعيف.

"لا أدري، تلازمني منذ فترة طويلة"

"أحكِ لي"

وحكيتُ وجرّت الحكاية أخرى ثم أخريات.

سألني يومًا عن الإصلاحية ورغب أن أحكي ولكني قلت له إن صار حديثي عنها سببًا لنجاة الناس من كارثة كونية فلن أنبس بحرف. رضخ لعنادي ولكنه حاول كثيرًا حتى قلت له.

"مرة أخرى تحاول جرّي للحديث سأنقطع عن الدواء والحديث معك"

قال وقد رفع يده من ذاك الأمر.

"حسنٌ ولكن كُن على علم أن عقدتك لن تنحل إلا إذا واجهت ما حدث"

كلأٌم محفوظ ومبتذل لا يؤتي ثمارًا. شعرتُ أني بحال مقبولة.

سألتُ زوجة عمي يومًا.

"أين عمي؟"

رمقتني بوجوم ثم بدأت في البكاء. تذكرتُ أنه هلك. كيف نسيت؟

"أنا آسف نسيت تمامًا أنه"

حاولتْ تمالك نفسها.

"لا بأس يا بني"

"كيف مات؟"

فجع في موت أبي وصـار يدخن بشـراهة ربما أربع علب في اليوم بجانب الخمر ثم بطبيعة الحال أصـيب بجلطات عدة وكشـيء محتمل الوقوع أكتشـف ورمًا في رئته وفقًا لقانون المنطق هلك عمي. لهذا لم أره وتساءلت كيف حدث كل ذلك في فترة ليست بالطويلة!

.....

أنتبهت إلى أنه مرت ثلاثة سنوات لم أصلِّ فيها ولم أذكر الله حتى، ذهبت إلى زوجة عمي وأخبرتها برغبتي في أداء العمرة.

بعد الإجراءات أخذتني الطائرة إلى مكة. أبيتُ أن يرافقني أحد، تلك رحلة إلى الله وحدي من سيخوضها.

أرتديت زي الإحرام وإلى لحظتها استحيت أن أذكر الله في سري. ذهبتُ إلى فندق زمزم وأرى الكعبة من النافذة والشعوب تطوف حولها.

كنت أتساءل عن أول دعوة؛ خطر لي أن أدعو بالرحمة للراحلين، أو أدعو على من كانوا السبب في بلائي، أو ألا أُبعث يوم القيامة ولكن كان أول دعاء حين واجهتُ الكعبة ورائحة زكية تخترق الفؤاد.

"اللهم طهر روحي وأجعلني من التوابين والمطهرين"

ما إن لفظت آخر حروف الدعاء حتى لمحتُ سيدة تطوف تشبه أمي حتى خلتها هي، كانت تبتسم لي ثم غاصت في موج الطوافين، وبكيتُ بشدة كبكاء الحلم، كان بكاءًا عذبًا شعرت أن مع كل دمعة تسقط خطيئة، أن السماء تبارك لي والملائكة تحتفي بتوبتي وقدومي بيت الله الحرام.

بدأت أطوف وسمح لي الناس أن أقترب إلى أن لمست الكعبة، أقشعر جسدي وأزداد بكائي. أحمدك يا رب. أبتعدتُ عن الكعبة، رغبتُ أن تزداد قطر مسافة الطواف كي تزداد حسناتي ويزداد غفران الله ثم سعيت بين الصفا والمروة وذهبتُ إلى الحلاق وحلقت شعري كله.

صرت لأيام في الحرم لا أبارحه. بعد الصلاة أجلس وأشرب من ماء زمزم وتصفو نفسي، آكل تمرًا يذوب في فمي مع قهوة عربية. أرنو إلى الكعبة التي أحيتني وأناجي الله.

في آخر يوم قبل أذان الفجر بساعتين والحرم خالٍ طفتُ حول الكعبة. دمعتْ عيناي وأنا أقبل كساءها وكم تمنيت أن أقطع منها قطعة أضعها أسفل وسادتي لأنام. تمتمت لها أن لنا لقاء آخر ولن أقترف إثمًا بعد اليوم. ألقيت السلام ورحلتُ وعدتُ باكيًا.

تخلصتْ من كل منغص إلا واحدًا عاد كي يصفدني بالأغلال؛ أن الفناء مرافق لي أينما حللت.

حين خرجتُ من الطائرة ودلفت المطار وجدتُ زوجة عمي تنتظرني. أبتهجت أســـاريرها ومدت لي يدها لأســـلم عليها ولكني فاجأتها أن ضـــممتها، ضـــحكت باكية وهي تربت على ظهري. حينها تأكدتُ أني عدت من جديد نقيًا طاهرًا.

.....

أمسكت بمقبض الباب وفتحته. كانت مغمضة عينيها، ظننتها نائمة. حثثت الخطى.

"سارة!"

فتحت عينيها بقوة، رنت إليّ غير مصـــدقة أني هنا حقا، هبطت دموعها، لا أريد التفكير بمدى ألمها، أنها لا تقوى سوى على الدموع. قبّلت جبينها ومسحت دموعها بيدي الثائرة.

"لا بأس أنا هنا الآن"

بخيبة أمل قالت عيناها.

"قلت ذلك مرة ومرت أعوام لم أرك فيها. أرجوك لا تقلها"

"حقًا يا سارة أنا هنا الآن لن أدعك وحدك من جديد"

نظرت إلى الحقيبة بيدي.

"سأمكث معك ليومين"

.....

جنوب سيناء

يناير 2020

الساعة 4:15

حكى أديب لليث الباقي من فصول روايته؛ عاد للدراسة وضمّ السنتين في سنة ثم حصل على الثانوية العامة وكان قد أختار مسبقًا الحقوق كي يرد كيد الظالمين وينقذ الناس الطيبين من ويلات الخرابات. ثم باقي القصة يعلمها ليث ولكن فصلٌ أخير لم يحكه أديب؛ فصل بطله الأوحد هو ليلى أو مريم كما يعرفها ليث.

بعد ما يقارب عشر ساعات من أداء دور تراجيديا الحياة كاد ليث أن يصفق بحرارة مع دمعة تأثرَتْ فرغبتْ أن تشاركه التصفيق بهبوطها. حلّ صمت قصير حتى ظن ليث أن الحافلة كلها استمعت لفصول الرواية وذاك الصمت هو أنهار من روعة الإلقاء ولكن كانوا فقط مرهقين من طول الرحلة بعضهم نائم وبعضهم يتأمل الجبال.

همّ ليث بقول شيء ولكن أنتبها إلى حركة ليلى وهي تتململ وقد بدأتْ تفيق من سكرة نومها. ثم فجأة أنتفضت بذعر وأنفاسها تسابق بعضها، بعفوية أمسك ليث أو ضوء يدها وتساءل عما بها. أنتبهَت وهدأت أنفاسها فجأة حين أتضح وجه ضوء لرؤيتها.

"لا بأس مجرد كابوس"

سألتْ ليلى عن الساعة وتعجبت كيف نامت كل تلك الساعات وقد شعرت أنها نامت لدقائق شاهدت فيه الكابوس ثم أفاقت؟

وصلت الحافلة ودخل الكل إلى الفندق؛ كان بسيطًا ولكن يفي بالغرض للسكن بترفيه. لم تنتبه ليلى إلى روعة البحر وصفائه ولا إلى الكراسي والشمسيات الموضوعة أمام شاطئ البحر. كان اهتمامها مصوباً إلى أثنين؛ ضوء و الكابوس. صعد ليث وأديب إلى غرفتهما بعد أن تأكدا أن ليلى قد دخلتْ غرفتها وأنها ليست بحاجة إلى شيء.

أغلقت ليلى الباب وتنفست. لا تصدق أنها في مدينة تبعد عن أمها عشر ساعات، ماذا لو حدث مكروه؟ كيف ستلحق واحدة منهما الأخرى؟ بدأت أنفاسها تضيق وخرجت إلى الشرفة كي تشم الهواء ولكن أنبهرت لمرآى البحر. تشعر وكأنها فتحت أعلانا لمنتجع فاخر.

هؤلاء فتية يلعبون الكرة الطائرة وهذا يمرح مع كلبه في البحر.

نسيتْ الحلم وكل همّ وأسندت ذراعها على السور تتأمل المشهد أمامها.

القاهرة

عام 1956

الزمالك،

مسرح نادي الضباط.

سلم المذيع الأردني الحديث إلى زميله المراكشي، تزاحمت الطلبات من يريد شمس الأصيل أو دليلي أحتار أو أغنيتها المهداة إلى الرئيس (يا جمال) أحتار الجمهور ماذا يا ترى ستغني. الاستقلال والجلاء، حدثان تحتفل بهما الليلة. لا تصدق ولا تترك الفرحة أن تسيطر عليها، في الأمر خلل ما. بهذه البساطة يرحل الإنجليز وتحصل مصر على استقلالها؟ لو كان الأمر بهذه السهولة لرحل المحتلون منذ كان الجهاد في أوجه، لقد شاهدت بعينها حتى قبل تأسيس الملكية.

حضر الحفل جمال عبد الناصر وضيوفه من الملوك والرؤساء.

باتت من مطربة الملوك إلى مطربة الشعوب وزعمائها فسبحان مقلب الأحوال.

شجعتْ الثورة بملء صوتها وتبرعتْ بكل نفيس حتى بعد أن كادتْ تعتزل لإهانات أحد الضباط لها بعد أن وصمها بالعهد البائد ومطربة الملك!

قطعًا غنيتُ للملك وقطعًا سأمجد الرئيس وأحييه ولو عاد الملك شامتًا ستغني له عن عظمة الغفران.

ولكنها أحبّت عبد الناصر منذ حضر وشكرها بنفسه مع كتيبته بعد واقعة الفالوجا كي يشكرها على كرمها لما غنّت طفرة الموسم "غلبت أصالح". تشعر أنه فردٌ من الشعب حتى إن الجمهور يصيح في حضوره كما لم يجرؤ أن يفعل مع حضور الملك!

فُتح الستار ووقفت في ثوبها الصيفي تعتصر منديلها الطويل. صفق الحضور حين صدح اللحن، وقفت أم كلثوم وبدأت.

شمس الأصيل.

دهّبِت خُوص النخيل يا نيل!

تُحفة ومتصورة في صفحتك يا جميل!

وبلا وعي مايلت رأسها وهي تغني معتصرة منديلها.

مريم ... ليلى

40

كم رغبتُ لحظتها لو يعود بي الزمن إلى يوسف الصديق، أن أكون مع صاحبيْ سجنه وأسأله.

يوسف أيها الصديق! أفتني في ظلمة حالكة تنقشع عن كرسي جلوسٌ عليه عجوز تبكي بقهرة ولما أقتربت نظرت لي بوجه أسود كأصحاب النار بينما يلمع بشدة على جيدها سلسلة من هلال ماسيّ، يرافقها صيحة حادة كادت تفتت جسدي. أنذير هذا؟ رجاءًا أفتني في رؤياي.

رغم صفاء الجو إلا أن الحلم نغّص صفوي. لا أدري كم مضى وأنا استند على سور الشرفة. أفقت على دق الباب وفتحته، أشرقتْ أساريري لضوء، بدا سعيدًا لا يدري ما يقول ولا أنا، ظلّت عيناي تحتضن عينيه، غرقنا في حديث صامت. عيناه آه منهما!

قال أخيرًا وقد طالت لحظة الوجدان.

"فلنأكل"

.....

كنت جالسة على كرسي أمام البحر بينما أديب وضوء يتحادثان.

"ألن تنزلي البحر"

سألني ضوء ورأيت غيرة في عينيه خشية موافقتي ولكني أرضيتُ غيرته.

"لا لم أحضر زيًا للبحر أنزلا أنتما وسأظل هنا أشاهدكما"

أحتج أديب ولكني أصررت، يهبطان البحر رويدًا رويدًا حتى يعتاد بدنهما عليه، رنوت إليهم بحنان كمن يرنو إلى أطفاله. أبتسمُ وضوء يدفع أديب حتى يسقطا في صفحة البحر. ليت الضحكات تدوم كدوام البحر.

ثم أمسكت بالكتاب الذي أحضرته معي، غرقتُ في صفحاته وأفقت من غرقي فيه على لون أحمر على صفحات الكتاب. أنه دم! ثم نقطة أخرى على صفحات الكتاب وتحسست أنفي فإذا به ينزف!

لم أعانِ قط من نزيف الأنف فمالي أنزف؟ أحضرت منديلًا أكتم به النزيف حتى ينتهي، لم أُعر للموضوع شأنًا وتابعت القراءة.

.....

كان غروب الشـمس رائعًا، أبدع الغسـق في ألوانه على لوحة السـماء. حين حلّ الليل لم ندرِ ماذا نفعل في أول يوم، تمشـينا ووجدنا مجموعة من الناس تجلسُ حول نار مشـتعلة يضحكون فالرحلة أغلبها مجتمعٌ أتفق ساكنوه على السفر.

تردد ضـوء ثم أقترح أن نسـتأذنهم في الجلوس برفقتهم لم أجد بأسًـا وسـألنا اديب، كان جليًا لنا اضـطرابه ولكنه أبى أن يكرب علينا أجواء الألفة فوافق مضـطرًا. اسـتأذنا في الجلوس ووافقوا مرحبين.

كانوا يضحكون كمن لم يخبروا أسى الحياة، سـألونا إذا نالت الأجواء إعجابنا فأجبنا أن قطعًا. مضـى وقت حتى أنضـمت فتاة جميلة ذات شـعر كسـتنائي مموج تحمل حقيبة، دققت النظر حتى ميّزت أنه عود! هتفت بإعجابْ خرق خجلي.

"أتعزفين؟"

"بلى فالعود حياتي"

قلتُ في إنبهار.

"لم أظن قط أن تكون مثل تلك الآلة في مدينة كتلك فهي يناسبها الجيتار لا العود"

ضحكتْ وقد فطنتْ إلى انه إطراء مني.

"ألك في الموسيقى الشرقية؟"

نسيتُ تحفظي وأفضت في الحديث.

"بالتأكيد"

"لمن تسمعين؟"

أجبت خجلة بحماس نقيض.

"أم كلثوم، عبد الوهاب وغيرهم"

سمعتُ همهمات أعجاب فأزداد خجلي.

"حسنٌ أختاري أغنية وسأعزفها"

كدتُ أن اختار بين أسـامٍ عديدة ولكن غمامة سـوداء طغت بصـري وتذكرت فاطمة، كانت ودودة طيبة ثم أنظر ماذا كان وراء الطيبة والود!

"أنت بخير؟"

أفقت على ضوء، قلت بصوت جاف أن بلى.

نسيتْ صاحبة العود عرضها وأنخرطتْ مع شابين في الحديث.

"ماذا جرى؟"

سألني ضوء، كدت أبكي من صوته ولكن تمالكت نفسي وأغتصبت ابتسامة.

"لا شيء تذكرتُ شيئًا"

"تريدين القيام؟"

عارضتُ، كل ذلك بينما أديب صامت، أنتبهوا إلى غفلتهم فسألونا عن أسامينا.

"أسمى ضوء"

نال الإسم أعجابهم وتهتُ فخرًا.

"وأنا مريم"

وأجاب أديب. قالوا أسماءهم وبعد فينة من الوقت شرعتْ سلمى -صاحبة العود- بدندنة العود.

ثم سأل أحدهم حماسًا من يستطيع الغناء. أجابوا ساخرين ألا صوتُ عذب لديهم، كدنا نغيّر الحديث حتى فاجأنا أديب باستحياء.

"انا استطيع"

أنتبهوا لوجوده أخيرًا.

"حسنٌ إذن ماذا ستغني"

عارضتْ سلمى وقالت أني من سأختار الأغنية وأكبرتُ ذوقها.

"ماذا تريدين مني ان أعزف؟"

قلت بعد حيرة وقد تذكرتُ غسق الأصيل اليوم.

"شمس الأصيل، أتعرفينها؟"

قال العديد منهم أنهم لا يعرفون تلك الأغنية ومَنْ صاحبها. اسكتتهم سلمى قائلة أنها تعرف وهذا يكفي. بعد أن أندهشوا أنها أغنية لأم كلثوم قال أحدهم.

"سمعت لأم كلثوم؛ أنت عمري، ألف ليلة، بعيد عنك"

أجابت سلمى ساخرة.

"تلك حصيلتك من مسيرة خمسين عامًا!"

ألتفتتْ إلى أديب الذى أحمرّ وجهه خجلًا ولم تبدأ سلمى بعد.

"أتعرف تلك الأغنية؟"

أومأ بالإيجاب.

"حسنٌ إذن فلنبدأ يا أديب"

قالتها سلمى وهي ترمقه بنظره لامعة وبدأت في ضرب اوتار العود، شعرت بعدم واقعية الأحداث فمثل تلك الأحداث تقع فقط في الأفلام. بدا لي أن الكل يتمايل مع العود.

"حسنٌ"

سمعتُ أديب يهمس لنفسه. ثم بدأ أديب في الشدو بصوت خافت قليلًا لكنه سرعان ما غرق في عالم خاص به.

شمس الأصيل.

دهّبت خوص النخيل يا نيل!

بدأ الكل في الإعجاب بصوت أديب حتى ضوء بدا مندهشًا وكأنه لم يعلم أن أبن خاله ذو **صوت عذب!**

تحفة ومتصورة.

في صفحتك يا جميل!

تنقل أديب بصوته فوق طبقات بسلاسة أذهلتني وكأنه كان مطربًا محترفًا في حياة ما! ثم تملّك أديب وسلمى الحماس وفنيا في العزف والغناء وكأنهم في حفلة تحضرها الآلاف.

والناي على الشط غنى.

والقدود بتميل.

على هبوب الهوا.

لما يمر عليل يا نيل!

ختم أديب الكوبليه وصفق الجالسون ولكن أديب لم يكن معنا.

يا نيل أنا وإللى أحبه!

نشبهك في صفاك.

التقت عينانا أنا وضوء خلسة ودون أن ينتبه الآخرون أحتضنتْ يده يدي.

لانت ورقت قلوبنا لما رق هواك.

وصفونا في المحبة هو صفاك.

مالناش لا إحنا ولا أنت.

في الحلاوة مثيل يا نيل!

هنا صاح الجالسون وبلغ تأثري أن بكت عيناي، ضغط ضوء على يدي بحنو كأنما يقول أن حلاوتنا مثل حلاوة البحر أمامنا. مسحتْ بيدي الأخرى دموعي.

أنا وحبيبي يا نيل نلنا أمانينا.

مطرح ما يسري الهوى.

ترسي مراسينا.

والليل إذا زاد وطال.

تقصر لياليناوإللي ضناه الهوى.

باكي وليله طويل.

رنوت إلى ضوء. مهما طال بي الأمد معك فالعمر قصير والأماني سرعان ما تتلاشى مع نفوذ الزمن والفراق.

وقالت لي عيناه أن العمر كله لا يكفي حين اللقاء فالحب ذو طمع يبغي فوق الأماني أمانٍ لا تطال.

ثم افقنا وأديب يتحسّر على حبيب غاب وتملكني الندم والحسرة. غنى من كل وجدانه وأساه.

أنا وحبيبي يا نيل!

غايبين عن الوجدان.

يطلع علينا القمر.

ويغيب كأنه ما كان.

بايتين حوالينا.

نسمع ضحكة الكروان.

على سواقي بتنعي.

على إللي حظه قليل يا نيل!

كأنه ينعي نفسه وهو ذو الحظ القليل!

والناي على الشط غنى.

والقدود بتميل.

على هبوب الهوا.

لما يمر عليل يا نيل!

استفاق أديب على التصفيق والصفير وغمرت وجهه حمرة الخجل. قال له ضوء.
"لم أدرِ أن لك صوتًا كهذا؟"
أبتسم أديب بينما أطرى الجميع لأدائه. مضتْ سلمى تضرب أوتار العود وأنا أشعر بشيء غريب؛ كانت تختلس النظر إلى أديب كمن وقع، كأنها تعزف له وتناديه، كدتُ أصيح به، يا أحمق أنتبه إليها قليلا!
الكل غارق في الحديث ثم فجأة أشعل أحدهم لفافة تناقلتها الأيدي، أسود وجه أديب وأختنقت أنفاسه ثم سلمى. شممتُ رائحة كأرض ترب، صاروا يضحكون بعربدة مفاجأة وكأن حدود الأرض والقوانين ذابت في تلك اللفافة!
طلب مني ضوء القيام معه قبل أن يحين دورنا في اللفافة.
يدق قلبي بوجل، حتى هنا!
صاح أحدهم أين تذهبون؟
قال ضوء.
"عذرًا تأخر الوقت، نرغب في النوم"
أنتهنا ونحن نحث السير بصوت خطوات خلفنا، التفتنا وضوء مستعد أن يفترس تابعنا.
"لا تقلقوا أنه أنا"
هدأنا قليلًا حين رأينا أنها سلمى.
"رأيتُ أن أخلد للنوم أيضًا"
سرنا إلى أن وصلنا للفندق، دخلت غرفتي ووجدتُ صعوبة في النوم ثم رحل ذهني تاركًا جسدي مكومًا على السرير.

القاهرة

بين عامي 1942 - 1944

مسرح حديقة الأزبكية

بدأ مقام جهار كاه في ملء صمت المسرح. أختاره السنباطي وحسن أختياره. جالسة تضم يديها سعيدة بنجاح تلك الأغنية فكفاها فشل الأعوام السابقة. غدر بها تسرعها وخذلها -خيبة العمر العظمى- القصبجي.

ها هي ألحان وكلمات أُلقيت في صفيحة الفشل ومسحتها من أرشيف الغناء على المسرح.

كم صدمتْ حين واجهت الفشل الأكبر في مسيرتها، نجحتْ أغنيته التي أعطاها لأسمهان. منافسة شرسة بينها وأسمهان خاصة أن من أحتكرت ألحانهم صاروا يعملون معها بعطاء وصوتها مازال في أوج صباه.

قررتْ أن تجاري طموحه فغنّت أوبرا عايدة وفشل الفيلم فشلًا لم يحدث طيلة مسيرتها والآن يعدها بلحنٍ يُرضي غرور مسيرتها لكنها لم تعد تأمن ذلك، أعطته كلمات كي تجاريه ولكنها قررتْ من البداية من سيلحنها.

كأن هذا الفشل عكّر إبداعه! لا تمنع شيطانها أن يهمس لها أن تُنفي ألحانه من أوطان صوتها، بعد رق الحبيب لحن لها كلمات من رامي رقيقة؛ "يصعب عليّ". ولكنها بالتأكيد لم تحظَ بنفس القدر من النجاح. ربما يذبل قصب.

تتأكد أن المنافسة بدأتْ تميل لصالح السنباطي، كل مرة يبرع في لحن يفوق سابقه، يبدو أنها ستسلم له صوتها يقوده في العقود القادمة حتى يذبل أو تذبل هي.

وقفتْ وصفق الجمهور، مضت دقيقة والموسيقى تنساب، تحدّ من بصرها حتى أختارت من ستغني له الليلة وبدأت تغني.

هلّت ليالي القمر.

وصاح الحضور انتشاءا.

هلّت ليالي القمر.

تعالى نسهر سوى.

في نور بهاه.

بدأتْ الرؤوس تتمايل فحمدتْ الله من جديد.

يحلى ما بينا السمر.

ويطول حديث الهوى.

سر الحياة.

صـفق الحضـور من جديد تأثرًا، تأوهات سـريعة وعاد السـكون من جديد. سـرعان ما تناست ما حولها من حيز الكون وأندمجت مع الكلمات والألحان.

يحلى ما بينا السمر.

ويطول حديث الهوى.

سر الحياة.

وبدأ مقام النهاوند المحبب في الإنسـياب بعذوبة والجمهور يصـيح رغمًا عنه. ظهر من وقع عليه الإختيار لأم كلثوم كحبيب مجهول لم ولن تحب مثله. يترائى لها في المنام أحيانًا.

يصعب عليّ تفوت لياليه.

من غير ما أشوف حُسنك جمبي.

تأوه الحضور سريعًا وناجتْ الحبيب برجاء حلو عذب، أعتصرت يديها.

يصعب عليّ تفوت لياليه.

من غير ما أشوف حُسنك جمبي.

بدأت تعيد مناجاتها بأداء وراء أداء، يبح صوتها قهرًا وتارة تغني كمجرى غدير عذب.

و أبات على الأيام أراعيه.

وأشوفه يكبر مع حبي.

عاشـــت في مناجاتها، غنت بإخلاص. تأوهات واهنة. رغبتْ لحظتها لو تظل تغني هذا المقطع طيلة العمر.

و أفضل أعد الليالي.

و أقول وصالك قريب.

و أبات أصوّر في حالي.

لما ألاقي الحبيب.

صـفق الحضـور وأماءت برأسـها تقديرًا آسـفة أن أنتهى المقطع وقد أعادته ثلاث مرات. مضت تستحث حبيبها كي لا يفوت الباقي من ليالي القمر.

مريم ... ليلى

41

أركان العدم في سـواد حالك، لا أدري ما بال العدم يحلو له العبث بي؟ بدأ النور في الإتضـاح وظننته ضـوء، رأيت العجوز تبكي في حرقة وترددتُ ولكني عزمت السـير لأهوّن عليها مصـابها المجهول الذي تصـر أن تشـاركني إياه. أنتهَت لخطواتي فنظرت لي بوجهها الأسود ثم صراخ حاد.

فتحت عيناي هلعًا ثم شـيء كالكهرباء بدأ ينفجر في جسـدي وقد بدأ في التشـنج والإنقباض، شعرتُ بألم بشع لا شعور له تعجبتُ بعدها كيف لألم ألا يكون مؤلمًا؟ بدأتُ أئن علّ أحدًا ينجدني من بدني. حاولتُ أن أحرك جسـدي ولم اسـتطع. أشـللت؟ كيانٌ أسـود قرر أن يشـاركني هلعي بمراقبتي بعيونه السـوداء، أصـرخ فلا اسـتطيع. دقيقة كأبد الزمان ثم فتحت عيني وأنتفضت هلعًا.

أكان شلل النوم؟ لم أُصب به قبلًا! أمسكت منديلًا أمسح العرق البارد من وجهي فإذا بي أرى دمًا، نزف انفي من جديد. أنتفضت واقفة أن كفى لدي من المآسي ما يكفي.

غيرتُ ملابسـي ولففت حولي شـالًا وقبل أن أخرج حرصـتُ على ارتداء باروكتي والنظارة. مشيت الهوينى كي لا أوقظ أبناء الليل فأضيف مأساة جديدة إلى مآسي الليلة.

دققتُ باب الغرفة ولا أدري لهذه اللحظة ما أريده وفَتَحَ الباب وتنهدت بارتياح. سـألني ضوء بلهفة.

"ماذا حدث؟ هل ضايقك أحدهم؟"

"لا تقلق فقط لم استطع النوم فرأيت أن أرى الشروق معك"

التمعتْ عيناه فرحًا وطلب مني أن أمهله بضع دقائق كي يغير ملابسه دون إيقاظ أديب.

كم سنهنأ بتلك الساعة التي سنسرقها من الحياة وتحمر وجنتاي خجلًا. فتح الباب وخرج ضوء بخطى صامتة، خرجنا وتمشينا.

"صدقًا ماذا أقلقك؟"

ترددت وأجبت مراوغة.

"حسنٌ أتريد أن نعود؟"

ضـحك طالبًا الغفران. مشـينا ومشـينا وبلا وعي التقت يدانا وتآلفتا. لفح الهواء وجهينا فازددنا انتعاشا ونشوة بريئة.

"أتدري؟ طالما خفت الشـروق والغروب. فالشـروق كان معناه بدء يوم آخر من الشـقاء والغروب إيذانا بختام يوم لم أنعم فيه بالحب"

تأمل قليلًا وأضاف.

"كنت أكره القمر فالقمر ونيس العاشـق، لا يحاكم ولا ينحاز لأحد فقد يسـتمع بصـبر للأنفس المتأوهة. كنت اشـعر أن القمر غريب عني، لم أبادله الحديث ليلة وشـعرت أنه أنحاز لغيري، فأنا أكره من يرنو إليّ دون أهتمام"

صـرنا بمعزل عن الحياة والوجود، جلسـنا على الرمال نرنو إلى الشـاطئ. أشـعر برائحة ملوحته تبارك لنا حبنا.

"تفضلي"

رأيته يمد لي بكوب ذي دخان، سـألته ضـاحكة متى أحضـر قهوة. قال ضـاحكًا أنه كان يحمل حقيبته طوال الطريق.

رشـفت القهوة وأنا أشـعر بصـفاء غريب. إن سـألني أحدهم حينها إن كنت رأيت شـقاءًا أجبته بلا تردد أني لم أعرف معنى الكلمة في حياتي قط.

أخرج ضـوء جهازًا لم أميزه. بدأ في العبث به، يضـع شـريطًا إثر أخر ويصـدح منه ألحان شتى. سألته ضاحكة من أين له بجهاز تسجيل كالذي بيده.

"كان لأمي ورأيت أنه لا بأس أن نسمع ما بجوفه"

بدأ ضوء في تغيير الأشرطة حتى صحت به.

"توقف لا أرى خيرًا من تلك الأغنية"

ترك ضوء اللحن يسبح في الأجواء مع الأمواج.

بدأت أم كلثوم في الغناء معلنة.

هلّت ليالى القمر.

تعالى نسهر سوى.

في نوربهاه.

تنهدتُ براحة وأنا اتأمل القمر بينما أحتسـي القهوة برفقة ضـوء. لم أرد شـيئا بعد ذلك وأسفت أنه لا يوجد بعد جهاز نوقف فيه سباق الزمن.

يحلى ما بينا السمر.

ويطول حديث الهوى.

سر الحياة.

فوجئت بضوء يقبل وجنتي بقبلة سريعة احمر لها وجهي. ضحك ضوء وترددتْ ذراعه للحظة ثم أحاطني بها.

بلا وعي وجدتني أسند رأسي على كتفه. مضت أم كلثوم تحث حبيبها على القدوم كي لا تفوته الليالي. بدأ مقام النهاوند يضفي روحًا شجية، وجدت ضوء قد غير وضعه وأنام رأسه على ساقي وهو غارق في الحياء. ضحكتُ بصفاء غريب ومسحتُ على شعره بينما أنظر إليه بحب عارم، كان لحظتها أبني الذي نام على ساقي وغفا في عمق بينما نتابع رحلة الحياة. لم أشعر إلا أني أمه أريد أحتواءه فلا يفارقني أبدا.

بينما تشدو أم كلثوم برجاء.

يصعب عليّ تفوت لياليه.

من غير ما أشوف حُسنك جمبي.

رنا إليّ مؤكدًا حديث أم كلثوم، تداخلت عواطف شتى صعب عليّ وصفها. أنحنيتُ وقبلت جبينه بحنان وَلِه.

يصعب عليّ تفوت لياليه.

من غير ما أشوف حُسنك جمبي.

و أبات على الأيام أراعيه.

وأشوفه يكبر مع حي.

عادت أم كلثوم في الشدو بقهر وشجن.

يصعب عليّ تفوت لياليه.

من غير ما أشوف حُسنك جمبي

كل إعادة خوالج وعواطف شتى مختلفة عن سابقتها، بأداء مختلف أبدعت فيه في نقل مشاعري، هفتْ روحي ورنوت إلى عينيه الذهبيتين ومسحت على وجه حبيبي البار وأنفعلت وبكيت بحب.

عيناه تقولان لي برجاء.

"رحماك يا مريم!"

قلت له بشهقات حارة.

"لبيك يا ضوء"

أعتدل ضوء وأحتضنني وزاد نشيجي وأم كلثوم تتحسر على ليال رأت القمر فيها دون الرفيق. شعرتُ ببدنه يهتز، كان هو الآخر يبكي، أمسكت برأسه وضممته بشدة شوقي الأبدي. أحبه لدرجة أني أشتاق إليه وهو أمام ناظري وأرغب في فراقه كي أزداد شوقًا. تركتُ حضنه وأمسكت بوجهه. همست له.

"لك روحي فدًا لدموعك"

أمسك يدي وقبلها بينما دموعه تغرقها. أسند جبهته فوق جبهتي. همس بعذوبة.

"أحبك فوق ما تتصورين. وحق روحك الساكنة فيّ منذ بدأ الخلق. أحبك وحق سكناكِ في قلبي"

وجدتُ يده ترتفع وتستقر على شعري الأسود ينتزعه، تسقط خصلات شعري الذهبي على كتفي ووجهي. لم آبه، إن أراد خنقي وَلَعًا سلمت له عنقي هانئة. فما أحلى الموت لو جاء منه! أفديه كل موانع الدنيا التي حرصت عليها طيلة حياتي.

مسح يده على شعري ولم تحرقه أشعته.

"ها قد شهدتُ شروق دنياي فما دنياي إلا أنتِ"

في تلك اللحظة تبدد كل كره لذاتي، صرتُ أحب شعري، شرفي. أحب كل ما أحبّه ضوء.

"إن كان شعري شمس دنياك فأنت ضوؤه"

همس وقد أسند جبينه فوق جبيني مجددًا.

"مريم. أرجوك. لا ترتدي شعرك الأسود من جديد وأخلعي نظارتك، أعلم أن عدساتها مزيفة، لا تسأليني كيف علمت فأنا لا أدري. ما أحلى شعرك وقد أشرقت حياتي حين وقع عليه بصري وما أحلى أن أنظر إلى بحر عينيك دون حاجب!"

"أخشى أن تغرق ولا تعود"

"إن انقذت كل مرة سأحرص أن أعيد كرة الغرق مرارا"

"وأخشى أن يعميك"

"ما أحلى ظلامًا كنتِ أنتِ آخر من رأيتُ قبل حلوله. لما لجأتِ إلى سواد الليل عن فرحة النهار؟ لما بنيتي أسوارًا حول بحرك؟"

تهدتُ وحكيت له كل شـيء، عن أبي وغيبتي، سـجن أمي والدجال وتابعته فاطمة. أحكي حياتى وتمضي أم كلثوم تحكي عن أضطرابها.

أقول أقابلك فين؟

و أبدأ كلامي منين؟

ولما أشوفك يروح مني الكلام و أنساه.

من فرحة القلب ساعة ما يلاقيك وياه.

العراق

بغداد

عام 1946

حديقة قصر الرحاب

ثاني مرة لها في العراق، تنظر إلى الصور المنشورة لزيارتها الأولى فتضحك ساخرة من ذوقها في الملبس. كم كان رديئًا! رغم زعمهم أنها كانت في أوج أناقتها.

شتان بين مرة ومرة. الآن هي صاحبة العصمة، مطربة مصر الأولى لا يزاحمها صوتٌ آخر. هي مطربة القطرين كما أعلنتْ الصحف.

تنهدتْ وقد تذكرتْ فجأة الفقيدة؛ كم كانت بائسة حتى لو لم يمسها مخلوق! تذكر يوم غنّت في جلسة جمعتهم وبكت أسمهان منهارة لا تلحق أنفاسها!

قالوا قتلَتْهَا! أغبياء لا يدركون لذة المنافسة! كانت ذات صوت رائع ولكن ظلّت هي أم كلثوم وأقرّت أسمهان بذلك مرات. هل لهذا أختارت قصيدتها "سلوا كؤوس الطلا" بعد أن غمرتْ الحديقة فرحة في ليلة العيد؟

أبتسمتْ، كان صدرها يبرق بنيشان الكمال حين أحتفلتْ منذ يوم بعيد الملك ونهريه، لم يعطها الجمهور فرصة أن تنهي المقطع ثاروا وهيئ لها أن الشوارع تصيح بدورها.

بدأ اللحن ينبئ عن طرب عظيم، القصبجي ألحانه عجيبة تمس الروح فيتأوه الحضور بوهن والسنباطي ألحانه تتمثل للناس فتثار وجدانهم أما زكريا ألحانه ذات طرب أصيل.

رغم النصر والمجد تظل روحٌ سوداء تنغص على فؤادها؛ لعنة كل إنسان. غيرتْ مسار أفكارها، منحها الملك وسامًا عصيًا كما قرينه المصري. والآن هي مطربة قطريْ مصر والعراق.

وقفت وبدأت وقد مدت ذراعها بالمنديل شاكية.

كل الأحبة أتنين أتنين.

و أنت يا قلبي حبيبك فين؟

هيئ لها أن الشوارع تصيح بدورها وشرعت تغني ناعية حظها من التعاسة والوحدة. رفعت ذراعها لأعلى كأنها بلغت السماء.

يطلع عليّ البدر جميل.

يا بدر مالي أنا ومالك؟

بحّ صوتها بقهر ثم سرت نسائمه في أركان الحديقة.

ماليش يا بدر نديم وخليل!

أوريه ويوريني جمالك.

ثم تصاعدت الألحان لتنبئ بثورة نفسها.

نورك يا بدر يزيد!

ونجعلها ليلة عيد.

يوم ما تطلع على قلبين.

آتنين أتنين.

ثم قامت دون تدريب بعطاء تفاريدها ومع كل كلمة يصيح العراقيون لوعة منافٍ لطباعهم.

و أنت يا قلبي!

حبيبك فين؟

وأنهت المقطع بأداء لم يسبق له، أسف له اللاحقون على اختفاء أثره. قام الملك الشاب وذووه تصفيقًا وهيئ لها أن الشوارع تصيح بدورها.

أديب

42

عدتُ أدراجي خائبًا ولكن أبت قدماي الاستمرار، خرّت ساقاي وأفترشتُ رمال الشاطئ.
يا بحر! إليك شكواي علّك تمد إلي أمواجك وتجرفني مع انحسارها.
أحببتُ ولم أُحبب، سُجنت وما أقترفتُ جريمة، يتيم الأهل والحب، ماتت من كانت تدعو لي وماتت من أفاضت عليّ بجناح عطفها. مالك يا بحر لا تمد أمواجك؟
يا بحر! ليت النوم سيطر على نفوذه. أفقتُ ولم أجد غيثا، دققتُ على باب مريم ولم أجد مجيبًا وكأي عاشق ساديّ بدأتُ البحث عنهما وأنا أعلم أني لن أرى ما يسر. حرصتُ أن أنهلّ من نبع الألم، أهتديتُ على خطى الألحان وقد بدأتْ تعلن عن قدوم القمر ولياليه، حثثتُ السير وأنا استعد للذة الصدمة.
وجدت غيثًا مستلقيًا على ساقيّ مريم وهي تنحني لتقبل جبينه، أعتدل غيث يضمها في لهفة. رغم نشوة الأسى لم أنتظر أن أراهما يغيبان في قبلة حارة.
وعدت إليك يا بحر كأنك الأصل والملجأ الأبديّ! ها أنا أمامك أشكو لك بأسي فلما ما زلت ساكنًا لا تمد أمواجك؟
غبي! أحببتها يوم وقع نظري عليها؛ كنتُ أجوب الجامعة كأي طالب جديد ورأيتها، تبكي بوقار كدتُ لحظتها أن أركض إليها امسح لآلئ عينيها المتساقطة. توهمت أن القدر رحمني حين عرفني غيث عليها. ولكن غبي أنا! ما كانت إلا لعبة جديدة من ألعابه. لما ساكن انت يا بحر لا تثور؟
أخترتُ أغنية لأم كلثوم بلا لحن وليست هي من تغني.
كل الأحبة أتنين أتنين.
و أنت يا قلبي حبيبك فين؟
بدأت أنفاسي تتراخى وأنا أمتص جرعة الألم.
يطلع عليّ البدر جميل.
يا بدر مالي أنا ومالك!
ماليش يا بدر نديم وخليل!

أوريه ويوريني جمالك.

أبكي كالعادة. بدني يهتز من الأسى والبرد، أضم نفسي. قالت أن لها حبيبًا وكان ليث. كيف لم الحظ؟ ولما أشعر بالغدر وما كذبت عليّ ولم أقل له أني في هواها عاشق؟

نورك يا بدر يزيد!

ونجعلها ليلة عيد.

يوم ما تطلع على قلبين.

أتنين أتنين.

و أنت يا قلبي!

حبيبك فين؟

كم تمنيتُ لحظتها لو كان لذلك التسجيل حفلة لطغت لذة الغدر وضناه.

"مالك تجلس وحيدًا هكذا؟"

أنتفضتُ هلعًا.

"من؟"

لم أميز الواقفة امامي.

"أنا سلمى"

لم أهتدِ لشخصها ولم تمهلني كي اتذكر.

"مالك؟ أتبكي يا أديب؟"

"فضلًا دعيني وشأني"

جلستْ بجانبي وكأنها لم تسمعني، تجاهلتها وبدأت أمسح دموعي ولكن كانت تأبى إلا أن تلحق بأخوتها. قامت فجأة وذهبت، لم أندهش فماذا ستفعل لي؟

أنتهى التسجيل وبدأ تسجيل للشيخ إمام يغنيها على العود، أنهنه مع الكلمات بينما تابع الشيخ في الشكوى.

أفوت على الورد الفتان.

ولونه يفرح كل حزين.

يا ورد تُهدى للخلان.

وأهديك أنا يا ورد لمين.

أحاول مسح دموعي بأكمامي.

يا مفرح الأحباب!

بلونك الجذّاب.

ليلة ما تطلع على إلفين أتنين.

و أنت يا قلبي حبيبك فين؟

أنقضى وقت أعدت فيه الأغنية تلك المرة لمطربة مع الألحان ثم أنتفضتُ من جديد حين شعرتُ بحركة بجانبي. كانت تلك السلمى!

"هاك"

وجدتها تمد لي كوبًا ساخنًا، ترددتُ ثم حاولتُ أخذه ولكن كانت رعشة يدي ثائرة ودبيب النمل فيها فوق كل احتمال. أنسكب بعض منه على الرمال وأزداد بكائي احتجاجًا، أسرعت السلمى في أخذه.

"ياربي كم أنت منفعل!"

فاجأتني أن مدت يدها بالكوب تعاونني على شربه. كان شايًا بلبن جوز هند! ثم وجدتها تضع عليّ شالًا.

"ليس عليكِ القيام بذلك"

لم تجب وشرعتْ تشرب كوبها. قالت فجأة.

"كم أردت لو كانت لتلك الأغنية حفلة بصوتها، أو على الأقل أستوديو"

سألتُ رغم شهقات البكاء.

"أتعرفينها؟"

"بلى"

ولم تزد ثم تذكرتها؛ أنها صاحبة العود! بدأتُ أهدأ رويدًا وحين تمالكتُ صوتي سألتها لماذا تفعل كل ذلك وهي لا تعرفني.

"إن كنت تظن لأني لا أعرفك وقد رأيتك تبكي سأهز كتفيّ وأقول مسكين ولكن لا شأن لي بذلك وأتركك فإذن لا أستحق كوني إنسانًا. على الأقل أضعف الإيمان أن أعاونك بقلبي"

"أشكرك"

مضى وقت، أشرب من الشاى بصعوبة بينما المطربة تكمل.

على البحور الناس في نعيم.

وأطلع و أنا شارد وأهيم.
يسري النسيم ساحر هفاف.
يداعب الموج الشفاف.
أنظر و أتحسر لحسن ده المنظر.
و أقول ياريتنا كنا أتنين.
و أنت يا قلبي!
حبيبك فين؟
"أتساءل كيف لأغنية ناجحة كتلك لا تسجيل لها؟ فرضًا أغنية فاشلة فكيف غنتها لملك العراق؟ ولما لم تغنها في الخمسينات كما غيرها. والغريب أن وصلة من وصلات حفل الملك موجودة -سمعتها عند صديق لي- بينما أخوتها مفقودة!"
رنوتُ إليها مندهشًا من معلوماتها.
"ربما فُقدت بسبب الثورات والإنقلابات والفوضى. وربما أيضًا بسبب اجتياح العراق في الماضي"
هزت كتفيها.
"ما ذنب الفن؟"
غرقنا في صمت بينما تهوّن المطربة على قلبها المكلوم.
يا قلبي ده حظك!
خليك فريد وحدك.
أصبر على كاسك.
وأشرب على قدك.
ييجي الهنا في غمضة عين.
والمريحلى لك في كاسين أتنين.
و أنت يا قلبي! حبيبك فين؟
فوجئت بسلمى تضرب على أوتار عودها، أنتقلت من حجاز لكرد للصبا وما زالت شهقات البكاء تسيطر عليّ.
"رفقًا بك لا شيء يستحق"
ثم قالت ضاحكة.

"فلتغني بينما أعزف"

وغنيتُ مرتبكًا دورًا قديمًا. خلتني في حلم فلا شـيء هنا يوافق الواقع! أبكي أمام البحر وبيدي شاي بلبن جوز الهند، وبجانبي فتاة جميلة تعزف العود وأدندن معها. أشعر أني في رواية رومانسية ضعيفة الإقناع!

ضحكتُ رغمًا عني، أبتسمتْ وسألتني عما يضحكني ثم وكأنها أدركتْ شاركتني بدورها في الضحك. أستقرتْ عيناي على النمش الخفيف والأسنان هادئة اللون.

"هاك كوبًا آخر"

صبّتْ لي من الترمس الذي بيدها ولم أتمالك فضولي فسألت.

"أذهبتي كي تأتي لي بالشاي والشال؟"

أجابت بأن أكيد وكأن العطف شيء بديهي. شعرتُ بنوع من السعادة الفخورة.

"لما لستِ نائمة الآن؟ ولما لستِ إذن مع رفاقك"

قالت.

"رغبتُ في مشاهدة الشروق ولا أريد صحبتهم"

"لما؟"

ترددتْ ثم قالت.

"لستُ مثلهم، غير أن أخلاقي لا تتماشى مع تفتحهم الغريب. حشيش، خمر، و."

منعها حيائها من الإكمال ففطنتُ إلى ما كاذت تقوله.

"تصوّر عرض عليّ أحدهم ذلك وكأنه يطلب مني أن أشاهد معه فيلمًا!"

لا أدري ولكني أرتحت لها.

"دعكِ منهم"

أكملتُ.

"نادرًا ما ارى من هم مثلك"

ثم بفضول سألتْ.

"لما كنت تبكي؟"

لم أجب.

"أتدري تعذبتُ كثيرًا حتى حصلت على هذا العود"

"لما؟"

"عائلتي متحفظة؛ ترى الأغاني والعزف من المحرمات. لا أجادل ذلك ولكن قس حرامًا كهذا بالحرام الذي يمارسه البشر كأنه كالأكل والشرب والكذبة البيضاء. عشتُ دائمًا بين أهلي كأني منحلة لا تعبأ بدينها أفسدتها أمها وعشت بين الناس كأني شيخ من الماضي أتى، معقدة ومتخلفة بتديني. وهكذا لا أنا منحلة ولا أنا متحفظة معقدة! لا عرفت العيش مع هؤلاء ولا مع أولئك"

أنخرطنا في الحديث حتى لاحظنا خيط النور معلنا بتغريد العصافير سطوع صاحبة الجلالة الشمس في مملكة السماء. رنونا إلى الشمس وهي تشرق بحياء. ترمي طلاء الورد على السحاب وسرعان ما واتتها الجرأة وأشرقت باعثة الدفء بأشعتها وقد تلألأ البحر من مرآى الشمس.

"حسنٌ سأذهب الآن. أراك صباحا"

مددت يدها لي، تأملتُ ملامحها أكثر. كانت ملامح رقيقة وقد أبتسمت عيناها وأشرق وجهها بابتسامة. وتصافحنا كأننا نتعاهد.

"أراكِ صباحًا"

وغادرت وأسفت حقًا لذهابها. صرتُ لدقائق اتأمل البحر وأنا استعيد ما صار من الأحداث. أنتبه إلى أنها نست شالها معي.

حسنٌ إذن لم يكن وهما. شممتُ رائحة زكية منبعثة منه. عدتُ إلى الغرفة ولم أجد غيثًا فيها. إذن مازال برفقتها.

ونمت وقد وضعت الشال بجانب رأسي كي استزيد من رائحته.

مريم ... ليلى

43

أشرقتْ الشمس وقد رحل القمر ذاهبًا إلى مدن أخرى، بعد بكاء مرير ونهنهة ضمير قلت لضوء.

"علك ترى الآن شخصًا غير الذي خلت أنك تعرفه"

أمسك يدي.

"كلنا ذوو أخطاء وجرائم. لم تقصدي أيًا مما جرى أما أنا فقصدت ودمرتُ بنوة طفلة لأبيها؛ خيرتُ أمي بيني وبين زوجها ثم فوجئنا بحملها في كوثر، لم أكترث لتضحية أمي بعدم إخبار أبا كوثر عن وجودها ولا إحجامها عن معرفة كوثر كنه أبيها، هلك الرجل وكوثر لا تعلم أنه كان حيًا"

قال ضوء في خزي. أمسكت يده.

"لو قتلتَ مئات الألوف من البشر ما أراك إلا ضوءًا أخترق عتمتي"

أنتهنا بأسف لمضي الوقت، وقفنا وعدنا إلى الفندق ونسيتُ الباروكة والنظارة ملقاتين على رمال الشاطئ.

نمتُ ساعات قلائل ثم هاتفني ضوء. وجدتُ أخيرًا أن حبنا قد نضج وأكتمل فصار بالإمكان تبادل أرقامنا لإشعارٍ آخر.

أرتديت ثوبًا ذا لون أوراق شجر الكستناء ومعه شال بسيط قرمزي، لاحظت دهشة أديب فكل حين وآخر يرى شعري بلونين مختلفين!

تناولنا الإفطار وذهب جمعٌ من شركاء الرحلة إلى نشاط ما ولم أهتم بمعرفته، يكفيني الشاطئ الذي أمامي وضوء. جلسنا أمام الشاطئ وتحادثنا قليلًا ولكن بدا أديب منشغلًا بشيء وكان يتلفتُ حوله كمن ينتظر، فجأة أنتفض واقفًا قائلًا أنه سيتمشى قليلًا. لم يترك لنا فرصة الرد عليه فتركنا وحثّ الخطى.

"سأذهب لإحضار ما نشربه"

قال ضـوء وذهب وبقيت وحيدة أقرأ. أنتبهت وقد رفعتُ رأسـي إلى سـلمى تمشـي وحدها، بعد تردد قصـير هتفتُ بها. نظرتْ إليّ بشـك وتقدمتْ في حيرة حتى ميزتْ وجهي وهتفتْ بدورها.

"مرحبًا مريم"

أبتسمتُ بفرحة هادئة.

"مرحبًا"

جلسـتْ بجانبي. سـألتنى كيف صـبغتُ شـعري بتلك الروعة وفي ليلة؟ بلا وعي مسـكت خصلة منه كأني أكتشفت كنزه منذ ساعات.

"كنت أخفيه بالباروكة السوداء"

رنت إليّ كمن ينظر إلى مخبول.

"أحقا تقولين؟"

أجبت ضاحكة أن بلى.

"أمجنونة؟ ما رأيت أجمل من شـعرك! لما تخفينه؟ تبقى أن تقولي لى ان النظارة ذات عدسات مزيفة لتخفي زرقة عينيك"

أبتسمتُ وفطنتْ أن مزحتها قد أصابت فضربت كفًا بكف. ساد صمت قصير فسألتها.

"لما لستِ برفقة رفاقك؟"

"لا أريد الجلوس معهم. أتمانعين جلوسي معك؟"

"لا أبدًا"

أنخرطنا في حديث هادئ وأقبل ضـوء بأكواب قهوة. ألقى السـلام على سـلمى ثم جلسـنا ثلاثتنا نتحدث.

"أين اديب؟"

تساءلتْ سلمى بتردد.

"لا ندري، قام فجأة وأختفى"

أبتسمت سلمى بخفر عجيب ومضت دقائق وأقبل أديب.

"مرحبًا"

قالها أديب لسلمى، لكن كعاشقة أنتبهت للألفة بينه وسلمى. هل أنتبه الغافل؟

هتف ضوء في رعب.

"لما ينزف أنفك؟"

أنتبهت إلى الدم.

"لا أدري منذ أيام وأنفي ينزف"

هدأتُ من روعه وعدتُ بهم إلى الحديث..

كان أسبوعًا رائعًا بالعمر كله. عدنا وبالطبع حصلنا على رقم سلمى لنتواصل، أو قل لتتواصل مع أديب.

حين رننتُ الجرس ولم تمر ثانيتان حتى فتحتْ لي أمي وكأنها كانت جالسة خلف الباب! ضمتني بشوق بينما ماءت عين بجنون وصارت تتمسح بقدميّ، حملتها وغمرتها بالقبل.

"فجأة وجدتها تهرع إلى الباب وتموء بجنون فأدركتُ أنكِ عدتي"

قالت أمي ضاحكة، بعد الغذاء تحدثنا طيلة اليوم أحكي لها ماذا فعلت في الرحلة.

"لم تحكِ لي عن ضوء قبلًا"

قالتها بمكر وأبتسمتُ خجلة.

"ما يمكنني قوله لك الآن أنه أروع من قابلت"

ثم قاطعتني أمي بلهفة.

"ما هذا الدم!"

أنتبهت إلى نزيف أنفي فقلت متأففة أنه ملازمني منذ أيام. ولم تتركني أمي ولم تهدأ إلا ونحن في طريقنا إلى الطبيب ولكن كان الطبيب قد رحل مبكرًا قبل وصولنا. وبعدها تماطلت في الذهاب إليه لأشهر قادمة.

القاهرة

عام 1945

مسرح حديقة الأزبكية

بدأتْ الألحان تصـــدح مرحة في أركان المســـرح، تتمايل الرؤوس في قبول للحن الجديد والمذيع يعلن عن إسم الأغنية الجديدة ومَنْ مؤلفها وملحنها.

تســـرعتْ؟ لا تدري ولكنها حفظتْ الكلمات واللحن وشـــرب عازفوها الإيقاع والتناغم والعديد من البروفات أخذت مجراها في بيتها والاستوديو. هي واثقة وتريد اسعاد الناس.

وقفتْ مع التصـفيق وأبتسـمتْ أم كلثوم وزادت أبتسـامتها من حضـورها البرّاق، فسـتان صيفيّ يبرز خفر نحافتها ويخفيه كما العادة وشعرها مصففٌ بعناية. وبدأتْ.

غنّى الربيع بلسان الطير.

ردّ النسيم بين الأغصان.

تأوه الحضور بخفوت ولكن طغى العزف عليه فلم يظهر ذلك في التسجيل ولم تسمعه أم كلثوم.

غنّى الربيع بلسان الطير.

ردّ النسيم بين الأغصان.

والفجر قال يا صباح الخير!

يا صحبة الورد النعسان!

لم يصفق الجمهور، بدأتْ تقلق ولكن لا لم تتسرع وأعادت المقطع بصوت حاولت إخفاء قلقه.

غنّى الربيع بلسان الطير.

ردّ النسيم بين الأغصان.

والفجر قال يا صباح الخير!

يا صحبة الورد النعسان!

ولم يصفق الحضور! لا لم تتسرع، الجمهور كالنفْس كل حين بحال.

فرح بروحه الكون نادى وغنّى.

وكل لحن بلون مغنى ومعنى.

ظلّت تعيد ولا من مجيب، مازالوا يتذوقون بهدوء، لا داعي للتشاؤم. أعتصرت يديها وقد تعرقتْ بشدة. لحن السنباطي لا يخيب.

و أنت يا غايب عن الحبايب!

ساكت عن القلب الحيران.

وصفق الحضور. أخيرًا! تنفست الصعداء وأرتخت يداها. ليستْ مجاملة. هي تعرف جمهورها وعادتْ الألحان مرحة من جديد وتأكد ظنها فمازال تسحيل مع الهواة كما في الارشيف بعد ضياعه.

ضوء ... ليث

44

ضـمتني كوثر بفرحة وتركتْ لأديب وجنتيها يقبلهما ثم ضـمتنا أمي. لم تمهلنا كوثر لنأكل حتى، لم تتركنا إلا ونحن جلوسٌ نحكي لها ما جرى في الرحلة.

ليلتها حين بدأ النوم في المضيّ بي في طريقه أفاجئ بكوثر تهزني برفق. أنتفضت أسألها إن كان خطبًا ما جرى لأمي.

"لا تقلق فقط أريد الحديث معك"

قادتني إلى غرفتها وجلسـنا على السـرير، أحضـرت بعض الحلوى كانت قد أخفتها وكان هناك كوبين من الشاى أُعد للتو. سألتها ضاحكًا لما كل هذه الأجواء.

"من مريم؟ لم تخبرنا قبلًا عنها ثم نجدك قد سافرت معها!"

قالتها بخبث.

"مجرد صديقة"

هتفتْ بي.

"لا تراوغ"

قلتُ في تسليم ضاحكًا.

"حسنٌ حسنٌ. سأحكي لك"

بدأتُ الحديث قائلًا.

"هي أروع من قابلت"

بعد أيام بدأ الناس في الحديث عن الفيروس الذي أتى من الصـين. في البدء طفق الناس كما المعتاد منذ دهور في المزاح وتحويل الأمر إلى دعابة ولكن أصـرّت منظمة الصـحة أن هذا الفيروس تهديد صريح للبشـرية وتذكرتُ الحمى التي صابتنا وأودت بزوجة خالي؛ كل الأعراض والنتائج وافقت ما مرّت به زوجة خالي.

لم يعر الناس لذلك اهتمامًا وكأننا بصـدد أنفلونزا البقر أو الطيور بضـعة أيام ونواصـل الحياة من جديد.

أنتشـر الفيروس في أنحاء القارة العجوز ثم صرّحتْ منظمة الصحة أنه رسميًا صار وباءًا عالميًا وجب الإحتياط منه. أعلنتْ وزارة الصـحة أول حالة كورونا في مصـر. هنا أُعلن

تعليق الدراسة. طارت لحظتها كوثر من الفرحة ولكن بدأ طوق الخوف في خنقي. ماذا إن أصيبت أمي؟ لن يحتمل قلبها.

ثم بدأ حظر التجوال وحُبسنا جميعًا في المنازل. أختل العالم وتم إعدام شيء ما حاول البقاء في أرواحنا ولكنه أنتهى وبدأت بعده حقبة جديدة بنفوسٍ تختلف في الحياة عما كانت عليه في بداية القرن.

أتفقتُ مع مريم على أغنية الليلة. كان الربيع على الأبواب وبدأ الزهر في التفتح وبعث أريجه في الأجواء ولكن لم يكن هنالك من يشمه فقد بات الكل في منازلهم.

صفّق الحضور لا يدرون عن وباء وإحترازات، وشرعت الألحان مبشرة بقدوم فصلٍ يُذاب فيه جليد القلوب.

غنّى الربيع بلسان الطير.

ردّ النسيم بين الأغصان.

والفجر قال يا صباح الخير!

يا صحبة الورد النعسان!

أبتسمت وقد ملأني دفء الربيع رغم الوحشة.

والفجر قال يا صباح الخير!

يا صحبة الورد النعسان!

بدأتُ في الكتابة.

"مريمي،

ما أحلى الربيع معكِ يا خير صحبة! وقد غمرني أريجكِ مع الأزهار والورود! وحدي من تشرق له شمسان؛ شمس الكون وشمس شعرك وللبشر بحور يتشاركون فيها بينما لي بحر وحدي هو بحر عينيكِ."

فرح بروحه الكون نادى وغنّى.

وكل لحن بلون مغنى ومعنى.

ورقصتْ الألحان بسعادة.

فرح بروحه الكون نادى وغنّى.

وكل لحن بلون مغنى ومعنى.

و أنت يا غايب عن الحبايب!

ساكت عن القلب الحيران.

"الربيع من دونك شـــتاء ذوقحط. مزيجٌ بين عذاب البرد ولظى الحر. ما العذاب فقط احتراق في نار الشوق وليس فقط وحشة برد وإرتعاد روح تنشد دفء الحبيب. العذاب العذاب ما يجمع بين البرد والحروتوابعهم من الألم والضنى.

ما اللحن لحنٌ بغيابك. كيف أتمايل مع ألحان الزهوروأنتِ اللحن الأســمى لي غائبة؟ غيابك غياب الآلة التي تعزف لحن الحب الأبديّ."

كلمني، هو إللي فات يتنسي؟

والفكر عايش فيه؟

طمني إن كان فؤادك قسي.

صابروراضي بي.

"ما كان في بالي أن يتحالف الكون والأقداركي يُحال بيني وبينك. وباءٌ جاء من المجهول كي يفرق وجودنا. صـــارت كل ســلوى في كلمة منكِ تروي ظمأي من لظى القلب. أن اطمأن أن المسافة الفاصلة بيننا لن تفصل بين روحينا."

و أنت يا نور العين!

صوتك يا روحي فين؟

أين صوتكِ وأين حبك؟ كيف لغياب لعب دور الفراق بيننا؟

ياللي غايب عن الحبايب.

ما تكلم القلب الحيران.

والألحان تأخذ في التذكر حسرة على الربيع المفقود، وأم كلثوم تشكو حالها في الغياب.

فضلتْ عايش في الأوهام.

لما إللي فات شفته تاني.

وتصرّ الألحان على المزيد من التذكر.

ولما فقت من الأحلام.

زاد بي بعادك حرمان.

"مريمي، تمرذكرانا أمامي أعيشـــها لحظة بلحظة. أخشـــى اللحظة التي أفيق فيها من الحلم فأراه من أضـــغاثه. أخاف أن أفيق فأرى بؤس حالي وقد أزداد حرماني من غيابك، أجدني مازلتُ خاويًا وأنكِ ما كنتِ إلا نسمة هواء مرّت عليّ وتمردقائق بعد صحوتي فأنسى ملامحكِ وشمسكِ وبحركِ التي عشتُ معها عمرًا قصيرًا."

وتبكي أم كلثوم ناعية بإتجال مزلزل.

فضلتْ عايش في الأوهام.

لما إللي فات شفته تاني.

"لوكنتِ حلمًا أرجواللّٰه ألا أفيق منه؛ ســيّان لديّ لو متُّ نائمًا أو غرقتُ في سباتٍ خالد.

يا حلمي! لا تتركيني أفيق وتمسـكي بسُـبَاتي وأغرقيني في لُجته. لن أخشـى ظلامًا فيه شمسك يشرق كل عمق."

راح إللي راح من الليالي.

والوهم راح من خيالي.

تبدأ أم كلثوم في الشكوى للطيور المحلقة ويشترك العود في النحيب مع بحتها الطاغية.
"تفوت الليالي وأشـفق من كل لحظة تمر لا أشـاركك العيش فيها، سـنندم على مضـيها ولن نستطيع لها عودة.
فمنذ متى أشفق الزمان على الحب وأتباعه؟

فلننسى الوباء. ولننسى معنى البعاد من قاموس العشق ولنهنأ ما تبقت لنا من لحظات.

المخلص دائمًا و أبدًا،

ضوؤك"

و أنت يا غايب عن الحبايب!

ساكت عن القلب الحيران.

تصفيق و أنتهت لحظات الربيع.

مريم ... ليلى

45

على ضوء القمر ساهرة أرقب النجوم حائرة.

رغم كثرة النجوم وحده القمر يملك زمام النور في الظلام، إذا غاب صار دور النجوم كمن يقف على خشبة المسرح دون قول شيء فلا ينتبه إليه مخلوق وهكذا ضوئي الحبيب. طاغٍ حضوره وطاغٍ في غيابه.

أشتد الوباء ومعه أشتد الغياب. قريبة النجوم من القمر رغم بعادها وبعيدة رغم قربها وهكذا أنا، بعيدة عنك يا ضوء رغم قربك وقريب أنت رغم مسافة الوباء الفاصلة!

مع كل غياب يتجدد الأمل، غيابُك أمل جديد في لقياك، مع غيابك أحتال على الزمن وعلم الغيب. ولكن كيف اللقاء والوباء يأبى؟

"صباح الخير"

هي أول ما أصحو عليه، كلمتان وكأنها جمعت حروف لغاتٍ شتى، فيهما من البلاغة ما عجز عن وصفها شعراء كشوقي والمتنبي. أبدأ بهما يومي حتى يجمعنا صوت أم كلثوم على راديو الإذاعة أو حين يختار حال قلبينا أغنية الليلة.

ملّ الناس يومهم المعاد وما مللتُ، كل يوم مع طيفه هو يوم جديد في عُمرٍ مديد.

لأول مرة لا يدري أحدٌ كيف سيقضي يومه المعاد، منذ دهور وعصور يتجمد الزمن ومعه يتجمد مُضيّ البشر قُدُما. ترى أركان البلاد خاوية ملئ برائحة الكحول.

يرى الناس الوجوه تُغطى فصار من الشذوذ أن ترى أحدهم عاري الكمامة. تعجب الناس أن شهدوا وباءًا وكأن لم يهدد مصير العالم عصورًا من الطاعون أو الكوليرا!

ضجر الناس ورأوا أن الهلاك من الفيروس أرحم من تعطل جهاز الزمن وعطبه بتكراره الأيام.

بدأتْ رغم ما يزدحم في حياتي من حضوره أعراض انسحاب ضوء تسري في بدني.

إليّ بضوء! وكيف في حظر التجوال! حينها فقط صرتُ ككل شخص عادي. أتساءل كلما صحوت؛ ماذا سأفعل؟

قرأتُ من الكتب ما يكفي أجيالًا من الأدب والعلم. جمعتُ بين نقيض الملل والسلوى فوحده ضوء الحدث الذي لا أمل له تكرارا.

ذات يوم مُعادٍ هاتفني ضوء.

"مرحبًا"

"ما بك؟"

تهدج صوتي رغمًا عني.

"لا شيء"

"أصدقيني القول"

"أوحشتني. لا أراك إلا في حلم لا يتعد ثوانٍ لم تعدُ وراء الجفون"

وشهقت بالبكاء.

"لستِ وحدك يا مريم. تبقى على الإمتحان شهر ربما تمكنا خلال تلك الأيام بلقاء سريع"

"كيف يكون لقاءًا خلف الكمامات؟"

"نرى بعضنا كما يقتضي الوباء ثم نحدد لقاءات لا لقاءا ما تلى أيام الإمتحانات ولا تنسي لنا لقاء الليلة"

هدأتُ وقلتُ بتسليم.

"لنا لقاء الليلة"

"لي طلب"

"أطلب ما شئتَ"

"أحدد أنا الأغنية. لا راديو الليلة"

القاهرة

عام 1949

مسرح حديقة الأزبكية

بدأتْ الوصلة الثانية بعد قصيدة النيل وبدأت الألحان مبشرة بفجر حنون جاعلة من نسي أن يتذكر.

تنهدتْ بحنان كما تنهد السامعون. للحن عذوبة وشجن فريد، يصفو ذهنك فيستعيد بهدوء وقائع الحياة. تتمايل رؤوس الحاضرين بينما الجالسون حول الراديو من يمسح دمعته بعد أن تذكر حبيبًا ولّى، وزوجٌ يربتُ على كتف زوجه تبكي مع الألحان وليدها الذي مات ولم يتسنَ لها بعد المخاض رؤيته.

دخلتْ الألحان في ملحمة خفيفة -وقد أخذ الكمان الصدارة- تنبئ بثورة تعتري الإنسان.

استعدتْ أم كلثوم وذكرتْ رغمًا عنها من أحبت. أمازلتَ تذكر كما أذكر.

لا تذكر بالتحديد كم مرة غنتها فقد مضت عشر أعوام.

لا زواج فلم يرضَ الجمهور والملك هكذا قيل. أراد الجمهور ورضختْ لأمره والآن بدأتْ تعاني من غدتها الدرقية. خطر على عينيها وصوتها فأيهما تختار؟

تحملها خاطرة وترميها لأخرى.

كيف ترى شكلها في المرآة حين تجحظ عيناها؟ كيف ستبتسم أمام الكاميرا؟ هي آنسة فكيف تلقي بأنوثتها جانبًا وتظل تغني؟

كبرتْ ولا مجال للمكابرة.

تحملها خاطرة أخرى وقد عاد اللحن الحنون إلى المسار الباكي.

عجيبٌ ذاك السنباطي يهرها كل مرة تقدم إليه حديثًا من رامي.

وقفتْ استعدادا وتهادى بها فستانها. بدأتْ تشدو بحنو راجية.

أذكريني.

كلما الفجر بدا ناشرًا.

في الأفق أعلام الضياء.

تريد أن تبكي ولكنها ستبكي غناءا ككل مرة.

القاهرة

أواخر ابريل 2020

في تمام الساعة التي أتفقا عليها بدأ اللحن غامرًا الكون العامر بالوباء.
جلس ليث في شرفة منزله يستمع إلى اللحن في وجد. يستمر اللحن في الإنسياب. أسند مرفقيه على السور يشم من وقفته عبير الياسمين الذى تزرعه كوثر وترعاه.

.....

جلستْ ليلى أسفل النافذة بينما عين نائمة على سريرها. أخذ اللحن في سير ملحمي بعد عذوبة. تتهد باشتياق بالغ ثم عاد اللحن من جديد في الإنسياب بشَجِن. أبتسمتْ في وهن.
أخذتْ أم كلثوم أهبتها للاستعداد بينما يصفق الحضور.

أذكريني.

كلما الفجر بدا ناشرًا.

في الأفق أعلام الضياء.

قامت من مجلسها وواجهت النافذة ورنت إلى السماء، وضعت يدها على النافذة تتلمس برودة زجاجها علّه يهدئ من لوعة قلبها المحترق. وضعت يدها الأخرى على قلبها.
مطرحكَ ها هنا لم يُملأ ولم يخلو. خُلق بكَ ولكَ وحدك. فكيف لي أن أذكرك وما نسيتكَ قط؟
صارتْ تتذكر؛ قبلتها على جبينه وشعرها الأسود بين يديه يرجوها ألا ترتديه.

.....

يبعث الأطيار من أوكارها.

فتحييه بترديد الغناء.

تظنّ أن وحدها من تتعذب وهو لاهٍ في كدّ عامه الأخير بينما الشوق يكباده.

قد سهرتُ الليل وحدي.

بين آلامي وسهدي.

هالكِ نوم كل الليالي فدا السهر المؤرق لجفنيك فلا تسهران، ما نسيتكِ وحق سكناكِ في قلبي فلا شقيتِ يا مريم.

.....

و أنجلى الصبح وهلّ.

و أنطوى الليل وولى.

ما نسـيتكَ وحق سـكناكَ في قلبي فلا شـقيتَ يا ضـوء كنتَ أم غيث. ما أصـبحتُ وما أمسيتُ إلا وروحينا تجتمعان.

عاشتْ ليلى مأساتها وأسندت جبينها على الزجاج بدرامية.

فتذكرتُ الذي كان وراح.

حين أفنيناه أُنسًا ومراحًا.

وجرى دمعي من طول أنيني.

فأرحمي قلبي وحنّي.

وأذكريني.

رفعت رأسها رانية إلى القمر مشرفًا على نافذة غرفتها.

يا قمرًا أبصر العشاق منذ آدم وكان مرسالًا وقبلة للناظرين! أرسل إليه أشواقي.

أسندتْ ليلى من جديد رأسها تنشد انتعاشًا لأعصابها الملتهبة من الزجاج البارد.

أنّت روحها، تشعر بالذل وغيث يعاني كل ذلك الشوق فلا تسعفه بقلبها. كم ذليلٌ الحب حين يقع لعبة في يد الأقدار!

.....

نظر ليث إلى الأفق الخالي وتنهد. ما أبأسه!

مظلمة حياة البشـر من التكرار ومظلمة حياته دون شـمس شـعرها. ترتبك حشـايا قلبه بشتى المشاعر؛ تلهفٌ وشوقٌ وأسًى ووجد. لا يهدأ.

أذكريني.

كلما الطير شدى.

مرسلًا في الدوح.

ألحان الصفاء.

كتم ليث تأوهاته في نشوة مؤلمة، كم يحلو له الكوي بالهجر! ساديةٌ وحدها في علم الحب لها منطقٌ لا خلل فيه.

يُنصت الزهر إلى أنغامه.

فيحيبه ببشْرٍ وإنحناء.

بدأتْ أم كلثوم في النوح ببحة لا ترحم سامعيها.

قد ظللتُ اليوم أبكي.

من أسى دهري ومنك.

كم بكى ولم يخبرها كي لا يزيد من بكائها!

وشدى الطير وغنّى وتناجى وتغنى.

فتذكرت الذي طاف بسمعي.

إذ مزجتُ الكأس في كفي بدمعي.

كيف للكون من عيش حياته ولا يتأثر بالآلام؟ كيف يزقزق الطير كل شـــروق وغروب فلا تدعو أن يرحم الله خلقه من بلائهم؟ كيف للثواني المضيّ وتُحسَـب علينا عمرًا أنقضى؟ كيف وكيف؟

كل ذلك مر بخاطر ليث في ثوان.

وهفا قلبي من طول حنيني.

فأرحمي دمعي وغنّي.

وأذكريني.

.....

أفاقت عين ولاحظت خلو السـرير من ليلى، رأتها تسـند رأسـها على الزجاج وقفزت وحثت خطى أقدامها الأربع حتى لامســتْ ســاقي ليلى وتمســحت بهما، أنحنت ليلى وحملتها بين ذراعيها ورنت مجددًا من خلال الزجاج.

أذكريني كلما الليل سجا.

باعثًا في النفس ذكرى الأوفياء.

ذرفت ليلى دموعها وهي تحاول السـيطرة على تمرد أنفاسـها. كيف تـذكره وذكراه محاصرتها؟

يعرضُ الماضي ويجلو صفحة.

أشرق الإخلاص فيها والولاء.

.....

مضـــت أم كلثوم في التذلل وكأن غناءها مناجاة خلقت للقلبين المعذبين، وكأن نَوحَ الكلمات كُتبت لدموعهما النديتين.

قد سقيتُ الحب ودّي.

ورعيت العمر عهدي.

وبدا لي ما أُلاقي.

من تباريح الفراق.

لم ترحم أم كلثوم جرح فراقهم وصـــارت تندب بإرتجالها. ذرف كلا من القلبين دموع الحرمان، قررت أم كلثوم إنهاء نواحها حين أنهك بؤسها أفئدة العاشقَيْن.

فتذكرتُ لياليا الماضي.

بين صدٍّ وتجنٍ وتراضي.

وأشتكت روحي من نارشجوني.

فصليني بالتمني.

وأذكريني.

.....

كفكف ليث دمعه وهمّ بالإتصال فجاءته منها مكالمة.

"غدًا العاشرة"

"غدًا العاشرة، تحت الشجرة"

ضوء ... ليث

46

كنتُ أسفل الشجرة، ظللت أتلفتّ فلم أجد أثرًا لمريم.

ماذا لو لم تأت؟ طالت مسافة الوباء حتى خلتُ أني لن أراها ثانية ولقائها قد صار حلمًا حلت للأقدار حرماني منه.

مسحتُ قطرات العرق. أرنو إلى البوابة علّني أراها في الشخص القادم وسرعان ما أتبين اختلافه. خلتني أرى سلمى ولكن من توتري نسيت الأمر برمته لحظتها.

هبّت عليّ ريح فطنت بلا شك أني أشمّ فيها ريح مريم ودق قلبي. حتى ظهرتْ، هي بلا شك رغم الكمامة على وجهها.

"مريم!"

حثت خطاها وهي تخلع عنها الكمامة. لم أرها جميلة كاليوم!

خلت المسافة القصيرة بيننا بلادًا. فتحت ذراعي وضمتني أخيرًا. أرتاحتْ أنفاسي رغم دقات قلبي اللاهثة، قبّلت شعرها مرارًا ثم دفنتُ رأسي بين طياته. تمسكتْ بي وأمسكت برأسي تضمني أكثر راغبة أن أتلاشى فيها.

رفَعَتْ رأسي وأمسكتْ وجهي بأناملها.

"ضوء"

همستْ برقة أذابتني.

"أشتقت إليكِ"

هذا كل ما أمكنني قوله وأبتسمتْ وطيف أدمع من بحر عينيها يلمع.

"ما خلتكَ تشتاق إلي بهذا القدر. ما أشد سعادتي وشقائي!"

ضحكتُ ساخرًا من تهويلي الأمر.

"تخيلتُ أني لن ألقاكِ ما حييت"

"حتى ولو فروحي معك على الدوام. اللقاء شيء ماديّ؛ لا يعنى ذلك إطالة الحب. حبنا يفوق كل مادة وكيان، حبي لك أسمى من ذلك فلا أظن أحدًا قد أحب مثلي. حتى لو فنَتْ ذراتي في أوج الكون سأظل هنا -أشارت إلى قلبي- وجودي مقترن بوجودك حتى لو أنعدمْ"

ترددت للحظات ثم قبلتُ فمها بمهل. لحظات عرفت فيها معنى الخلود. رفعتْ رأسـها وقد وجمتْ للحظات وأحمر وجهها، ضـربتني على يدي بشـدة كطفل أخطأ لتوه وأحمر وجهي خجلا ثم ضحكتْ.

"ألا تخشى أن أنقل إليك مرضًا ما؟"

ضحكتُ بدوري.

"سيكون ذلك عادلًا فلا تنسي أني نقلته إليك مرة"

"أرجوك لا تفعل هذا مرة أخرى"

أومأتُ بتسليم ثم جلسنا وسكتنا.

يظن الناس أن الحب منبع المناجاة ولكننا قلنا ألف حديث بصـمتنا وأيدينا متشـابكة، عين الهواء في رئتينا ينقل إلى كلينا ما يعجز الكلام عن إتيانه.

"أين عين؟"

ضحكتْ.

"نائمة. سهرتْ معي طيلة الليل"

قمنا وتمشينا متشابكي الأيدي وسمعنا ضحكًا، أبصرنا إلفين جالسين يتحدثان بحماس. كدنا نكمل السير ولكن هتفتْ مريم.

"سلمى!"

رنوتُ إليهما فإذا هي سلمى وأديب!

أعتراهما وجوم ولم يفيقا بعدُ من ذات الدهشة التي صابتنا. هتفت مريم.

"كنت أعرف أن بينكما أمرٌ خاص"

ضحكتْ سلمى بأرتباك. حين يمسي سر الحب خبرًا تشعر بغرابة الأجواء؛ أنفضح سرنا وسرهما.

سألتُ أديب محاولًا إزالة الحرج.

"هل أخبرتك أمي بمكان الحديقة؟"

أجابت سلمى.

"لا أنا من أخبرته. ما علاقة والدتك؟"

"كانت أمي تأتي إلى هنا وهي صغيرة وأخبرتني لاحقًا بمكانها"

أقشعر جسدي وقطعًا أجسادهم من غموض الأمر. تكلم أديب أخيرًا.

"في الأمر سـر ما. أقدارٌ أخذتْ مسـارها لتهيئ لنا وجودنا، دورٌ محتم سـبق وأتخذ اهبته للحدوث. قالت لي أمي أني من المصطفين، لا أدري في أي حال اصطفيت ولكن وجودنا هنا اصطفاء إلى حد ما"

جلسنا معهم وسخطتُ على تلك الأحداث التي ضيعت عليّ حلاوة لقاء قد لا يتسنى لي من جديد. قالت مريم أن علينا الرحيل.

"خذيني معك"

قالت سـلمى ولاحظتُ سـخط أديب، سـرعان ما تصـافحنا ورحلتا. ظللنا صـامتين لبرهة. سألته بعتاب.

"لما لم تخبرني؟"

"ولما لم تخبرني أنت؟"

وأسقط في يدي. تنهد أديب.

"حين يحدث الأمر ترغب أن يظل سـرًا عن الأقدار والناس، شيء خصـك الله به لا يجدر بك البوح به. أتفهمني؟"

"بلى"

أبتسمتُ وزال سخطي ولكنى لاحظتُ وجومه فأردفت.

"ما قلته فكرتُ فيه سـبقا فلا تظن أني أشـفقتُ أن أخبرك، فلن أثق في مخلوق مثلما أثق فيك، لو أتيح لي البوح فلن أضنه عليك"

أبتسـم أديب وربّت على كتفي، ظللنا جالسـين برهة ثم أرتدينا الكمامات وسـارعنا إلى العودة.

مريم ... ليلى

47

سرنا صامتتين لبعض الوقت.

"تعالي قليلًا نحتسي شيئًا"

رضختُ لأمرها وجلسنا في مقهى ومسحنا الكود على هواتفنا بآلية وخلعنا الكمامات.

طلبتُ قهوة وطلبتْ شايًا بلبن جوز الهند. رشفتْ منه بضع رشفات ثم قالت فجأة.

"كانت جدتي تصنعه لي على الدوام، أخذتُ منها حبها لجوز الهند. في مرة وأنا طفلة سافرتْ -وكانت تعشق السفر- وطال سفرها حتى خلتها ماتت وأحجموا إخباري وطفقتُ أبكي بحرقة، يقسمون لي أنها حقا مسافرة وستعود وعادت ومعها ثمار جوز الهند. كانت أول مرة أراها، أطعمتني إياها ولم أذق مثل طعمه. لا أطعم مثله إلا حين تحضره لي جدتي وبعد أن رحلتْ"

تمالكتْ دمعة كادت تسقط.

"أكلتُ العديد من ثمار جوز الهند ولكن لم أعد أذوقه مثلما كنت أذوقه مع جدتي، أي شيء حلو أضيف إليه جوز الهند. ولكنها رحلتْ، قلت ستعود كما تعود دائمًا ومعها الثمار ولم تعد"

أبتسمتُ بحسرة.

"فليرحمها الله. كانت لك جدة طيبة. جدتي مازالت تحيا ولكن لا تكره أحدًا مثلما تكرهني"

رنت إليّ بصدمة؛ كانت واثقة أن هناك خللٌ ما في الأمر.

"ما من جدة تكره حفيدتها"

"ولكن إن كانت الحفيدة سببًا في فسق أبنتها التي تماثلها عمرًا، وشلل زوجها فلها الحق أن تقتلني لا تكرهني فحسب"

"ياربي ماذا حدث؟ خبريني"

كانت تقولها بصدق لا فضولًا لتعرف.

"أعذري تطفلي ولكني دائمًا استمع وذاك أضعف الإيمان"

حكيتُ.

كفكفتُ أدمعي وأمسكتْ يدي بشدة.

"تقولين باستمرار أنك غاوية. لكني أرى أن كل ما تصدقينه عن نفسك هراء. تمسكتِ بالحق مخافة الله وكي لا تضيع تضحية أمك. مَن حولك هم من كانوا على فسق لا أنت يا مريم!"

ضحكتُ وقلتُ رغمًا عني.

"أسمي ليلى"

"عذرًا؟"

"مريم أسم أسماني به ضوء وهكذا أسميته"

ضحكتْ بشدة.

"لكن فضلًا ألا تعيدي عليّ مسمعه. أنتهى ذلك الإسم من قاموس الأسماء، حتى الإسم أختاره لي أبي"

صمتنا للحظة فعاتبتها هاتفة.

"كنا نتحادث فلما لم تخبريني بأمركما؟"

أبتسمتْ بخجل.

"سر الحب هذا ما يمكنني قوله"

"كنتُ أعلم ذلك. شعرتُ به ولكن متى حدث هذا؟"

وحكت لي.

"كنت أتمنى أن أجد من يخلص لي؛ أنسان لم يمسه حب دنس، لا فتيات في أرشيف مغامراته، فقط انا. قلتُ لن أجد مثله ثم حين عزفتُ وغَنَّى شعرتُ بأوتار العود تذيبني في صوته. أدركت أنه ينعي حبه ولذلك عدلتُ. حين وجدته يبكي بحرقة كدتُ أصرخ في وجهه عمن أبكاه كي أفتك به، أهلك الدنيا بأسرها فلا أراه يبكي. أدركتُ أنه ضالتي"

همستُ وراءها.

"ضالتي!"

ومضينا نتحدث إلى أن أقترب حظر التجوال.

أديب

48

وجدتُ ضـالتي؛ صـرنا نتحادث ليل نهار، لم نفزع من الوباء فحبنا منجينا. كانت أياماً من حلاوتها أخالها حلمًا، لا نسـهو لحظة عن الحديث والمهاتفات بالكاميرا ولكن بدد الشـوق أي إحاطة من اللقاء والعدوى.

"فلنذهب إلى حديقة"

سألتُ أيا من الحدائق تريد.

"واحدة فقط أريد أن ألقاك فيها"

وذهبت وأنحبسـتْ أنفاسـي؛ خضـرة هادئة الكثرة، أشـجار كالسـحاب، زهور كعرائس ساكنة.

"كيف لكِ بمعرفة حديقة كتلك؟"

تنهدتْ وقالتْ.

"كانت جدتي تصطحبني إليها. كانت تقول أني هنا سأجلب معي ضالتي"

.....

حلاوة البدايات؛ مصطلح موجز بليغ.

هنأنا لشـهور وقد ذابت أرواحنا وأتحدتْ ناسـية الكون، أحلى الأوقات حين تدندن على عودها وأغني مع أوتاره. لكن سـرعان ما عاد الواقع وعاندت المادة حتى نغصـت علينا حبنا.

نتحادث ثم تختفى أيامًا فأكاد أُجن، أحدثها فلا تجيب، أجن أكثر وأحدثها مرة تلو الأخرى وتحظر رقمي! أراسلها فترى الرسائل ولا تجيب.

أظل هكذا حتى تعود وتحدثني كأن شيئا ما جرى، أسأل ولا تفسير، صرنا في تلك الدوامة حتى بتّ إنسانًا ملحًا.

أشكو لها، تارة تسمعني وتارة تمثل أنها تتابع شكاتي. ماذا حدث؟ لا شيء فقط مشغولة أو مشاكل لا أكثر. في بعض الأحيان ترمي بحديث تدرك أنه يؤلمني.

مرة شكوت إليها ولاحظت برودها وهي تهمهم إيهامًا لي أنها تتابع حديثي.

"لما يبدو لي أنه لا يهمك قولي؟"

"ماذا تريد يا أديب؟ أن ابكي على أحزانك؟"
وأكتم الطعنة التي تلقيتها للتو.
"كلامك متناقض؟"
ثم صـــاحت فيّ وصـــحتُ فيها وانقطعنا عن الحديث، أهينُ نفســـي بإعادة الإعتذار فوق الإعتذار ولا تشفق عليّ.
أكتأب ويصير من الصعب الحراك ولا تجدي الأدوية التي أنتظم عليها، اشعر بشيء يرقد على صدري وأثقالًا تشد كتفيّ للأرض، ثم تعود وكأن شيئًا لم يحدث.
ثم كان يوم ونحن في الحديقة نتحادث وإذ فجأة تقف وترحل! أنادي عليها فتتجاهل ندائي، غضبتُ لحظتها ولحقت بها أمسك ذراعها، نفضتْ يدي عن ذراعها وهي تصرخ فيّ.
"دع ذراعي. أجننت؟"
تتجمد الدماء في عروقي وأتمتم.
"ماذا دهاكِ؟"
"أريد الرحيل"
"لماذا؟ هل أغضبتك؟"
"لا، أريد الرحيل"
"لما تفعلين بنا ذلك؟ أحقا تحبينني!"
تأففتْ ورحلتْ صائحة.
"سنظل نعيد الكلام السقيم، والله أنت طفل سقيم"
حاولتُ اللحاق بها مكررًا الإعتذار ولكنها كانت في حالة هياج استعصى عليّ أن أتبعها دون تهمة التحرش.
هاتفتها ليلتها و أجابت من أول مرة.
"ماذا؟"
"لماذا تفعلين ذلك؟"
"أديب كفاكَ دور الضحية"
ولم أعِ ما قلته بعدها، صرختُ فيها.
"ضـحية! إن كنت أعيش هذا الدور فهذا بفضـلك، أهنتُ نفســي مرارًا كي أرضــيك وما عشتُ سابقًا إلا على كرامتي التي محوتها"

ضحكتْ وقالت.

"أجل أجل. كرامتك"

صرختُ صراخًا لم أصرخه يومًا.

"أجل كرامتي وآسف أن سفكتها على حشرة مثلك مريضة"

صاحت فيّ.

"أنا المريضة! وماذا أنت إذن؟"

جن جنوني صراخًا أشعر بحلقي يطلب النجدة كأن أشواكًا تغرز فيه.

"بلى، أتعاطى مهدئات ولكنى لا أؤذي من حولي وأتلذذ بإيلامهم. إن كنت ندمت على حماقات في الماضي فأنتِ أكبر حماقة أندم عليها. أعانى بسببك. صابني الإكتئاب مرارًا من مرضك. كلامك متناقض تدّعين كونك إنسانا يشعر ولكنك مدّعية منافقة. آسف على الوقت الذي أضعته معك. و"

طغت أرتعاشة يدي وسقط مني الهاتف. صرختُ صرخة عظمى بح منها صوتي.

"أنتهى كل شيء، لا تريني وجهك أو تسمعيني صوتك"

أمسكت بالهاتف ورميته بكل قوة أملكها حتى تحطم وصار خردة. رغبتُ في البكاء ولم استطع. أفقتُ وغيث وعمتي في الغرفة.

"ماذا حدث؟"

هتفتْ عمتي. طفقتُ أهذي في الغرفة ترنحًا.

"لما كل هذا الصراخ؟ لقد أخفتَ كوثر. ماذا حدث لكل هذا؟"

حاولت أن اهتف بها.

"لا أريد الحديث في هذا الأمر ما حييت"

ولكن لم يخرج صوتي، خرج مني فحيح، حاولت السعال كي استعيده فيزداد الفحيح.

"أنهكتَ صوتك!"

غطيت وجهي بيديّ وشرعت أبكي. كانت ثورة عارمة لم استطع اخراجها لدقائق كدت منها أُجن.

.....

مضـت أيام لم أحادث فيها أحدًا ولم أغادر السـرير. ظننتُ مجددًا أني لن أحيا بعد ذلك ولكن أنتهت أن الزمن إن تخلفتَ عن المضـيّ معه سـحقك ومن تبعه ومضـى في سـيره الأبديّ بينما يتساقط مع كل خطوة أحد التابعين.

بدأت أعيش حياتي ولكن حين حاولت الحديث من جديد لم يخرج صـوتي؛ لا يخرج منه إلا فحيح أجش ولم تفد أي من السوائل الدافئة.

أنهكتُ حبال صوتي بشدة، هكذا أعلن الطبيب.

"متى سيعود؟"

"مع العلاج وعدم الحديث سيعود ولكن ليس كالسابق بالتأكيد"

وجمتُ ونظر إلي غيث بكآبة حتى كسر الصمت متسائلًا.

"لأديب صوتٌ عذب. هل سيعود؟"

هنا أدرك الطبيب فداحة ما أعلنه. تمتم بأسى.

"للأسـف كما قلت لن يعود الصـوت كما كان، قد تهتكت الحبال الصـوتية بشـدة وتم إهمالها على ما يبدو لي ويجب الحفاظ على ما تبقى"

بعد رحلة علاج عاد صوتي ولكن لم يعد مثل السابق كما أعلن الطبيب.

أنتهت هبة الغناء. بكيتُ كلما حاولتُ الغناء ولم يخرج إلا نشاز.

أقسمت أني لن أسامحها، الهبة التي بها عشت وورثتها عن أمي راحت وهي السبب.

.....

دققت الباب وكأن هناك من سيجيب!

"كم يومًا مر؟"

ولم أُجب نظراتها. ساعدتني الممرضة وأجلسناها على الكرسي.

خطوت بها بخطًى ثقيلة، كهل في ثوب الشـباب يحمل أثقال دنياه. وأخيرا بعد عُمْرٍ وفلسـفة أنتهينا إلى كرسي، خطر لي أن أضع كرسـيها بجانبي كي نرى سـويًا حطامنا ولكني أشفقت عليها من عجزها للإلتفات نحوي.

"ما بك؟"

"لا شيء"

"ماذا حدث لصوتك؟"

ولم أتمالك نفسي فأنهرت في بكاء مرّ، ركعت حتى دفنتُ وجهي في ساقيها، لم يلتفتْ أحد فقط أعتادوا هذا المشهد لتكراره. رفعت وجهي بين شهقاتي.

"أهلكتْ صوتي. ضالتي ما كانت إلا ضلالًا يا سارة!"

مريم ... ليلى

49

هاتفتنى سلمي، هتفتُ بها مرحبة وإذا بها تبكي كمن سيموت الآن.

"ماذا بك؟"

"أنا. انا."

لم تستطع الحديث. ماذا حدث؟ أمات لها قريب؟ هل جرحها أديب؟

"أنا لستُ إنسانا. حقًا. أنا أؤذي من حولي. ضاع مني ضالتي. استحق ذلك. آه يا أديب!"

وحددتُ معها لقاءًا بعد أيام أخبرني خلالها ضوء بما جرى.

مضت سلمى في الحديث وقبل أن ألقي عليها حكمي الذي هو قطعا لصالح أديب قالت مضيفة.

"لا أدري لما أفعل ذلك؟ شيء يفوق إرادتي. اصدقاء هجروني لتصرفاتي هذه. منذ رحلتْ جدتي وأنا في ذاك العذاب ولكنه أختفى لفترة. والله أختفى لهذا حرصتُ أن أكون عونًا لكل إنسان وأتى أديب. قلت لا أريد شيئًا بعده. ثم عاد من جديد ذاك العذاب وخسرته" بكت بحرقة.

"أصلحي بيني وبينه. أفعل أي شيء ولكن لا يتركني ويرحل كالباقين. أرجوك"

أسقط في يدي؛ ماذا أقول لها؟ قد حادثت ضوءًا وأخبرني تبعات ما جرى.

"كان بودي ولكن"

"لا يريد الحديث إليّ ولكن أفعل أي شيء"

"لن يجدي الآن شيء يا سلمى بعد ما خسره"

رنت إليّ بقلق.

"ماذا خسر؟ ماذا فعلتُ به؟"

ترددتُ في إخبارها، هي في حالة ندم قد ترمي بنفسها أمام أي سيارة مقبلة إذا عرفتْ. ثم صرخت فيّ.

"ماذا حدث؟"

بعد تردد.

"بعد صـــراخه راح صـــوته، ظل لأيام لا يتحدث وأهمل ما كان يمكن إنقاذه، حين حاول الحديث من جديد لم تُجدِ محاولته وراح للطبيب. تهتكت أحبال صـــوته. لن يســـتطيع الغناء بعد الآن"

توقف بكاء سلمى، هدأت فجأة ولكنها بدأت تهذي.

"أي صـوت سـتذيبني أوتار عودي فيه؟ رحتي يا سـلمى! ضـاع ضـالتي. أريد ثمرة جوز هند. متى ستعود جدتي. كفى صراخًا فإن سليم خائف"

بدأتْ تهذي، قامت وســـارت تترنح في غير هدى وأمســـكت بها قبل أن تدهســـها ســـيارة بلحظات.

.....

ظللتُ أيامًا بعد أن أعدتها إلى منزل أمها -بعد أن هاتفت أبويها المطلقين- أراعيها. أحادثها ولا تجيب. كدنا نستدعي الطبيب، لا تأكل وفقط تشرب.

جاء اليوم الذي أفاقت فيه، تنهدتْ.

"حمدًا لله على سلامتك"

أبتسمتْ وضمتْ يدي.

"أشكرك، أحبك بشدة لو تعلمين"

ثم قامتْ وخطت ناحية العود، قلت ســـتعزف، حملته وضـــمته ثم قبلته. وإذا بها قد حطمت العود!

باتت تخبطه في أي حائط، حاولتُ ثنيها وتهدئتها وحاولت أمها ولكنها كانت هادئة.

"ماذا فعلتِ؟"

تمتمت.

"راح الصوت، راح العود"

القاهرة

عام 1951

مسرح سينما ريفولي.

مضـى مقام الهزام ينشـد ألحانه، الكل يتمايل طربًا قبل حتى أن تقف أم كلثوم، ترنو بفرحة لآثار الألحان على الأوجه والآذان، مضى عمرٌ على آهاتها؛ لاقت نجاحًا خارقا فقد أبدع بيرم في حديثه فأعطته لرفيق عمره زكريا كي يبدع هو الآخر.

حين أطلقت آخر آهة في الحفل الأول للمونولوج ظل السـتار مفتوحًا تتلقى تصـفيق الحضور لعشر دقائق!

ما هذه البلاغة في بيرم؟ كيف ببسـاطة تصـل كلماته لأهاليز النفس؟ وما هذا الشـجن في أحرفه؟

ظلّت تلهي نفسها في الألحان وأفكارها حتى وقفتْ بخفة وصفق الحضور حماسًا للآهات.

رفعتْ يديها إبتهالا تترنم.

آه. آه.

آه. آه.

ويكاد الحضور أن يذوبوا في غيبة متربصة.

آه من لقاك في أول يوم.

ونظرتك ليّ في عينيك.

خاصم عيوني ليلتها النوم.

وبت أسأل روحي عليك؛

يا هل ترى راح يعطف؟

على فؤاد متلهف.

وتصاعدت الألحان رويدًا حتى وصلت للقمة.

تقول لي روحي. آه.

صـفق الحضـور صـراخًا وقد شـد البعض من شـعورهم، مضـت أم كلثوم تسـأل قلبها وعقلها ويجيبان بالآهات المختلفة.

مضـــت أم كلثوم تطلق آهاتها وكادت تختم ثاني كوبليه ولكن انتبهت أنها لا تتذكر كلمات آخر كوبليه وأهمهم! مضت تعيد وتزيد في مقطعها.

بات السرور كله.

بيني وبينك متقسم.

والزهر ويانا ينظر لنا ويتبسم.

وتمد في الميم، وفي كل مرة يصـــيح الجمهور مع كل إعادة حتى لم تجد بُدًا من الولوج إلى آخر كوبليه.

والطير يغني لي والموج يقول وياه.

آه. آه. يادي النعيم.

إللي وجدناه وإللي دخلناه. آه.

ثم شـــرع العازفون أخيرًا في الكوبليه الأخير، التفتت أم كلثوم للقصـــبجي ولم تنتبه أن صوتها ظهر في الميكروفون.

"قصب، أيه مدخل الكوبليه؟"

"وآه لما منعتْ ودادك"

"لا. إللي بعدها"

"والأنس ده أتبدل ببعادك"

وتذكرت الباقي من الكلمات، التفتت سريعًا وعادت تشدو ممسكة منديلها بذل.

وآه لما منعت ودادك.

والأنس ده أتبدل ببعادك آه.

مريم ... ليلى

50

على الميعاد المُتفق عليه بدأ الراديو يُذيع المحطة الإذاعية وكانت الآهات رفيق الليلة.

بدأ اللحن في الإنسياب برشاقة بطربٍ شرقي على مقام الهزام، أسمع الحضور يصيحون طربًا قبل حتى أن تقف أم كلثوم!

جهزتُ الورق وعين مستلقية على المكتب ومن جديد نزف أنفي ملطخًا الورق فجهزتُ أخرى.

آه. آه.

آه. آه.

أجل صدقتِ؛ آهًا وما أحلاه!

آه من لقاك في اول يوم.

ونظرتك ليّ في عينيك.

أكتب ورغما عني سهيت عن متابعة الأغنية.

"ضوئي،

ذكريات فمن يصدق! قارب العام على الإنتهاء؛ عامان من الوباء؛ يخفّ ويشتد ويتجدد متحور جديد أشد من سابقه كأن القدر يأبى إلا الفناء.

خاصم عيوني ليلتها النوم.

وبت أسأل روحي عليك؛

يا هل ترى؟

أيام ولّت وأنحسبت من عمري. هي أحلى ما عشت. يا حبيبي، عمري بدأ منذ أعوام يوم أتيتني بغيثك، قلبي لم يغفُ لحظة، كل دقة تصيح بإسمك. لمّا رنوت إلى عينيك نسيتُ معنى النوم؛ فالنوم يهنأ به كل سالٍ بلا شاغل يداعب روحه. أرق الحب غير أرق الخلق؛ معه تتلهف القلوب لذكرى جديدة تُخلق كي تُسهر.

اليوم كذا من شهر كذا من العام الثالث بعد الحب. أتوق إلى خلق أشهر أسمائها نابعة من شواهد قصتنا."

يا هل ترى راح يعطف؟

على فؤاد متلهف.

تقول لي روحي؛ آه.

هامت أم كلثوم مع تصاعد الألحان فأنّت روحها بآهات بيرم الأزلية!

و أقول لقلبي يا قلبي!

حبه يعادل حبي؟

يقول لي قلبي؛ آه.

وتمضي تسأل حواسها.

وأرجع وأسأل عقلي؛

هو الزمان هيروق لي؟

يقول لي عقلي. آه.

كمن فاض به الحب أتأوهك يا ضوء.

العقل يا ربي ضايع ومتبدد!

والقلب في جمبي يسكت ويتنهد.

آه من لقاك في أول يوم.

وبين رجايا وخوفي. آه.

"كيف لدواعم الحب أن تشكو وتئن؟ لما الحب معك لا ذمّ فيه ولا أسى وقد خالفنا شعائره فتحدى عوادم الدهر؟"

وآه لما بلغت آمالي.

وفرحت بك والجو صفا لي.

ومليت كاساتك وسقيتها.

آه. آه.

آه من حلاوتها.

آه من قساوتها.

أشرب بإيدي كاس يرويني.

وأشرب بإيدك كاس يكويني.

أعلنت كوبها ببحة طغت على حواسي جمعاء، رفقًا بهم كيف تحملوا إبان الحفل ولم يُجذبوا؟ غالبت أضطرابي وعدت إلى الكتابة.

"كأسك رواني وكم كواني كأسي يسقيني إياه الزمان. تعطل وصار يتكرر في رتباته لكن يأبى الرضوخ لعطبه ويظل يمضي أشهرًا. من يستمع إلى قصتنا، من يقرأ عبرتها يقول أوهام قدرومراهقين. واهمون هم!

الحب الحب يوم يتفجر ينبوعه في صخر القلب لحظة تلاقي الأعين. أنه عشقٌ فريد يوم تختار الروح شريكها فقط لحظة التلاقي وما عرفَتهُ بعد! يقولون خيال و أقول حق وعهد. يدق قلبك لحظتها وكأنه ما دق أبدا."

بات السرور كله بيني وبينك متقسم.

والزهر ويانا ينظر لنا ويتبسم.

"أشتاق إلى تلك الأيام، هكذا هو الإنسان يحن لماضيه، للحظة الأولى. أول مرة هي أحلى مرة وإن تبعتها مرات حلاوتها تزداد."

أنتبه إلى أن أم كلثوم أعادت الكوبليه الثاني أكثر من اللازم ولكن لا بأس فالمزيد مزيد من عشق!

والطير يغني لي والموج يقول وياه.

آه. آه. يادي النعيم.

إللى وجدناه وإللي دخلناه. آه.

ودلف اللحن المقطع الثالث وأذوب شجنًا، أنتبه إلى سؤال أم كلثوم عن كلمات المقطع! رائعة حتى في سؤالها!

وآه لما منعت ودادك.

والأنس ده أتبدل ببعادك آه.

وأتنهد حبًا يزداد!

"صارت الجامعة قفزًا بعد أن تخرجتَ. أغبياء في إهمالهم تعيينك معيدًا.

أتخيلكَ تلقي شرحك وأجلس بين الطلبة أتلقى نظراتك و أتيه فخرًا أني وحدي من أملك زمام قلبك ومن تراها بين المئات. ولكن. متى.

ثم مسحتُ ما خطته لتوي. رغمًا عني أتساءل؛ ماذا بعد؟ لن يظل القدر ساهيًا عنا.

تعالى شوف تعالى.

تعالى شوف الطير أهو نام.

من قبل وقت الليل في ظلام.

و أتبدل الزهر البسّام.

لا عطر ينعش ولا أنغام.

تحث أم كلثوم على الوصال. مرة يبح صوتها، ومرة يبكي و مرة كعصفور يغرد.

"ألن نتزوج وننجب من نحكي لهم عن لحظة الخلق؟ ولكن لا أريدك أبًا فقد كان لي أب ولكن أريد أولادًا لهم عينيك يا ضـوء! ولكن لا أريدك أبًا. سـمّه ما شـئت ولكن ليس أبًا. سـتقول إن فاتحتك في الأمر أنك مازلت تبحث عن عمل في زمن بات الوباء عبئًا على الخريجين. في دنيا باتت التكنولوجيا وعلوم الحاسبات هي العيش الرغد.

آه ياللي أسست وهدّيت!

آه. آه.

ياللي عمّرت وأخليت!

آه. آه.

آه ياللي أضحكت و أبكيت.

آه من رضاك ومن صدّك.

آه. آه.

وأنهت أم كلثوم ثورتها المكبوتة. ناقمة أنا وأسـتحق الحرمان من النعم. أنظري إلى سـلمى بعد أديب وقطيعة دامت قرابة العامين. تذبل يومًا بعد يوم وإن حاولتْ الإستمرار.

ظللتُ سـاهية أحلل وأنجّم ثم أعتراني شـعور بعبثية الأشـياء فكففتُ عن المضـيّ في الكتابة.

ضوء ... ليث

51

سيبدأ عام جديد، عام بأكمله أجوب المكاتب بحثًا عن فترة تدريب. لا نحتاج لخريجين في الوقت الحالي أو أترك ملفك. رغم أني تخرجتُ بإمتياز ولكن لا عمل هذه الأيام. الصدارة للحاسبات والذكاء الإصطناعي حديث النشأة. وحدهم من تأتيهم الفرص ولهم خاصية العمل في البيت. تقول أمي.

"لا بأس فلدينا ما يكفي والعائد من البنك أيضًا يكفينا"

"المسألة ليست مالًا بل"

وأحجم عن الإكمال. لن استطيع طلب يدها إلا حين أعمل، لن أعيش عالة على أمي وريع مريم. ناهيك أن أمي تهون من بأسنا، تزداد الأسعار وباءًا وما فاض بالأمس بات بالكاد يكفينا، فماذا إذا هزم الجنيه المصريّ أمام الدولار من جديد؟

أرى كلما التقينا نداء الإقتران في عينيها فأخفض عينيّ خزيًا.

كبرتُ، بالأمس كنتُ صبيًا مع أبي في الميدان والآن راشدًا يبغي الزواج. أركب الأحجيات مع أمي والآن أبحث عن حل لأحجية العمل والحب.

لست من أولئك الذين يرافقون حبيباتهم إلى أجل غير مسمّى. ولم أمضِ طيلة تلك الأعوام دون الحرص على رغبتي بالشراكة الأبدية.

.....

التقينا وجلسنا تحت الشجرة وشردتُ في الأفق بصمت.

"ماذا بك؟"

أمسكت بيد يدها والأخرى أداعب عين.

"كل خير. كونك معي يكفيني"

"أحبك"

ثم أجتاحتني سعادة مبهمة، شعرتُ بالأمل وبالحب، بالعهد والحياة.

"مريم!"

"نعم"

صمتّ للحظات وأنا أطفو على بحر عينيها.

"أتتزوجينني؟"

ذُهلتْ وظلّتْ ترنو إليّ صامتة، خلتها سترفض فأعدتُ عليها السؤال هتافًا.

"أتتزوجينني؟"

ضحكتْ بفرحة وأجتاحها عين الذى غمرني.

"بلى! بالتأكيد بلى"

ثم ضمتني وقفزت، صارت تلف وتدور، تحمل عين وترقص بها.

"متى أقابل والدتك؟"

.....

في المساء جلسنا أنا وأمي وكوثر، كان اديب في غرفتنا كما هي عادته منذ راح صوته.

"أمي"

"نعم يا حبيبي"

"هناك أمرٌ أود الحديث فيه معك"

رفعت عيناها عن إبرة التريكو ورنت إليّ باهتمام.

"هناك فتاة"

أتسعت عيناها دهشة.

"ماذا قلت؟"

هتفتْ بدهشة وقلت ضاحكًا بخجل.

"هناك فتاة أعرفها"

صاحتْ كوثر.

"مريم!"

ألتفتت إليها أمي بدهشة أكبر.

"أتعلمين؟"

"تلك الفتاة أود خطبتها"

وقعتْ أبرتا أمي.

"أحقًا تقول؟"

صاحتْ بفرحة وتلهف لسماع المزيد، ضحكتُ بارتباك.

"بلى، فاتحتها في الأمر ووافقت. أرغب في مباركتك ومقابلة والدتها"

دمعتْ عينا أمي وقامت وقد وقعت أبرتاها والصوف أرضًا وضمتني. ضحكتْ وبكتْ.
"كبرتَ يا حبيبي! أحببت وتريد الزواج! كم انتظرتُ هذا اليوم! ولكن أتدرى شيئًا، أسفتُ يوم صرتَ ثقيلًا لا استطيع حملك. من هي مريم؟ مهلًا حدثتني عنها حين سافرتم. يا لئيم للآن لم تحكِ لي! ولكني كنتُ أعرف. فأنا أشعر بقلبك"
أبتسمتُ خجلًا.
"حسنٌ. الآن أحكي لي عنها وحدد معها موعدا. كبرتَ. كنا بالأمس نرك."
"نركب الأحجيات"
وضحكنا معا، وضعتْ يدها على وجهي.
"لو كان أبوك حيًا لطار فرحًا"
"فليرحمه الله"

.....

حين دخلتُ غرفتنا سأل أديب عن الجلبة ولم يرفع عينه عن الكتاب الذي يقرأه.
"سأخطب مريم"
أبتسم بهدوء وضمني.
"مبارك"
ترددت للحظات وقلت.
"عقبى لك"
لم يعقب، ترددت ثانية.
"ألن تعطها فرصة أخرى"
"أرجوك يا غيث لا أريد الحديث في هذا الشأن"
"ولكنها نادمة وتذبل يومًا بعد يوم"
بح صوته الأجش.
"أتسمع صوتي؟ راحت الهبة التي ورثتها عن أمي. لن أسامحها قط"
ربتّ على كتفه.
"سيهبك الله ويعوضك بحب آخر"
ضحك بمرارة.
"على الأقل نَجَتْ من الهلاك الحائم حولي"

ولم أجد ما أقوله.

.....

صباح اليوم الموعود جلستُ وأمي.

"لا أدري ماذا أحضر لها بجانب الورد"

"ماذا تحب؟"

"أشياء كثيرة، تحب قطتها"

"وتحبك"

قالتها بفخر وضحكتُ بوجل مرتبك، غريب كيف يخجل الأبناء في لحظات العشق أمام من خرجوا من رحمهن!

"وماذا أيضًا؟"

"تحب أم كلثوم"

التمعت عينا أمي.

"وماذا أيضًا؟"

"تحب الأنتيكات -تراها عِشرة تحمل عبق أصحابها- وأشياء أخرى لا أرى أنها تفيد"

"أمهلني دقائق"

وقامت ودلفتْ حجرتها وأنتظرتُ الدقائق. وعادت بعلبة.

"حتى لو كانت تحب الألماظ فلم أرث من أمي خاتمًا متوارثًا ولكني ورثتُ شيئًا ذا عبق خاص"

أعطتنى العلبة، فتحت الغطاء ووجدت منديلًا قرمزيّ اللون. رنوت إليها متسائلًا.

"أعطها هذا المنديل ستحبه بلا شك"

"ما هذا المنديل؟ أكان لجدتي؟"

"نوعًا ما"

أبتسمتْ بحنان.

"أنه منديل لأم كلثوم"

أتسعتْ عيناىَ وصحت.

"أصدقيني القول"

ضحكتْ.

"الحق ما أقول"

أمسكتْ بالمنديل.

"قرأتَ جواب أمي بلا شك، كانت نوعًا ما على صلة بأم كلثوم. أذكر مرة أنها اصطحبتني مرة معهما إلى حفلتها، أول حفل لي وآخر حفل لها. أهدتْ أمي المنديل لي حين أتممت العشرين مع ثيابها وثياب أشترتها لي منذ ولدتُ لجهازي. أخبرتني بإيجاز أنه منديل أم كلثوم وبعدها حرصتُ أنا الأخرى على إبقائه بلا شك. سألتها كيف حصلتْ عليه ولم تجب. قلتَ لي أن مريم تحب الأشياء ذات عبق أصحابها وتحب أم كلثوم فأهدِ إليها هذا المنديل، طبعًا مع باقة الورد"

جاء الليل وأصررنا على إحضار أديب معنا. وقفنا أمام بابهم ورننا الجرس.

مريم ... ليلى

52

"أمي هناك من يرغب بمقابلتك"

رنت أمي بدهشة.

"من؟"

"ضوء، حكيت لك عنه. سيجيء هو وأهله لمقابلتك"

فرحة شابتها حيرة.

"ولكن ألستما على عجلة؟"

خبتْ فرحتي نوعًا ما.

"فقط دعي أمر العجلة نناقشها سويًا يوم يأتون. أنا."

ثم تمتمتُ خجلة.

"أنا أحبه"

تنهدتْ أمي لا أدرى بفرحة أم بحســـرة. ترددت تفكر بحيرة وأنا أرجوها بعيني ثم تمتمت راضخة.

"حسنٌ"

ضممتها فرحة وتأملتني بحنان.

"متى كبرتِ يا ليلى!"

"لا يا أمي! نادني مريم"

.....

يومها هاتفني كعادتنا.

"صباح الخير"

"ألن تقولي لى ما أسمك؟"

ضحكتُ بشدة لتفاهة السؤال على ما يبدو.

"أسمي هو ما سميتني به. لا تنسى يا غيث الساعة السابعة"

لم ينتبه في البدء ثم هتف مندهشًا.

"قلتي غيث! كيف عرفته؟"

"الحب من أعلمني"

"بلا شك أديب"

"أراك مساءًا"

وقبل أن أنهي الإتصال قلت له.

"كان إسمي ليلى"

.....

نهاية سعيدة بلا شك لقصة صادقة. ولكن أخطأت الظن يا عزيزي فالقدر لم يسهُ عنا كما حدست.

وأنا استعد وسلمى تعاونني أسودت الدنيا للحظات، أفقت وأمي تخبّط على وجهي صائحة بهلع.

"ليلى! أفيقي. ليلى!"

"ماذا حدث؟"

"النزيف وسكتنا عليه ولكن الآن يغشى عليك. غدًا سنذهب إلى الطبيب"

هدئتها بعد أن أفقت من جديد، شربت عصيرًا وعدنا للاستعداد، جهزنا العشاء وقد عاونتنا مربية سلمى في إعداده، عاونتني سلمى في ارتداء الفستان ووضع مكياج خفيف.

"ستحسدك الفتيات فوحدك من لم تصفف شعرها يوم خطبتها"

مازحتني سلمى.

"تطلّب النهار بأكمله كي أصفف شعري، هذا ليس عدلا"

طافت بي سحابة كدر؛ وحدي وأمي من سنستقبلهم. هاتفت أمي جداي علّهم حتى يهتفوا فرحًا ولكن باركتْ جدتي ببرود وأنهت المكالمة. فقط أضافت أمي.

"عقبى لفاطمة"

"فاطمة عرسها بعد أشهر، تمت خطبتها منذ أعوام"

لم نسمع صوتًا لجدي وقطعًا عزف عن الحديث إلينا.

عرسها بعد أشهر! لإياد بالتأكيد.

أبتسم بازدراء؛ الطيبون للطيبات! أسفى عليكِ يا فاطمة.

.....

رن جرس الباب ورنوت إلى المرآة آخر مرة، شعري شمسه منساب على ظهري، بحر عينيّ سهدأ لمرآى الحبيب بعد لحظات وفستاني أبيض يختلط معه طيف لون زهري.
فتحتْ أمي الباب، تصافحتُ مع أم ضوء ثم ضوء وقبّلت أخته كوثر وصافحت. أديب! كيف نسيته! ألتقت عيناه بسلمى وأسودّ وجهه. نظرت إلى سلمى وقد أسودّ وجهها هو الآخر.
بتشتيت بالغ صافحتُ من جديد ضوء ثم قبّلت كوثر مجددًا وأرتسمت على شفاهي بسمة بلهاء.
"ما أجملك!"
لم تستطع أم ضوء منعها. جلسنا وتحادثنا في أمور شتى كما يقتضي الأمر؛ عن الأحوال، الجو برد، العام الجديد وعدم الإحتفال به، الوباء، من ماتوا ومن نجوا.
أنتبهت من شرودى وفي يدي باقة من الورد. شهقتُ بدهشة متى أخذتها منه؟ وأبتسمتُ بدفء فوردته الحمراء ما تزال جافة في صندوق الذكرى.
ثم تنحنح ضوء فبدأتْ والدته.
"حكى لي غيث عن"
رنتْ إليّ أمي بتعجب.
"غيث!"
"أسمه غيث يا أمي"
أبتسمتُ مع ضوء مَن تواطأ على سر ما. لم تفهم والدة غيث.
تابعتْ.
"حكى لي عن مريم"
تنحنح ضوء أو غيث.
"أسمها ليلى يا أمي"
ثم ضحكنا أنا وضوء.
"لا أفهم شيئا!"
فحكيتُ بإيجاز لعبتنا منذ تعارفنا.
"حكى لي عن ليلى ويسعدني بالتأكيد أن نطلب يدها منك يا مدام خيرية"
"خيرية بلا مدام"

أبتسمتْ والدته للمجاملة.
"الولَدان يحبان بعضهما"
"بالتأكيد ولكن أفهمي موقفي يا منى للآن لم تتخرج مريم وغيث لم يعمل بعد"
أرتبكتُ وضوء ولكن قالت والدته باطمئنان وثقة.
"الحق ما تقولين وأنا لا أرضى هذا لليلى ولكن الولَدان يحبان بعضهما ، سيعمل غيث حتما سيعمل حين ينقشع الوباء. ليس هذا أول وباء ولا آخره، سينقشع وسيتأتي لغيث العمل وحينها يتم الزواج. فقط سنقرأ الفاتحة وتُعلن الخطبة بيننا في هذه الجلسة. لا عائلة لي لأدعوها للخطبة ليس لي إلا اديب وأولادي. ما رأيك؟"
رنونا إلى صمت أمي القصير ثم أبتسمتْ قائلة.
"حسنٌ فلنقرأ الفاتحة"
وشرعنا نقرأ الفاتحة وأطلقت مربية سلمى زغروطة عالية، أبتسمتُ بخجل وفرحة.
قام ضوء وجلس بجانبي ومعه علبتين، فتح أحداها وألبس يدي اليمنى خاتم الخطوبة وألبسته دبلته وقبّل يدي.
"مبارك"
"مبارك لنا"
قامت أمي وضمتني باكية. باركت لي كوثر، أنحنيت وقبّلتها بصدق هذه المرة.
"سنصير فريقًا واحدًا ضد أخيك"
قبلتني سلمى وصافحني أديب. سلمى! نسيت أمرها في غمرة الفرحة. كانت واجمة وأديب في حالة يُرثى لها.
"هيا إلى السفرة"
"مهلًا"
قالها ضوء.
"لم أعطها الهدية الثانية"
أعطاني علبة، فتحتها ووجدت منديلًا قماشيًا طويلًا قرمزيّ اللون. رنوت إليه متسائلة.
"هذا منديل ورثته أمي عن جدتي. أعطته إياها أم كلثوم"
شهقتُ بجنون.
"ماذا تقول؟"

"حقا أنه منديل أم كلثوم"

"أصدقني القول"

ضحك.

"والله انه منديلها"

لم اسيطر على فرحتي وقفزت أعانقه. أنتهت وأحمرّ وجهي خجلًا.

.....

نهاية سعيدة بلا شك لقصة رائعة ولكن أخطأتَ الظن من جديد يا عزيزي. في اليوم التالي ذهبنا إلى الطبيب.

القاهرة.

أوائل عام 1952

مسرح حديقة الأزبكية

تأهب الحضور للوصلة الأولى في ثاني حفلات الموسم الغنائي لكوكب الشرق ، يخبئ متعهدو الإذاعة قنبلة الموسم والأغاني المحببة إلى القلوب؛ رباعيات الخيام ورق الحبيب.

يستعد المذيع ومهندس الصوت للوصلة ومعهم حشدٌ من المصورين، الكل يستعد كما أم كلثوم ومعهم قصب الذي خيبت أم كلثوم أمله الأخير وعينت عبده صالح قائدًا الفرقة عوضًا عنه، وإن راضته بغناء ختام تحفه الغابرة كل حين، تخشى عليه أن يبدد كل ما بناه من مجد فقط لأمنية كتخبط ميت يحاول الإمساك بروحه.

دقات وأنفرج الستار، وقفت الآنسة في ثوب داكن تعتصر منديلًا ناصع البياض يبرق في اللحظة الخالدة التي وثقتها أيدي المصورين.

جلست ونظرت لقائد فرقتها الجديد وأومأت أن فلنبدأ المغامرة.

أخذ العازفون آخر أنفاسهم قبل إبداع المخاض وبدأت لحظة الولادة تصورها الكاميرات وأم كلثوم تهرب من مخاض الرعب والوجل، تعتصر منديلها ويديها تتعرقان بشدة لحظة الطلق لتحفة فنية ستخلد.

أغنية العمر عن العمر، بعد خصام حاد مع رامي كما العادة عادت لطلب الغفران، سألته مازحة أما من حديث جديد فأتحفها بهذه الدرّة التي أعطتها من فورها للسنباطي.

ترهف أم كلثوم النظر إلى الحشد وهم يتمايلون مع النغم، يجلس أمامها السنباطي، رغم ثقته بأياديه إلا أنه يخشى على وليده -بعد أن رعاه- من الموت المبكر، أشهر وربما عام من الإلهام والبروفات والتمكن من اللحن حتى لم يظل هناك مجال إلا للكمال.

مضت الفرقة تمهد للولادة والكل شهود وأم كلثوم تكتم صرخات لحظة مخاض الإبداع تنتظر لحظة الخلاص لها. طفلٌ آخر سيولد مع الخالدين الذين سبقوه لكلٍ أب ومبدع. ومازالت بكرًا رشيدا!
وقفت أم كلثوم تضـــع حدًّا من الإنتظار والكل متربص، أخذ اللحن مجرى عذب وأمسك الكل أنفاسه للاستماع لأولى شهقات الوليد الموعود.
مدت الآنسة يديها تعلن عن أولي نسائم الطفل بمنديلها الأبيض الذي لم ولن تطوله دماء المخاض أبدًا.

جددت حبك ليه؟

بعد الفؤاد ما أرتاح.
غرق الكل لحظتها في الدماء الزكية، يصرخ الوليد نغمًا.

جددت حبك ليه؟

بعد الفؤاد ما أرتاح.

حرام عليك.

خليه غافل عن إللي راح.

وصاح الحضور تصفيقًا لميلاد الخالد ونست أم كلثوم كل شيء إلا فرحتها بأمومة تتجدد.

ده الهجر و أنت قريب مني.
كان فيه أمل لوصالك يوم.
والكل يصور لحظة الصراخ العذب.

لكن بعادك ده عني.

خلّى الفؤاد منك محروم.

يا هل ترى قلبك مشتاق؟

يحس لوعة قلبي عليك.

ويشعلل الناروالأشواق.

إللي طفتها أنت بإيديك ؟

يا هل ترى؟

وصرخ الحضور إذ تمكنت أصداح الوليد من نشوتهم فزادتها توهجًا فصارت لهيبًا على أفئدتهم. تمكن عبده صالح ببراعة -ليثبت مدى جدارته- بالعودة بالرضيع بعد أن صمت ليعود ويعلن عن حضوره الخالد.
ومضى اللحن والوليد تقودهما سطوة الآنسة في ملحمة جياشة تنبئ عن صدر مؤرق أنسالت من أنامله بذور الوليد في رحم الخلود.

أنت إللي فات بنعيمه.
وراح وساب لي طيفه في خيالي.
آنسة في الخمسين!

خشي مهندس الصوت أن ينهار مكبر الصوت ويُفصل من مهنته. بهت الحضور وبعض النسوة يشهقن رهبة من جلال اللحظة. تغرق أم كلثوم في فرحتها فتجود بإبداعها. تضع يدها خلف أذنها مغمضة عينيها رافعة رأسها للسماء.

أنت إللي فات بنعيمه.
وراح وساب لي طيفه في خيالي.
وتذوب الآلات مع تصرفات أم كلثوم تشُهد الخلق كم الوليد رائع الكمال!

أفضل معاه الليل سواح.

عايش على العهد الخالي.

لم تلحظ مبدع وليدها وهو يذرف دموع الوجد ويذوب مع الشـــهود في دماء الخلود فقد أعتادت منظره هذا منذ ولادات خالدة.

يكاد رامي أن يقطع من فرط وجدانه ما تبقى من شـــعره ويمزق بأظافره الســـليم من وجهه. تبدأ بذور الشك في الإنبات مشككة فعلة الزواج القديمة على الآنسة الوالدة. هل كان حكيما تصـرفه؟ لا يدري. يريد لو ظل راهبًا في محراب تلك الآنســة، ينجبون الخالدين تباعًا حتى يفنى الصـوت والقلم. ولكنه دائمًا يظل في الصـفوف الأولى يرنو كمن تحجر من ألوهية الصوت.

إن مر عالخاطر ذكراك.

تنزل من الوجد دموعي.

ياللي قضيت العمر معاك!

أرضى جفاك و أتمنى رضاك.

والكل يصفق وتُشهِد أم كلثوم الكاميرات أي وليد خالد ذاك الذي ولد للتو!

أديب

53

رجعتُ يومها ولم يتحدث معي غيث، كانت فرحته طاغية فلا رغبة لديه اليوم في المشاركة وجدانيًا في الغم. نمت ليلتها وكلي أمل ألا أصحو. أن أفيق على العدم وأكون نكرة في غياهب اللا معنى، ولكن صحوت.

مضى بعض من اليوم رتيب حتى رن الهاتف فجفلتُ؛ منذ حطمتُ هاتفي لم أهتم بل لم أرغب بشراء آخر حتى شهر مضى. لا أدري الصوت الهاتف الذي جعلني أشتريه.

"ألو"

صمت قصير.

"ألو!"

كدت أغلق الخط.

"مرحبًا يا أديب"

دق قلبي ولعًا وهلعًا.

"ماذا تريدين؟"

ثم سمعت صوتًا آخر خافتًا مألوفًا يحثّها على الحديث ثم بكت. كدتُ أغلق الخط.

"أرجوك. أرجوك"

وتحجرتْ يدي المرتعشة.

"والله آسفة. أشتمني. ألعني. أهني. ولكن لا تغلق الخط"

أعتصر قلبي وفجأة شعرتُ بجفاء العامين الماضيين قد تلاشى. أعتذرتْ! لم يسبق لها أن أعتذرت!

"والله أحبك" هتف قلبي.

"والله أحبك"

قالتها منتحبة وأقشعر جسدي ودمعت عيناي.

"حسنٌ أهدئي. أرجوك"

قلتها بصوت متهدج.

"يحرم عليّ العزف، حطمتُ العود. رحل صوتك إذن وجب رحيل العود"

ودمعتْ عيناي بغزارة.

"لما؟"

"لأني"

"بل لما فعلتِ كل هذا؟"

"صدقًا لا أدري"

لم أدرِ ماذا أفعل، أردت أن أطير وأغمرها قُبلا بأدمعي. أن أصيح فيها؛ لقد فقدتُ صوتي بسببك. أن أهتف بها؛ أحبك ملء قلبي. ولكني صمت.

"أغفر لي أرجوك، قل شيئًا"

"لا أدري ماذا أقول"

"أنت ضالتي مهما فعلتُ فرغمًا عني، قلبي يهتف بإسمك ليل نهار، أناملي تشتاق لأناملك وتصيح ثائرة لهجرك"

كانت تنشج ونهنهتها تُعصي عليها إكمال الحديث.

"أهدأى. من أجل."

ولم أكمل وهدأتْ أخيرًا.

"سنكمل الحديث لاحقًا"

"أقسم بذلك!"

"أُقسم لك"

قبل أن أغلق الخط.

"أبلغي سلامي لمريم"

.....

ليلتها يصفق الجمهور حماسًا وبدأت أم كلثوم تشدو متسائلة.

جددت حبك ليه؟

بعد الفؤاد ما أرتاح.

ومتى أرتاح؟ كاذب لو أدعيتُ ذلك. حفظتُ الرقم الذي أتصلت منه وراسلتها.

"مرحبًا"

رأت الرسالة وردت عليّ.

"كيف حالكِ الآن؟"

"بخير. شكرًا لسؤالك"

قد يبدو الحديث وكأنه بين غرباء ولكني شـــعرت بألفة عجبية وكأنه باب لمعرفة أخرى جديدة. فقط عتابٌ صامت.

"استمعي إلى هذه الأغنية"

وبعثت إليها الرابط ومضيت استمع وبدني يقشعر من الكلمات والصوت يجمعهما اللحن.

ده أنا لو نسيت إللي كان.

وهان عليّ عليّ الهوان.

أقدر أجيب العمر منين؟

وأرجع العهد الماضي أيام.

ما كنا أحنا الإتنين.

أنت ظالمني و أنا راضي.

مضى من العمر برهة وفي غفلة قد يضيع بعد عناد ورياء، أحبها ولا أملك إلا أن أعشقها، هي ظالمتي وأنا رضيتُ أبدًا فلا مفر من العمر، مازال أمامنا العمر فلنجرب عشقًا جديدا.

أنت النعيم والهنا.

و أنت العذاب والضنا.

والعمر أيه غير دول؟

إن فات على حبنا.

سنة وراها سنة.

حبك شباب على طول.

هذا اعتراف مني وكأني كنت على يقين بأن شـيئًا ما جمع بيننا للأبد. مضـمون هذه الأغنية هو العمر وحده؛ لا الحب ولا نكء الجراح.

هاتفتني! بالتأكيد لم تنتهِ في تلك الربع ساعة من الاستماع لأغنية مدتها ساعة على الأقل.

"ألو!"

رجتني باكية.

"أديب أريد المساعدة"

أديب

54

حاولتُ افهامها بهدوء.

"ليس الأمر بهذه البساطة يا سلمى! ليس ألما يعطيكِ الطبيب مسكنًا فهدأ. أنها النفس، ليستْ شيئًا ماديًا تتفق أعضاء البشر فيه على العلاج، فكلٌ له نفسه واستجابتها إلى العلاج. ينجم الطبيب من الحديث -الذي قد يصيب ويخيب حسب مدى صراحة المريض- يعطي علاجا قد يصيب وقد يدمر. للمهدئات آثار طاغية قد تهلك متعاطيها لذلك تجب الدقة في أختيار الطبيب. دعيني أسأل لك وسنذهب معًا"

هاتفتُ الطبيب الذي واظبت معه دهرًا. ولكنه ترك البلاد وسافر لدكتوراة أخرى، أخبرته عن رغبة صديقة لي للعلاج.

"حسنٌ سأرشح لك طبيبة هي أستاذتنا كلنا"

.....

ذهبنا إلى العيادة في مصر الجديدة.

"شكرًا لذهابك معي، لم يكن هناك داعٍ"

أبتسمتُ وأمسكتُ يدها قبل دلوف العيادة، مجرد رغبتها في العلاج وقد لجأت إليّ أمر كافٍ أن أنسى ما كان وأثق فيها من جديد.

الأمان؛ عنصرٌ مهم في العلاقات بفقدانه تفقد العاطفة قيمتها ولن تعود كما كانت. رغم العواصف التي دمرت ديار العشق إلا أنني مازلت أشعر بالأمان معها في العراء.

دلفنا العيادة ووقفنا ذاهلين؛ كأن يوم الحشر أخذ مكانه في تلك العيادة. ما أكثر الجالسين والواقفين. توجهتُ نحو السكرتير.

"أريد حجز كشف"

"أول مرة؟"

أومأت وأعطاني كارتًا لملء البيانات.

"كم رقمنا؟"

سألتْ سلمى.

"25"

فتحتْ فاها فمازلنا عند الرقم الثالث.

"كم يأخذ وقت الكشف"

كدتُ أقول لسلمى أن الأمر لا يأخذ هذا المسار.

"على حسب المريض وشكواه يا آنسة"

"هيا فلنذهب لمكان نشرب فيه شيئًا إلى أن يحين دورنا"

.....

جلسنا في مقهى، طلبتُ قهوة وطلبتْ شايًا بجوز الهند. أبتسمتُ ولاحظتْ ذلك.

"أمازلتَ تذكر؟"

"وكيف لي أن أنسى!"

صمتنا قليلًا.

"لما كنتَ تبكى؟"

أجبت بعد تردد.

"كنت أبكي وهمًا قديمًا"

رنوتُ إلى نار الغيرة البادية عليها.

"ثقي أنه كان واجب الحدوث؛ كان يمهد قلبي للحب الحقيقي"

أعترفت لي.

"يومها كدتُ أطيح بالناس كلها أسألهم ليقروا عمن أبكاك"

عيناها دامعة، أمسكتُ يدها وتهدج صوتها.

"أمازلتَ؟"

"مازلت أحبك"

"حتى بعد؟"

"حتى بعد أن راح ما راح"

ثم غيرتُ مجرى الحديث.

"ماذا فعلت في العامين الماضيين؟"

"حطمت العود"

"وبعدها؟"

"لا شيء. أنتظرت لقاءك"

.....

عدنا إلى العيادة وقد تبقى دوران. جلسنا وقد خلا المكان قليلًا، رن الجرس ثم أشار إلينا بالدخول بعد أن أعطانا الكارت والرقم. رنونا إليه متسائلين.

"لم يأتوا بعد"

دلفنا الغرفة؛ كانت مزدحمة بالصور والتذكارات، رنوت فإذا سيدة كبيرة في السن جالسة خلف المكتب مرتدية الكمامة وراء ستار شفاف إحاطة للأمان، جلسنا بعد أن رحبت بنا.

رنت إليّ وسألت عما أشكوه، أرتبكتْ سلمى.

"أنا التي جئت لأشكو"

وقرأت الكارت.

"حسناً يا سلوم! ماذا تشكين؟"

مضت سلمى تحكي والطبيبة تسمعها.

"منذ متى أنتابتك تلك الحالة؟"

"منذ ماتت جدتي ولكنها أختفت لفترة"

"متى عادت؟"

"لا أذكر، منذ ماتت ماجدة"

"من ماجدة؟"

كدتُ أسأل نفس السؤال، أبتسمت.

"ماجدة الصباحي"

"أوه. كانت ممثلة هائلة، أتحبين الأفلام الفضية؟"

"بلى"

ومضتْ تسأل.

"ألك أخوة يا سلمى؟"

صمتتْ قليلًا.

"لي أخ"

رفعت حاجبيّ دهشة! لم تحكِ لي قبلًا شيئًا من هذا.

غابت سلمى خلف حجاب النفس تعترف لكهنوت الطبيبة ولم تعد تسمع أسئلتها حتى صمتت تستمع لتوبتها.

"كان أبواي على حافة الطلاق حين أكتشفوا حمل أمي، كنت في السابعة آنذاك. رضختْ أمي لصوت يقول أن الحياة بين أبوين تحت سقف واحد خير من انفصال رحيم للأبناء. ولد سليم يحتج على وجوده في تلك الدنيا، شعرتُ بذلك، كان يصرخ ولا تشكو صحته من شيء.

كبرتُ أرعى وحدي سليم فأمي كانت منشغلة في صراعها الدموي مع أبي؛ كل يوم صراع ونقاش لحد الدم حتى لو لم يكن أبي غاضبًا كانت تفعل الأفاعيل لإستفزازه حتى تؤتي محاولاتها دماءًا وصراخا. كانت تكره أبي وربما كرهتنا نحن أيضا أعوامًا!

تأخر سليم عن النطق ولاحظتُ أعراضا غريبة؛ لا يجيب نداءًا، كل همسة ينتفض لها، لا يرنو لعينيّ أبدًا، لا يطيق اللمس. ظللت أبحث حتى تيقنتُ أنه التوحد، حثثتُ أمي أن نذهب به إلى طبيب ولم تعر لحثّي شأنًا.

تدهورتْ حالة سليم حتى كاد يلقي نفسه من الشرفة لولا لحقته، كان يصرخ يحاول أخباري برغبته في الطيران أو الموت ربما. كبرنا وبالكاد يبصق الكلمات، ذات يوم أحتد الصراخ، كنت قد ضقت ذرعًا بهما وبسليم وبي، سددتُ أذنيّ علّ الطنين يهدأ.

حاول سليم أن يختبئ في حضني ولكني صددته.

(سلمى. سليم خائف)

طفق يحاول حتى صرخت في وجهه ودفعته رغمًا عني -دمعت عيناها بصمت- رحل بهدوء تاركًا لي المحيط أنهلّ من ملوحته. أخيرًا هدأ الصراخ وجاءت أمي، سألتني والدماء على وجهها أين سليم؟ ما الذي جعلها تذكره حينها؟ هرعتُ أجوب الشقة باحثة عنه ولكن كان الباب مفتوحًا.

هرع سليم إلى المجهول، شهرٌ ظللنا نبحث عنه أبكي كل يوم خاشعة لله أن يسامحني ويرده لي ولن أصرخ ولن أدفعه.

جاء أخيرًا أمي إتصال؛ وجدوا سليم هكذا صاحتْ، سجدتُ لله شكرًا، لم تكد جبهتي تلامس البلاط البارد حتى صرختْ. بلى وجدوه، جثة متعفنة.

لا أذكر كيف مات، فقط أذكر رغبته في الطيران أو الإنتحار. لم أجرؤ على السؤال.

بعد العزاء تم الطلاق، هكذا ببساطة!

دعك من ضـنى الضـمير، سـمعتُ أمي تخبر جدتي -وكانت مسـافرة وقد عادت- أنها في شهرها الأول من حمل جديد.

قلت عوض من الله! أنتظرت أن تخبرني أمي حتى رابع شهر.

ذهبت إليها أسألها عن الحمل ونوع الجنين.

(كيف عرفتي؟ على كل حال لقد أجهضت الجنين)

هكذا بساطة! خيل لي أني أرى الدماء مازالت على وجهها. حتى الطفل الذي تهيأت له مات هو الآخر، ظللت مع جدتي حتى ماتت وصرت وحدي تمامًا"

سـاعتان تحكي فيهما سـلمى. أقشـعر جسـدي لهول ما سـمعت، كيف تكبدت كتم كل ذلك؟

أعلنت الطبيبة.

"حسنٌ يا سلومة، يبدو لي أنك تعانين من أضطراب ثنائي القطب. مصاب أخوتك وطلاق والديك ثم وفاة جدتك، أثروا عليكِ بشـكل بشـع، وبالتأكيد كنتِ مهووسـة بها وحين تعلقتِ بالقشـة وهي ماجدة الصـباحي خفّ عنكِ وطء المرض لهوس جديد ولكن بعد أن ماتت عاد بشدة.

فرط سـعادة ونشـاط مفاجئين ثم حزن وزهد بالغين بلا داعٍ، غضـب قد يأتِ بأفعال لا إرادية في بعض الأحيان، تستفزين من أمامك كما سبق وفعلت والدتك"

كتبت الأدوية في روشتة ثم أوصت بطبيبة تتواصل معها لعلاج التخاطب والإصلاح.

"تعالي بعد ثلاثة اسـابيع يكون مفعول الأدوية قد بدأ، يجب المواظبة والصـبر فتلك الأدوية تُبنى في الجسم. حسنٌ وأنتَ؟"

"أنا ماذا؟"

"ماذا تشكو؟"

"أنا مرافق لها فحسب، أنا خطيبها"

رنت إليّ سلمى بإمتنان كبير.

"لكن ما بال رعشة يدك؟ أتعاني من داء؟"

"أنها ملازمة لي منذ اعوام لقد تابعت مع طبيب هو الذي رشحنا لحضرتك. تحسنتُ كثيرًا ولكن لم تهدأ للآن"

"إن أردت الحديث فأنت تعلم أين مكاني"

لوحتْ لنا بيديها ونحن نغادر الغرفة.
في الشارع على مقربة من بيتها صاحتْ محاولة تغيير الجو القاتم.
"طيبة تلك الطبيبة"
"بلى"
وحين هممنا بالافتراق وقد ولتني ظهرها وبدأتْ تحث خطاها، خطوت نحوها و أدرتها نحوي وضممتها بشدة. بكت بحرقة فجأة وهي تهتف بي. وغّلتُ أناملي في طيات شعرها وأنا أقبله.
"سلمى"
رفعتُ رأسها إليّ ومسحتُ دمعها.
"أحبكِ وسأظل مهما حدث بجانبكِ"
قبلتني على وجنتي وولت لي ظهرها.
"سلمى"
"أجل"
"حددي لي موعدًا مع أهلك"

.....

ذهبتُ إلى المصحة ودخلت غرفة سارة، جلست على كرسي أمامها.
"مالك فرحان؟"
"أسأتُ الفهم، كانت مريضة أضطراب. أعتذرت لي"
"حسنٌ حسنٌ. مالك كالمدفع تلقي أعترافاتك"
"لأني"
قالت عيناها.
"أنت تحبها، ما رأيتك مشرقًا إلا حين عرفتها. أمضي في حبك ولكن مع بعض التغاضي كي تسير المركب"
قبلتُ جبينها.
"أحكِ لي"
ومضيتُ أحكي لها.

.....

حين عدتُ وجدتُ غيثا منهمكًا في حديث مع مريم أو ليلى، حين أنهى المحادثة أخبرته فورا.
"سأخطب سلمى"
طار وضمني.
"مبارك"
بدا عليه التردد ثم قال.
"لي سر أود أخبارك به"

مريم ... ليلى

55

في اليوم الذي تلى خطبتنا ذهبنا إلى الطبيب رضوخًا لأمر أمي.

"متى بدأ النزيف؟"

"منذ عامين"

"أهناك أشياء أخرى تشكين منها؟"

"هناك فقط نزيف وأنا أغسل أسناني، هبوط أحيانًا، حدث إغماء مرة واحدة"

"حسنٌ. سأكتب لك بعضًا من التحاليل"

"ماذا تشكو مريم يا دكتور"

"دعينا لا نستبق الأمر"

قلقتْ أمي ولم أهتم ففرحتي بالخطبة فاقت كل شيء، دعانى ضوء على الغذاء وذهبنا إلى السينما، خرجتُ باكية. ضحك مشفقًا.

"هوني عليكِ لا تنسي أنه فيلم آخر الأمر"

تمشينا قليلًا ثم هتف بي فجأة.

"لنتزوج"

رنوتُ إليه مندهشة.

"ماذا إذن يفعل خاتمك في اصبعي!"

"لا، لنتزوج بحق؛ لنذهب إلى مأذون"

"أجننت!"

هتفتُ ضاحكة.

"لا. نكتب الكتاب؛ فقط وثيقة الزواج ما أريد كي يصير حبنا حقيقة ونعيد كتابته صوريًا حين يأزف الزفاف، والدخلة بعد الزواج الصوري"

أمسَكَ بيدي ودقات قلبي تصيح أن وافقي.

"أريد أن أشعر أني ملكك، أنك صرتِ شريكتي أمام الله أولًا قبل الناس، لن أفعل شيئًا بعد أن وثقتْ بي والدتك، لنفرح أرجوك"

أجبتُ بلا وعي بابتسامة كبيرة.

"لنتزوج"

ثم أكدتُ عليه.

"نكتب الكتاب فقط"

"بالتأكيد. غدًا سأحضر معي أديب وكيلًا لكِ ونأتي بشاهدين. غدا سيتأكد حبنا"

ضوء ... ليث

56

في اليوم التالي أحضـــرتْ معها ســـلمى وأحضـــرتُ أديب، رفض في البدء وأتهمني بالجنون ولكني أكدتُ له أنه مجرد توثيق لحبنا لا فعل إلا بعد أن نعلن الزواج بكتب كتاب آخر حينها رضخ لرغبتي.

جئنا بشـــاهدين من معارفي القدامى. بدأنا مراســـم كتب الكتاب، أعطينا بطائق هويتنا، بدأ المأذون يخطّ في دفتره.

"ليث محمد عمران الباجوري"

همستْ لي.

"وأسمك ليث لا غيث!"

"ثقي أني ضوء وإن أصررتِ فغيث"

.....

وصـارت زوجتي أمام الله، ضـممتها وتعلقتْ برقبتي بسـعادة، رائع شـعور أن من تحبه يهيم بك.

"مبارك"

أعدتها إلى منزلها وقبل أن نصـعد لشـقتهم شـدتها وغرقت معها في قبلة. أغمضـت عيني ورغبت أن يتوقف الوجود للأبد. أخذتُ أنفاسـي من جديد بعد أن توقفتْ على غير رغبة مني، ضربتْ يدي بخفة وقد أحمر وجهها. أجبتها مدعيًا الدهشة.

"ماذا؟ أنت زوجتي!"

.....

عدتُ وقد خرج أديب مع ســـلمى. كانت كوثر في مدرســـتها لم تزل، دلفتُ باب الشـــقة وسمعتُ أمي تبكي. هرعتُ إليها.

"ما الأمر؟"

ثم وضعتْ يدها على قلبها، أحضرت الدواء وبعد أن هدأ الألم تنهدت.

"رفقًا بك. ماذا حدث؟"

"كيف ستحيا بعد ذلك؟"

منى

57

ظننت أن الأحزان فارقتنا بلا رجعة وأن الفرح قد عاد يتودد إلينا بعد قطيعة ولكن من أعابث انا؟ أنه القدر يأبى تركي.

من جديد سقط الجنيه المصري أمام نده الدولار منذ أيام وقرر البنك خفض العائد.

إذا زوجتُ غيث فكيف أكفل تعليم كوثر حتى تتخرج وتتزوج؟ وكيف سآمن من الإفلاس إذا لم أقتطع من مالنا في البنك؟

.....

"ماذا أفعل يا غيث؟"

أطرق صامتًا. شعرتُ به قد صار طفلًا من جديد مذعورًا ينآى عن حضن أمه. أقتربت منه وضممته. هدأت من روعه هذه المرة.

"لست مقصرًا في شيء. أنا السبب؛ أنا التي حثتك على الحقوق ولم آمن مكر الزمان، كان عليّ أن أفكر في المصائب. لا أريدك أن تكبر قبل الأوان"

قبّل يديّ وأغتصب ابتسامة.

"سأحل الأمر. دعي لي يومين"

.....

جاء غيث بحلٍ أعتصر له قلبي مرتين، سأبقى وحيدة كما كنت من قبل ولكن هذه المرة لا يوجد ملك كي يغمرني بحبه.

"جاءتني فرصة للعمل في الخارج، زميل لي لم يبخل عليّ بترشيحي، وافقوا وهم بحاجة لأيدٍ عاملة، سأهاجر يا أمي وسأحضر رسالة الماجستير، وستأتي كوثر معي"

بكيت ورجوته أن يصرف فكره عن هذا الأمر، سأزوجه إن شاء، سأنقل كوثر إلى مدرسة مصاريفها أقل.

"كلا، جنيت على كوثر من قبل، سأجليها معي وستدرس هناك، ستحصل على تعليم أفضل وفرصة لمستقبل أفضل"

رجوت وتذللت وتمسك غيث برأيه، لو يدري كيف سأكابد بعد رحيله! لا يعلم الأبناء مشقة رحيلهم عن أرحام أمهاتهم فكيف بالرحيل عن الأوطان!

.....

حصـلنا على ورق الإقامة لغيث وكوثر بعد الطواف على السـفارات والهيئات ولكن كان أصعب أختبار يوم كشفت لكوثر عن خبيئة نفسي.

"من سيخبرها؟"

سألني غيث.

"دع لي الأمر"

دلفتُ وكوثر صباحًا باب الحديقة، متى جئتُ آخر مرة؟ لا أذكر، صاحت كوثر من روعة الحديقة.

"أتيت بك هنا مرة وأنت رضيعة"

"لما لم تأتِ بي هنا بعدها؟ الحديقة رائعة، أنظري إلى تلك الشجرة"

دائما مكانها شاغر، جلست معها.

"كوثر! هناك ما يجب عليّ أخبارك به"

نظرت إليّ. حان وقت المواجهة، ربما مات قلبي قبل ظهور الحقيقة.

"تزوجتُ بأبيك بعد أن مات والد غيث"

"أعلم ذلك، أسمي أبوينا مختلفان. لم تحدثيني عنه قط"

رنوتُ إلى الأفق كأنه مازل جلوسًا يرنو إليّ وإلى أبنته.

"كانت تلك الحديقة ما جمعنا، كان حب العمر، ما رأيت أجمل منه، كان فاضـلًا وحانيا. كان يجلس هناك أول مرة رأيته"

وأشرت إلى الشجرة أمامنا.

"كم تحدثنا في مكاننا الجالسـين عليه الآن. مات أبواي وحال أخوتي دون زواجي منه وتزوجتُ بعدها أبا غيث وسافر أبوك"

"إلى أين؟"

"إلى بلاده"

رنت بدهشة.

"أما مصر بلده!"

"لا، كان سـوريًّا ذهب إلى هنا للدراسة وعاد بعد أن أنهاها"

"أبي من سوريا! أنها في حرب!"

"بلى، ولكن وقتها كانت مستقرة لم تحدث الثورة بعد. عاد لاجئًا بعد أن أجتاحت الحرب بلدهم لاجئًا بعد أن استشهد أبو غيث، التقيتُ به ثانية هنا أيضًا وتزوجنا وأنجبتك"

"لهذا كرهَنا غيث؟"

أومأت إيجابًا.

"وأين هو الآن؟ أما عرفني؟ ألم يسأل عني؟"

"سافر من جديد إلى سوريا"

صاحتْ.

"حيث الحرب!"

وسقطت دموعي.

"بلى وأختاره الله ليموت شهيدًا"

صمتت كوثر وقد شحب وجهها.

"ألم يسأل عني؟"

"لم يكن يعلم أني أنجبتك. أخفيت عنه الأمر"

صرختْ.

"لما؟ كان يمكن أن القاه، كان يمكن أن يظل هنا ولا يرحل"

"أردتُ حماية غيث"

"فتجعليني يتيمة حتى وهو حيّ! لماذا تحكين لي ذلك الآن؟"

ضممتُها بقوة وبكيتُ.

"لأنه يجب عليك الرحيل"

"إلى أين؟"

"إلى بلد آخر"

"لماذا؟"

"غيث سيسافر إلى كندا للعمل والدراسة، أريد لكِ مستقبلًا أفضل، ماذا إذا نفذت نقودنا كيف ستحيين بعد ذلك حين أموت؟ ستدرسين هناك وتحصلين على أرفع الشهادات"

"وأنت؟"

"لن يكفينا المال لذلك، سآتى لزيارتكم كل فترة"

صرختْ باكية.

"لا اريد الذهاب. كيف وأنت لست معي. ليث السبب، هو السبب."

لأول مرة تقول ليث لا غيث، عدنا وخاصمتْ غيث ولم تحدثه لشهرين بعدها ولم تواتني فرصة لأعرف عن سبب وجوم غيث وكآبته. هناك سبب ما.

.....

أرقبهما يمضيان إلى جوف المطار بينما لفظني كي أدرك وحدي كيف مضى العمر هكذا. على الزجاج طيف كهلة كانت يومًا صبية لا تحمل همًا ولا حبًا. وغدًا عجوز تحمل نكبة أولادها وأطلال حياتها.

يا غيث! لم تفكر ماذا لو متّ دون أن أراكما، لما لم ترأف بأمومتي، لا أصحاب لي أنعيكما، أصحابي هم أعوامي الغابرة، كل واحدة تندب وتلطم بصراخ وحشيّ.

كيف لأرواحي التي أنبثقت مني أن ترحل هكذا دون تدبر؟ كيف لحياتي أن آلت هذه الأحزان؟

أمضي أمسح دموعي خارجة من المطار، لم تأتِ مريم، لم تسأل عنها وتؤزرها في شقائها، حتى ريح الأحباب تعصف بها وتتركها حطاما.

وغيث كان مرعبًا هذا الصباح، كسّر كل شيء وتركنا المنزل بعدها كي أعود وألُمَّ الحطام ومعه أطلالي!

يا قلبي لا تصمت حزنًا! ويا عمري لا تهرم سريعًا حتى أفرح بالأحزان المسافرة على مطن الطائرة!

القاهرة

عام 1944

مسرح حديقة الأزبكية

يحادث المذيع ذو الصوت الرخيم المستمعين، يحكي لهم عن مفاجأة أم كلثوم الجديدة وهي من كلمات بيرم وألحان زكريا أحمد، يُلقي عليهم كلمات الأغنية إلى حين تنتهي أم كلثوم وزكريا من البروفة السريعة وراء الكواليس، تحمس الحاضرون من الألحان الخفية السارية بين ثنايا الستار.

بدأتْ الدقات وفتح الستار عن أم كلثوم في ثوب السهرة الصيفي ذو الأكمام وفرقتها، حيت الجمهور وجلست وبدأ اللحن في الإنسياب برشاقة.

يغلق معظم الحضور أعينهم من جمال المقدمة، يندمج القانون مع الناي في مرثية عذبة، وقفتْ أم كلثوم وأبتسمت حين وجدت نجاح الأغنية قبل الغناء.

أهل الهوى يا ليل!

وتتمايل الرؤوس بحنان حزين.

أهل الهوى يا ليل!

فاتوا مضاجعهم و أتجمعوا.

يا ليل صحبة و أنا معهم!

وتنفجر عاصفة من التصفيق وقد استبد بأحدهم الوجد والشوق فهتف بحرارة؛ الله! يا سلام!

وتعود الألحان تُغني بشجن وتشدو أم كلثوم بالبداية مرة ثانية وثالثة كأنها دائمًا متكررة. فيصيح أحدهم متأثرًا؛ فعلًا والله!

وعُزفت الألحان كقصة شعبية لا تزال تُروى، أشارت أم كلثوم للقصبجي، فعادت الحكاية للبداية من جديد للبكاء العذب.

أهل الهوى يا ليل!

فاتوا مضاجعهم و أتجمعوا.

يا ليل صحبة و أنا معهم!

تعتصر أم كلثوم منديلها الطويل بالنقوش وتبدأ في إلقاء حكاية الأفئدة.

يطولوك يا ليل ويقصروك يا ليل!

يطولوك يا ليل من إللي بهم!

و أنت يا ليل بس إللي عالم بهم!

وتغمر صبية وجهها بيديها تخفي دموعها.

فهم كسير القلب والمتألم.

وإللي كتم شكواه ولم يتكلم.

وتنتشي أم كلثوم بالصياح، لا تكتمل مسيرتها إلا بشيخها زكريا، كادتْ تبكي وهي تستمع لكلمات بيرم، صنايعي الكلمات الراقي الشعور. ودمعتْ عيناها أمام أوتار العود تضيف للكلمات روعة وأحزان.

وإللي قعد بعد الحبايب وحده.

وبات حزين يشكي هيامه ووَجْدُه.

يشكوا ولا مخلوق سمع شكواهم.

إلا الكواكب في السما سمعاهم.

ولكن حين دخل زكريا إلى الكوبليه الأخير، أعترضتْ ورفضتْ أن تغنيه إن لم يغيره زكريا ولكنه تمسك بقراره فتمسكت برأيها بعناد؛ كانت الأغنية تتصاعد حتى تصل للذروة ولا ترى نهاية أروع من الكوبليه قبل الأخير، لذلك أعتذرت لزكريا وهي تنبذ آهات الليل الأخيرة من المرثية.

يطولوك يا ليل!

من السهد والأفكار.

والشمس بعد الليل

تطلع عليهم نار.

وحل الصمت أحترامًا لجديد أم كلثوم، كان الحضور غارقًا ولم تكن أم كلثوم بمأمن من غيبتها، وضعتْ يدها وراء أذنها مغلقة عينيها.

وبعد طول الويل!

تعود لهم يا ليلي ياليل!

وظل الصمت يصفق للحظات والحضور باهتٌ صامت، ثم عاصفة من التصفيق ألقاها الجمهور بصيحات شتى. أشارت أم كلثوم مبتسمة لتعود لغناء الكوبليه من جديد.

ضوء ... ليث

58

خاصــمتني كوثر ولكن لا وقت لإصــلاح هذا الآن، قابلتُ مريم في كنف الليل في الحديقة. كان الهواء حانيًا وصــراصــير الليل والضــفادغ يتناغمون في أغنية بديعة وشــاركتهم أم كلثوم الغناء.

أهل الهوى يا ليل!

فاتوا مضاجعهم و أتجمعوا.

يا ليل صحبة و أنا معهم!

"ما بكِ؟"

قالت مريم.

"بل ما بك؟"

قلت بألم.

"سأسافر"

رنتْ إليّ بغير فهم.

"أتتني فرصة لمنحة للحصول على الماجستير في كندا وأيضًا فرصة للعمل هناك"

ظلت مكفهرة الوجه رانية إليّ بذهول ثم صرخت.

"ماذا تقول؟ ولماذا؟"

فيهم كسير القلب والمتألم.

وإللي كتم شكواه ولم يتكلم.

ومضيتُ أحكي لها عما خباته عني أمي ووجوب سفري وتأجيل إعلان الزواج.

"وماذا عني؟"

وإللي قعد بعد الحبايب وحده.

وبات حزين يشكي هيامه ووَجْدُه.

"فلتسافري معي"

صدمتْ.

"كنت أشـعر بقدوم هذا اليوم، يوم تعلن لي أن القدر يرفض حبنا كما كنت سـأعلن لك عن."

وأغتم وجهها بكربٍ كبير فوق كربها.

يشكوا ولا مخلوق سمع شكواهم.

إلا الكواكب في السما سمعاهم.

لم أنتبه لإشارتها.

"لا تنسي أنكِ زوجتي وهذا سيسهل لك السفر معي وإتخاذ الإجراءات"

ظلت صامتة. تهمهم بكلام لا معنى له.

"دعني أخبر أمي. ماذا أقول لها عن زواجنا؟"

"لا تخبريها شيئًا، إن حتم الأمر نتزوج أمامهم من جديد"

يطولوك يا ليل!

من السهد والأفكار.

والشمس بعد الليل نار.

انتهنا أخيرًا لإصرار أم كلثوم لنكء جراحنا، رنوت أمامي وإذا مريم تريح رأسها على كتفي، أحطت ذراعيها ونظرنا للأشجار أمامنا.

وبعد طول الويل!

تعود لهم يا ليلي ياليل!

زفرتْ مريم بحرارة.

"ما سرّ الليل؟ لما الحزن فيه سارٍ هكذا؟ تلك النسائم وألحان الصراصير خلف الفروع، أم كلثوم تبكي مرثيتنا. لما أحبك أكثر في الليل؟"

"ربما لأن الليل حجاب يخفينا داخل نفوسنا فيكشف لنا عن آلام دهرنا، مريم أنا آسف"

"لما؟"

"لأني تزوجتك دون حساب"

ولم تجب. ظللنا ساهمين كأننا نبكي صمتًا.

ناس من قلوبها تقول يا ليل!

وناس على أرغول تقول يا ليل!

وأناس من صمتها تبكي ألف مأساة!

نظرت إلي مريم.

"أنا آسفة"

"لما؟"

"لأنك أحببتني، لأنك انتشلتني من عتمتي وستتركني أنت يا ضوء ساعيًا إلى ظلمات الغربة"

وضعت يدها على خدي. همست ودموعها تتلألأ خلف ظلال الليل.

"أحبك بشدة لو تعرف. هيا بنا"

.....

شاركنا أديب أحزاننا وتعذر لذلك طلب الزواج من سلمى. هاتفتُ مريم ولم تُجب، راسلتها ثم أجابت عليّ.

"لن أسافر. ورجاءًا لا تتحدث إليّ لبعض الوقت"

"هل أخبرتِ أمك؟"

"لا أنها رغبتي"

وقضيتُ أيامًا بعدها أحاول الحديث معها؛ أذهب إلى منزلها فلا يجيب أحد، هاتفتُ سلمى ولم تجد ما تقوله لي. ظللتُ في هذه الحيرة مع التحضيرات حتى هاتفتني سلمى.

"ليلى تخبرك أنها متخبطة في حبك والشك يغمرها. لقد شعرتْ بالغدر بقرار سفرك دون أخذ رأيها، هي لا تريد السفر معك، سافر وحين تعود تكون قد هدأتْ وعادتْ لك من جديد"

ما هذا العبث؟ تعلم أن الأمر خارج عن إرادتي؟ هناك أمر آخر. لم أدرِ ما أفعله.

الشخص الوحيد الذي تريد أن تخبره عن أساه هو سبب أساك! ماذا فعلتُ؟ أتخبط أيامًا بين الشك واليقين وغربتي الوشيكة.

حان يوم السفر، بعد أن جهزنا حقائبنا وجوازات سفرنا والتأشيرة، هاتفتها فوجدتها قد حظرتْ رقمي! بعثت إليها رسالة صوتية أبكي فيها وأرجوها أن أودعها على الأقل، وحظرتْ محادثتي ايضا. ذهبتُ فورًا كالمسوس ودققتُ الباب بشدة، فتحتْ أمها الباب، على وجهها خوالج وانفعالات.

"مرحبا يا بني!"

لم تفلح في كتم حشرجة في صوتها، أرادت أن تحضر لي شايًا ولكني أخبرتها أني على وشك السفر. سألتُ بوجل وقلبي يصيح لهاثًا.

"ماذا بمريم أصدقيني القول؟ أين هي ولما كل هذا؟ أنا لا أفهم شيئا"

تظاهرتْ بالثبات ولكن عينيها تئنّان!

"الفتيات أحيانًا يتخبطن في حبهن، أنها مخطئة ولا حق لها ولكنها زوبعة شك وستروح"

كانت في حالة يرثى لها قطعًا ليس جفاء مريم السبب.

"أريد أن أودعها"

"هي ليست هنا"

طفح بي الكيل، قمت وجريت إلى غرفتها.

"صدقًا ليستْ هنا"

ولكني فتحت باب غرفتها، كانت حقًا فارغة ووجدت وردة حمراء جافة مفتتة على أرض الحجرة! شعرت بشيء مبهم؛ أن كل شيء ضاع وتفتت مع بقايا الوردة على الأرض. أول وردة أهديتها إياها.

وحثثتُ الخطى وخرجتُ وستار من الدمع يغطي جفنيّ ولم أُعر لأصداء بكاء حماتي شأنًا.

مريم ... ليلى

59

"سافر؟"

ترددتْ سلمى ثم أعلنت.

"سافر"

بكيتُ بحرقة وقد ضمتني سلمى.

"هوني عليك"

.....

قبل أن يخبرني عن عزمه للسفر حملنا نتيجة التحاليل وذهبنا بها إلى الطبيب. تأملها الطبيب مليًا فقلقنا.

"ماذا هناك يا دكتور؟"

"مدام خيرية، مريم، أنكم مؤمنون بقضاء الله. الأوراق أمامي تقول أنك مصابة"

وصمتْ ككل الأطباء حين يهمون بإعلان الفجيعة. صرختُ فيه.

"مصابة بماذا؟"

"لوكيميا؛ سرطان الدم"

شهقتْ أمي وشردتُ في باب الحجرة. خبطتُ بيدي على رأسي مرارًا. أريد الإفاقة من هذا الكابوس. ضمتني أمي باكية.

"هاك أسم طبيب أورام ممتاز"

.....

في العيادة أرقب المرضى؛ هاكِ شخصًا فقد شعره وأعتراه الهزال، وهاكَ طفلًا في آخر أيامه. أين انا؟ أحقا أنا مريضة سرطان!

ظننتُ أني معصومة منه، ما جال ببالي أني لستُ استثنائًا.

المرض يبدو كالموت تظن بلا وعي أنك وأحبّاءك بمنآى عنه وإذ به يقتحمك على حين غرة.

يبدو لي كأن صار الورم في الأجواء؛ في الطعام والشراب، محفزات للورم كي تفنى البشرية ويزداد الغنيّ غنىً بمال العلاج، وكلٌ حسب استجابة بدنه للورم وتحفزه لإنتاجه.

كانت هناك زميلة في المدرسة أُصيبت أمها بورم في الثدي؛ عولجت وسرعان ما اكتشفوا ثلاث أورام في مختلف الأعضاء، وماتت.

أهذا مصيري؟ الموت؟ وغيث، حبيبي بل زوجي! ماذا سيحدث له؟

أرغب هذه اللحظة في سكين لا لأقتل نفسي بل لأطعن جسدي الذي تمرد وأذعن للمحفزات وأنتج الورم.

دخلنا للطبيب.

"كان يجب أن تكشفي منذ بدأ النزيف؛ نوع الورم عنيد في علاجه ولكنه في مرحلة فوق المتوسطة لذا وجب الإسراع في العلاج كي لا يتفاقم"

التفتُّ للطبيب بعزم. "بعد يومين مناسب؟"

رنا إليّ بدهشة.

"يجب البدء في حجز غرفة في المستشفى"

قلتُ وبدأت ألهث من هول ما أسمع فلم اتخيل يومًا أني سأقول وأسمع مثل هذا الحديث.

"إذن أبدأ فورًا في الإجراءات، يجب أن أعيش"

.....

ليلتها قابلتُ ضوء. ماذا أقول له؟ هناك خطب ما، لا تقلق يا زوجي العزيز! بعض الورم أصابني.

لكنه كان مهمومًا ولم ينتبه البتة لتجهمي، شعرت بلا وعي بنوعٍ من الغربة كأنه سافر فعلًا، قبل أن ألقي له القنبلة ألقى خاصته، كنت أتأهب لعويل مؤثر، لكنه شتت كل فرصة للبكاء أمامه.

حتى في الحب يبدو أن المرء لا يستطيع أن يرى سوى مأساته، أشعر أني خائنة بدوري وجاحدة أهتم بمرضي أكثر من غربته الوشيكة، وأحجمت أن أخبره كي لا أزداد خيانة.

ماذا أقول؟ سافر يا زوجي وحين تعود ستجدني، هكذا ببساطة!

لا! يجب ألّا يعرف! سيهلك، لن يسافر وهو مكلوم في زوجه.

حين هاتفني لم أجب، بعثتُ إليه بأصابع دامية.

"لن أسافر"

.....

بكتْ سلمى بحرقة حين علمتْ بمرضي، همستُ لها ليلة الذهاب إلى المستشفى لبدء العلاج.

"ضوء لن يعرف"

بكتْ سلمى من جديد.

"ما أبأسك! لم يمضِ وقت على زواجكما"

ضمتني. وحمدت الله أن أعطاني عونًا لم يقتلني، ها هو العون سيتأهب لرحلة طويلة من التعب والعلاج.

"أمي إن أتى ضوء لا تفتحي له الباب وإن الّح في دق الباب"

"ماذا ستقولين له؟ بل ماذا سأقول إن سألني"

تهدج صوتي.

"أني أشك في حبى له، خائفة ولا أثق به. إن حتم الأمر لم أعد أحبه. إلا أني في المشفى راقدة من أثر الكيماوي. لا أريده أن يراني وقد"

وبكيتُ بحرقة.

عادت سلمى إلى بيتها لتنام كي تظل معي صباح الغد، أوينا إلى حجرتينا لننام ونحن نعلم أن أحدًا منّا لن يرحمه النوم. وقفتُ أمام المرآة ورنوت إليّ؛ شعري، شمسه الذي كرهته، الآن بعد أن أحببته وصار كل حياة ضوء. يسقط؟ والله أعلم متى سيعود، هذا إن عاد!

دمعتْ عيناي وأنا أتحسس خصلاته. توجهت نحو الدولاب وفتحت علبة الذكرى، تلقفت وردة حمراء جافة، تساقطتْ العبرات علّ الوردة تنتعش وتعود مزهرة وتعود بي يوم جاء مترددًا أعطانيها ورحل.

وظننتُ أنه فتن بسحري وراح أثره يوم غبت أياما، ثم صادق في حبكِ وحق سكنالكِ في قلبي.

أعتصرتُ الوردة ألمًا فتفتتْ بقاياها على الأرض. وحق سكناكَ في قلبي أغفر لي جفائي فوالله كرهك لي أرحم من وجلك يوم تسافر وقد أخبرتك ببساطة أن عندي بعض الورم فلا تقلق يا زوجى العزيز!

ستسافر وحين تعود أكون شفيت وقد عاد شعري وثار بحري. ترحل وغيمة كدر تخفي شمس شعري أرحم لنا من مغيبه.

صوت خشخشة على الباب ومواء. عين! كيف نسيتها؟ فتحتُ الباب وحملتها أغمرها قُبُلًا وأدمعًا.

لعقت خدي بلسانها.

"سأعود"

.....

وذهبت إلى المستشفى، وضعت أمي حاجياتي في الدولاب.

"أتصل بي خطيبك"

دق قلبي وجلًا.

"لم أجبه، لا تقلقي"

فتحتُ حقيبتي وأخرجت منديلًا قرمزي اللون الذي أعطاني إياه. أعتصرتُه كما أعتصرَتْه صاحبته ذات حفل. ونزلت دموعي.

دخل الطبيب يطمأن أن كانت الغرفة قد نالت إعجابي.

رنوتُ إليه. أغبي هو! سأتعرف على الكيماوي وأنازله بعد ساعات أو ايام، فهل ستحدث الغرفة لي فرقًا؟ قلت له متجاهلة سؤاله.

"أريد البدء"

رنا إليّ بدهشة معتادة.

"أرتاحي أولًا"

صحتُ به.

"أريد البدء الآن"

وبدأتْ أولى جلسات الكيماوي، بعد أن أنهيتها كنت جثة متعفنة جميلة، لم أقوَ حتى على الحديث. بكتْ أمي وضمت سلمى يدي.

"أنت شجاعة. أنت مريم"

حتى الإبتسام لم استطعه، فقط دمعة حارة شكت آلامي.

دخل الطبيب وسألني بمرح أتقن أداءه.

"كيف حالك يا بطلة؟"

أردت لعنه من الأعماق ولكني لم أقوَ على ذلك ولم أعتده.

"ليلى"

تمتمتُ جاهدة.
"مريم"
"مريم! عليك التحمل. بعد الكيماوي سـنلجأ ربما لزراعة خلايا جذعية لتأكيد الشـفاء ولكن علينا أن نجد متبرعًا. بجانب أمك ألك أخوة؟ أعمام؟ جدود؟"
رغبتُ في الضحك بشدة ولكني لم أقوَ على ذلك أيضًا. شرحتْ له أمي أنها وحدها أهلي.
"ذلك سيقلل فرصة إيجاد توافق"
رحل الطبيب، مالت عليّ أمي.
"حبيبتي. أتصلُ بجديك، عمك إن حتم الأمر، إن لم يكن هناك توافق بيننا"
غالبتُ ضعفي وهززت رأسي بشدة وهدأتني أمي ومضت بي أيام عسيرة.

.....

صحوتُ يومًا وأمسكتُ بخصلة ذهبية على الوسادة، تحسستُ رأسي فوجدتُ فراغًا، نزلتْ دمعة مني ولم أتمكن من البكاء. ذهبتُ جاهدة وفتحت علبة المنديل ووضعت الخصلة وأعدتُ الغطاء.

.....

"سافر؟"
"سافر"
وبكيت. أخبرها أديب، كان متواطئًا معنا، همّ مرات بإخبار ضوء رأفة بحاله ولكن حثته سلمى على الجلد.
"قال أديب أنه عاد ثائرًا من زيارته الأخيرة ومضى يكسر أي شيء قابله ثم حمل الحقائب وذهبوا إلى المطار"
قالت أمي.
"أتاني صباحًا ولم استطع تركه خلف الباب. لا أدري لما ولكنه حين طاف البيت باحثًا عنك وحين وجد غرفتك خالية. رحل ثائرًا!"
ظللتُ أتساءل عما أثاره؟ يا إلهي! مازالت بقايا الوردة على الأرض حيث تركتها! ماذا ظن؟

.....

القاهرة

أواخر عام 1960

سينما أوبرا

يثرثر الحضور بعد انتهاء الوصلة الأولى، لا يدرون المفاجأة بل المفاجأتين الاتي تنتظرهم، ربما حدس البعض أن لحنًا جديدًا على أهبة الظهور فقد كانت الآلات تدندن لحنًا غريبًا عن آذانهم خلف الستار. يتحدث المذيع عن الموسم الغنائي الجديد وسعادة الحضور والسامعين، يفجّر المفاجأتين للسامعين؛ الثانية لحن عودة التعاون مع زكريا وبيرم بعد قطيعة طويلة والأولى يتحدث عن سعادة المؤلف والملحن في أول تعاون لهما مع أم كلثوم ومازالوا شبابا!

أنتهت أم كلثوم من البروفة السريعة وجلستْ خلف الستار بينما مضى المذيع يُمْلِي الكلمات الجديدة. قارب العام الأول من الحقبة على الإنتهاء، تعتصر منديلها قلقًا، مغامرة جديدة ربما الأولى لها.

هذه أول مرة تجرب فيها فعليًا ملحنًا جديدًا، أحتكر السنباطي صوتها تقريبًا طيلة الحقبة الماضية، والآن بليغ! تنفستْ لاهثة ولكنها واثقة في أذنها وفي رأي فوزي.

كان المتفق أن يكون هناك حديث مخصص لفوزي ولكنه قال.

"بليغ ماهر وربما أفضل مني"

ترددتْ للحظات.

"في الأمر مخاطرة يا فوزي، بليغ لسة شاب!"

"أسمعي الكلام واللحن وأحكمي بعدها"

ودعته للمنزل وذهلت حين سمعتْ حديثًا بسيطًا باللحن على العود، طلبت منه أن يعيده ثانية ثم ثالثة ثم. ثم. خاصة المقطع الثالث فماذا لو طبق على الآلات!

ولكن كي تزداد ثقة دعتْ رياض وزكريا وقصب.

"سمعهم يا بليغ"

كان غارقًا في عرقه، دندن اللحن حتى صفقوا أعجابا.

"ماشي يا بليغ! ديه بداية جديدة لك. مبروك، هات المؤلف عشان نمضي العقد"

والآن هي خائفة؛ ماذا إن فشـلت؟ لم تفشـل قرابة خمس عشـرة عامًا. يجب التجديد وتبسيط الكلمات، صار هناك شباب يستمعون بجانب تاركي الطرابيش.

التفتت خلفها وأومأ لها القصـبجي فهدأتْ بعض الشـيء للحظات. فتح السـتار ووقفت تحية لهم وجلست.

بدأ العزف والجمهور يسـتعد لما هم عليه مقبلون وبدأت الآلات في الإلتحام في عزف جميل وتعتصر منديلها قلقًا.

وقفت وصفق لها الحضور، أعتصرت منديلها وبدأت تسأل في استنكار عنيف.

حب أيه إللي أنت جاي تقول عليه؟

أنت عارف قَبْلَة معنى الحب أيه؟

وتأوه البعض طربًا.

لما تتكلم عليه.

حب أيه إللي أنت جاي تقول عليه؟

وثار الحضور تصفيقًا وصفيرًا. تنهدتْ وأرتاح المنديل. هدأ بالها قليلا وصفا وعاشت من جديد الكلمات وهي تثور على حبها الملعون.

مضـتْ تعيد المقطع والذي تلاه وتلاقي كل اعادة صـياحًا وصـفيرًا. اسـتعدتْ وقد دلف العزف المقطع الثالث؛ لحن ملحميّ يجوب أركان المسرح ثم أطلقتْ أم كلثوم آهات خافتة ثم آثرت أن يستوعب الجمهور المقطع ثم تعيده بآهات بحق.

أنهت أول مرة وثار الحاضـرون فوق الوصـف وعاد العزف، هنا أطلقت آهاتها تتناغم مع ملحمة اللحن وتذوب أرواح السامعين.

كنت بخلص لك في حبي بكل قلبي.

و أنت بتخون الوداد من كل قلبك.

بعت ودي. بعت حبي. بعت قلبي.

بعت ودي ليه؟ بعت حبي ليه؟ بعت قلبي ليه؟

ثم ثارت بكل قوة وعزة.

بعتني وفاكرني ليه؟

هشتاق لقربك ليه؟

ثم خفت صوتها ذالة تتساءل.

هشتاق لقربك ليه؟

أنت فين والحب فين؟

تأوه الحضور.

ظالمه ليه دايمًا معاك؟

ده أنت لو حبيت يومين.

كان هواك خلاك ملاك.

ليه ببتجنى كده عالحب ليه؟

أنت عارف قَبْلَة معنى الحب أيه؟

حب أيه إللي أنت جاي تقول عليه؟

همّوا بعزف المقطع الرابع والأخير ولكن صـاح الجمهور رغبة في اعادة السـابق ورضـخوا لرغبتهم. أعتصرتْ منديلها وقد أبتسمتْ في ظفر.

مريم ... ليلى

60

بعد الجلسة الثالثة دق الباب ولم أدرِ أين أمي وسلمى.
وفتح الباب وبدت لي أوهامي سخيفة، ظننت ضوء قد أتى لنجدتي. كانت فتاة في عمر الثالثة عشرة، أعتراها الهزال وكانت تمشي على عكاز وغطت رأسها العاري بغطاء من صوف.
"هل لي بالدخول؟"
أومأتُ وأبتسمت لها مشجعة.
"أسمي أمل. سرطان العظام"
شعرتُ بلا وعي بألم في عظامي. صعب مرضها بل فتاك.
"أسمي مريم. لوكيميا"
مدتْ يدها وصافحتُها.
"قيل إن هناك فتاة حميلة وشجاعة، فرغبتُ في التعرف عليك"
رأيت فيها الفتاة التي كنتُها يومًا، كنتُ في نفس عمرها حين أفقت من غيبتي.
"في أي مدرسة أنت؟"
ذكرتْ أسم مدرستها.
"ولكني منذ عامين توقفت عن الدراسة حتى أبرأ. وأنت؟"
"انا في الجامعة، كلية الحقوق"
"كاذبة! شكلك صغير جدا. كيف هي الجامعة؟ أرغب في الإتحاق بالطب حين أكبر"
وشرعتُ أحكي لها عن الجامعة.
"هل أحببتِ في الجامعة؟ أرى بريق عينيك وأنت تتحدثين عنها"
"أجل أحببت"
"إن لم أكن متطفلة. أحكي لي"
"في الجامعة. تعثرتُ يومًا وأرتطمت يدي بيده"
صاحت.
"كالأفلام. أجمعتكما الكتب؟"

ضحكتُ أن تقريبًا.
"أرغب أن أحب يومًا. كم رغبت لو أحببت لكان معي من يؤازرني في مرضي"
وإعتراني غم ثقيل.
"أين أهلك؟"
"ماتت أمي وأنا في السادسة. أبي وعمتي من يؤازرانني"
أردت أن أبكيها ولم أشـــأ أن أسألها عن أصحابها فأنا أعلم أجابتها، غمرني أساها ولكننا مضينا في الحديث.

.....

أنتهت الخطة وسافر ضوء ويجب اعادة الوصال من جديد.
صباح الخير منه ستنبت فيّ العزيمة. لن يظل مكلومًا في سفره، سأتصل به فمن دونه سينتصر المرض، سيجد قلبي خاويًا باكيا وسيظفر به. في المساء هاتفت أديب.
"مرحبا مريم! كيف حالك؟"
"بخير. أريد رقم ضوء الكندي"
تردد للحظات.
"أرجوك بدونه سأفنى"
ثم رضخ لأمري وأعطاني الرقم.

.....

مضت جلسات وتبقت جلسات، أخذوا العينات من أمي وسلمى ولا توافق. لكن سأشفى. بك يا ضوء سأبرأ.
في الليل بعد أن حثثتُ أمي على العودة والراحة هاتفته وقلبي يدق بشدة وأشعر بإجهاد عظيم.
سأسهب في الأعتذار والبكاء. منذ متى لم نتحادث؟ كل رنة تجلدني بشدة وسكت الرنين ولم يجب. راسلته.
"غيث! أرجوك رد على أتصالي"
وأتصلتُ به مجددًا. بعد رنين جلدني مرات أجاب
"ماذا تريدين؟"
"آسفة"

"بعد كل ذلك الذل؟ آسفة هي التي ستحل ما أنعقد من خيبات!"
"كنتُ متخبطة، مازلتُ أحبك"
بدأ صوتي بالتهدج.
"لما التخبط؟ ماذا فعلت ولما تزوجتني إذن!"
بدأ في الصراخ.
"أرجوكَ أهدأ"
"لن أهدأ"
ظننتُ أن الصــراخ ســيطول، أردتُه أن يطول، يلعنني، يقتلنى بصــراخه ولكني كنت على يقين أن بعد الصراخ الأبدي سيهدأ ويغفر ولكنه قطع الطريق قفزًا.
"أنا المخطئ. أنا الذي وثقتُ في فتاة أغوتْ الكثير وأهلكتْ العديد. أغويتني وحين ظفرتِ بقلبي أردتِ اهلاكي مثلهم. لن أهلك، سأعيش وأصاحب العديد من أمثالك"
صرختُ فيه وأنا أتبعثر.
"أنت لا تعلم شيئًا. لا تدري بماذا أضحي من أجلك"
كدتُ أخبره بأمري وليحدث ما يحدث. لكنه لم يمهلني.
"ما أنت إلا غاوية، فَضَحَتْكِ بقايا الوردة. رمز الرباط الذي هيئ لي أنه جمعنا"
صرختُ بوهن.
"أنا زوجك، أنا مريم، أنا أحبك والله "
"لست مريمِ. ما أنت إلا ليلى"
سـقط الهاتف مني وقد تحققت الرؤيا. عاد العدم يكتنفني، ضـوء واقف، أُجر متمسـكة بقدميه وأُلطِّخ بعاري، ينفض قدميه كي لا أعفر نوره. وقال آخر ما قاله.
"أنتِ طالق"

.....

ظللتُ واجمة وقد أغلق الخط منذ دهر. العدم يحيطني. طلقَّنى!
كتمتُ شـهقتي بيدي ودموعي تنهمر. وأفقتُ من العدم، راسـلني ضـوء، علّه يعتذر لي. والله سأغفر لك ولكنه بعث برسالة فحواها أمر آخر.
"أنت لا تفقهين للحب معنى فلا تدنسيه بغوايتك. فلنسمع ختام قصتنا الآن"
وبعث إليّ برابط الأغنية، الأغنية الأخيرة.

كسادية تعشق تعذيب وجدانها بلا تردد بدأ الفيديو في أخبارنا أن المؤلف سعيد والملحن سعيد والسامعين سعداء وما من تعيس إلاي.

صفق الجمهور وبدأ العزف، قمتُ جاهدة وأحضرتُ المنديل القرمزيّ، وجلستُ على السرير وصفق الجمهور حين وقفتْ وبدأ ضوء يسأل بلسانها ثائرًا.

حب أيه إللي أنت جاي تقول عليه؟

أنت عارف قَبْلَة معنى الحب ايه؟

لا يهيأ لي! أسمع صوته يسألني مع شدوها!

لا يا ضوء! أني أعرفه لأني أحببتك.

لما تتكلم عليه.

حب أيه إللي أنت جاي تقول عليه؟

أعتصرتُ المنديل كما أعتصرته هي في زمن موازٍ.

أحبك وحق سكناكَ في قلبي. لست غاوية. لا! الآن أقولها. الناس قذرون؛ يخيل إليهم الشعور الصادق غواية، شهوانيون يرون البراءة عُهرًا. أم أنا غاوية؟ وكيف لا وقد أصدرتَ حكم طلاقك؟

بدأتُ أبكي. أعاد السؤال في شدوها وأعتصرُ المنديل.

أنت ما بينك وبين الحب دنيا.

دنيا لا تطولها ولا حتى بخيالك.

أحسنتَ في اختيارك الحفل يا ضوء!.

أما نفس الحب عندي حاجة تانية.

حاجة أغلى من حياتي ومن جمالك.

لا الحب قريب مني، الحب الذي جعلنى أدّعي الجفاء والتخبط بالإيمان، ما أزددتُ إلا يقينا وأنا أتلقى منك تعاليم الحب. ولكن ظننتَ بي الكفر فزهدتَ عن إكمال القائك للوحي.

أنت فين والحب فين؟

ظالمه ليه دايمًا معاك؟

ده أنت لو حبيت يومين.

كان هواك خلاك ملاك.

ليه ببتجنى كده عاالحب ليه؟

أنت عارف قَبْلَة معنى الحب أيه؟

حب أيه إللي أنت جاي تقول عليه؟

بلى عن أي حب أتحدَّث وأنا التى طغيتُ به ولعبتُ بأركانه مدّعية تثبيتها.

حبيبي، زوجي. بل طليقي! أرغَبْ عني ولا ترغَبْ عن الوحي. لا تُفسَـــد رجاءًا. ولكن كيف ستلبي رجائي؟

وبدأتْ أتأوه بحرقة والجمهور يتـــــأوه طربًا وأم كلثوم تتأوه غائبة. أعادا قرارهما بأني لا أصلح للحب وأولى بي جحيم الدنيا وأن أكفر بعد أن أدّعيت الكفر.

وبدأ اللحن في أخذ طبع ملحمي وأم كلثوم تصـــدر آهاتها خافتة ثم قوية تهز أركان الوجدان، بدأتْ أنفاسي تتلاحق وأنا أبكي، شهقة وراء شهقة تكاد ضلوعي تنخلع.

كنت بخلص لك في حبي بكل قلبي.

و أنت بتخون الوداد من كل قلبك.

لا يا ضوء! لم أخن. أخلصتُ من قلبي وحق أخلاصك!

بعت ودي. بعت حبي. بعت قلبي.

بعت ودي ليه؟ بعت حبي ليه؟ بعت قلبي ليه؟

وتعيد أسـئلة ضـوء، أشـعر بعقلي يسـبح بعيدًا واني مقبلة على غيبة جديدة، دبيب نملٍ طاغٍ يسري في يديّ وساقيّ. لم أبِع بل رغبتُ في الحفاظ.

ثم ثارتْ بكل حسّها وثار معها ضوء.

بعتني وفاكرني ليه؟

هشتاق لقربك ليه؟

هتفت صارخة بجنون. لا. لا يا ضـوء! لم أخن. لا. أُمسِـك برأسي كي لا ينصـدع. لا. العدم يغمرني. لا استطيع التنفس. أبكي بل أغرق في العويل. العدم يغمر قلبي. يغمرني كلي. آه يا ضوء! لستِ مريم! أخرجني يا ضوء من هذا العدم! لا تتركني مع أبي.

"يا دكتور ألحقنا"

كنت بخلص لك في حبي بكل قلبي.

و أنت بتخون الوداد من كل قلبك.

لا يا ضوء. العدم. أبي.

بعتني وفاكرني ليه؟

هشتاق لقربك ليه؟

"ماذا حدث؟"

"لا ندري يا دكتور، المريضة في حالة أنهيار"

ويسأل ضوء مع أم كلثوم.

أنت فين والحب فين؟

ظالمه ليه دايمًا معاك؟

العدم يا ضوء. أخرجني منه. أصرخ. أعتصرُ المنديل. وأنتِ طالق.

لم أشـــعر بوخز الإبرة، وبدأ صـــراخي وبكائي يهدآن رغمًا عني. أغيب من جديد علّها غيبة مخدر.

ضوء. طليقي. أهذي بك. كفرتَ بي وما كفرتُ.

بدأ جفناي يثقلان. لم يفكر أحد في وقف الأغنية. أســـمع في هدوء أهات رتيبة و ضـــوء يحكي لي طغياني وكم عانى وحاول.

ياما طول عمري رضيت منك أسية.

لما داب أملي و أنا بتمنى ودك.

كل شكوى كنت بتشوفها في عينيّ.

و أنت في قربك ناسيني زي بعدك.

وصـاح الحضـور وغبت في اغفاءة مريرة، أعتصـرُ المنديل الذي أكيد أعتصـرّته هي ذات خيبة.

ضوء ... ليث

61

لم أفكر فيما قلته وحكمي بالطلاق، حاولت النوم وأختلط الواقع بالخيال. أهذي مترنحًا فوق شـــمس ليلى وأخبط رأســـي على حائط حجرتي. كوثر تنقطع عن خصـــامي وتحاول تهدأتي. أسقط في بحر ليلى الثائر. أغرق. بعد ساعات أفيق على صوت الهاتف. أنه أديب. صرخ فيّ.

"أجننت. ماذا فعلت؟"

أدركتُ أنه يتحدث عن أمري وليلى. قلت وصداع يدق في جبيني وعينيّ.

"أديب لا اريد ال."

"أخرس. أنت لا تستحق ظفرها. تطلقها؟ وصل بك الغباء لهذا الأمر!"

"ماذا تريدني أن أفعل؟"

صار يصرخ حتى بدأ صوته يبح.

"تحترفُ القتل! قتلتَ أمك ثم قتلتَ أبا كوثر بأنانيتك وكوثر بحرمانها من أبيها ومن ضحّتْ من أجلك تطلقها؟ أنا المخطئ أني وثقت بك ورضخت لرغبتك في الزواج منها"

"من الذي ضحّى؟ أما عشتَ ما عانيتُ؟"

"بلى وعشتُ معها ما عانتْ وأخفَتهُ عنكَ!"

شعرتُ ذبحة تصيب صدري.

"ماذا تقصد!"

"مريم مصـــابة باللوكيميا. أكتشـــفتْ الأمر وأخفتْه عنك كي لا تســـافر وأنت حاملٌ همها. فعلتْ ما فعلتْ كي لا تُقهر"

صرختُ فيه.

"لا تبرر لها كذبًا!"

"بعد ما قلتَهُ لها أُصـــيبَتْ بإنهيار عصـــبي حاد. أول وآخر ما نطقت أنها لا ترغب في العلاج بعد أن طلقتها. راغبة عن الحديث والأكل ولم تعد تستطيع المشي من علة أطرافها"

مضى يصرخ وقد بح صوته منذ صراخ وأغلق الخط.

"ماذا حدث يا غيث؟"

قتلتُها كما قتلتُ من ســبقها! أحترفُ القتل! أســرعتُ أهذي وأحضــرتُ ما تلقفته يداي، فتحتُ باب الشقة وحثثتُ الخطى على غير هدى وكوثر تلحق بي لاهثة.

القاهرة

عام 1957

مسرح حديقة الأزبكية

لبّت هذه الوصلة طلب جمهورها في الوصلة السابقة حين غنت أهل الهوى.

أسفى على الشباب؛ ألحان عدة حرموا من سماعها بسبب غباء زكريا، بسبب حفنة من المال يفعل كل ذلك؟ نسى الرحلة! لربما كانت ألحان عظام أبهرت السامعين. لم يفعل رامي أو السنباطي مثل فعلته!

بدأ اللحن الشجي وصفق الحضور فرحة. تحب هذه الأغنية، أعطاها رامي كالعادة حديثه وبلا تردد أعطته لرياض. وخرج هذا اللحن. وقفتْ وبدأتْ تشكو حيرتها.

ما بين بُعدك وشوقي إليك.

وبين قربك وخوفي عليك.

دليلي أحتار.

وصفق الحضور، مضت تبث شكواها لحبيبها بينما يختال زوجها الطبيب فخورًا ظانًا أنها تقصده بغنائها!

تغيب عني وليلي يطول.

وفكري في هواك مشغول.

أقول إمتى أنا و أنت هنتقابل مع الأيام؟

وكاد الحضور يغيب في الصياح ولكن هناك من أسكتهم. أنهت المقطع بكل عذوبة ووجدان.

وبين بُعدك وشوق إليك.

وبين قربك وخوفي عليك.

دليلي أحتاروحيرني.

عاشت الكلمات والكل يتمايل ويكتم شهقاته. بدأ اللحن يتصاعد.

ولما ألقاك قريب مني.

و أقول البُعد تاه عني.

أشوف عينك تراعيني.

وقلبي من لقاك فرحان.

وأشوف بينك وبين عينش.

خيال البعد والحرمان.

ثم أعادت هذا الجزء وختمت كلمة "فرحان" بأدائها الإستثنائي؛ بمرح فَرِح.

أشوف عينك تراعيني.

وقلبى من لقاك فرحان.

وهاج الجمهور، رنَتْ بظفر، كل مرة يثور الجمهور مرحًا. أعادته ويزيد الهتاف والصياح.

ومضت شكواها تبثّ الأشجان، ضمّتْ يديها معتصرة المنديل كأنها تهم بالبكاء غناءًا.

وبين بُعدك و شوقي إليك.

وبين قربك وخوفي عليك.

دليلي أحتار وحيرني.

مريم ... ليلى

62

مضى يوم على الطلاق وأنقطاع الوحي. يوم وكأنه عُمْر. راقدة، بائسة، كافرة. لا استطيع الحراك والكلام ولا أريد. أسمع صراخ أمي في وجه سلمى.

"ماذا يعنى تزوجا؟ هذا الوغد!"

"والله مجرد كتب كتاب. لم يمسها"

"ويطلقها! والله لن يرى وجهها وإن عاد لاحسًا التراب. أنظري إليها، أنها جثة. من ضحيتُ بحياتي من أجلها راقدة والموت يريد الفتك بها"

أشعر بدموعها تغمرني والطبيب يخبرها عن أنهياري العصبي وعجز قدمي الذي عاد ووجوب الراحة كي لا يؤثر حزني على تفاقم الورم.

بكاء سلمى وصراخ أمي من جديد في وجه أديب وبحة صوته الذي راح من جديد ولكني في العدم وسؤال ضوء يصمّ أذنيّ. لست مريمِ. وأنت طالق.

يقولون جاءت أمل فرأتني في عاصفة الرحيل والباقي نعرفه.

ضوء أكنتَ حقا أم وهمًا؟

هدأتْ الأصوات من حولي، لا أريد المضيّ، يكفيني سعيًا. أعوام أسعى وأقاسي ثم ختام كل مرة عجزٌ في الأطراف!

بدأتْ اللعنة قبل مولدي وإلى الآن تظل رافضة الإكتفاء بمآسيها والشبع. لا أريد الحياة من جديد فلما أحيا ولمن؟ راح جوهر الحياة.

تدمع عيناي. رمى بكلمة الطلاق ورحل. أعتصرُ منديله القرمزي، تركَ ذكراه ورحل. كلٌ يأتي ليترك لي ذكرى ويرحل كأن ما ينقصني هو الذكرى!

ما أريده هو اللا شيء. قد قضى الله بحكمه ومن العبث المراوغة، أرى الآن أن العلاج من غير ما سبب للحياة هو تعذيب للذات وعدم التسليم بقضاء الله فأسعى للمهلكات كي أراوغ. أليس هذا قتلًا للنفس ولكن بصورة من يريد الحفاظ عليها!

رويدًا رويدًا، أنقشع ظلام العدم وبدأتُ أتبين معالم الغرفة، المحلول في يدي.

جاء طيف سيدة من الحائط عبرتْ منه بسلاسة في فستان سهرة يلفّ كتفيها شال، كانت شابة حلوة الملامح، أقتربتْ مني وجلست بجانبي.

"أرى أنكِ حصلتِ على منديلي"
أبتسمتُ.
"أحلى ما حصلتُ عليه من حبيبي"
"ناجيتِيني زمنًا"
"بلى. أنتظرتكِ وتأخرتِ في المجيء"
"لم أجئ إلا حين شعرتُ بوجوبه"
أمكستْ يدي بطيف يدها.
"أحببتِه بصدق"
"آه لو يعلم!"
"أنه يعلم. ناجيتُ الحب زمنًا، عمري كله. فأدري من يحب ومن يشعر به في فؤاد شريكه"
"من أحببتِ؟"
ضحكَتْ.
"لن أبوح، مضيتُ وأنتهى الحب على أية حال"
"أحببتِ بحق! لو لم تفعلي لما غنيتي بكل هذه الروح"
"لستُ هنا للحديث عني بل من أجلك جئت"
"عطّلتك عن حفلاتك"
"أضحي لمن يصدّقُ فني بحق، أضحي لمثلك"
تنحنحتْ ثم قالت.
"ماذا تريدين مني أن أغني؟"
"أريد سماع حفلة لأغنية ليه تلاوعيني"
ثم هزتْ رأسها رافضة بمكر لطيف.
"لا هذا سر مسيرتي الخاص"
"حسنٌ. رجاءًا أن تغني دليلي أحتار"
"لكِ هذا. يا شباب! هيا فلنبدأ الغناء"
جاءتْ أطياف العازفين يتصدرهم القصبجي بشموخ. جلسوا بعد ترحيب وبدأوا يعزفون، ترامى لحن عذب كأنه قادم من الجنان.
وقفتْ أم كلثوم في صدر الحجرة وبدأت الغناء.

ما بين بُعدك وشوقي إليك.

وبين قُربك وخوفي عليك.

دليلي أحتار.

مضتْ تغني بأداء لم يسبق لها أن غنت به ولوحدي من تغني لها.

تغيب عني وليلي يطول.

وفكري في هواك مشغول.

أقول أمتى أنا و أنت هنتقابل مع الأيام؟

طليقى! كنتُ أرغب في البعاد كي أزداد شوقًا والآن أخاف أن يتلاشى الشوق فكثرة الأشياء تمحيها ومن كثرته أخاف فقدانه.

وبين بُعدك وشوقي إليك.

وبين قربك وخوفي عليك.

دليلي أحتاروحيرني.

حثثتها على المضيّ، أمالتْ رأسها وأبتسمتْ أبتسامتها الرائعة. بدأ اللحن في التصاعد.

ولما ألقاك قريب مني.

و أقول البُعد تاه عني.

أشوف عينك تراعيني.

وقلبي من لقاك فرحان.

ثم ختمتها بروعتها المرحة وأسمع طيف صياح آثر.

وأشوف بينك وبين عيني.

خيال البُعد والحرمان.

فُتح الباب وأبتسمتْ لي أم كلثوم بنصر ونظرت إليّ وكأنها تقول؛ ألم أقل لك!

حبيبي! ضوء! جئتَ تستمتع معي بهذه الجلسة النادرة؟ أقبل إليّ!

أرفع له يدي كي يحثّ السير.

كان يبكى بحرقة، لا تبكِ! الليلة استثناء، منديلكَ هنا معي في يدي.

وأخاف لتفوت لياليا.

وأهيم في بحر أشجاني.

وتتبدد أمانينا و أقاسي البُعد من تاني.

شدتها بعذوبة بكل وجدانها، ذابتْ الكلمات و راح صوتها مع اللحن يشكل مزيجًا يصعب وصفه.

وبين بُعدك وشوقي إليك.

وبين قُربك وخوفي عليك.

دليلى أحتاروحيرني.

"أنا آسف. أنا قاتل"

لا تأسَف يا حبيب العمر فمثلكَ يُفنى الوجود من أجله.

أخاف في البُعد توحشني.

وأخاف في القرب تتركني.

قريب مني تناجيني.

وطيف بُعدك يخايلني.

ومضت في أرتجالها، تفاريد لم يسبق لمخلوق أن سمع مثلها.

مضى يبكي. ألا تستمع لروعة ما يحدث الآن؟ يمضي بخطاه نحوي. أجل أدنو مني كي يزداد هنائي! مالك تبكي؟ الليلة فرح فلننسى الهمّ أخيرًا.

أخاف في البُعد توحشني.

وأخاف في القرب تتركني.

"والله إن عرفتُ لبعتُ نفسي للشيطان، لكفرتُ فقط لتعيشي"

ماهذا الكلام! أجل أدنو مني.

وشدتْ بكل وجد حارق.

بعيد عني تناديني.

وطيف بُعدك يشاغلني.

أشتقتُ إليكّ، أنه الورم ما أحالني دون السفر معكَ لآخر البلدان.

"كان يجب أن أشعر بصدق كلماتك. والله أنت مريم. كان يجب أن أشعر بعين ألمِك"

لا لستَ السبب بل القدر وهذا الجسد الذي أراد إعطاء الورم الفرصة لأحتلاله ورَفَع له راية التسليم قبل أن يجاهد.

وقالت بكل حنين بينما وقف ضوء أمام السرير.

بعيد عنى تناديني.

ومين يقدر يوصلني؟

"أجيبيني. لا تظلي هكذا صامتة!"

لكن أنتَ هنا بجانبي فلما الكلام.

ترنمتْ بكل عذوبة العالم الذي جائتني منه. بكل رقة وهي تهم بالبكاء.

لا أنا بصبر على بُعدك لحد عنيا ما تسلم.

و لا بفرح في يوم قربك وأخلّي الفرحة تتكلم.

أنحنى وقبّل يداي وهنا أنتفضتُ وجلة وأختفى بكاء أم كلثوم. لم يكن ملمس شفتيه مثل السحاب كما طيف أم كلثوم، بل كان ملموسًا!

"ضوء!"

.رنا إليّ بدهشة بين بكائه.

"أنتَ حقًا هنا"

وبكيتُ وبكى وهو يغمرني قُبُلا، شددتُه بكل قوة أمتلكها. تهدج صوتي بدموعي.

"لا تفعل بنفسك هذا، والله لم أغضب منك كي أسامحك"

هتفَ وهو يقبّل يديّ.

"أحبك وحق سكناكِ في قلبي"

"أجئتَ هنا؟ أطرتَ كل هذه المسافة من أجلي؟"

"من أجل من إذن؟ أنتِ وحدك من أضيعُ إذا راح عني. مريم!"

"لبيك يا حبيبي"

"رددتكِ إلى عصمتي"

"وأنا قبلت"

قام بإبتهال ووضع شفتاه على شفتي وهو ينهنه، تبتل دموعي مع دموعه تغمر وجهينا. رفع وجهه عن وجهي.

"أنتِ زوجتي. لا مفر لكِ من هذا"

أضاف.

"سأظل هنا مهما حصل لن أتركك"

"لا"

"ماذا؟"

جرت الدموع طالبة الرحمة.

"أرحل يا ضوء! أتركني أخوض هذه الرحلة"

"مستحيل"

"إذا رحلتَ عشتُ وإذا لم ترحل لن أكمل العلاج"

وجم وأسود وجهه.

"كيف أتركك؟"

"أنظر!"

وخلعت القبعة وشعري فراغات عديدة تملؤه.

"أنظر لحالي! أتريد أن تبقى حتى أصير هزيلة يُرثى لها؟ أن ترى شعري يقع حتى يفنى؟"

"أحبك في كل الأحوال"

"أثق في هذا"

أمسكتُ وجهه.

"فراقك مُرّ. قيل أنه حين يدرك الموت المرء منا يرى ما آلت إليه أقداره منذ شهقة الميلاد لزفرة الفناء. وأنا إن خُيرتُ بين فراقكَ والموت لأخترتُ الموت. حينها فقط سيتسنى لى عيشُ عين اللحظات تلك التي عشتُها معك وهي العمر كله. سأراك، سيخفق القلب ويمتلك الحب روحي من جديد. ما أجمل أن تعيش القصة ذاتها مرتين؛ مرة في الحياة وأخرى في الممات!"

هتف باكيًا..

"أموت إن مِت"

"لا تبتأس! أنها أنانية الحب"

قبلتُ شفتيه ولامست جباهنا.

"لكنها ليست النهاية. سأشفى وستعود ونحيا معًا. أنتَ زوجي رغمًا عن الأقدار. ستعود وسأعود"

"ولكني خائف. أخشى أن"

ولم يستطع أكمالها.

"لا تخشى شيئًا، سأشفى أعدكَ بذلك. هاكْ"

شددتُ خصلة من شعري أنخلعت بسلاسة وأعطيتُه إياها.

"سـيظل معكَ مع روحي جزء مني كما روحك والمنديل. قلتُ لك مرة أن حبنا يفوق كل مادة. كل ليلة على نفس الميعاد نتناجى في صـوت أم كلثوم. شـعري معك ومنديلها الذي اعطتيتنيه معي. هيا أذهب"

قبّل جبهتي وبقايا شعري ثم ولاني ظهره ورحل.

هنا خالفتُ كل منطق ومادة، تحاملتُ على نفسي، أخطو كل دقيقة خطوة مرتعشة أكاد أسقط بعدها. مضتْ دقائق وأزمان. عاد طيف أم كلثوم.

ياريتك حلم في جفوني.

أنام وألقاك وأعيش وياك.

وآخر طيف أشوفه أنت.

أخطو كمن يتعلم المشي.

يا ريتك فجر في عيوني.

أنام وأصحى على فرحة.

وأول صورة أشوفها أنت.

وصلت إلى النافذة ورأيته حائًا خطاه وبجانبه طفلة أيقنت أنها كوثر. بكيتُ مع كل خطوة تبعده عني. حبيبي متى سأراكَ مجددا؟ يارب لا تجعلها آخر مرة!

ترتعش ساقاي وأتمسك بالستار. لا تلتفت! بل بالله عليك التفت!

ولم يلتفت، التفتت كوثر ولوّحت لي. أغتصبت أبتسامة ولوحت لها ومضيا.

وهنتْ يدي وسقطت على الأرض.

ضوء ... ليث

63

شدَّتْ كوثر على يدي ثم أولجتُ المفتاح في الباب ودلفنا.

جرت أمي إلى حيث الجلبة التي أحدثناها.

"ماذا تفعلان هنا؟"

صــرختْ ذاهلة، هرعتْ إليها كوثر وضــمتها. رنتْ إليّ، نظرة لم أعهدها فيها من قبل حتى حين واجهتُها بليلتها المشئومة. خطتْ حتى واجهتني ثم رفعت يدها لتلطمني بها.

أغمضتُ عيني وشهقتْ كوثر ولكني لم أشعر بلطمتها.

"لا! فعلتُها مرة ولن استطيع فعلها ثانية. يكفيكَ ذل الأقدار"

ضمتني وبكيتُ على صدرها كطفلٍ كنته يومًا، مضتْ تربت عليّ وتقبلني كي أهدأ.

"أخشى أن تفنى. مريم تضيع مني يا أمي!"

"كله بيد الله ففوض أمركَ إليه"

جلسنا.

"أين أديب؟"

"ربما مع سلمى"

وعاتبتني أمي.

"تزوجتَها يا غيث؟ ودون علمي!"

"لم أخن ثقتكم، تحمســنا فجأة ولكني لم أمســها قط، كنا ســنقيم فرحًا ونعلن زيجتنا ولكن حالت الظروف دون ذلك بل كانت صادقة في السفر معنا"

"والآن! جاءت أمها تصــرخ في وجهي وأنا الوحيدة التي تجهل أمر قرانكما! أعادت إليّ خاتم الخطبة ولا ترغب أن تظهر في حياة أبنتها من جديد"

"لقد رددتها إلى عصمتي! كان الطلاق شفويًا"

هزت أمي رأسها حائرة.

"لا أدري ماذا نفعل؟ لقد طالبت بورقة الطلاق"

"لن أطلقها. لن أتخلى عنها ما حييت لولا أنها ترغب أن أعود لما برحتُ من جانبها"

"إذن عليكم العودة؟"

ووجدتُ حلًا فجأة هو الوحيد المتاح.

"أمي سنبقى معك هذه الليلة ثم نذهب إلى المطار"

وقفتُ وذهبتُ نحو الباب.

"إلى أين؟"

"إلى المستشفى"

.....

قبّلتنا أمي باكية، كان بكاؤها أصـــعب من المرة الفائتة. أن تودع أولادك في المطار مرتين لأمرٌ مهلك لأي أم وكأن الدهر يصرّ على تأكيد فجيعتها والتسلية بمشهد الوداع الحار.

ودعتُ أديب.

"لن أوصيك بمريم. حاول أنت وسلمى أن تخففا من سخط والدتها عليّ"

أومأ بتسليم. أقلعتْ بنا الطائرة وغفت كوثر على الفور.

قابلتُ طبيبها.

"أنا زوج ليلى!"

رحب بي بأحترام.

"أين كنتَ من قبل؟"

"ظروف ســفر ولكن جئت بعد أنهيارها. أرغب أن أتبرع بخلاياي الجذعية علّها تتوافق مع ليلى"

وأخذوا خلاياي.

يارب خفف عنها الألم! جسمي كله يصرخ آلام مريم، رنوتُ من النافذة، أرض مصر تبتعد شيئًا فشيئًا. أمسكتُ بخصلتها الشمسية وضغطت عليها لأستمد منها القدرة على خوض وحشة الأيام المقبلة.

مريم ... ليلى

64

عادت أمي وبكتْ حين رأتني واعية وآكل ما يقدمونه لي.

"حمدا لله. كدتُ أهلك. أنت بخير؟"

أبتسمتُ لها.

"بأفضل حال"

ثم سألتُ الممرضة.

"متى موعد الجلسة القادمة"

وزاد بكاء أمي فرحًا، جاءتْ سلمى وبكتْ هي الأخرى.

"لن أحدثك في ما فعلته أنت وهذا الوغد. حين تبرأين سنتدحث في كل شيء"

"أمي"

"أجل يا حبيبتي"

"لقد عاد وردني إلى عصمته"

صرختْ.

"ماذا؟ والله لن"

وقاطعتها.

"لا يا أمي لا تقسمي بالله. أنا أحبه. أخذَ أول طائرة وعاد ليطلب الغفران. أنه يحبني بصدق. أرجوك"

تنهدت أمي بحسرة.

"ولكنه خان ثقتي"

"أنت تعلمين أبنتك. مازلتُ عذراء يا أمي، لم يمسسني ولم يخطر ببالنا أمر كهذا"

خطتْ إليّ ومسحت على رأسي.

"لن تشعري بما رأيتُه اليومين الماضيين. كدتِ تهلكين وكدتُ معكِ أهلك. رفضتِ العلاج والطعام. عشتُ جحيما وعلمتُ بزواجك وحامت بي الشكوك، ظننتُه تخلى عنك أول ما علم بمرضك. أنني أم يا يا مريم، إن بكيتِ أكاد أحطم العالم الذي أبكاك فما بالكِ قد قاربتِ الموت"

"هل نسيتي خطتي؟ ظنّني كففتُ عن حبه كما أدعيتُ ولما علم بفداحة ما فعله عاد فورًا. لقد أراد البقاء هنا ولكني رفضت ذلك. أغفري له"

تنهدتْ أمي.

"لكن بشرط، يظلّ على يقين أني لا أطيق سماع سيرته فقط كي يتعظ فلا تحلو له كلمة الطلاق. لندعه يعاني قليلا"

مضى بنا الوقت حتى دخل الطبيب صائحًا.

"هناك توافق"

رنونا إليه بذهول. قفزت أمي.

"كيف! قلت لنا ما من توافق"

نظر إلينا في حيرة.

"ألم يخبركم زوج ليلى أنه تبرع بخلاياه الجذعية وأخذنا منها عينة؟ وجدنا بينها وليلى توافق"

دمعتْ عيناي. أتفقنا في كل شيء حتى في خلايانا. كان سبب حياتي وأصبح سبب نجاتي من الموت وذل الحاجة لفاطمة أو جدتي.

"ألم أخبرك؟"

قلتُها متأثرة.

قال الطبيب.

"ليلى لا نريد إرهاقا لأعصابك. عليكِ بالراحة والهدوء"

"مريم يا دكتور. أسمي مريم"

القاهرة

عام 1938

الجامعة الأمريكية،

قاعة إيوارت التذكارية

جلســتْ أم كلثوم تتنفس بإنبهار. الليلة لحن جديد وليس أي لحن. أثبتت قبلًا أن لها حنجرة فريدة. اليوم ستثبت أنها فاقت كل مطربة شدت يومًا وأنها معجزة لن تحدث من جديد.

بدأ العزف والناس ســكون يتذوقون اللحن. (أحلامي) هكذا اســم المقدمة الموســيقية للحديث الجديد الذي لحنه قصــب. آه من رامي ذاك كلما بدرَ منها فعل أو قول يكتب حديثًا كردّ فعل!

أخبرته أنها ستسافر لقضاء أجازة وأتحفها بهذا الحديث، أهدته إلى قصب وقدم لها لحنًا وآي لحن! لم تفهم منه شيئا! كيف؟ لا أفهم!

كان يتنقل من مقام إلى مقام ولم نُنهِ بعد المقدمة! طلبتْ منه أن يعيد العزف من جديد وبدأت تتذوقه وتفسر وتحلل.

"يا ثومة حسّيه أوعي تفسريه!"

وحين سمعتْ صوتها وهى تشدو بالحديث طارت فرحة بعظمة حنجرتها وشرعت فورًا في بروفة وراء بروفة، كل بروفه تســتغرق اليوم بحاله فاللحن صــعب يحتاج للكثير من التدريب.

فيه ستتنقل بين طبقات أصواتها كما لم ولن تفعل مطربة أخرى، هي أغنية لها وحدها!

بدأ اللحن ينساب والجمهور يتذوق، لم يفكر أحد في فهم ما يجري، أنه بديع وكفى.

وقفتْ بخفة وصفق الحضور حماسًا وأبتسمتْ أبتسامة عذبة وهي تميل رأسها.

تشعر بشبابها فقط على الخشبة، حرصت هذه المرة على إبعاد المكبر أمتارا كي لا ينفجر!

أخذتْ نفسًا عميقا وفردت يديها أمامها ترى الغربة تغمها.

يا قلبى!

يا قلبي بكرة السفر!

ونغيب عن الأوطان.
وتأوه الحضور شجنا.
وتطول ليالي السهر.
في البُعد والأشجان.

ضوء ... ليث

65

مضـــتْ بنا الأيام رتيبة ونريدها أن تفيق من هدوء بالها وتســـرع في العدو نيلًا للشـــفاء. قانون كوني غير مفهوم؛ نتوق أن ينقضي الوقت فيعاند ويدّعى الكلل، يلزمنا الوقت وبين يدينا أمرٌ ذو بأس فيحلو للوقت العدو كأنه في سباق مع أقرانه من الأبعاد!

مضى عام أمضي للجامعة أدرس وأحضّـر الرسـالة وأناقش الأسـاتذة وأعود آكل شـيئًا جافًا تعلمتُ تحضـيره لي ولكوثر. أو أمضـي الوقت أترجم في عقلي حوارات الكنديين في مكتب المحاماة وأدّعي أني أؤمن بحقوقهم في العدالة.

بائســة كوثر، بُعدها عن أمّنا مصـاب يتجدد كل صـباح تصـحو فيه ولا تقبّلها، ومريم.. شجاعة، نبيلة، أمضت عامًا ونيف من العلاج بين الكيماوي والخلايا الجذعية. حثثتُها أن تأتي هنا للعلاج وأصرّت بعناد ألّا فرق بين البُلدان.

قاربتُ على إنهاء رسالتي. أراسل مريم كل يوم. اليوم تحادثنا.

"متى ستنهين العلاج؟"

"تبقى أسبوعان"

"أشتقتُ إليك"

غيرّتْ مجرى الحديث البائس.

"أسمعتَ حفلًا للقصبجي من قبل؟"

"رق الحبيب. ما من سواها متاح"

"إذن هاكَ أغنية الليلة"

وبعثتْ برابط الأغنية.

.....

انتصف الليل عند مريم وقاربت الشمس هنا على المغيب. بدأ اللحن ولكن كان التسجيل رديئًا وسرعته بطيئة ولكنه واضح وكفى.

بدأتُ أتذوق اللحن، في البدء لم أفهم، شـــعرتُ أن الآلات تعزف وخلاص ولكن أعدت التذوق وقد أعادوا عزف المقدمة مرارًا وبدأتُ أميل رأسي مع اللحن، وصفق الحضور في الثلاثينات.

تنهدتْ صاحبة الشأن.

يا قلبي!

يا قلبي بكرة السفر!

ونغيب عن الأوطان.

صدري يتلوى ونفسي تعتمر بشتى الخوالج ولم تمضِ دقيقة على الغناء!

وتطول ليالي السهر.

في البُعد والأشجان.

بدأ اللحن في أخذ مسار آخر. للقصبجي طبعٌ خاص إن سمعتَ لحنًا من ألحانه ولم تعرف بعد أنه من أناامله ستقول قطعًا أنه لقصب دون أن تتأكد.

وإزاي أشوف القمر؟

من غير حبيب قلبي.

ما يكون قريب جمبي.

لم أره منذ عام لأني أعلم إن رأيته سأتذكر ليلة القمر التي أفضنا بها بحواسنا. كانت من أهنأ الليالي والآن كيف أراه وزوجي في المشفى راقدة؟

تستعد عيناي لدمع غزير. عام لم أرها! يهيئ لي أحيانا أنها هلكتْ منذ زمن!

كيف ظفرتُ بروحٍ كروحها وجمال باهر كجمالها! مثلها لم ولن يوجد. هل أنا سعيد الحظ لهذه الدرجة أم تعس حدّ الوهم؟

والنسمة تسري وتتكلم وأحنا ساكتين.

والروح على الروح بتسلم.

والعين في العين.

ثار الحضور صياحًا ومضت أم كلثوم تبكي تتساءل مع قلبها. وقلبي أنا! كيف سيبرأ إن لم تبرأ بعد؟

مضى اللحن يثور في ملحمة وتناغم وتلتحم أنفاسي حزنًا.

ياما بِعِد.

ياما بِعِد عني حبيبي من قبل اليوم!

كتمتُ آهة كي لا تستيقظ كوثر رغم أن اللحن صادح في بيتنا، وأم كلثوم مالها تغني بكل حواسها! بحّ صوتها وطغى.

ياما بِعِد.

ياما بِعِد عني حبيبي من قبل اليوم!

مضت تعلو بصوتها إلى طبقات يصعب التصور أن يمكن لصوت الوصول إليه!

ياما بعد!

يتأوه الحضـور تأثرًا. كيف تحملوا ولم يصـعقوا وهم حضـور؟ ويا إلهي أنها ترتجل! وهو أول حفل لذلك اللحن! عادة أم كلثوم ترتجل بعد أن تتأكد أن اللحن بأكمله نال أعجاب المستمعين ولكن أكانت واثقة من نجاح اللحن!

ترتجل وروحي تتخبط بين ضلوعي تريد السمو وأريد البكاء.

ياما بِعِد.

رغمًا عني أتأوه وأبكي وأجوب الحجرة. وأتذكر.

ياما بِعِد عني حبيبي من قبل اليوم.

قالتها بكل وجد وحزن. كم تقاسي مريم! بعيد عنها في بلد منآى عن قدميها المعتلتين!

يعلو صوت أم كلثوم ويعلو صوت الحضور ببحة حارقة.

والبُعد طوّل تعذيبي.

ياما بِعِد عني حبيبي من قبل اليوم.

والبُعد طوّل تعذيبي وحرام النوم.

تشـكو من المسـافة وقد شـدت بكل طرب، لا أدري كيف اسـتطاعت الندب طويلًا دون تنفس!

ياما بِعِد.

يصـيح الحضـور طربًا لم يسـبق أن وجد لأي تسـجيل فكيف إذن حفلات القصـبجي المفقودة!

لا اسـتطيع الجلوس ولا أقدر على الوقوف. لا أدري أين أذهب بحواسـي وهي متأججة ومشاعرى وهي تعترك!

لكن صبرت وعز اني.

في بحروجدي وأشجاني.

وترتجل مجددًا! كيف اسـتطاع القصـبجي اسـتيعاب كل هذه الطبقات وكل هذا الأداء إن لم يكن إرتجالا!

إن النسيم إللي بشمه فايت عليه.

تغني بنشـــيج ونعي والحضـــور يصـــيح، يبدو أن كل من في القاعة لا يســـتطيع اللحاق بأنفاسه فهذه تغني كما لم يغنِ أحد من قبل! كل ثانية يصيحون!

يخيل لي أن الحفلات موجودة منذ الأزل فكيف لمثلها أن يوجد على أرض الواقع!

لكن صبرت وعز اني.

في بحروجدي وأشجاني.

إن النسيم إللي بشمه فايت عليه.

أقابله عن بُعد وأضمه وأشكي إليه.

بدأ صوتها ينتحب ويثور ثم ختمت المقطع كمن يركع باكيًا بشكل غير مسبوق. كيف!

كنتُ في حالة يصعب وصفها، أحاول كبت أنفعالي ولكن تتلاحق أنفاسي ارهاقا.

وإن ردد الطير من لحنه.

وشفته ميال على غصنه.

سمعت منه نجوى الحبيب إللي بعد عني.

هدأتُ فجأة تعبًا. لا أدري ماذا ســأجني من هذا الموال. لن أبرئها من مرضــها ولن تصــبح كندا ملاصقة لمصر ولكن رغمًا عني أعاني مثلما تعاني.

وشفت طيفه مني قريب عايز يكلمني.

ولكن سألت فين النسيم؟

ينقل له شوقي و أفكاري.

اســتحضــرت طيفها، جاءتني بفســتان بديع وشــمس شــعرها يبهر ناظريّ. حاذت ناظري وهمّت بقول شيء.

"أشتقت إليكِ"

ابتسمَتْ وأتمتم.

"لا اســتطيع المضــيّ. أحيانا رغمًا عني. أتمنى هلاكك كي ينتهي العذاب. كي لا أتعذب بين الأمل ولهفة الشفاء. فليأتي الموت أو يبتعد ولكن كيف لي إذن أن أحيا؟"

وفين يا قلبي ساعة النعيم؟

وقت القمر والليل ساري.

"لا تحاربين وحدك، أحارب كي أظل صـامدًا فلا أنهار وأضـيع في هذه الغربة وعلى عاتقي طفلة قريبًا ستصير مراهقة. إلى متى سأحتمل، أشعر أني لست شجاعا بما يكفى فأتمنى هلاكِكِ هربًا من ضنا الإنتظار. ليست عدم مسؤولية أتمنى أن أضحي من أجلكِ، ولكني أصارع خوف الموت وخشية الفراق وما أراكِ أمامي كي استمد القوة"

لما أبقي وحدى غريب.

بين الأمل والخيال حيران.

ومالي حبيب أسعد معاه بالوصال.

مدتْ يدها كي تضـعها على وجهي وعيناها نديتان بالدموع، أقتربتْ وصـدقتُ أنها عادت وبرأت. هممتُ بضمها والبكاء على كتفها.

"لا تبكي! لنا حياة غدًا. أعدك"

.....

أفقت على كوثر تهزني برفق، أخذَتْ منديلًا ومسحتْ دموعي.

"لهفى عليكَ تبكي وأنت نائم!"

"ماذا؟"

"ظننتكَ مغمضًا عينيك تبكي ولكني فوجئت بك نائمًا تهنه"

ضمتني.

"قلبي يحدثني خيرًا"

تنهدتُ.

"خيرًا"

مريم ... ليلى

66

غفوتُ وأنا اســتمع إلى الأغنية، أجوب بلدانا وأودية حتى دلفت بناءًا ودخلتُ بســلاســة الشقة. وحيّ يدلني أين أنقل خطاي. وجدتُ حبيبي ضوء، شعرتُ أني بصحة لم أحظَ بها من قبل وماء الشباب يتورد على وجنتيّ وشمس شعري ينير الحجرة.

"أشتقت إليكِ"

أبتسمتْ. مضى يبكي وقلبي يشفق عليه. خطوت نحوه حتى حاذيته، يحكي لي عن شكاته؛ كم يعاني وكم هو نادم لرغبته في هلاكي أحيانًا. لكن لا بأس فأنا أحيانًا أتمنى هلاكي.

وضعتُ يدي على وجهه ودموعي تنهمر من منبعهما.

همستُ له.

"لا تبكي! لنا غدًا حياة. أعدك"

أفقت وكان أذان الفجر مسموعًا. تذكرت الحلم وبكيت بوهن.

تيممت وأرتديت الخمار وصليت ركعتي الفجر، حين سجدت أبتهلت بالدعاء دموعا.

.....

كان اليوم عصيبًا. تدهورتْ حالة أمل وأنعدم الأمل في الشفاء، أشار الطبيب إلى أهلها أن تقضى آخر أيامها في البيت معهم.

دق الباب ودخلت عمة أمل تجر كرســيها. لم اســتطع إطالة نظري عليها؛ كانت هزيلة وطيفًا لبشر.

أبتسمتْ قائلة بضعف.

"جئت أودعك"

تحاملت وخطوتُ بخطوات مرتعشة حتى ركعت أمامها.

"سعدتُ بمعرفتك"

همستُ وعيناي تدمعان.

"حين أخرج أنا الأخرى من المستشفى سآتي لزيارتك"

مسّتْ يدها وجهي قائلة بثبات.

"ستشفين. أخبرني الله بذلك على لسان أمي. أنا لم أتمكن من فعلها"

أختنق صوتها وحبستْ عمتها صوت بكائها.
"كم تمنيت لو أكبر وأحب كما أحببتِ، أن التحق بالجامعة، أتزوج وأنجب، أعيش مائة عام وأموت بين أولادي. ولكنك ستحيين"
أغتصبُ ابتسامة.
"ستحيين ما تمنيتُ عيشه. صدقيني أخبرني الله بذلك. تذكريني. ما عرفتُ أنسانة أنبل منك. سأذهب ولكن كما قال الرسول؛ موعدنا هناك عند الحوض، سأنتظركِ هناك"
بكيتُ وضممتها بحرص رغم مشاعري الجارفة وقبّلتها وقبلتُ يديها. قلت بين شهقات البكاء.
"موعدنا هناك. سأشتاقُ إليكِ كثيرا"
"هاكِ"
أعطتني قلادة عليها هلال من الماس. تذكرني بشيء ولكن لا أذكره!
"أعطتني إياها أمي وقد عانت من عين المرض. تذكريني بها"
"ولما أنا بالذات؟"
"لأنك أفضل صديقة لي بل أنت صديقتي الوحيدة. حين عرف أصحابي بمرضي هجروني. أحمد الله أن عرفني بك قبل أن أموت"
زاد نشيجي.
"سأظل أرتديها حتى آخر يوم"
ابتسمتْ.
"بين أولادك"
وأكدتُ.
"بين أولادي"

.....

بعد أيام نبا إليّ خبر وفاتها. بكيتُ اليوم كله وأمي وسلمى تحاولان تهدأتي. كلما هدأ بكائي أتذكر صوتها المختنق فأعود للبكاء. مسكينة لم تعش بعد حياتها، أرادت أن تحب مثلي.
في اليوم التالي أعلن الطبيب أنتهاء بروتوكول العلاج. رنوت إليه غير مصدقة.
"ستحيين"
هكذا أكدتْ، غادرتُ المستشفى وأنا على يقين أني لن أعود إليه.

القاهرة

أوائل عام 1962

مسرح حديقة الأزبكية

عاد الناس إلى مقاعدهم وفُتح الستار وصفق الحضور. تلهفتْ أعصاب الجالسين؛ تمنوا أن تغني أغنيتها الجديدة التي أفتتحت بها موسمها الجديد. وبدأ العزف.

صفق الحضور حماسًا، جلستْ أم كلثوم منتظرة لحظة الوقوف، أول حديث لمأمون! أختلفا مرة في الماضي على الكلمات، أصّرتْ على تغيير البعض وأصرّ على الرفض والآن أتاها بهذا الحديث.

حديثٌ بسيط ولكنه معبر لم تجد داعيًا لتغيير أي كلمة خاصة أنه عصرٌ جديد وشباب جدد.

كم توالى الحديث على الملحنين! أعطته لزكريا ولم يكد يبدأ المذهب حتى أسلم الروح. أرتأت أن تعيد كرتها في التعاون مع ملحن شاب؛ كانت قد أتصلت بسيد مكاوي وأعطته الحديث بعد أن طار فرحًا وأنهى التلحين ولكنه كان عجولًا ملحاحا! بطبيعة الحال ألغت التعاون. حاولت مجددًا مع محمد فوزي ولكنه أصر على كرمه وأعطائها لبليغ بعد أن قارنت بين مقدمة كل منهما. أحتفظ بليغ بمذهب زكريا أكرامًا لذكراه وحققت نجاحًا بالغا.

"شكلك يا بليغ هتلحن لي لفترة طويلة"

وقفت وصفق الحضور، تنحنحت وبدأت بعد دقيقة تسأل حبيبها الأزلي في انكار عذب.

أنساك ده كلام؟

أنساك يا سلام!

أهو ده إللي مش ممكن أبدًا.

ولا أفكر فيه أبدًا.

مريم ... ليلى

67

عدتُ للبيت، أكاد أسمع صياح عين وأنا أمام باب البناية، تلهف قلبي لرؤيتها. عام لم أرها فيه ومازالت تذكرني! أرتقيت السلم بمعونة أمي وسلمى وحين فتحت الباب ماءت عين بجنون تتمسح وتقفز بمخالبها تتشبث بملابسي كي تصل إلى كتفيّ وأضمها. دمعت عينا عين!

"ها أنا يا عيني قد عدت"

ذهبتْ بي سلمى إلى الغرفة وأنا حاملة عين، رجوتها أن تتركني وتعود كي ترتاح.

تنهدتُ وقد رنوت إلى الغرفة مليًا؛ فيها قضيت أسوأ وأحلى ساعات العمر. أجوب بناظري كل ركن ثم رنوت إلى المرآة. يومًا رنوت إليها وكدت أقص شعري وأفقئ بعدها عينيّ. والآن أرنو بأسف لما فعلته بي الجلسات. لكن كل شيء سيعود.

كم من الأعوام مرت؟ كنت غرة غافلة أناجي أطيافًا ضالة. دمعتْ عيناي؛ يا ترى كيف سأصبح لو لم ينحنِ يومها ليلملم معي خيبتي وكتبي؟ أكان سيفتك بي المرض ومن قبله الخيبات والمآسي. أكنت سأقف الآن كلي أمل في القادم؟ كنت سأكون أنسانًا بشعًا أكره نفسي والدنيا.

دقت أمي الباب، تأملتني بحب.

"بماذا تفكرين؟"

"أفكر كيف كان سيكون مآلي إن لم التقِ يومًا بضوء"

خطت نحوي وقبلتني.

"كيف حال زوجك؟"

أنتبهتُ وصحتُ.

"لم يحادثني منذ أيام! نسيت أن أحداثه وأخبره بعودتي"

"حسنٌ سأدعك ترتاحين وتحادثينه"

قبل أن تغلق الباب أضافت.

"الوردة التي تفتت منك قبل رحيلك، جلبت لها قارورة من زجاج ملون ووضعتها فيها. ستجدينها في صندوق مقتنياتك"

كان الصندوق على الكومود بجانب السرير، جلبت الصندوق وفتحته.
ضوضاء الذكرى تصخب بصمت في المحيط حولي، ها هي الزجاجة تضم بقايا الوردة، قبّلت الزجاجة، يوم لبيت النداء ورأيته مرتبكا. كم كنا صغارًا! أعوام ومضت. وجائتني الفكرة المعتادة.
هاتفت ضوء.
"ألا تسأل عن زوجك؟"
هتف بي.
"كنت مشغولًا كآلة أتفق الكل على تدميرها. المكتب و مراجعة آخر مرحلة من تحضير الرسالة. مشكلة بين كوثر وزميلتها -عنصرية طبعًا ولم تسكت كوثر- وشكتني جارة عجوز إلى الشرطة"
صحتُ فيه.
"ماذا فعلت؟"
ضحك بصفاء.
"بل أنتِ من فعلتِ"
"لا أفهم"
"قدمَتْ العجوز بلاغًا بسبب ضوضاء تأتي من شقتنا؛ صوت موسيقى لا تُفهم وسيدة تصرخ وتبح صوتها كأنها تحتضر. قطعًا ليست أوبرا"
"يا إلهي! لحن القصبجي!"
"هو بعينه. أعتذرتُ للسيدة ووقعتُ على محضرٍ بعدم التكرار"
ضحكتُ بشدة كمن لم يخبر بعد معنى الضحك.
"أم كلثوم تصرخ وتبح صوتها! ما أبأس الغرب!"
"اللهم خيرًا! أنتِ أكثر صفاءًا اليوم"
"بلى. أنهيتُ العلاج وعدت للبيت، ماذا سنسمع الليلة؟"
قلتها بعفوية مقصودة كمن يُلقي أخبار اليوم.
"ماذا قلتي؟"
ضحكتُ.
"أنتهى العلاج، تركت المستشفى"

هاتفني فيديو.

"ماذا تريد؟"

أبتسمتُ بمكر.

كان وجهه عامرًا بشتى الإنفعالات ولكنه يكبتها كي لا يقفز فرحًا أو يصرخ ألمًا أو يبكي أملًا.

"أخيرًا"

أومأتُ.

"أخيرًا"

"أشتقتُ إليك"

"وأنا أيضا"

"متى سأراك؟"

"مازال هناك وقت كي ينمو شعري ويعود رونق الحياة إلى وجهي. وأعود استطيع المشي من جديد. أنتظرني كي أعود وحينها ستجهز أوراقي كوني زوجك"

أبتسم.

"أحيانا أنسى أنك زوجتي"

"مازال يهيئ لي أني مازلتُ فتاة وجلة تجوب الجامعة استكشافا. مازلتُ أظن أننا ظللنا أطفالًا سذجًا يكتشفان لأول مرة معنى الحب. معكَ أكتشفت نفسي وحياتي كلها. لم تكن لي أمانٍ ولكن صار كل أمل لي أن أظل بجانبك أرنو إليك فحسب. أتدري أشعر أني في شباب يفوق أصغر الشبان وأصباهم. فقد ولدت معك لحظة خَلَقَنا الحب، نحن أخوة في الحب؛ توأم لا يفرقنا حدثٌ مهما عتت الأقدار، أنجبنا الحب في نفس اللحظة فلا يكبر أحدنا الآخر ولا يصغر، عمرانا واحد لا فرق فهما بين ثوانٍ"

"أحبكِ"

"وحق سكناكَ في قلبي"

وضعتُ يدي على الشاشة ووضعها هو الآخر. قلت مرحًا.

"عد إلى عملك وحين يأتي يوم مناقشتك أخبر كوثر أن تحادثني كما نتحادث الآن كي أحضر أنا الأخرى"

أبتسم ممتنا.

"حسنٌ. ماذا سنسمع الليلة؟"

"حفلتين لذات الأغنية؛ أول حفلة ســنســمعها كلها فهي أروع حفلة للأغنية، ثاني حفلة سنسمع آخر إعادة للمقطع الأخير فقط"

"تفاريد؟"

"تفاريد"

.....

بدأت الوصــلة الثانية. أنكببتُ على الأوراق اســتعدادا للكتابة إلى ضــوء من جديد بعد انقطاع.

أنساك ده كلام؟

أنساك يا سلام!

"زوجي،

كيف لي أن أنساك وأنت الروح والمُنى؟ أحيانًا أخشى أن تظن بي هذا الظن الموحش."

أنساك ده كلام؟

أنساك يا سلام!

أهو ده إللي مش ممكن أبدًا.

ولا أفكر فيه أبدًا.

"لن أنساك حتى لو نسيت الوجود ومن فيه، ستظل وحدك من أذكره حتى لو لم أذكر لياليناً."

ده مستحيل قلبي يميل.

ويحب يوم غيرك أبدًا.

أهو ده إللي مش ممكن أبدًا.

"لن أذكرك بعقلي وما فيه من مخزون الأحداث الغابرة، بل سيذكرك قلبي ويتفتح لك من جديد."

أعادت أم كلثوم المقطع الأول مرارًا ربما خمس مرات! قبل البدء من جديد تطلق آهات خافتة.

أنساك ده كلام؟

أنساك يا سلام!

"الحب ليس بالأحداث وحدها، ربما كان ذلك عاملًا مساعدا ولكن الحب منبعه مكارم الأخلاق، نقاء الفؤاد ونبله. الحب ليس مدعمًا بذكرى العقل، إن فقد لن يضر الحب شيئا. للهواء الساري وفي ذراته ذكرى كل صوت صدح منذ نزول آدم إلى لحظتنا هذه. الهواء عامرٌ بشتى الأصوات لمختلف الدهور، يومًا قد نسمع مناجاة كليوباترا لكل من عشاقها، قد نسمع قيسٍ وهو يشدو مجنونًا بأبياته لليلاه، قد نسمع حفلات فقدت لأم كلثوم صدحت بها. قد نسمع ونسمع. للجسد ذاكرة."

ولا ليلة ولا يوم أنا دقت النوم أيام بعدك.

كان قلبك فين وحنانك فين؟

كان فين قلبك؟

أنا أنسى جفاك وعذابي معاك مانساش حبك.

أنساك ده كلام؟

أنساك يا سلام!

"تتساءل أم كلثوم عن أختفاء حبيبها رغم ولائها. لكنكَ يومًا لم تغب. روحك معي وكذلك روحي معك.

وأحب تاني ليه وأعمل في حبك أيه؟

ده مستحيل قلبي يميل.

ويحب يوم غيرك أبدًا.

أهو ده إللي مش ممكن أبدًا.

"وللروح ذاكرة كما الجسد؛ تتذكر العيون حين تلتقي بمن بادلتها الحديث زمنًا. قد يتذكر القلب حين يرتعش بدقاته المعهودة يوم يأتي من أحبه، والروح تذكر شريك عمرها ومن نادته قبل حتى أن تعرفه، فلأجله خُلِقَت.

إن نساك عقلي فلن ينساك جسدي ولا روحي."

سهوت لدقائق عن الكتابة ومضيت استمع لأم كلثوم مع ضوء.

بلى كيف سأحب يوما؟! أنتَ فقط من أحببت وسأحب. إن ضعتَ ضعتُ.

بدأ المقطع الثالث، هام اللحن فأنّت روحي حبًا، ثم أعادوه من جديد وأقشعر جسدي، مايلتُ رأسي ومسحتُ دموعي تأثرًا. بدأت أم كلثوم تطلق آهاتها.

ذكريات حبي وحبك مانسهاش.

هي أيامي إللي قلبي فيها عاش.

سقطتْ دموعى على الورق.

فيها أحلام قلتها وحققتها لي.

فيها أحلام لسة أنا مقلتهاس.

تغني أم كلثوم بكلها وتسقط دموعي.

"أحلى حياتي تلك التي قضيتها معك وما فتئت أحدثكَ عن حلاوة ذكراي معك وما سأفتئ أحدثك."

لم تختم أم كلثوم المقطع بل صمتتْ كي يعاودوا عزف المقطع من أوله.

"لكن إن نساك عقلي ستظل حلاوة الذكرى في قلبي وروحي وكافة أعضاء جسمي. فكيف أنساك يا حبيبي!"

إللي فات من عمري كان لك من زمان.

وإللي باقي منه جاي لك له أوان.

وبدأتْ في تفاريدها.

"العمر السابق كان تمهيدًا لك، كان يجب كلًا منا أن يخوض ما خاضه كي يطهر الله كلًا من روحينا، كي نؤهل للحب والعمر الذي بدأ حين حدث المكتوب.

سيكون دائما وأبدًا لك. حتى لو نسيتُ سيظل العمر مدينًا لك بحبك ووفائك، سيظل أبدًا لك."

سهوت من جديد عن الكتابة كي استمع لروعة ما يحدث الآن.

وأحب تاني ليه وأعمل في حبك أيه؟

ده مستحيل قلبي يميل.

ويحب يوم غيرك أبدًا.

أهو ده إللي مش ممكن أبدًا.

ختمَته وبدأ المقطع الأعذب والأشهر للأغنية بل في مسيرتها كلها خاصة حين ضمته فرقة كايروكي لإحدى أغانيها.

كان لك معايا أجمل حكاية في العمر كله.

سنين بحالها ما فات جمالها على حب قبله.

لما تنوح في هذا المقطع؟ لما وضعه بليغ هكذا؟ أتبكي لأن حبيبها ظن بها هذا الظن البغيض أم لأن الحكاية صارت من الماضي وصار مستحيلًا أعادتها!

سنين ومرت زي الثواني في حبك أنت.

وإن كنت أقدر أحب تانى هحبك أنت.

صفق الحضور ولم اعد للكتابة. ظللتُ أتذكر مع الكلمات كل لحظة جمعت بيننا.

ثلث ساعة وأنا هائمة مع اللحن.

راسلته. "أنهيت الحفلة؟"

"بلى. إلى الحفل الآخر"

بدأ الحفل المصور وبدأت من حيث الدقيقة المتفق عليها.، بدأت في تفاريدها.

كان لك معايا.

أجمل حكاية.

ثم صدح صوتها عاليًا إلى آفاق المسرح.

كان لك معايا أجمل حكاية.

وصاح الجمهور وأكاد اصيح معهم. أعادت الأداء بأداء أروع.

كان لك معايا أجمل حكاية.

كان لك معايا.

ثم خفت صوتها باكيًا.

أجمل حكاية في العمر كله.

تصدح بصوتها لحبيبها الأبدي.

كان لك معايا.

أجمل حكاية في العمر كله.

تغني برقة كمن يتذكر.

سنين.

سنين بحالها.

ما فات جمالها.

وعادت من جديد إلى اللحن المعهود.

كان لك معايا أجمل حكاية في العمر كله.

شرعتُ أكمل ما خطته.

"للعمر حكايات ولكن وحدها حكاية واحدة تثري القلب وتستقر في كل ذرة في الجسد.

زوجي، حكايتنا ستظل وسأظل أذكرك حتى إن نسيتك.

المخلصة،

مريمك"

ده مستحيل قلبي يميل.

ويحب يوم غيرك أبدًا.

أهو ده إللي مش ممكن أبدًا.

ضوء ... ليث

68

قبل يومين من المناقشة رن الجرس. لا نعرف أحدًا كي يأتينا. فتحت الباب.

"أمي!"

ضمتني وهي تضحك وأتت كوثر راكضة حين سمعت هتافي، ضمتنا أمي معا وجلسنا بعد أن أدخلتُ حقيبتها.

"لما أتيت؟ ولما لم تخبرينا؟"

"لن أفوت يوم حصولك على الماجستير، أردت أن أفاجأكما. بالتأكيد لم يأتكما خبر مفرح منذ ما يزيد عن عام"

مضت أمي تتسامر معنا وحين خلدت كوثر للنوم قالت لي كمن يقدم كنزًا.

"معي شيء لك"

أخرجتْ من حقيبتها رسالة! رنوتُ إليها ودق قلبي. لعلّها منها. دمعت عيناي حين رأيت أنه خطها.

"ألهذه الدرجة!"

مسحتُ عيني وضحكتُ.

"خبرتِ الحب وقطعًا تعرفين"

تنهدتُ وأكلمتُ.

"لن ألقى مثلها أبدًا. هي جوهرة ألقاها الله لي. أتساءل أهي بشر مثلنا!"

مست بيدها وجهي.

"دق الباب وفوجئت بها وسلمى معها. ناهيك أن سلمى أنخرطت مع أديب في قصتهما ولكن هتفتُ بها فرحة غير مصدقة أنها خرجت من المستشفى. دمعتْ عيناي حين نادتني بحماتي وهي تضمني. أنسى أنكما متزوجان"

"وكيف حالها؟"

"كانت تستند على عكاز وأخبرتني أنها شرعتْ في العلاج الطبيعي. لم أرَ ملامح لتعب، قد عاد ماء الحياة يجري فيها. أنها تجاهد وتحيا لأجلك. حمدًا لله أنك وقعت في طريقها فلا أظن أنها لولاك لعاشت يومًا واحدًا بعد مرضها"

ضمتني ودعت لنا. قبل الخلود للنوم فتحت الجواب وغرقت بين حروف يدها.

.....

يوم المناقشــة أرتديت الروب ودق قلبي خوفًا. كنت قد تدربت على المناقشــة كي لا أخطئ في كلمة واحدة.

الحق يُقال لا آبه إذا حصلت على الماجستير أو لم أحصل، ذلك أمرٌ فرض عليّ ولم أسعَ له فسيان نجحتُ أم لا، لكن كأي طالب ليلة الإمتحان يشعر بأمعائه تتلوى قلقا. وقفت أمام الأســاتذة، قبل أن أبدأ نظرت إلى أمي وكوثر، ومريم. كانت تراني من شــاشــة كوثر. أبتسمت لي وأشارت أنها معي. أخذتُ نفسًا وبدأتُ المناقشة، بعد ساعات صدح القرار بمنحي درجة الماجستير بتفوق.

صاحتْ أمي وكوثر وأول ما فعلتُ بعد مصافحة الأساتذة أن توجهت إلى المنصة وألقيت شكري للأساتذة ولمن أشرف على رسالتي، الخ. ثم وجهتُ ناظري إلى مريم.

"مهما شكرتُ أمي وأختي لعونهما وحبهما لن أؤدي حقهما ولكن من حقًا أدين لها بحياتي، من يشكرها قلبي ويهتف بأسمها، من أثبتت لي أن في الحياة ما يُسمى حبًا بحق. أشكر بكل عمري السابق والحاضر واللاحق. روحي وزوجي، وشريكة حياتي. مريم. وحق سكناكِ في قلبي، لك يا مريم أعيش وسأظل أحبك"

صفق الحضور بحرارة. ضممت أمي وأختي وحملت الشاشة.

"مبارك يا حبيبي"

هتفتْ باكية.

"سأنتظرك يا مريم"

القاهرة

عام 1971

مسرح سينما قصر النيل

أنفرج الستار ووقفتْ أم كلثوم تحية للتصفيق. بدأ اللحن وكان من أوائل الألحان التي أخذت طبعًا خاصًا بالسبعينات. في هذا المسرح كم صدح صوتها وكم أطربت! حاولتْ ألا تسير مع طيار أفكارها كي لا تقهر.

بعد صولو الجيتار بدأ اللحن في أخذ طبع شرقي وغربي في آن!

ما خشيتْ منه حدث، ها هي الألحان هادئة كي توافق شيخوخة صوتها ورغبته في التقاعد، ذات تدريب فوجئت أن استعصى عليها أداء طبقة عالية من الغناء ومن يومها يحرص كل ملحن برع يومًا في إظهار صوتها أن يهبط بالطبقات.

كم حاولت ولكن لكل شيء عمره، كل حفل ترغب أن تعلو بصوتها مع روحها واللحن ولكن لا تستطيع. تذكرت مأساة أغنيتها الثانية مع الموجي.

هزت رأسها هربًا من أفكارها وأعتصرتْ منديلها. حرصتْ أن تماشي صوتها مع اللحن وتتلاعب فيه حتى تنهي الأغنية بأقل الأرباح ولكن مازال الحضور حريصًا على المجيء والإستماع. تنهدتْ وقد وجب الوقوف.

أمالت رأسها وأبتسمتْ وقد بدأ الحضور في الصياح ورضخ العازفون وأعادوا المقدمة من جديد. حسنٌ. مازالت تطربهم وهذا يكفي.

رق بالها وبدأت تعلن بسعادة رتيبة.

الحب كله حبيته فيك.

الحب كله.

وزماني كله أنا عشته ليك.

زماني كله.

مريم ... ليلى

69

مضت الأيام هادئة، مملة، رغم أحاديثنا التي لا تنتهي إلا أني أشعر بخواء الشوق.
كنت أنتظر يوم النتيجة؛ يوم يخبرني الطبيب أني برأت أو مازال جسدي راضخًا للورم.
مضت فترة وذات يوم وقعت عيناي على المرآة وقد خلعت غطاء الرأس، تحسستُ رأسي.
كان قد غزاه الشعر! بدأ في النمو ولم ألحظ.
شعري كصبي صغير بخصل! ربما الأمر بسبب الفيتامينات والحقن التي حرصتُ على المواظبة عليها لإنبات الشعر ولكن كيف سهوت أن أتابع نموه!
طغت الفرحة وقصدتُ كل أسبوع أن أحجم عن متابعة نموه حتى صار يحاذي أذني!
لا أصدق انه نما بتلك السرعة! حرصت دائمًا أن أغطي شعري كي تأتي المفاجأة مدوية.
ولكن شوقي إلى ضوء يدّمر أعصابي. أحرص كل يوم على المشي، آكل بانتظام وأهاتف ضوءًا. ولكن متى سأظل بمنآى عنه؟

.....

خطوت بخطى وئيدة أتلفتُ حولي. وجدتني في حفل مكتظ بالحضور وسيدة تقف على المسرح.

الحب كله حبيته فيك.

الحب كله.

وزماني كله أنا عشته ليك.

زماني كله.

هتفتُ مع الهاتفين وصفقتُ معهم. ما أعظم صوتها! ما أصباه! لم تكن كأدائها حين شاخ صوتها يوم غنتها بل كان بديعًا. بدأتْ تلعب بأوتار صوتها.

حبيبي قول للدنيا معايا.

ولكل قلب بدقته حس.

كان صوتها يعلو إلى طبقات عجز الوعي أن يصل إليه.

يا دنيا حبي ده العمر هو الحب وبس!

وأسقيني وأملى وأسقيني تاني.

من الحب، منك، من نورزماني.

أسقيني ياللي من يوم ما شفتك!

حسيت كأني أتخلقت تاني.

يصرخ الجمهور جنونًا، يتغير المكان بي وأم كلثوم مازالت تشدو بعذوبة. أتجول في الحديقة وأم كلثوم بعازفيها واقفة في صدرها تشدو معتصرة منديلها. أجدني في المستشفى، وأبكي. أحاول المشي فأقع فأحاول مجددًا. أتساءل أين ضوء. يقولون بعيد. أسأل هل مات. ويصمتون.

أُحمَل على نعش، أبكي صارخة أني سأحيا، أبحث عن ضوء بين المشيعين كي ينتشلني من النعش.

أصحو وأجدني في غرفتي، أشعة الشمس ذهبية تغرق معالمها فاستعصى عليّ النظر، مضى زمن حتى تآلفت عيني مع النور. أجد شخصًا واقفًا.

قفز اللحن فجأة إلى حالة حنان وحب.

رفعتُ رأسي عن وسادتي كي أتبين الواقف، شعرتُ بشعري يغطى ظهري، دققت النظر وأبتسمت. حبيبي، كان حاملًا منديله القرمزي. شدتْ أم كلثوم في مكان مجهول بأداء لا أقدر على وصفه وإن وصفتُ جُذبتُ.

الهوى العطشان.

عطشان في قلبى بينده لك.

قمت من مكاني وحذوت خطاي نحو ضوء الذي هو الآخر يشع بريقًا.

"ربي ما أجملك!"

كان بديعًا ممشوق الهيئة فَتِيَّه.

يا أرق من النسمة وأجمل من مَلَك!

أمسك بيدي.

يا أرق من النسمة وأجمل من مَلَك.

وعاد صوتها يصدح كغدير ماءٍ صاف.

ده الهوى العطشان.

عطشان في قلبي بينده لك.

ثم وضع يديه الواحدة حول خصري والأخرى على خدي. وأقترب.

"لا يا ضوء!"

"أنتِ زوجتي"

يقترب، أنفاسه كعبق الجنة، قبلني. لم أشعر بها كقبلة، بل شعرتُ بها كحياة تُهب لي، لم أشعر أني أنثى وهو رجل بل شعرت بنا كتوأم الحب. شعرتُ به يبارك لي حياتى معه.

رفع وجهه وهمستُ.

"هل مت؟"

وتعيد أم كلثوم بكل حواسها.

ده الهوى العطشان.

عطشان في قلبي بينده لك.

يا أرق من النسمة وأجمل من مَلَك!

أبتسم وقال بصوت لم أسمع مثله ولن أسمع.

"بل أنت حية"

"كيف؟"

لم أعرف ما وراء سؤالي.

أنت روحي وكل عمري ونور حياتي.

يا حياتي! إيه أنا بالنسبة لك؟

"لأنكِ في قلبي. لأني أحبكِ"

أقترب من جديد وقبلني.

.....

فتحت عيناي. منذ متى غفوت؟ منذ ساعتين. غريب كان الحلم قصيرًا!

استحضرت الحلم باقي اليوم. لو تكون الحياة كالأحلام!

وأخيرًا هاتف الطبيب أمي، دق قلبي برعب.

خطوت ببطء حتى حاذيت أمي.

"مرحبا يا دكتور!"

وصمت.

"حقًا! أخبرنا رجاءًا"

لهثت من تلاحق أنفاسي، أشعر بصدري يضيق وأن اللحظة أبدية. أشعر بفزع. أشعر ب.

وبكت أمي وسقط الهاتف وهى تضمني. دفعتها برفق وصوتي لا يكاد يخرج.
"ماذا أخبرك؟"
"لقد شفيت يا حبيبتي. لقد شفيتي"
.....

مريم ... ليلى

70

قطعا رقصتْ روحي، قطعا سجدت لله لساعات شكرًا له، تبرعت بالمال وحرصت من يومها أن أذهب كل أسبوع إلى دار أيتام أو مسنين..

نذرتُ عمري وصحتي لله والخير ثم ضوء. كان ابتلاءًا وأجتزته وبرأت منه. لعله كان لازمًا أن اخوض ما خضته كي أقدّر أنعم الله عليّ.

كما ألقى الله لي العون من أمي وضوء وأديب وسلعي وكما هبّ عليّ بريح ربيع وهي أمل، يجب أن ألقيه في طريق كل من يحتاج سندًا.

أنتظرتُ شهرين آخرين، كل يوم يسألني ضوء عن النتيجة وأقول له لم تظهر بعد ثم ذات مساء. راسلته.

"أما بدأتَ في الإجراءات!"

ثم هاتفني، رنوت إلى المرآة آخر مرة، شعري قد وصل لكتفيّ وبحر عينيّ وقد ثار ينتظر مرآى حبيبي كي يهدأ. تنفست بعمق وبدأت المحادثة.

رنا إليّ بدهشة وظل ذاهلًا، ضحكتُ بصفاء وأحمر وجهي خجلًا.

"قولي لي أنه فلتر"

هززتُ رأسي نافية.

"إذن باروكة"

هززتُ رأسي وكي يصدق شددتُ شعري أمامه. قفز واقفًا وهو يصيح فرحًا.

"أهدأ قليلًا"

مضتُ دقائق وهو يقفز وجاءت كوثر وحملها وصاحت متسائلة. صدقًا بدأتُ أقلق لو أصابه مسّ من الجنون! هدأ أخيرا بعد ربع ساعة، تأملتني كوثر وصاحت.

"عدتِ مثل السابق"

"متى ستحضر الأوراق؟"

"أظهرت؟"

وهتفتُ به ضاحكة.

"لا تقفز ولا تجن أرجوك"

صمتُّ قليلًا.

"لقد شفيتُ يا ضوء"

غطى ضوء وجهه ونشج بشدة، تضمه كوثر مهونة عليه فرحته. تهدج صوتي تأثرًا وبكيت بدوري.

"لما البكاء؟ أما كنتَ تقفز فرحًا؟"

حاول أن يكتم شهقاته ولكنه لم يفلح. أعطته كوثر كوبًا من الماء وهدأ قليلًا.

"لا تدرين كم شـقيت! خفت هلاكي بعدك، لو اسـتسـلم لأمنية خائبة. خفت أن تقولي لي أن العلاج لم يفلح، خفت الفراق وظللتُ خائفًا من كل يوم يمر ولا أجدك بجانبي"

"أنتهى كل شيء، أخبرتك أني سأشفى وسأعود. سنحيا يا ضوء! لقد أنتهى الحزن"

ثم حثثتُه.

"أبدأ في الإجرائات، لقد غيرتُ الحالة الإجتماعية في هويتي منذ أمد أني متزوجة، أنا في أنتظارك"

مريم ... ليلى

71

مسألة وقت وتنتهي أوراق السفر، أشهر وأصير مع ضوء، مازلتُ واهمة ضوء أن أمي لا تطيقه وأني أهدد بالهرب لو لم تتركني أسافر لزوجي. كل ذلك إذعانا لخاطرها كي أزداد غلاوة ومنزلة لدى ضوء، هكذا تقول. وأمي ليل نهار تدعو لنا بالصلاح وخير اقتران رغم خلافي معها في إرعاب ضوء.

"تمنيت لو أقيم لك فرحا"

"ما كان سيحضر لنا ضيف كان أم قريب"

"على الأقل أراك بفستان الزفاف"

"لا يهم، تزوجتُ وأنتهى الأمر"

.....

جائتني سلمى ذات يوم وهتفتُ بها مرحبة.

"مرحبًا"

قبلتُها وعانقتني ولكنها جلست مرتبكة ونحن نشرب كوبين من القهوة.

"هناك شيء"

"ماذا هنالك؟"

ثم بعد صمت.

"أنا حامل"

ضحكتُ لمزحتها فقطعًا هذه مزحة، ولكن دمعتْ عيناها.

وقع الكوب من يدي، صحتُ فيها ولكن خرج صوتي هزيلًا.

"ماذا تقولين!"

صارتْ تنشج بخفوت.

"حرصتُ ألا يحدث هذا"

لم أعِ وأنا أهز بدنها.

"أفيقي يا سلمى! لا تهذي من فضلك"

أمسكتُ برأسي وصداع يدق فيه.

"ياربي ماذا أسمع! ماذا فعل بك أديب؟"

كنت متأكدة أنه أديب، لو كان شخصًا آخر لصعقتُ فورًا.

"قولي ماذا حدث؟ كيف حدث ذلك؟"

حاولتْ كتمان شهقاتها.

"لقد تزوجنا"

لا أدري هل أهدأ أم أهلع. أتنفس الصعداء أم أكتم صرختي!

"الوغد! كيف تفعلين ذلك؟ ماذا لو علم أهلك؟"

"لا ذنب له، أنا من ألححت. بكيتُ له. لم أعد أحتمل وجودي بجانبه ولا اســتطيع حتى تقبيله"

صرختُ فيها.

"ماذا تقولين؟ أجننتِ! كيف فكرتِ بشيء كهذا؟"

"أنا بشر يا مريم. أحبه، أعشقه، لم أحتمل"

"وكيف وافقك!"

أرتبكتْ أكثر.

"هددته بالفراق"

سألتها صائحة.

"اتواظبين على العلاج؟"

"أحيانًا ولكن منذ بدأت الأعراض أنقطعت"

بالتأكيد حالة جنون من أضطراباتها. لا تفسير آخر! لو هناك تفسيرٌ آخر إذن التي أمامي لا أعرفها!

"يا للكارثة!"

هتفتْ باكية.

"ماذا أفعل؟"

كيف يفعل أديب شيئًا كهذا ألا يسيطر على عواطفه! كان هو الذي وقف أمام ضوء كي لا يتزوجني. تزوج هو الآخر!

مازلتُ بكرًا أنا وضوء وأنخرط أديب وسلمى في. أستغفر الله. أمسكتُ برأسي.

"متأكدة من الحمل؟"

أومأت مؤكدة.

"ذهبتُ إلى الطبيب وأكد لي الأمر"

"هل يعرف أديب؟"

"لا لم أخبره بعد"

"ضوء!"

وقفت وبحثتُ عن الهاتف أهذي؛ هو فقط من سينجدني.

"لا تخبريه أرجوك"

شخصتُ بصري اليها فأرتعبتْ وصمتت. بعد رنين.

"ألو"

"أنجدني يا ضوء!"

أديب

72

عدتُ يومها إلى البيت كطيف جثة، خطوتُ للداخل بهدوء كي لا أوقظ عمتي، خلعتُ كل ملابسي كما فعلتُ منذ ساعات ووقفت أسفل الدش، هبط الماء ساخنًا يلسع جلدي ولم آبه، صرت أنظف جسدي بل أحك بالليفة كل شبر منه والماء يغلي فوق رأسي حتى برد الماء، لبستُ ملابس البيت ورنوت إلى مرآة الحمام. هل هذا أنا؟

شخصتُ ببصري ومسحتُ البخار عن المرآة. هذا ليس أنا! لم أعد أعرفني! يارب ماذا فعلت! تقول نفسي الأمارة بالسوء.

"ما أقترفتَ إثما. تزوجتَ ومارستَ حقك"

أصيح فيها.

"وخطفتُ بكارتها! كحيوان أنقدت وراء غرائزي"

بدأتْ أنفاسي تضيق وأعرق بغزارة كأني أستحم تارة أخرى بعاري.

"أحببتَها وكانت ستتركك وتفعلها مع غيرك لو لم تتزوجها. أكنت ستحيا؟"

وصحتُ باكيًا.

"والآن أحيا!"

دق باب الحمام فجفلتُ.

"أديب هل أنت بخير؟"

"أجل، سأخرج الآن"

خرجتُ وأدعيت الهدوء بل وأبتسمتُ وضممتها زيادة للتمويه وذهبت إلى غرفتي.

كلما اجتمعنا، الحظ تلامسها الزائد وتلاصقها المريب فيّ، أنهرها برفق ولكن بلا فائدة. كأي بشر بدأتُ أضعف وأتركها، لكني اليوم وأنا انتظرها كي تهبط ونخرج أتصلت بي وحثتني باكية على الصعود، رضختُ لبكائها وأنا أعلم ما تريده. أنقاد وارء دمائي وهي تشتعل ودلفت الباب وأغلقَتْه.

"أتركي الباب مفتوحًا"

كانت ذات رائحة مسكرة بدأت تغزو رئتي، تتلاحق أنفاسي. أجلستني وقدمتْ إلي شيئًا أشربه والتصقت بجانبي. لما مازلت هنا!

باغتتني وقبلتني، كدت أدفعها عني ولكني وجدت ذراعي تحوطها وبدأت أقبّلها بشبق وجنون وكدت أضع يدي على. وأنتفضتُ واقفًا الهث.

"ماذا جرى لكِ؟"

"لا أدري"

بدأت تبكي، أخاف أن اقترب فيحدث ما لا تحمد عقباه. استعيد أنفاسي هباءا ويداي ترتعشان حماسًا مع ارتعاشتهما المعهودة. صوتٌ بداخلي ناعم ولذيذ يحثني؛ فرصة العمر، استمتع، لا بأس. ومازالتْ تبكي.

"يا سلمى أتقي الله!"

هتفتُ وأمسكتْ بي وقد هممت بالرحيل.

"فلنفعلها أرجوك، لا تدعني"

ويداها تسري في ذراعي خدرًا أقلقني.

"لا يا سلمى! أهلك أما فكرت فيهم"

نفضتُ ذراعها وخطوت نحو الباب.

"سأعتبر ما جرى كابوسًا"

صرختْ فيّ.

"إذن أنسي أني يومًا سأتزوج بك. أحتجتك وما راعيتني"

وتسمرتُ وقوفًا، وأندفعتُ نحوها وحاولت قدر الإمكان ألا أترك نفسي، جذبتها من ذراعها.

"هيا!"

ذهبنا إلى مأذون وكتبنا الكتاب مع شهود غرباء. شيء ما يقودني لا اسيطر عليه. أحاول مسك زمام أرجلي فلا أقدر.

ولجتُ المفتاح القديم في الباب، جريتُ بها إلى أقرب غرفة، الهث، تتلاحق دقاتي حماسًا، يلتهب جسدي. شددت الملاءة المليئة بالتراب وغبت عن مشاهدة باقي ما حدث.

.....

بدأت استعيدُ أنفاسي بعد انتهاء كل شيء، تلفتُّ حولي أتذكر أين أنا بل من أنا! غطت سلمى جسدها بغطاء السرير القديم ترتجف، رنوت إلى الملاءة الصفراء فوجدت دماء بكارتها وجريمتي . خبطتُ يدي على رأسي. كابوس!

تزوجنا على الأقل تزوجنا، لكن في الخفاء بلا علن!
أرتديتُ ما خلعته من ملابسي، كيف أختزن جسدي كل طاقة الشبق هذه؟ كيف صرتُ هذا الشخص! سلمى! تذكرتها وجلستُ بجانبها تبكي بهدوء.
"لقد جننتُ"
"اهدأي، تزوجنا على الأقل"
لا أدري من أقنع!
"ماذا أقول لأمي؟"
"كانت لحظة ضعف، سأظل معك كي نواجه الأمر"
"لم تكن لحظة ضعف لي. أعددتُها، أخذت احتياطاتي؛ أخذتُ حبة من مانع الحمل. لا أعلم، جننتُ يا أديب!"
.....
كل مرة نقول آخر مرة وننخرط من جديد في ما اكتشفناه حديثًا من لقاء أجسادنا. كلما التقينا، مجرد أن تلتقي عينانا، تسري شعلة في بدننا ونجدنا نذهب إلى منزل عائلتي القديم مغيبين.
أفيق على هاتف من غيث. يصرخ في.
"جننتَ أليس كذلك؟"
أمسكت أنفاسي. عرف ولكن لما أخبرَتهم؟
"لا مبرر لي"
وبكيتُ بخزي وقرف. وهدأ غيث.
"أمراهق أنت يا أديب! كيف تنقاد لأمر كهذا؟"
"ضعفتُ، صار هناك ما يتحكم فيّ ولا استطيع السيطرة على بدني"
يزداد بكائي.
"أهدأ كي نجد حلًا"
"حاولتُ ألا أغضب الله قدر المستطاع"
"أعرف هذا. أهدأ لأن هناك ما حدث"
وآلمني قلبي من شدة هلعي.
"أرجوك لا تقل"

"بلى يا أديب! سلمى حامل"

شعرتُ بدوار والنمل يتعارك في يدي، وقع الهاتف، أحاول أن اهدأ فلا استطيع.

أفقتُ على عمتي تشممني عطرًا ما والعرق يغرقني. صاحت بي.

"ماذا حدث؟"

كنت في حالة يصعب معها الكتمان فأفضت لها بجل الأمر.

.....

أغمى على والدة سلمى وكاد والدها أن يقتلها لولا أن حال بينه وبينها الجيران في منزل أمها.

ذهبت وعمتي وأعلنا الزواج بعد ما أكرموني من نظرات الإحتقار وأخذتُ قدْرًا وافيًا من اللعنات. قطعًا لم أخبرهم أن أبنتكم من أغوتني.

تحملتُ، وأشتريتُ الشبكة وجهزت شقتي القديمة وأنغلق علينا الباب بعد زغاريط جافة وجوب المنظر.

ذهبتْ سلمى إلى عين الغرفة التي حدث فيها ما حدث وتبعتها.

"لم نفعل ما يخزي غير أننا أخفينا زواجنا عن أهلِنا"

ضممتها.

"غدًا هناك موعد مع الطبيب لنتابع الحمل"

أومأتُ بذهول ونمتُ ببدلتي، لم استطع ليلتها فعل ما الكل يعلم ما كان سيحدث بيننا، أو ما لن سيحدث.

.....

رنا إلينا الطبيب بذهول، كانت بثوب مناسبة وكنت بالبدلة، ما إن صحونا بعد نوم كالموت حتى ذهبنا تونا إلى العيادة.

"تفضلي يا مدام!"

تفحص الجنين.

"هذا نبضه، وهذا نبض الآخر"

لم أعر شأنا فلم أنتبه، كنتُ غارقا في خيبتي.

"أتريدون معرفة إذا كانا ولدًا أم بنتًا؟"

أنتبهتُ أخيرًا.

"كانا!"

"بلى، المدام حامل في توأم"

هتفتُ.

"توأم! الآن! بلى"

دقق النظر للحظات

"ها هي أبنتكم، وها هي أختها"

دق قلبي بشعور غريب، تأملت للجهاز، الأجنة، أبنتيّ! طغتْ فرحة صافية، باغتتني سلمى بسؤال ولم تفق بعد من هول الخبر.

"ماذا ستسمهما؟"

لم أفكر.

"خلود، على اسم أمي. وسارة"

.....

جلستُ أمام سارة.

"ستصيرين عمة"

رنت إليّ.

"نعم نعم سأصير ذات يوم"

"لا ستصيرين عمة، سأصير أبًا"

شخصتْ ببصرها.

"ماذا فعلتَ يا أحمق؟"

هتفتُ بها.

"لا تقلقي تزوجنا منذ فترة، ها هي الدبلة"

رنت إليّ بحنان.

"ولم تدعني للإحتفال يا وغد!"

"حدثت الأمور بسرعة"

"أجل أجل"

ثم أمسكت بيديها.

"سأسميها خلود وسأسميها سارة"

رنت إليّ بدهشة

"ستسميها بإسمين، اسم مركب!"

"أنتما هنا وأنا أبحث عنكما"

أشرت إليها.

"ها هي سلمى يا سارة!"

أقبلت سلمى وقبّلت سارة.

"مرحبًا. حدثنى أديب عنك كثيرًا"

رنتْ إلى بطنها.

"هذا أكيد"

جلست سلمى بجانبي ونظرت إليّ سارة.

"أحسنتَ الإختيار، ستسميها بإسمين قلت!"

"سلمى حامل في توأم"

شخصت ببصرها إلينا.

"رويدك فقد فاقت المفاجآت حدها اليوم"

ضحكتُ ورنت إليّ سلمى بدهشة.

القاهرة

عام 1937

باخرة محمد علي

كل مناسبة لا تتم إلا بأم كلثوم، حرصوا على دعوتها لمناسبة العام. حين صعدتْ الباخرة سلمت بحرارة على أحمد باشا عبود.

"النهاردة مكانش هيبقى عيد لولاك يا باشا!"

مجامِلة كعادتها لهذا حرصتْ على اعطاء الباشا نصيبه الأسد لهذا اليوم، تم بفضل أياديه تمصير الشركة الخديوية للبواخر وها هو العلم المصري الأخضر قد رفع على باخرتنا هذه. ظنّتْ أن المليك الشاب سينعم عليها بحضور حفلتها الخاصة ولكن كيف له الجلوس بهيبة وجلال في هذه الحجرة محدودة الإتساع!

أرتدت اليوم فستانًا مزهرًا، تصورت مع قصب وباقي الفرقة على سور الباخرة، وتم التقاط صورة لها وهي تغني أمام الجلوس. تتمنى لو تصلح الصور للنشر.

أنتهتْ أم كلثوم توها من المونولوج، تصفيق معقول مقارنة بعدد الحضور.

الحجرة مكتظة بكبار الدولة وزوجاتهم على كراسٍ من خيزران، أخذتْ تحادث هذا الباشا وذاك البيك وحرمه ثم عادت وأخذتْ أهبتها للطقطوقة الآتية.

أول لحن لرياض، غنها السروجي في الفيلم وأعجبت كثيرًا باللحن، طلبت من عبده السروجي أن تسجل أغنيته وتغنها إذا شاء، قال لها أن غنائها لطقطوقته شرف كبير له. وحققت نجاحًا باهرًا منذ عام.

أومأتْ لقصب وقاد الفرقة للعزف، تصدر العود الآذان مع الناي والرِقْ. اللحن ينبئ بفرحة هادئة، بعودة مغترب بعد طول وحشة.

على بلد المحبوب وديني.

زاد وجدي والبُعد كاويني.

لم يكن هناك كورال يردد خلفها، أعادت المقطع وأدّت فيه بإبداع فاق الذي فى الإسطوانة.

كان من الصعب على البكوات والبشوات أن يكتموا آهات طربهم؛ مهما كان فهم أصحاب رفعة في البلد ومهما كان فهي أم كلثوم!

يا حبيبي أنا قلبي معاك.

طول ليلي سهران وياك.

تتمنى عيني رؤياك.

أشكي لك و أنت تواسيني.

ارتجلتْ قليلا وعادت للحن المعهود.

وعلى بلد المحبوب وديني.

زاد وجدي والبُعد كاويني.

مريم ... ليلى

72

أنهتْ الإجراءات وحصلتُ على الإقامة وتأشيرة الدخول.

من الممكن الذهاب في أي وقت ولكني حرصتُ أن أبدأ في الحصول على جواز سفر لعين.

أتهمني ضوء وأمي بالخبل ولكني أصررتُ على عزمي بجلبها معي.

ولكن على كل حال بدأتُ في تحضير الحقائب.

يضرب القصبجي على عوده متصدرًا العزف.

على بلد المحبوب وديني.

زاد وجدي والبُعد كاويني.

أطير فرحًا، عما قريب سأكون معه. أضحك خجلًا حين أتخيل أول ليلة لي معه، سيكون حانيًا.

تضحك سلمى لضحكي.

"ماذا يضحككِ؟"

راوغتها.

"لا شأن لكِ"

ياحبيبي أنا قلبي معاك.

طول ليلي سهران وياك.

تتمنى عيني رؤياك.

أشكي لك و أنت تواسيني.

وتأوهتْ ضاحكة.

"أركلتكِ أحداهما مرة أخرى؟"

"الإثنتان، لا تكف الشقيتان عن الفرك"

هتفتُ مدعية التذمر.

"كم وددتُ لو أبقى معهما حتى تتعلما الحديث"

وضعتُ يدها على كتفي.

"غدا ترزقين بولد وربما مثلي أثنين وصدقيني لن أمانع في أن أزوجهما وإن صغراهما سنا"

وضحكنا ولكن خابتْ ضحكتي.

"هذا إن أراد الله"

"لما تقولين هذا؟"

"لا تنسي أن فرص الحمل تقل بشكل كبير بسبب الجلسات"

"كل شيء بيد الله، وأنتِ ستسافرين إلى كندا، لن يجد الطب هناك عقبة في أمركِ إذا كان هناك أمر"

"لا اصدق أني أخيرًا سأراه، يهيئ لي أننا لن نشبع من بعضنا"

يا هنايا لما أفرح بيك.

و أتهنى بقربك و أناجيك.

وعينيا تبقى في عينيك.

أحكي لك و أنت تراعيني.

.....

الّحت سلمى أن نخرج سويا قبل أن تلد، تبقى أسبوعان وأوصاها الطبيب بالحركة. كان أديب قد الّح في الذهاب معنا ولكن أصرّت سلمى على كونها خروجة بنات.

أخذنا أوبر وسار بنا السائق على طريق السويس. تحادثتُ قليلًا مع سلمى.

"كم بقى على عمل أديب تحت التدريب؟"

"لا أدري. ما من قضية أمسكها إلا وربحها"

و سكتُّ قليلا.

"أخشى عليه كثيرًا، أمر سجنه القديم يؤرقه، لولا معارف أبي لما حصل على فرصة للتدريب في مكتب صديقه العجوز ولكن ماذا لو لم يتم تثبيته؟ هناك فجوة لا بأس بها في مسيرته الدراسية"

تنهدتْ سلمى.

"رغم ذلك، بدأت الحياة تبتسم بعض الشيء، ربما الحياة ليست سيئة كما تبدو"

ثم وضعتْ يديها على بطنها.

"كم أشتاق لرؤيتهما هاتين الشقيتين"

أمسكت بقلادة أمل الماسية وتمتمت.

"ربما ليست سيئة كما تبدو"

رنوتُ إلى النافذة ورن الهاتف.
"ألو"
ولم يجب أحد.
"ألو!"
هممتُ بإغلاق الخط.
"ظننتي أني سأغفل عنك!"
تعجبتُ.
"من معي؟"
ضحكٌ سخيف.
"أجبني وإلا أغلقت الخط"
"حين أخبروني أن ليلى أصيبت بالسرطان كدت أُجن. كيف إذن ستنال جزاءها؟ ستفلت بفعلتها بعد تخطيط كثير! كفّلتُ أيتامًا وتبرعتُ بالملايين كي تنعمي بالشفاء"
بدأ قلبي يدق بشدة، صارت أنفاسي عبئًا عليّ، تمنيت لو أتوقف عن التنفس للحظات.
"ما الأمر يا مريم؟"
تمتمت بصوت أجوف.
"عمي!"
"بلى يا أبنة أخي! أتدرين فطنتُ أن مرضك خير ضربة لصالحي من القدر فلقد رأيت أن خير أنتقام لي، حين أنتشلك من الحياة قبل أن تنعمي بصحتك بعد شفائك. فرحتُ لأجلك حين أخبروني بالخبر السعيد. مبارك زواجك"
بدأتْ دموعي تنساب وأنا أرجوه بصوت صامت.
"بالله عليك يا عمي! قد تكبدتُ من تبعات ما جرى ما يكفي من العذاب"
بدأتُ أبكي، وسلمى تصيح بقلق.
"ليلى ماذا هنالك؟"
"أرجوكَ أن تتركني وشأني"
"للأسف يا ليلى! لقد خرج الأمر من يدي"
صرختُ باكية.
"ليس الآن أرجوك، معي سيدة حا."

لم أكمل الجملة، جاءت شاحنة وقلبت بنا السيارة. نظرت للحظة إلى سلمى وهي تمسك ببطنها تحاول أن تحمي أبنتها. وعمي يضحك.

صرنا رأسًا على عقب.

ضوء!

يارب! بدأتُ أتمتم الشهادة، هكذا في غمضة عين وعبث ينتهي كل شيء ولم يكن قد بدأ شيء و.

أرتطم رأسي بشدة مع أنقلاب وراء أنقلاب، بدأتْ الرؤيا تنعدم، أسمع سلمى بجانبي تشهق بصوت مريع، شهقة أرعبتني، أردت العويل ولم أقدر على الصراخ.

استعددتُ للقاء ملك الموت قبل أن يفلح أحد في فتح الباب.

وساد الظلام.

أديب

73

كنتُ على المكتب أكب على أوراق قضية، فجأة أعترى جسدي ألم بشع، عظامي تتكسر، كتمت آهة طاغية. سألني زميلي إذا كنت بخير. كدت أنفي ذلك ولكن أختفى الألم.

"أنا بخير"

دق قلبي بوجل وبلا وعي هاتفتُ سلمى. كان الرقم غير متاح! كدتُ أصيح هلعًا.

"يارب سلم!"

مضت نصف ساعة وأنا مكب على الأوراق لا أقرأ شيئا، ثم رن الهاتف وشعرتني سأغيب عن الوعي حين رأيت أنه رقم غريب.

"ألو"

خرجتْ مني كفحيح ميت.

"السيد أديب؟"

أجبتُ بهلع.

"بلى ماذا جرى؟"

صمت الرجل، لا أدري لحيرته؛ كيف يقول لي؟ أم كيف عرفت ان هنالك ما جرى!

"قلبت شاحنة نقل سيارة وهربت، لم نهتدِ لهوية السيدتين ولكن عثرنا في جيب أحداهما على رقم هاتف داخل جراب ما"

"من صاحبة الرقم؟"

قطعًا سؤال سخيف فأنا أعلم من صاحبته.

"السيدة الحامل"

هنا وقفت هاتفًا.

"في أي مستشفى ذهبتا؟"

"اظن القطامية"

يظن! وجربتُ لا ألوي على شيء.

.....

جربت وركبت تاكسي. أول باب أمامي فتحته، أحث السائق على الإسراع.

"يارب! لا تفعل بي هذا!"

أمسك برأسي كي لا يسقط كمدًا، أرنو أمامي لأعرف أين أنا فأجد دنيا صفراء باهتة بالعفر، مقيد اليدين أنقاد إلى العنبر، بدأتْ أنفاسي في التصارع أحاول التنفس فلا استطيع، جن جنون قلبي ففقد السيطرة على دقاته، أشعر بصدري يهبط عميقا، صرتُ كبحر مالح. سأموت! أمسك برأس المقعد أمامي فأرى يداي ترتعشان خلف القفص أعد قضبانه.

أفقت على ماء يرش على وجهي والناس حولي يتزاحمون.

"أنت بخير يا أستاذ؟ أهدأ!"

دفعتهم وصاح السائق طلبًا للأجر، رميت له بالمحفظة وجريت إلى المستشفى، صرخت في السكرتير.

"من فضلك. حادثة سيارة. سلمى عادل وجيه. ومريم. لا ليلى أباظة."

حاول تهدأتي ولكن آخر ما أبحث الآن هو الهدوء.

"أين هما؟"

شرع يبحث ثم جاء أحد يعطيني المحفظة، لعنته وكدت أمسك به لولا أن قال السكرتير بآلية.

"لا يوجد مرضى بهذه الأسماء"

هتفتُ به خشية أن تكون في مستشفىً آخر.

"كيف؟ كانتا في سيارة تعرضت لحادث"

ثم واتتني فكرة.

"أحداهما حامل والأخرى شقراء"

نادى ممرضة وحثّها على أخذي لطبيب. جريت. يارب سلم! أبنتيّ! سلمى! لما لا تجري هذه الرائقة أسرع!

"يا دكتور! زوج المريضة صاحبة الرقم"

"ماذا جرى لهما؟"

"هناك سيدة شقراء في العمليات"

"أني أعرفها، ماذا حدث لزوجتي؟"

لم يفهم ولم يجب.

"السيدة الحامل"

فصمت الطبيب، صرختُ فيه.

"أجبني"

"أبنتاك في الحضـــانة، أســـرعنا في أخراجهما قبل أن يتوقف النبض، بشـــكل ما حمت زوجتك طفلتيك ونجتا ولكن"

شعرت بأن الأرض زلزلت. لا لا تقل.

"البقاء لله"

سيمفونية عبث بدأت تصدح بجنون، صرختُ وأمسكتُ به.

"ماذا تقول؟ أنت مخطئ، مريم من ماتت لا سلمى"

أحالوا بيني وبينه.

"للأســف صــاحبة الرقم هي من توفيت، الأخرى في العمليات. أنا آســف، إن أردت التأكد أسرع في التعرف عليها قبل"

وتردد.

"قبل أن ننقلها إلى المشرحة"

أختل توازني ووقعتْ، حاولت القيام ولكني أقع، ســاندني من حولي. نفضــتُ ذراعي عنهم وقادني الطبيب إلى سرير مغطٍ راقده في غرفة ما.

"سأدعك لدقائق"

دقائق! أتكفى دقائق لنهاية حب؟ وكأن ما عشناه ما جرى!

مددتُ يدى الثائرة وتلقفتُ بأصابعي طرف الملاءة وأفلتتْ، حاولتُ مرارا. بكيتُ عجزي أن أرفع حتى الغطاء عن وجهها. جاء أحد وسحب الغطاء عن وجهها. هكذا بتلك البســاطة! سلمى!

صرختُ من أعماقي، بح صوتي قبل أن أعيد الصراخ، بت أصرخ صمتًا، أريد لصوتي أن ينتشـر في المسـتشـفى كله، أن يعرف الجميع أن زوجتي وحب عمري ماتت بتلك البسـاطة ولكن تأبى حنجرتي الصراخ.

"يا سلمى! لا"

صــمت، مجرد أفعى تبكي. أقبّل دماءها المتجلطة، أرنو لوجهها المشــوه، أغلقوا عينيها! أردت النظر إليهما ولو للحظة. حاولت أن افتح عينيها ولكن أبتْ يدي.

كدت أحادثها عن أعمار من الفجيعة ولكن جاء عاملين وجذبني ثالث بحزم، غطوا وجه زوجتي وحملوها وذهبوا بها إلى سقيع المشرحة. ستتجمد.

أجلس بجانبها وهي ترتعش.

"تزوجنا، ما أقترفنا إثما، لا ترتجفي"

غبي! كان يجب أن أمارسه معها تلك الليلة مرارًا. خارت رجلاي وأفترشتُ الأرض.

يارب! الهلاك! كيف غفلت عنه؟ أحاط بي وبمن حولي. مريم! وعدتني ألا ترحل وتتركني، لما وعدتني؟ أمسكتُ رأسي أدقها على الحائط بعنف، حب عمري راح وأنا السبب، وعدتني مريم و أخلفتْ بوعدها. ما عدت أدري من أحب بصدق، سلمى زوجتي المتوفاة حديثًا أم مريم الراقدة في العمليات؟

من أحب؟ من أحبني؟ أدق رأسي بجنون حتى أمسكني الأطباء وأعطوني حقنة مهدئ وغفوت.

ضوء ... ليث

74

رننتُ مرارًا على مريم ولم تجب، ثم أغلق الخط! فكرتُ أن أتصل بسلمى ولكن أحجمت أحتراما لأديب. شغلت نفسي قليلًا وما من اتصال!

"ما بك؟"

"لا أدري يا كوثر! مريم لا تجيبني وكذلك أديب"

"ربما مشغولون، لا تنسى أن أديب صار يعمل ومريم تستعد لسفرها"

"معك حق"

"لا بأس إن حادثت سلمى"

رضختُ لأمرها وهاتفتُ سلمى ولم تجب، بدأت اقلق. حادثت أديب مرارًا حتى أجاب.

"أين أنت يا أديب؟"

"لستُ أديب يا فندم، أنا طبيب. أخذ الأستاذ أديب حقنة مهدئ و"

"ماله أديب؟"

صرختُ وبدأ الخوف يخنقني.

"للأسف، ماتت زوجه في حادث ومازالت صاحبتها في العمليات وحالتها حرجة"

وقع الهاتف. لم أفهم. من ماتت ومن حالتها حرجة! قطعًا هذا مقلب! وبدأتُ أضحك ثم أختل توازني وسقطت ارضا. جرت كوثر إليّ.

"ماذا حدث؟"

تشبثت بها، أغرقتُ رأسي في صدرها وبلا وعي ضممت ساقيّ كالجنين، صارت تبكي.

"يا غيث ماذا حدث؟"

العويل! ها هو يعود، أبي يُحمل على النعش، مهلًا أنها مريم! لا!

"كفى بكاءًا"

صرتُ أرجوها وأنا مذعور.

"سأهاتف أمي"

شئ من العقل عاد يسيطر على زمام الأمور بعد أن حظيتُ بقدر معقول من الجنون.

"لا أنتظري"

ذهبت من فوري وألقيت الحقائب على الأرض أدس في جوفها أي قطع قماش تقع في يدي.
"ماذا تفعل؟"
"سنعود إلى مصر"

.....

في المطار أهاتف أديب، يجيب بعد عدة مرات طبيب أم ممرضة.
"لم يُفِق بعد"
وأظل على نار، وأغلق الخط! بلا شك نفذت البطارية!
أتصلتُ بأمي.
"أمي، سنعود إلى مصر، سنلقاكِ في المطار بعد ساعات"
لم أترك لها فرصة الرد أو السؤال.
بعد ساعات لم أذق للنوم والصحو فيها طعمًا هبطت بنا الطائرة.
وجدت أمي تقف بذعر، جرت إليها كوثر وضمتها، نظرت إليّ أمي بلهفة وسؤال عن مصائر مبهمة، ضمتني بحنان قبل أي سؤال.
"ماذا حدث يا حبيبى؟ أين أديب هو الآخر؟ أختفت ليلى وسلمى"
لم أتمالك نفسي فأنشجتُ بسرعة.
"عذرًا يا أمي عليّ الذهاب"
ولم أعطها فرصة للرد.

القاهرة

عام 2024

مستشفى القطامية

الساعة : 1:00 مساءًا

وكفت الذكرى عن التدفق، ها هو الآن دافنٌ وجهه بين يديها، يبكي عمره الذي قضـــاه برفقتها. رفع وجهه ومسح بيده على شعرها الوضاء.

ضحكَ باكيًا.

"ها أنا ذا يا حبيبتي قد جئت! بعد كل هذا الغياب يكون هذا لقاؤك؟! ضوؤك هنا!"

أغرقَ وجهها بالقبلات والدموع، ضمَّ رأسها إلى صدره وهمس باكيًا.

"والله أفديك بعمري، والله لو رزقت فوق العمر عمرًا أهديه اليكِ فأنت ألف حياة"

ما إن خرج من المطار حتى هرع إلى أقرب بنك وسـحب أقصـى حد مسـموح من حسـابه المصري في البنك وأخذ تاكسيًا أوصله إلى المستشفى. هرع للسكرتير.

"هناك مريضة جاءت إثر حادث، ليلى مجدي"

أسرع في البحث ودعى الله ألا يكون الموت قد سبقه.

"ليس لدينا مريضة بهذا الإسم"

صاح فيه بعد أن أنهكت أعصابه.

"كيف؟ أكد لي الطبيب أنها هنا"

"يا فندم لا توجد في البيانات مريضة بهذا الإسم"

ثم أهتدى إلى حل آخر.

"أديب أشرف عبد المطلب العوضي"

غرق في الشاشة من جديد.

"يوجد مريض بهذا الإسم، في حجرة رقم"

ما كاد يلفظ الرقم حتى جرى إليه، جاب المســتشــفى كلها حتى عثر عليه. كان راقدًا وساهمًا. جرى إليه.

"أديب!"

لم يتلفت.

"أديب أرجوك حدثني"

لم يجب ولم ينتبه، صار يهزه بعنف بلا فائدة. جاب المستشفى يسأل هذا الطبيب أو ذاك حتى وجد من يعرف جوابًا.

"بلى جائتنا حالتان. واحدة ماتت"

كاد توازنه يختل؛ من غمرة العبث نسى من ماتت ومن عاشت. ماتت مريم! همّ بالسجود تضرعًا لله أن يأخذ روحه.

"والأخرى في غيبوبة"

هتف به.

"أيهما ذات شعر أشقر؟"

جزء من الثانية يحدد مصيرا؛ مصير حياة عاشها وبدأت معها.

"التي في غيبوبة"

حسنٌ حسنٌ. بدأ يحاول أخذ أنفاسه.

"أين هي؟"

تردد الطبيب، كان يريد أخباره عن النفقات ووجوب حضور الأهل.

"من حضرتك؟"

"أنا زوجها"

"زوج من؟"

صاح فيه.

"ليلى! من نجت"

لم يجد الطبيب بُدا من تركه يراها، وألآن هو هنا يرنو إلى عينيها فلا تفتحان.

ماتت في لحظات قصار، لحظات صارت عمرًا يتساءل في أي مصحة ستتكفل برعاية جنونه، كيف ستسمى حياة التي يوجد فيها من غيرها وكيف يستسيغ لقبه كأرمل؛ لقب سخيف سيلازمه مجدِدًا نعيه لزوجته.

دقات قلبها على الجهاز وهذا الصمت الصاخب يهلك عقله وانتبه لفظاعة الأمر؛ دقات قلبها تهلكه! هي الدليل الباقي على حياتها!

كيف يارب! مجرد توقف القلب عن الدق يصـير صـاحبه ميتًا؟ أمر بسـيط كهذا يقرر الإنسان حيًا أم ميتًا!

كانت من النقاء والطهر أن تستحيل كل تلك السمات والإنفعالات والتخبطات والمعقدات والمعتقدات والذكريات والحب والخيبات والندوب، و، و. إلى عدم! أن تتلاشـى فقط لأن القلب توقف!

كيف ترحلين كيف بعد كل ذلك الكفاح والسعي لكل منا؟ تمتم بهدوء يائس.

"أحبك"

وأكمل هو هذه المرة باقي الجملة.

"وحق سكناكِ في قلبي"

عليه بالإسـراع. ولكن لما الإسـراع! يخشـى مقابلة والدتها، ولكن حياة أبنتها على المحك فلتذهب الخلافات الى الجحيم، لن يترك مطرحه هنا.

جفل على صوت الممرضة تناديه.

"الطبيب يريدك"

ترك قبلة شوق على جبين المسجاة على الفراش وتبع الممرضة.

"حضرتك زوج المريضة؟"

"بلى"

"من فضلك، أدلنا بأي معلومات عن السيدتين"

"ماذا تعني؟"

"السيد أديب منذ أصيب بالصدمة لا يتحدث ولا يدلي بأي معلومة"

"وكيف لم تهتدوا بهوية أحد؟. مهلًا، تخبرني أن ما من أحد بعد أديب قد جاء!"

"بلى، هذا ما حاولنا أخبارك به ولكنك كنت ثائرًا. أرجوك تحمل ما سأقول"

وسكت لثوان كما تعلّم الأطباء.

"قطعا تعلم أن مدام أديب توفيت، اسـتطعنا أن نخرج طفلتها حيتين بمعجزة، ظلّتا في الحضانة ولكن حالتهما الآن لا تستدعي بقاءهما فيها، لم تسجل ولادتهما بعد و"

"أحضرهما لي رجاءا"

"حسـنٌ ولكن قبل ذلك أعذرني، يجب أن تدفع نفقات الغرف والعملية ويجب أن يأتي أهل الجثة كي يدفنوها، كنا على وشك اليأس ودفنها في مقابر الصدقة"

يا هول ما اسمع!

"أرجوك قدني إلى الحسابات"

وقّعتُ على الأوراق بروتينية صماء بعد أن دفعت ثمنًا يرضيهم حتى إشعار آخر. سألتُ الطبيب.

"كيف لم تهتدوا لليلى؟"

"لم يعثر أحد حين أخرجوا السيدتين من السيارة على حقائبهما، يبدو أن أحدهم أنتهز الموقف وسرق أمتعتهما لولا أن عثرنا في جيب مدام أديب على ورقة مدون عليها أسم زوجها ورقمه لكانت الآن في مقابر الصدقة والبنتين في دار للأيتام"

لا لا. هذا كثير!

"أتصلنا بالشرطة كي تأتي من جديد وتحقق. أرجوك أن تتواصل مع الأهالي"

.....

أمسك ليث هاتفه ووجد حماته أتصلت به سبعين مرة على رقمه المصري، بدأ الإتصال. بعد أول رنة.

"ضوء أين كنت! ألحقني"

وبدأت تبكي بحرقة ولم يجد ما يقوله بعد.

"مضت أيام لم تظهر فيها ليلى، أختفتْ هي وسلمى! أخشى أن مكروهًا أصابها، هاتفت والدتك ولم تسعفني، تعالى يا ضوء وأنجدني! وأنجد زوجك!"

"أنا في مصر"

صاحتْ.

"إذن أرجوك أسرع، بحثنا في الأقسام والمستشفيات ولم نجد لهما أثرا. ورقما أديب وسلمى مغلقين. لم يصل أهلها إلى شيء"

"طنط، أنا في المستشفى"

"مستشفى أين؟ ماذا حدث لها؟"

فكر في ما يقول ولكنها صرختْ باكية.

"لا. أبنتي! آه يا ليلى!"

"لا تقلقي يا طنط! ليلى نجت ولكنها في غيبوبة"

سمع باب شقتها يغلق وصوت لهاثها وهي تسعى للمجيء ولم تفق بعد من تلك الثواني التي أحالتها أُمًا مثكولة.

"ماذا حدث لها؟"

"حادثة سيارة"

"يا ربي!"

"أبلغي أهل سلمى، أن عليهم المجيء لإستلام جثتها"

وصمّ سمعه من صدى صراخها.

.....

جاءت والدة مريم وقابلها ضوء، ضمّها وهي تصرخ باكية بإسم أبنتها ولم تمضِ دقائق حتى جاء أبوا سلمى يصرخان باكيين بإسم أبنتهما.

جاءت الشرطة وبدأ التحقيق.

"أيوجد أي عداوة لسلمى؟"

"كلا"

"اي عداوة لليلى؟"

تمتم أهل سلمى بكلا واثقة ولكن سكتت الأم ورنوا إليها بتحفز.

"عمها وحده من يريد إيذاءها ولكنه كان تهديدًا منذ أعوام طويلة"

صاحتْ والدة سلمى.

"ماتت أبنتي بسببكم"

مضت تنتحب ربما لأنها ندمت على إجهاض جنينها الأخير الذي ربما صار الوحيد الذي تبقَى لها، مات أولادها كلهم فما أبأسها!.

"آه يا سلمى! ماتت وأبنتاها"

كاد ليث يخبرها أن أبنتيها في الحضانة تنتظران من يحملهما بين ذراعيه يندبهما على فقدان أمهما ولكنه آثر الصمت؛ فلتنعم بعذاب الموت قليلًا.

ظلّت والدة سلمى تصرخ في وجه حماة ضوء وهي صامتة كالسارق. قال ضوء لوالدة سلمى.

"تظنين أن أبنتك ماتت بسببنا! تصرين على تذكر هذا ونسيتم أنها من وقفت بجانب سلمى وساندتها في محنتها؟"

فصرختْ.

"وكيف هي الآن! الآن هي ميتة"

بعد أن أغلق المحضر قال الظابط.

"من سيستلم الطفلتين"

شهقتْ والدة سلمى وعادت للبكاء، تمالك الأب دموعه.

"هل هما على قيد الحياة؟"

أجاب الظابط أن بلى وهمّت والدة سلمى أن تجوب المستشفى بحثًا عن حفيدتيها ولكن قاطعها والد سلمى ووجه حديثه إلى ليث.

"فضلًا يا بنيّ، استلم البنتين من المستشفى وراعيهما إلى أن نعود"

هتفت والدة سلمى.

"ولكن"

قاطعها صائحًا.

"لدينا الآن أبنة لندفنها"

وأنخرط هو الآخر في عويل حاد.

.....

جاءت الممرضة بخطى مقدسة.

"تفضل"

أمسك الرضيعة وأرتبك، لم يعرف كيف يحمل الأخرى.

"سأجلب سريرًا"

وقبل أن تمضي بالطفلة، شرعت الأخرى بين ذراعي ليث في الصراخ.

"أرضعناها منذ قليل"

أتمّت الممرضة مهمتها النبيلة وتركتهم لفجيعتهم لبعض الوقت. رنا ليث إلى الرضيعة، عيناها أديب ونمشها سلمى.

أقترب ليث بوجهه وطبع قبلة حانية مشفقة على جبين الرضيعة ولكنها لم تهدأ، شعر ليث بنغنشة في قلبه وهو يرقب ذراعيها الصغيرتين تلوحان. أتبحث عن ذراعي أمها؟ أيعلم الرضيع حين يولد ولم يدرك بعد أي معنى أو حس أن له أُما ستحوطه بقلبها؟

ضـم جسـدها إلى صـدره علّ دقات قلبه تشـعرها بالراحة.. سـيربي الطفلة، بات أسـير روحها، لم يذكر حتى أن أباها مازال حيًا وأن جدودها يدفنون أمها الحين.

سيحارب من أجلها، صار أبًا ومازال بكرا!

جلس أمام المسـجاة وأنعدم الهدوء بصـراخ الطفلة، مضـى يسـتحث الطفلة أن يعلو صراخها كي يفيق الغائبة.

أراد تمالك زمام أحزانه فأبت دموعه، أتنفض وجلا حين مسـت ذراعاه يد، وجد أم ليلى تربت على كتفه.

"تحبك بجنون!"

نظر إلى المسجاة.

"أعلم ذلك"

صمت قصير فكسره قائلًا.

"انا آسف. على كل ألمٍ تكبدتِه بسبب ما أجرمت في حق مريم"

أوقفته راجية.

"لا تقل ذلك"

أحضرت كرسيًا وجلست. زفرت واسترسلت في حديثها ساهمة عن دقات الجهاز وصراخ الطفلة.

"ما صلح حالها إلا حين عرفتك، ما عرفت ليلى إلا حين أحبتك. خفت عليها وبلات الحب؛ المسـكينة لم تكن تدري أني أعلم منذ بدأت عقدتها. أتظن أني لا أعلم بأمر كرهها لجمالها؟ أني لهذه اللحظة لا أدري شـيئًا عن باروكتها السـوداء وعدسـاتها؟ منذ أول يوم رأيتها تضعها تغطي شقرتها ولم أقدر على مواجهتها. قلت يومًا أو بعض يوم وستملّ ولكن اليوم صار أعوامًا. كل يوم أختلس نظرة قبل ركوبها حافلة المدرسة، أقول ستسهو عن وضعها، وتخرجتْ ولم تسهُ يومًا. مرة سهيتها وأمسكت بالنظارة فوجدت عدساتها زجاجًا بلا قياسـات وأحجمت أيضًـا عن مواجهتها. لكن جاء اليوم الذي لم تضـع الباروكة فيه وقد هجرتْ نظارتها وحكت لي عن ضـوء. فتظن أن مجرد خلاف نجم عن سـوء فهم سيجعلني أكره منقذ أبنتي!"

لم يتمالك ضوء دموعه.

"أحبها، لا استطيع العيش بدونها"

ضمتْ خيرية ليثًا إلى صدرها.

"أتدري ماذا قال الطبيب؟"

رنا إليها كمن تلقف قشة مهترأة، كيف سهى أن يستعلم عن حالتها!

"ستفيق ولكن لا علم لنا متى، ربما الآن وربما بعد أعوام"

أرتعش صوتها.

"ولكنها ستفيق لن تموت؛ هي نائمة حين تستعد للصحو ستصحو"

دقت الممرضـــة على الباب وجلبت الطفلة في ســـريرها وأنتبهت خيرية بعدها لأول مرة إلى الرضيعة بين ذراعي ليث.

"يا حبيبتي!"

حملتها عنه وصارت تهدهدها إلى أن نامت.

"مسكينتان؛ لهما حياة شاقة، وتستعجل البكاء الآن! لما البكاء يا حبيبتي والبكاء آت آت!"

جاء أتصال لخيرية وأجابته ثم صرخة مكتومة وحوقلة. صرخ ليث.

"ماذا حدث؟"

"أصيب أبو سلمى بسكتة قلبية ومات"

وانفجر ليث ضاحكًا، ظنت خيرية أنه جن.

"أهدأ يا ضوء أرجوك!"

هدأ قليلًا وقبل أن يعتذر أنتبها إلى صوت الممرضة اللاهث.

"سيد ليث الطبيب يريدك"

سارع ليث للطبيب.

"ما الأمر؟"

من مرآى الطبيب أدرك أن هناك مصيبة قادمة. كفاه مصائب!

"لم نجد السيد أديب؛ ترك حجرته ولم يره أحد يرحل"

أُسقط في يد ليث، همّ بمهاتفته ولكن أخبره الطبيب أن هاتفه حيث تُرك لم يقرب منه.

"حسنٌ أشكرك"

رغم رغبة عارمة أن يجوب القاهرة بحثًا عنه ولكنه لن يترك ليلى، أفاقت اليوم، غدًا، بعد عام؛ سيظل بجانبها، سيكون أول من تراه بعد أن تفيق.

أديب

75

مشيت بخطى الجنون. ماتت سلمى، وماتت مريم. وإلى الآن لم استقر على حب من فيما. ساقتني ساقاي إلى المصحة، دلفت حجرة سارة خلسة.

وقفت متسمرا. ماذا سيحدث؟ أتساءل ولكن لن أكذب على نفسي فأنا أعلم ماذا سيحدث. خطوت نحوها.

"ما الأمر؟"

"لا تشغلي بالك"

قبلت جبينها ونمت بجانبها، بعد صمت رنوت إليها.

"ألم تشتاقي إلى أمنا؟"

رنت إليّ بألم.

"لا تنكئ جرحًا لن يبرأ فكما ترى لي من البؤس ما يفيض"

"أشتقتُ إليها"

"ماذا بك؟"

هززت كتفيّ.

"لا شيء، فقط توفيت زوجتي ويتمت البنتان"

صرختْ بعينيها.

"بماذا تهذي! ما الذي حدث؟ هل البنتان بخير؟"

ضحكتُ محاولًا خفض صوتي قدر المستطاع.

"الهلاك يا سارة! أما أنتهتِ بعد أنه مرافق لي؛ يغير عليّ من أي حبيب أو قريب، يريدني له وحده. أهلك أهلنا كلهم وأهلك سلمى ومعها مريم"

صرختْ عيناها.

"ماذا حدث؟"

"حادث. توفيت، لحقوا البنتين"

كان في عينيها صراخ وسؤال وألم. أبتسمتُ وهمستُ لها بحنو.

"هدأي من روعك، لستُ بخير ولن أكون، أنا مصطفًى هكذا قالت أمي، على الأقل تبقت لي البنتين! الأمر ليس رهانًا خسرته وتبقى لي من المال ما يكفي! سارة!"

وسدتُ شعرها.

"لن أكون مصطفًى. هيا عليكِ بالذهاب!"

رنت إليّ غير مدركة ما أرمي إليه.

"عبثٌ يا سارة! منذ هلك أهلنا كان عبثًا الإستمرار"

أبتسمتُ لها.

"أنت وأنا نعلم أنك لن تتثاءبي حتى"

بدأت تبكي بدموع خرساء.

"يا سارة! انا لا أريد إيلامك، كفانا ألمًا. سينتهي الألم يا سارة. ستسبقيني وسألحق بك في غضون ساعات"

أتسعت عيناها وبدأتْ تلهث راقدة، كانت تستعد.

"لما أضعنا الوقت إذن يا أحمق!"

ضحكتُ، قمت وأتجهتُ نحو المحلول وأخرجتُ من جيب معطفي حقنة الدواء المسكن للألم، للأبد. تجمدتْ يداي على الكيس لثوانٍ ثم غرزت الإبرة في الكيس وأفرغتُ الدواء فيه. أنحنيتُ على رأس سارة وقبلته.

"إلى اللقاء يا سارة! أحبك"

"وأنا أيضًا. لا تتأخر"

وخرجتُ من الغرفة مسرعًا متسللًا.

.....

دخلتُ بيتنا ونمتُ على فراشنا، في زمن حزين والجمهور يصيح طربًا حتى قبل أن يبدأ اللحن.

يبدأ اللحن كأنه شجن الذكرى.

أقشعر جسدي ودمعت عيناي؛ كانت الألحان تنساب بحنين ورقة. يثور الجمهور صياحا ولم تبدأ بعد في الغناء. وأخيرًا تستعد الألحان لغناء أم كلثوم.

أمسكتُ كوب الماء بيدي الثائرة، سقط نصف الماء قبل أن أرتشف منه وأمسكتُ بعلب الدواء. ولكن مهلًا، أمسكت ورقة.

"أنا أديب أشـــرف عبد المطلب العوضـــي وبباقي قواي العقلية ووعيي، أقرأن من ســـتؤول إليه ولاية أمرأبنتاي؛ خلود وســـارة. هما عمتي؛ منى عبد المطلب العوضـــي. وأبنها؛ ليث محمد عمران الباجوري. حيث أن."

وطفقت أخط ما حكته لي سلمى مؤكدا عدم ثقتي برعاية الجدين لهما وتركت القلم. هن بائســـات فلن أزيد بؤســـهما بتربية ســـاديين لهما، لم أعر شـــأنا بجدهما، في النهاية يهمني مصلحة بناتي فقط. المصلحة مصلحة.

لم أرَ البنتين! لم يخطر ببالي! ولكن ما فائدة رؤيتي لهما! في كل الأحوال ســـأرحل، بعد سلمى و مريم. لا شيء يهم.

أمسكتُ بعلب الدواء وأفرغتُ ما بها من أشرطة وبدأتُ في غرف الأقراص بيدي.

ياللي عمرك ما خلفت ميعاد في عمرك!

بكيتُ بهدوء وأنا آخذ كبشة الأقراص تلو الأخرى.

الليلة ديه غبت ليه حيرني أمرك؟

أخرك أيه عني؟

صار بكائي عصيًا مع تنوال الأقراص.

مستحيل الدنيا عني تأخرك.

بالأمل مستني سهران تجيني يا حياتي.

وأسهرك. تعالى! تعالى!

يا ســـلمى! يا أهلي! أخلفتم مواعيدكم مرارًا، فهل رحمتم بي وجئتم لأخذي من هذا العبث المسمى رغبات القدر!

تعالى!

حب العمركله نخلصه حب الليلة ديه.

تعالى!

شوق العمركله نعيشه من القلب الليلة ديه.

عمرٌ ضاع في عبث. محاولة إثر محاولة! ووجد بعد حب!

أنهيتُ الأقراص كلها واستلقيتُ على فراشنا أنتظر، أنتظرهم.

متخليش أشو اقنا لبكرة.

متخليش فرحتنا لبكرة.

كأن أول ليلة.

ليلة للحب الليلة ديه.

وأنتشـيت طربًا. أول ليلة! رغم كل آلامها وكل تأنيب إلا أني أنتشـيت من شـعلتنا؛ رغبتُ ليلتها لو تطول الدقائق بيننا دهرًا؛ نغيب فيه عن كنه الوجود، ننسـى المعارف والأهل والهالكين. فقط نذوب معًا. بدأتْ أنفاسي تضيق.

ياللي عمرك ما خلفت ميعاد في عمرك!

وتخلفتْ عن الميعاد. رحلتْ، لم أمسكْ يدها وهي تصرخ مخاضًا. لم أمسك بنتًا وتمسك **هي بنتًا!**

الليلة ديه غبت ليه حيرني أمرك؟

أخرك إيه عني؟

أشهق وأتعرق بشدة، تهبط أنفاسي لأعماق سحيقة، سأهلكْ. جنة أم نار؟! لا يهم؛ عذابٌ في عذابٌ. الفرق؛ هنا مؤقت وهناك دائم وأنا أعتدت العذاب.

بدأ ذهني يخفت ويتوه. وأنتظر.

كم أحببتُ سـلمى، ليلتنا الأولى وليالينا. ضـربتْ على أوتار العود كأنها تضـرب على أوتار روحي. ما شـعرتُ يومًا أن لي روح! يوم أتفق السـفلة على سجني. كم كرهتُ سجني. كرهتُ نفسي. أتذكر الآن بكائي وأنا في حمامات الإصلاحية!

وأنتظر، أمي. أخبرتني أني مصـطفًى. بأى شـكل! ماتوا، ماتوا كلهم. سـلمى. كانت معها. شعرها كالشمس. أحرقنا.

تثقل جفوني. وأخيرا بدأ دبيب النمل يخفت.

ياللي عمرك ما خلفت ميعاد في عمرك!

أشهد أن لا إله إلا الله. وأن. أن. محمدًا. رسولك. أشهد. أن.

هنا أنير آخر وعي في ذهني.

ورّثتُ لبناتي. أورثتهما اليُتم.

مريم ... ليلى من عالم الغيب.

76

لا أدري ما مضى من مَرِّ الزمان! أختلط الموت بالحياة. لا دليل على الوعي إلا أمواج البحر وذاك الصفير.

وحيدة، يكاد الصفير يصم أذنيّ! صوته كافٍ أن يهشم الزجاج ترابًا، وموج إثر موج، يفصل بينهما عمرٌ أو ثانية. هنا لا أدرى للوقت معنى! لا استطيع الإمساك به ثوانٍ أو قرونًا!

في لحظة كنت في السيارة وتلت بي انقلابها، مصيري المعلق هنا في هذا العالم وقد استحال له لونًا أو مادة.

لاحظت بعد دهر من المسير شيئًا بعيدًا. صار الشيء هداي. يقترب وأقترب. وأقف أمامه. هالة تظهر فيها معالم أطباء، ثم تمضي الأحداث فأرى سيدة مع رضيعها.

ياربي! لو كان بالإمكان أن أقشعر لفعلته لباقي الأمد بي هنا. هذه أمي وأنا رضيعتها!

تصير الرضيعة طفلة ذات جمال، ثم شابة تلهب العاطفة وتُربك العاقل، ها هي تقع بين يدي أبيها فريسة ويقع قتيلًا. تحبس الأم، تصرخ الشابة وتظل تصرخ.

هكذا كنتُ إذن! تفيق الفتاة وتحث الخطى وجلة تشهد أمام القاضي. في المدرسة تقع في ضلال الدجال. وها هي تغرق في هلعها حين قرأت الكتاب الأليم!

كنت مستعدة أن أحبه وأصير معبودته فقط لا يموت وأكون القاتلة، أن يبني ثقته في نفسه على حساب كرامتي ولكن يشاء الله أن يهلك الفتى لأحب ضوء ولا أحب سواه.

تركض الفاتنة باكية، هي السبب بل جمالها السبب! ووقعت وجاء الغيث.

توقفي يا شاشة الغيب! أعيدي تلك اللحظة مرارًا حتى أفنى.

أنظر إلى ضوء، أمرض، أطلق، أُرد إلى عصمته، أُشفى، وتنقلب بي السيارة.

وأنتهى كل شيء. عاد الصفير والموج وعادت وحشتي.

أمت أم مازلت أحيا؟ لا تهمني الحياة فقط ضوء من يهمني. وتعود الهالة، تلك العجوز التي أرقّت منامي مرارًا تجلس وتبكي.

"ستحيين، أخبرنى الله بذلك"

رنّت كلمات أمل في أصداء وعيي، أتأمل عنق العجوز فأرى قلادة الهلال!

تلك العجوز هي أنا! لما أبكي! أمت يا غيث؟ ولكن إن بلغت هذا السعي مع الزمن سأنتظر لقاءك يوم الحشر، كل نفس ستقول نفسي نفسي، ولكن أنا سأقول. ضوئي، ضوئي. ستكون همّي حينها، سأجفل حين تخطو على الصراط. و.

بدأ الصفير يهدأ والأمواج تبتعد. ها كل شيء يتلاشى وأتلاشى معه.

رفقًا بك يا ضوئي! لي معك حياة نخوضها حبًا وكفاحا.

القاهرة

عام 2024

مستشفى القطامية

استيقظ ليث على صوتٍ هاتف. صوتها! أنه صوتها!

"مريم!"

وصاحت الأم بها.

"حبيبتي!"

بدأ صوت ليلى يعلو مع كل سؤال.

"ماذا حدث؟ أين انا؟"

تهدئ أمها من روعها.

"لا أفهم. من أنت؟ لا أذكرك. بل من أنا؟ لا أفهم شيئا"

بدأت تصرخ وهرعت الأم خارج الغرفة تنادي طبيبًا، ظل ليث على الكرسي واجمًا يسمع صراخ البنتين وصراخ مريم.

ماتت مريم! راحت. حب العمر أنتهى. يرغب في البكاء ولكن كان الصراخ فوق كل وصف يريد بعض الهدوء للنحيب، تحامل وقام.

"أهدأي من فضلك"

حين وقعت عيناها عليه، هدأ صراخها رويدًا حتى أنتظم نفسها، رنت إلى عينيه وعاد لضوء الأمل فعينها زرقاء صافية كبحر هدأ لمرآى الحبيب.

مدت له يدها وتشبثتْ بها.

"من أنت؟ من أنا؟"

ركع بجانبها وأمسك بيدها وأنخرط في العويل.

نستني! نستنا!

شعر بيدها الأخرى تربت على رأسه، رفعتْ بعدها وجهه.

"من أنت؟"

"لا يهم!"

"بل يهمني"

وجاء الطبيب وخيرية كلاهما يحاول اسـترداد أنفاسـه، وتجمدا لهدوء الأجواء إلا صـراخ البنتين.

هتفتْ خيرية بذهول

"أقسم لك كانت تصرخ"

.....

بعد فحوصات أكد الطبيب أنها فقدت الذاكرة، ربما يدوم فقدانها إياها أعواما ولكن من المؤكد أنه لن يستطيع عقلها إدراك ماضيها هذه الأيام.

جلس ليث في الكافيتيريا وترك الأم تتعرف على أبنتها. البنتان نائمتان في عربتهما بجانبه. تنهد وصار يفكر بحاله دون من نسته ونستها. رن هاتفه.

"ألو"

"لن أظل جاهلة بأمركم جميعًا. ماذا حدث؟"

"أهدأي يا أمي"

رق صوتها حين سمعت صوته المظلم.

"ماذا حدث؟"

بدأ يبكي بهدوء.

"تعرضتْ مريم وسلمى لحادث. ماتت سلمى وأنقذنا البنتين، أختفى أديب وأفاقت مريم، ولكنها نستنا ونستها. ونست كل شيء"

بعد صمت بكت فيه منى أديب وزوجته

"غيث!"

"نعم، لم أخبرك لكي لا يُرهق قلبك"

"وحين تفعل ما فعلتَ أرحتَ هكذا قلبي عليكم"

"أنا حقًا آسف ولكني لم أدرِ ماذا أفعل"

"أهدأ يا غيث! أشـكُر الله أن أنقذ لك مريم. فكر في أديب؛ يا حبيبي لا بد أنه جن بحزنه على سـلمى وبناته، وفكر في أمرك؛ سـتحيا معها حياة جديدة، خُلقتما مرة وأنعم عليك الله أن خلقتما تارة ثانية. لا تنقم يا غيث"

"لا قدرة لي على التفكير"

"سآتي وكثر لرؤيتكم ثم سأذهب إلى القسم للبحث عن أديب، اللهم صبرًا لكربنا!"

أنهى المكالمة، صحتْ أحدى البنتين فحملها وصار يهدهدها.

"البكاء آت آت"

شعر بيد تمس كتفه، التفتَ وكانت ليلى، ابتسمتْ له بود.

"لماذا أنت وحدك؟"

لم يجد ما يقوله، خطت بالعكاز نحو مقعد فسارع بإسنادها وإجلاسها عليه.

"أشكركْ"

وكاد يبكي من جديد؛ تعامله كغريب.

"ما أسمك؟"

تنهد.

"أسمي ليث"

"وما أسمي؟"

تعجب.

"ليلى! ألم تخبرك أمك؟"

"بلى ولكني سمعتك تنادينى مريم فأختلط عليّ الأمر"

أبتسم برثاء.

"كانت لعبة بدأناها حين تعارفنا، اسميتك مريم وأسميتِنى ضوء"

أبتسمتْ.

"ضوء! أسم جميل. يليق بك"

قال بفضول ميت.

"لما؟"

"لأنك مثله نافذ تبعث النور"

أحمر وجهها خجلا، بعد جهد أعترفت.

"حين رأيتك، رأيت عينيك، هدأت"

بدأت شعلة الحديث توقظ سبات غمّه، أكملتْ بصوت خافت خجل.

"وجدتك تبكي وتقطع قلبي عليك ولا أدري بعد من أنا ومن أنت، كل ما أدريه حين ولدت لحظة أن أفقت أني لا أريدك أن تبكي"

"أحبك لو تعلمين يا ليلى!"

"فلنظل على اسم مريم"

أبتسم.

"حسنٌ"

أكملت.

"نسيتك ونسيت من أنا وما كان ولكن حين وقع عليك بصري. كأن قلبي نادى عليك، كأنه يعرفك. حين أخبرتني أمي عن شـخصـي وأني زوجتك كدت أجري إليك لولا عجزي عن السير دون العكاز. لهذا تأخرتُ قليلًا في المجيء"

ثم تذكر ليث ما خطته ليلى في رسالتها الأخيرة.

"لن أنساك حتى لو نسيتُ الوجود ومن فيه، ستظل وحدك من أذكره.

لن أذكرك بعقلي وما فيه من مخزون الأحداث الغابرة. سيذكرك قلبي ويتفتح لك من جديد."

بدأ حزنه يخفت ويتلاشى كلما أندمجا في التعارف.

"لو كان بيدي صدقني لنسيت الكل إلاك"

تنهد قائلا.

"لنا حياة كافية كي أحكي لكِ ما فات"

نفضتْ ذراعيها.

"لا يهم، أنت زوجي وهذا يكفيني. دعنا نعش من جديد دون ذاكرة للأحزان"

أنتبهتْ إلى البنتين.

"أين أمهما؟"

بدأتْ تلاعب أحداهن وقد تدلت سلسلة الهلال من عنقها.

"ماتت"

حملتْ أحداهن بأسىً بالغ.

"وأبوهما؟"

"لا ندري"

"يا ربي!"

"سنربيهم. كانت أمهما سترغب في ذلك. هما أولادنا"

أبتسمتْ وتمتمتْ بخجل.
"يبدو أنني أحبك"
وأكمل بصدق.
"وحق سكناكِ في قلبي"

الخاتمة

القاهرة

أوائل عام 1973

مسرح سينما قصر النيل

دجت القاعة بهمسات الحاضرين، ثاني حفلات الموسم الجديد.

خفتت الأضواء وتركزت على ستار المسرح وتأهبت كاميرات التلفزيون العربي للتخليد، أخذ الحضور في الجلوس استعدادًا للحفل الثاني لرائعة عبد الوهاب الجديدة التي افتتحت بها موسمها الغنائي.

جلس رجل وأمرأته ذات جمال باقٍ ومعهما طفلتهما في الصفوف الأولى.

تجلس أم كلثوم خلف الستار تعتصر منديلها كربًا، لم تعر شأنًا لتعليمات أخيرة.

النهاية آتية آتية، تعتصر منديلها ألما! المرض يفتك بها وربما هي آخر مرة، تخاف أن تسعل فتجرح الباقي من صوتها العذب.

رنتْ للأمام كي ترى من تبقى حيًا من شركاء العمر فاصطدمت عيناها بالستار؛ لأول مرة تراه حاجزًا من أسمنت النكاية!

دقات ثم فتح الستار، تمالكتْ أحزانها حتى وقفت، حيتهم ثم جلستْ. كيف ستظل وقوفًا لساعات تشدو؟

بدأ اللحن تمهيدًا لعمرٍ راح، رغمًا عن الحاضرين تتمايل رؤوسهم طربًا للحن العذب، التفتت للخلف ثم تذكرتْ أنه سبقها وترك خيبته ومأساته جالسة على كرسيه الذي أحتله عازف العود الجديد.

ينساب العزف وتلاحم في لقاء حب أثير. هيئ لها أنها تسمع بكاءا! حاولتْ ألا تعير شأنًا حتى في رفع عينيها للجمهور ولكن غلبها الفضول ورفعت رأسها.

كيف نست أن الحفلة ستصور! الكاميرات في كل ناحية كي تسجل وتشهد العالم كيف شاخت وكيف ستختم مسيرتها!

لم تعر شأنا لأصداء البكاء واستعدت الألحان لوقوف أم كلثوم وانقيادها تحت مَلَكَة صوتها، ولكن رضخت لإصرار الحاضرين وعاد اللحن يعزف من أوله تارة أخرى، هذه المرة لم تقف وتظل وقوفًا حتى تستعد لها الألحان من جديد، ظلّت جالسة.

كم أحبّتْ هذا اللحن وتمنتْ لو غنته حين كانت أصغر سنًا، لحن رائع كهذا يحتاج صوتًا رائعًا مثله.

مازال الحضور والملحنون والنقاد يجاملونها ونحن كلنا نعلم أن الصوت قد شاخ.

وقفت فثارت الأيدي تصفيقًا وصاح الحضور وصاح مجنونها. فلما لا ترى هذا كله، لما حالة الزهد هذه؟

أخذتْ نفسا وهي تعتصر منديلها.

ياللي عمرك ما خلفت ميعاد في عمرك!

كادت أن تبكي مع شدوها.

الليلة ديه غبت ليه حيرني أمرك؟

بدأت تغيب في عالمها الخاص.

ياللي عمرك ما خلفت ميعاد في عمرك!

الليلة ديه غبت ليه حيرني أمرك؟

أخرك إيه عني؟

كانت ألفت في أولى الصفوف تبكي بحرقة وكان زوجها يحاول تهدئتها وأن يلهي أبنتهما عن بكاء أمها..مال المرأة كلما حضرنا ها هنا لأي حفل تبكي!

مستحيل الدنيا عني تأخرك.

بالأمل مستني سهران تجيني يا حياتي.

وأسهرك، تعالى! تعالى!

حاولتْ ألفت أن تكتكم شهقاتها ولم تملك لهما سطوة وكانت نفوذ دموعها أقوى.

تعالى!

حب العمركله نخلصه حب الليلة ديه.

تعالى!

شوق العمركله نعيشه من القلب الليلة ديه.

زاد بكاء ألفت حين تلعثمت أم كلثوم ناسية الكلمات.

كأن أول ليلة.

ليلة للحب الليلة ديه.

وهاج الحضور، كادت ألفت تصرخ فيهم وهم يصيحون طلبًا للإعادة.

أحمقى هم؟ ألا يلحظون بكاءها في الغناء؟ ألا يلحظون الطيف الأســود الحائم حولها؟ كانت تظن أن أم كلثوم في ألم ولكنها كانت في العالم الذي كانت تدخله كل شــهقة عُمْرٍ حين تشدو.

كانت تمشـي في دروب العالم وقد حفل بأحبائها، ها هما الرفيقان زكريا وبيرم يتسـامران، وقصب يدندن على العود للحن جديد. أبي! أمي! أبنتكم تعبة. شيخي أبو العلا! بلى خلعت العقال منذ عقود.

كانت تخطو بخفة كما أول مرة، لم تلحظ أعادتها للمقطع الأول لثالث مرة فضــحكتْ بصفاء صفق له الجمهور.

مضـت تغني وتطرب ويصـفق الجمهور، تعيد وتزيد، في غمرة الطرب تصـير النفس أنانية ترغب في المزيد.

لو كل حب في كل قلب.

أتجمعوا أنا حبي أكتر.

ويايا و أنت بعيد ويايا.

خيال وشوق يزيد ويايا.

وتبكي الفت، أحمرّت جفونها من غمرة الدمع. ياربي ستهلك!

غنت ام كلثوم بوجدان وبكل ما أمتلك صوتها من فرح.

كل شيء حواليا بيفكرني بيك.

كل نور في عينيا فيه ضحكة عينيك.

آدي أبتسـامتك يا حبيبي!

و أنت غايب على الشموع.

و آدى الشموع إللي أبتسامتك نورت فوقها الدموع.

ظلت قرابة السـاعتين تغني وألقت تفاريدها السخية الأخيرة، مضت تناجي الماضي وعبق الغناء الغابر بحنين تودعه.

في المكان ده يا حبيبي!

ياما جينا وياما ضمتنا الليالي.

في المكان نفس المكان ده.

ياما طرنا في العلالي الليلة ديه.

هدأ بكاء الفت وكأن الكلمات تصف أمتنانها بليالي عمرها على المسرح تشدو ويصفق الجمهور، أنهكت اعصابها فلم تعد تحتمل مزيدًا من البكاء. أحاط عبد المطلب ألفت بذراعه يسألها بعد أن هدأت.

"ما بالك؟"

أنهمرت دموعها مجددًا.

"ستهلك!"

ومهما غبت عليّ هتجيني بعد شوية.

آخد أيديك في إيديا وأحضن عينك بعنيا.

ونعيشها ليلة عمر بكل عمر الدنيا.

وتنفست ألفت الصعداء للحظات، صفق الحضور بثورة وأغلق الستار. جلستْ أم كلثوم إعياءا وحسرة؛ تعلم أنها لن تقتحم هذا العالم مجددا.

قامت ألفت.

"خللى بالك على منى لغاية ما أرجع"

هرعتْ خلف الكواليس. كان حافلًا بالمعجبين حول أم كلثوم كلٌ يحييها بحرارة ويدعو لها بالعمر المديد وكانت تتقبل مجاملاتهم بصمت مبتسم، جاء مصور وألتقط لهم صورة قبل الوصلة الأخيرة، ووقفت ألفت بعيدًا كي لا تظهر في صورة واحدة مع الطيف الأسود. أنبتهت أم كلثوم على ألفت وبدا أنها تتذكرها، بدأ الكل في الذهاب إلى مقاعدهم بينما ظلّت ألفت واقفة تنظر لأم كلثوم، جاء أحدهم يخبرها بقرب الوصلة الثانية.

"استنى شوية، تعالي يا بنتي"

صرفت أم كلثوم المصور، أقتربت ألفت وضمتها أم كلثوم، لم يخطر ببال ألفت يومًا أن الآنسة التي تزلزل بصوتها أفئدة الحاضرين ستتكرم وهي في قمة مجدها وتضم معجبة مثلها.

نظرت أم كلثوم لألفت.

"كبرتي والعمر بان عليكي"

ضحكت أم كلثوم.

"عرفت دلوقتي العياط كان جاي منين"

ركعت ألفت تحت قدميها.

"المهم تفضلي معانا يا ست! حسّك وصوتك بالدنيا"

دمعت عينا أم كلثوم.

"خلاص، شكلي قربت"

"مالك يا ست؟"

"إللي خلاكي تيجي الكواليس وتشـــوفيني هو اللي عرّف لـك أنـا مـالي، أنـا قربـت خلاص، وتقريبًا ديه آخر مرة"

تمالكت ألفت دموعها.

"ليه بتقولي كدة؟"

"المرض والسـن، غير كدة كمان كفاية أوي اللي وصلت له، ربنا أداني وزيادة فمش هضيع كل ده، أمشي أحسن وأنا أم كلثوم اللي الناس بتحبها بدل ما أمشي بجُرْسَة"

وضحكت أم كلثوم وتذكرت ألفت فكاهتها.

"أستي."

نادت أم كلثوم مساعدتها.

"احسان!"

همستْ لها أم كلثوم ودخلت احسان وعادت بصندوق.

"ديه حـاجـة مني تفكرك بيـا، طبعًـا جمـب التسـجيلات اللي في الأذاعـة والتلفزيون اللي بالكوم"

ضمتها أم كلثوم مرة أخرى وقبلت ألفت يديها وعلى الباب سألتها ألفت.

"هشوفك تاني؟"

وكان الطيف الأسود واقفًا في نهاية الغرفة، أنتبهت على رد أم كلثوم.

"إن شاء الله"

أخذتْ ألفت الصـندوق ورجعت إلى مقعدها، لم تشـعر بأسـئلة زوجها أين كانت وما هذا الصندوق. فتحته ووجدت منديلا قرمزيًا. أمسكته وأعتصرته تأثرًا.

بدأت الوصـلة الثانية، كانت صـدمة الحاضـرين حين قارب المقطع الأخير على الإنتهاء أن تحشـرج صـوتها وأنكتم. كانت تبكي! أم كلثوم التي كانت تزلزل عروش المسـارح تبكي على المسرح! لم يحدث هذا من قبل!

حاولت أن تستعيد صوتها وعبثًا حاولت، تحشرج صوتها بالبكاء بشدة، كتم الحضور أنفاسه وقررت أم كلثوم أن تلعب لعبتها لآخر مرة.

غيرت الكلمات من يارب توعدهم يارب بيارب وأنصرنا يارب وهتف الحضور دعاءًا علّ الحرب تقوم وننتصر.

أشارت أم كلثوم خفية والجمهور يصفق وهي تختم المقطع بأي طريقة للعامل كي يغلق الستار. وغابت أم كلثوم عن المسرح للأبد.

قامت الفرقة كلها وجلست أم كلثوم على كرسي قصب الخالي وأمسكتْ منديلها وغطت وجهها، وأنخرطتْ في بكاء مرير.

ما بعد الخاتمة

القاهرة

عام 1974

الزمالك،

فيلا أم كلثوم

قادت الخادمة الملحن سيد مكاوي ورفيقًا له يدله على السير إلى حيث تجلس أم كلثوم في صالونها لسماع اللحن وأداء بروفة بسيطة على العود.

"صباح الخير يا ست!"

"صباح النور يا سيد! أتفضل أقعد"

لا تدري ما فائدة المكابرة. أنتهت وأنتهى الأمر! لما تصر الصحف -حين تتحسن صحتها قليلًا- على أنها قريبًا ستعود بأغانٍ جديدة كالتي ستدرب عليها الآن.

بلى كانت ستقيم حفلة لحكم علينا الهوى ولكن لا لم تعد تريد.

"من فضلك يا سيد! عايزة أسجل البروفة ديه"

"بس كده؟ أوي أوي يا ست!"

بدأ المسجل في العمل.

"جاهزة يا ست؟"

أومأت ايجابا وتذكرت أنه لا يبصر فأجابت بإستعدادها.

بدأ سيد مكاوي في العزف وبدأ رأسها يتمايل مع أوتاره.

تنهدتْ، لن تؤديها على المسرح وستؤول لمطربة أخرى. فقط هي تسايرهم، فقد أقترب الأجل.

ما يزيد عن خمسين عامًا من الغناء، إن عادت إلى الوراء ستختار عين ما فعلت ولكن ستخفف من كبريائها الجبار ولا تُهلك عاشقيها قهرًا، سترأف بهم.

تنهدت مع أوتار العود، أنتهت المسيرة وآذنت بالختام. تلك رسالة وداع. تلك البروفة هي آخر هبة من هباتها. فوداعًا.

رفعت يدها وراء أذنها.

أوقاتي بتحلو.

بتحلو معاك.

وحياتي تكمل برضاك.

وبحس بروحي بوجودي.

من أول ما بكون وياك.

كانت أوقاتًا حلوة، وحياة عامرة وملئ بالعطاء.

ويا روحي ساعة ما ألقاك!

مش بس أوقاتي بتحلو.

ديه العيشة والناس والجو.

والدنيا بتضحك لي معاك.

تمت .. أم لم تتم؟

10 سبتمبر 2024

شكر خاص

- أتقدم أولًا بالشكر إلى الكاتبة القديرة والمبدعة "نور عبد المجيد" التي صادفني الحظ الجميل لكي تكون أول من أقرأ له ويؤثر فيّ ويحببني في القراءة ويلقي بذور صدق الشعور ونبل الرسالة في وجداني وأنا بعد مراهق، وأتقدم إليها بالشكر مرة أخرى على تشجيعها الدائم وحثها لي على المثابرة وتصديقها النبيل في موهبتي وكانت أول من صدّق على موهبتي. لك سيدتي كل العرفان وآيات التقدير والمحبة.
- إلى عمرو حسن رجب "نور" الذي تكرم وأمدني باللازم من صحيح المعلومات والأخبار عن تاريخ حياة أم كلثوم ومراجعته لفصول الحفلات الواردة في الرواية وأحتمل سيل الأسئلة التي أمطرتها وبحثه وتحرّي صدق المعلومات التي كنا بصدد البحث عنها.
- إلى كريم أشرف جادالحق، أبن خالي، الذي ظل كلما ألتقينا يستمع إليّ بإهتمام منبهر على كل حادثة جديدة خلقها خيالي لأبطال الرواية.
- إلى د. راقية الدويك والأستاذ عماد العادلي، الذين نهانني إلى الطريق الصحيح لمسار الكتابة الخلاقة وأعصمانني -رأفة بي- من أخطاء قد تعوقني كثيرًا فيما بعد.
- إلى د. رضا رفعت الذي ساعدني في نشر بعض كتاباتي كتمهيد لرحلتي الأدبية. والأستذ علاء حسين، الذي عاونني قدر الإمكان في ترشيحي لأصدقائه الصحفيين ومنهم د. رضا رفعت.
- إلى أبي وأمي وأختي، أحبائي، لولاكم ولولا نشأتكم لي لما كنت، أشكر محبتكم الطاغية لشخصي مهما بدر مني من سهوة أو تقصير، أظل دائمًا طفلهم الحبيب الذي أعشق دائمًا أن أكونه، أحبكم.
- إلى فاتن حسن الرباط، جدتي الحبيبة، التي لم تبخل عليّ يومًا بفائض محبتها ويكفي أني وحدي من يعلم أني حفيدها المفضل، حفظك الله.

ملحوظة

- فصـــول أم كلثوم التي ورد ذكرهـا في الروايـة مســتوحـاة من حفلات بعينهـا وتم المراجعة عليها وعلى دقة التواريخ التي أقيمت فيها، تلك الفصـول وأحداثها الدرامية هي بالتأكيد تخدم التسلسل الدرامي للرواية وقطعًا هي درامية مستوحاة من مسيرة أم كلثوم الحافلة، اللهم ســوى ثلاثة فصــول أحداثها من وحي خيالي ولكنها حدثت بالفعل ولكن في تسجيلات طمرها النسيان والإهمال:

- فصل "كل الأحبة أتنين أتنين" الذي أقيم في سـرادق حديقة قصـر الرحاب بالعراق، بالفعل أقامت أم كلثوم حفلين وتم تسـجيلهما ثم فقـدهمـا، وأنحـاز العـديـد من الآراء أن أم كلثوم غنـت المونولج المذكور في إحدى الحفلين.
- فصـــل "على بلد المحبوب" أحتفالًا بتمصـــير الباخرة الخديوية، بالفعل أقامت أم كلثوم حفلًا عليها ولكن مجهول الوصـلات -للآن- غير مؤكد إذا كان قد سـجل أصـلًا، ولكني قرأت توثيقًا أنها غنت - ضمن ما غنت- هذه الطقطقوقة لذا أمدني خيالي باللازم مع صورة التقطت أثناء الحفل والغناء.
- وأخيرًا، فصـل تسـجيل طقطقوقة "بكرة السـفر" في الأسـتوديو لأغاني فيلم دنانير، وغير معروف ماذا سـجلت أم كلثوم بالضـبط في يوم كذا وما سـجلته بعد ذلك في يوم كذا من عام 1939 وهو العـام المرجح لوقوع الفصـــل نظرًا لعرض الفيلم لأول مرة عـام 1940.

- حين بدأت في رسم شخصية ليث-ضوء وجدتني أسميه ليث وأطلقت عليه لقب غيث وشعرت أني قرأت عن الإسمين قبلًا ولم أذكر متى وأين، حتى بدأتُ من جديد قراءة رواية "ما رواه البحر" لساندرا سراج ووجدتُ أني أحتفظتُ بالإسمين في دهاليز عقلي لما حاولت قراءة تلك الرواية لأول مرة، لذا شعرتُ أنه من الواجب عليّ التنويه أني استوحيت -بلا وعي- الإسمين من أبطال روايتها، ويجب أيضًا شكرها لأني استلهمت أيضًا فصول أم كلثوم من فصل المقدمة لعين روايتها لمّا كتبتْ عن إحياء أم كلثوم حفل "أراك عصيّ الدمع" وهكذا الكاتب يستلم الأدوات من سابقيه كي يبدع بدوره بها ابداعًا يخصه ولا ينسى فضلهم.

كل الشكر والتقدير،
زياد تامر

الفهرس

رغبة اهداء:..... 6
اهداء آخر:..... 7
ما قبل الاستهلال القاهرة عام 1928 مسرح رمسيس..... 8
استهلال القاهرة أواخر عام 1961مسرح حديقة الأزبكية 10
القاهرة عام 2024 مستشفى القطامية الساعة : 10:00 مساءا..... 13
ليث1..... 14
ليث2..... 19
ليث3..... 23
ليث4..... 25
ليث5..... 26
ليث6..... 28
زوجك، منى منى7..... 30
منى8..... 35
منى9..... 38
القاهرةعام 2024 مستشفى القطامية الساعة : 10:45 مساءا..... 49
ليث10..... 50
ليث11..... 52
القاهرة أكتوبر 2018 مصر الجديدة، روكسي 54
القاهرة مصر الجديدة، الكوربة أكتوبر 2018 55
ليث12..... 56
القاهرة مصر الجديدة، الكوربة أكتوبر 2018 59
ليلى13..... 60
ليلى14..... 63
الدقهلية المنصورة2010 65
الدقهلية محكمة جنايات المنصورة2013..... 67
ليلى15..... 73
ليلى16..... 75
ليلى17..... 78
ليلى18..... 83
ليلى19..... 102
ليلى20..... 108

القاهرة عام 1949 مسرح حديقة الأزبكية 114
ليلى21 116
ليلى22 124
القاهرة عام 1955 مسرح حديقة الأزبكية 127
ليلى23 128
ليث24 132
ليث25 138
القاهرة مستشفى كليوباترا مقادير من جفنيك حولن حاليا. 147
ليث26 164
ليث27 169
القاهرة عام 1944 سرادق حديقة نادي الأهلي 173
مريم ... ليلى28 175
القاهرة عام 1938 الجامعة الأمريكية قاعة ايوارت التذكارية 178
ضوء ... ليث29 179
القاهرة عام 1960 مسرح حديقة الأزبكية 184
مريم ... ليلى30 185
ضوء ... ليث31 189
مريم ... ليلى32 193
ضوء ... ليث33 197
القاهرة عام 1947 مسرح حديقة الأزبكية القاهرة مصر الجديدة فبراير 2019 201
ضوء ... ليث34 205
القاهرة عام 1958 مسرح حديقة الأزبكية 209
مريم ... ليلى35 210
القاهرة عام 1939 أستوديو 215
مريم ... ليلى36 217
القاهرة يناير 2020 الساعة 6:30 صباحا 224
أديب37 226
أديب38 236
أديب39 240
جنوب سيناء يناير 2020 الساعة 4:15 250
القاهرة عام 1956 الزمالك، مسرح نادي الضباط. 251
مريم ... ليلى40 252
القاهرة بين عامي 1942 - 1944 مسرح حديقة الأزبكية 258
مريم ... ليلى41 260

العراق بغداد عام 1946 حديقة قصر الرحاب 265
أديب42..... 267
مريم ... ليلى43 273
القاهرة عام 1945 مسرح حديقة الأزبكية..... 276
ضوء ... ليث44..... 278
مريم ... ليلى45 283
القاهرة عام 1949 مسرح حديقة الأزبكية..... 285
القاهرة أواخر ابريل 2020 286
ضوء ... ليث46..... 290
مريم ... ليلى47 293
أديب48..... 295
مريم ... ليلى49 300
القاهرة عام 1951 مسرح سينما ريفولي. 302
مريم ... ليلى50 304
ضوء ... ليث51..... 308
مريم ... ليلى52 313
القاهرة. أوائل عام 1952مسرح حديقة الأزبكية 318
أديب53..... 322
أديب54..... 325
ضوء ... ليث56..... 334
منى57..... 335
القاهرة عام 1944 مسرح حديقة الأزبكية..... 339
ضوء ... ليث58..... 342
مريم ... ليلى59 346
القاهرة أواخر عام 1960 سينما أوبرا 351
مريم ... ليلى60 354
ضوء ... ليث61..... 360
القاهرة عام 1957 مسرح حديقة الأزبكية..... 362
مريم ... ليلى62 364
ضوء ... ليث63..... 371
مريم ... ليلى64 373
القاهرة عام 1938 الجامعة الأمريكية، قاعة إيوارت التذكارية..... 375
ضوء ... ليث65..... 377
مريم ... ليلى66 382

القاهرة أوائل عام 1962 مسرح حديقة الأزبكية 384
مريم ... ليلى67 385
ضوء ... ليث68..... 393
القاهرة عام 1971 مسرح سينما قصر النيل..... 395
مريم ... ليلى69 396
مريم ... ليلى70 400
مريم ... ليلى71 402
أديب72..... 405
القاهرة عام 1937 باخرة محمد على 411
مريم ... ليلى72 413
أديب73..... 417
ضوء ... ليث74..... 421
القاهرة عام 2024 مستشفى القطامية الساعة : 1:00 مساءًا..... 423
أديب75..... 431
مريم ... ليلى من عالم الغيب.76 435
القاهرة عام 2024 مستشفى القطامية 437
الخاتمة 441
القاهرة أوائل عام 1973 مسرح سينما قصر النيل 442
ما بعد الخاتمة..... 448
القاهرة عام 1974الزمالك، فيلا أم كلثوم 449
شكر خاص 451
ملحوظة 452
الفهرس 454